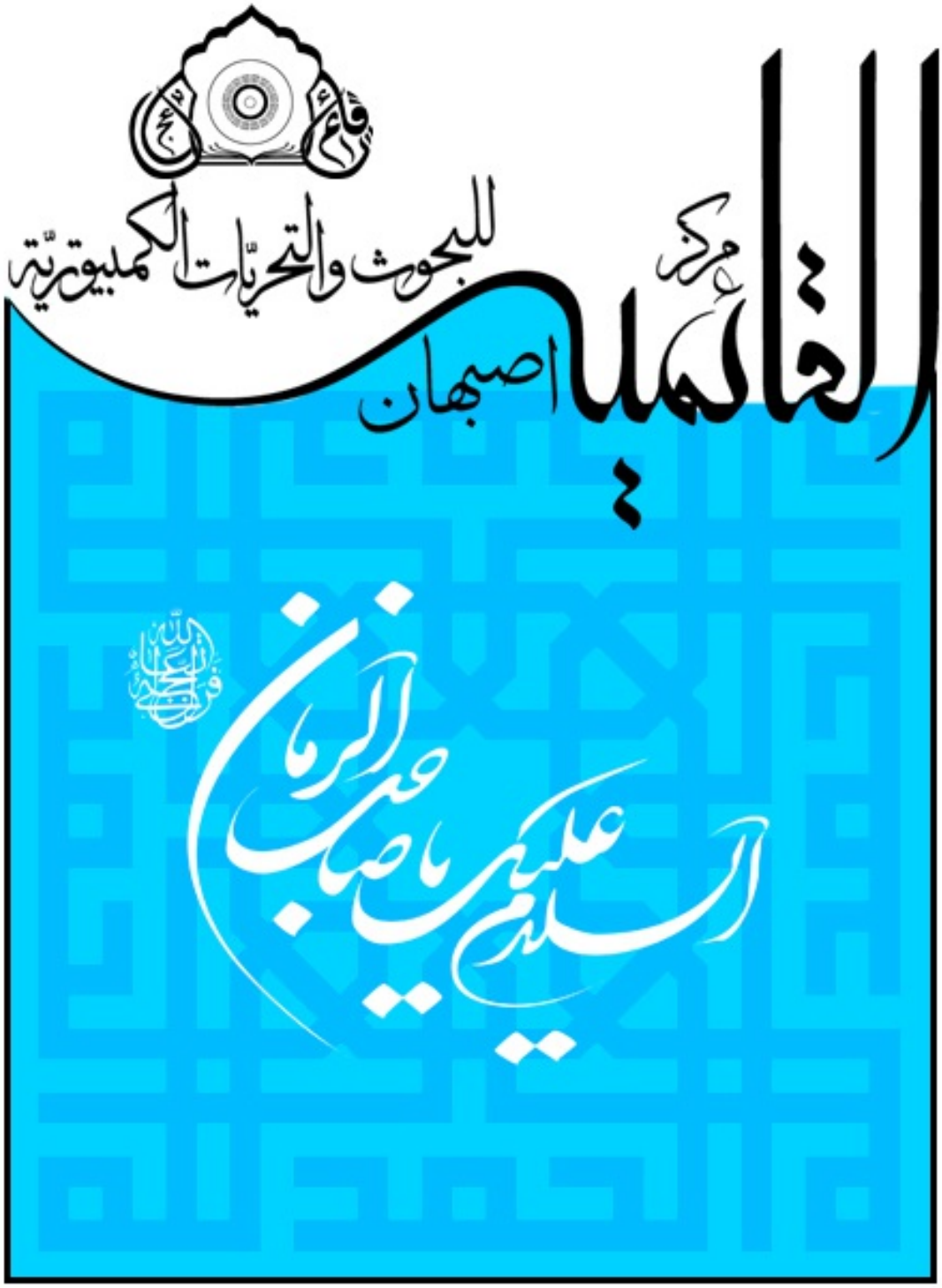

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

المكتبة الصوفية

الرحلة الورثيلانية

الموسومة بنزهة الأنظار
في فضل علم التاريخ والأخبار

تأليف

سيدي الحسين بن محمد الورثيلاني

المجلد الثاني

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

بسم الله الرحمن الرحيم

الرحلة الورثيلانية

كاتب:

حسين بن محمد ورثيلانى

نشرت فى الطباعة:

مكتبة الثقافة الدينية

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
الرحلة الورثيلانية المجلد ۲ ----- ۷
اشارة ----- ۷
[الجزء الثانی] ----- ۷
دخولنا مكة المشرفة زادها اللّه تشريفا و تعظيما و تكريما ----- ۷
اشارة ----- ۷
ذكر المشاهد التی ينبغی للحاج أن يزورها بمكة شرفها اللّه تعالی ----- ۱۷
ذكر من لقيتهم فی الحرم المكی من الأئمة ----- ۲۷
ذكر خروجنا من مكة المشرفة ----- ۳۸
ذكر جبل أحد و ما به أو بطريقه من المساجد النبوية و ذكر مشهد سيد الشهداء حمزة و من معه من الشهداء رضی اللّه تعالی عنهم ----- ۵۴
ذكر الآبار التی ورد أن النبی صلی اللّه عليه و سلم تفل فيها أو شرب من مائها أو توضأ فيها فاكتسبت بذلک فضلا علی غيرها فصارت مقصودة بالزيا
ذكر بعض أودية المدينة التی تسيل إذا كثرت الأمطار فيخرج أهل المدينة للتنزه بها ----- ۷۷
ذكر دخولنا مصر ----- ۹۳
اشارة ----- ۹۳
ذكر الإسكندرية و ما بها من العجائب ----- ۹۶
ذكر من نزل مصر من أولاد آدم عليه الصلاة و السلام ----- ۱۰۱
ذكر من ملک مصر قبل الطوفان ----- ۱۰۲
ذكر من دخل من الأنبياء عليهم الصلاة و السلام مصر ----- ۱۰۲
ذكر عجائب مصر القديمة ----- ۱۰۲
ذكر خروجنا من طرابلس ----- ۱۳۳
ذكر وصولنا إلی تونس ----- ۱۴۴
ذكر دخولنا قسنطينة ----- ۱۵۷
فهرس ----- ۱۷۰

تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة ----------- ۱۷۱

الرحلة الورثيلانية المجلد ۲

اشارة

نام كتاب: الرحلة الورثيلانية

نويسنده: ورثيلانى، حسين بن محمد

تاريخ وفات مؤلف: ۱۱۹۳ ه. ق

موضوع: سفرنامه

زبان: عربى

تعداد جلد: ۲

ناشر: مكتبة الثقافة الدينية

مكان چاپ: قاهره

سال چاپ: ۱۴۲۹ ه. ق

نوبت چاپ: اول

[الجزء الثانى]

دخولنا مكة المشرفة زادها اللّه تشريفا و تعظيما و تكريما

اشارة

فدخلنا مكة فلم تغادر فى النفس ترحة، و أزالت عن الجفون كل فرحة، فدخلناها فى زحمة عظيمة كادت النفوس أن تزهق غير أن سرورها بالوصول إليها خفف بعض الألم بل قد زال التعب و النصب كأن النفوس فى وليمة عظيمة لا يعلمها و ما فيها من الفرح إلا من منحه اللّه بل الأرواح قد تجلى عليها ربها فخرت صعقة مغشية عليها فغيبها عن الأكوان كلها بمشاهدة مكونها و من جملة من غابت عنه هذا الغيب فلم تكترث بما أصابها من الهم و المشقة فلما هب نسيم جوار الحبيب عليها أيقظها و أشهدها رسوم مكان الوصال، و دلائل الحضرة و سواطع الانتقال، فعلمت بيت الرب، و تعلق به الجبح و اللب، سدل كل حبيبت سوى هذا الحبيب وراءه، فأقام كاس الجوار و أداره ، و صار شذاؤها انتظاره، فهبطنا منحدرين إلى أن وصلنا قرب البيت فدخلنا المسجد من باب بنى شيبة، فأفاض اللّه علينا من جوده كرامة و هيبة ، فظفرنا بالأمن و الأمان و السلام من باب السلام.

ثم أقول كما قال شيخنا سيدى أحمد بن ناصر ما نصه فشاهدنا البيت العتيق الذى تزيح أنواره كل ظلام و قد تدلت أستاره، و أشرقت أنواره، و قد شمر البرقع عن أسافله، حتى لا يكاد الطائف يناله بأنامله، يفعلون به ذلك من أول تقدم الوفود، و لا يطلقون أستاره حتى تعود.

قال الإمام أبو سالم و قد قلت فى هذا المعنى، و أبديت فيه تشبيها غريب المبنى:

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۴۵۳ فكأنه لما بدا متشمراو الطائفون به جميعا أحدقوا

ملك همام ناهض للقاء منقد زاره و له إليه تشوق

فتبادر الغلمان رفع ذيولهحتى إذا رجعوا أطلقوا

قال و من رأى أكابر الملوك عند قيامهم، و تشمير الغلمان لفاضل الذيول عن يمينهم و شمالهم، علم غرابة هذا التشبيه و حسن موقعه،

و أنه واقع فی موضعه، و علم ما بینه و بین من شبهه بهند و لیلی، و انه لم یجد و صفا و لم یحسن قولا، فلما وقعت علیه أبصارنا، و افتضح ما أکنت من الشوق إلیه أسرارنا، قطعنا التلبیة لما رأیناه، و قلنا من الدعاء ما رویناه، و تجلت لنا الکعبة الشریفة، و رأینا جماعة الناس بها مطیفة، فیا لذلک المنظر الذی ملأ القلوب مهابة، و العیون جلالة تسکن لها الریاح الهابة، و لما تطوفنا من الجرد قبل ما تطوفنا به عقدا نظیما، رفعنا أیدینا و قلنا اللهم زد هذا البیت تشریفا و تعظیما، بعد أن بسملنا و سلمنا و صلینا و هللنا و طبنا، و للحجر الأسعد یممنا، و لم نقدم علی تقبیله شیئا، و لا التحفنا من ظلال غیره فیئا، و قبلنا یمین اللّه فی أرضه، و الشاهد لمن قبله فی یوم عرضه.

إلی سید الأحجار فی الحرم الذیقضی الخالق البارئ بتعظیم شأنه

حثثنا مطایا الشوق و السوق فی الفلافجاءت بنا إنسان عین زمانه

و طفنا بالبیت سبع طوفات، للقدوم نوینا هذه الحرکات، فأتممناه و لم نبال بما لنا فی تقبیل الأحجار من الازدحام، و المورد العذب کثیر ازدحام، و بعده أوقعنا رکعتین خلف المقام، و عدنا للبیت فوقفنا بالملتزم، و شربنا من ماء زمزم، و دعونا فی ذلک کله بالأدعیة المأثورة، و نظم کلماتها المنثورة، فعاودنا بالحجر بالاستلام، ناوین سنة السعی کما ورد عنه علیه الصلاة و السلام، فخرجنا لقضاء شعیرة السعی من باب الصفا، کما روی عن معدن الصفا، و بدأنا بما اللّه به بدا، فارتقینا علی الصفا، و وقفنا،

الرحلة الورثیلانیة، ج۲، ص: ۴۵۴

و للکعبة الشریفة استقبلنا، فهللنا و کبرنا، فوشینا الصحف بالدعوات المأثورة إلی أن قال و سعینا بین المیلین الأخضرین سعیا رفیقا سدیدا انتهی.

ثم اعلم أننا خیمنا بوادی سیدی أبی طالب و المسجد الحرام و ذلک الوادی تحت أبی قبیس فذهبنا کما سبق إلی المسجد فدخلنا من الباب المذکور، و قلنا الدعاء المأثور، عند رؤیة الکعبة حسبما ذکره شیخنا آنفا فلما دخلنا المسجد بالذکر الوارد فیه قصدنا المطاف لطواف القدوم فبدأنا بتقبیل الحجر مع الزحمة العظیمة من الرجال و النساء فاکتفی الکثیر منا بالتکبیر و معی جماعة کثیرة تکاد أن لا تحصی أطوف بهم علمتهم کیفیة الطواف و من الحجر البدء إلی السبعة الأشواط و کان البدء من الحجر الأسود غیر أن من قبله أمرته بالبدء من مکان یحاذیه و لا یتم الشوط إلا من ذلک المکان الذی به البدء و کذا أمر المقبل للحجر الأسود للرجوع إلیه إذ ربما رجع منه مقهقرا فینقض له الشوط حسبما یفعله الجهال فطفت بهم طوافا کاملا بشروطه و انتفاء موانعه مع الدعاء الوارد فیه أعلمهم إیاه و لما رأی أهل مکة فعلی ذلک تغیروا و قالوا ألم تعلم أن أهل مکة لا ینتظرون إلا هذا الموسم فقالوا طف لنفسک و اترک الناس فقلت أنا أطوف بهم و أعلمهم و انتم خذوا الأجرة منهم فلما کملنا الأشواط السبعة صلینا رکعتین خلف المقام و بعد الفراغ منهما أقمنا بالملتزم لأن الدعاء به مستجاب بعد أن شربنا من ماء زمزم و سألنا اللّه فیه ما شاء اللّه ثم مشینا للحجر قمنا من قبله و منا من کبر عنده لکثرة الزحمة فذهبنا للسعی فی حر عظیم و أزدحام قوی فبدأنا بالصفا و صعدنا درجها إلی أن رأینا لکعبة کما هو السنة فدعونا اللّه بالدعاء الوارد فیها فمررنا کذلک إلی المروة ثم کذلک إلی تمام السبعة فلم نکمل السعی حتی اشتد علی الحال فظننت عدم التمام فکملته راجلا بمنة اللّه و الفضل من السلام لأن محل

الرحلة الورثیلانیة، ج۲، ص: ۴۵۵

السعی محل شوق عظیم و ازدحام عمیم.

و أقول کما قال شیخنا ما نصه و لو أیقظ اللّه الأمراء لمنعوا الناس من التسوق فیه أیام الموسم لکان فی ذلک نفع کثیر و أجر کبیر فلما قضینا الوطر من العسی نزلنا بذلک الوادی ثم أننا أکترینا دارا مع أصحابنا معلومة طریقها و اللّه أعلم من المروة غیر أن أهلی ما دخلوها إلا بعد الرجوع من عرفة و نحن بتنا فی ذلک الوادی أی أهلی و أصحابی و أما أنا فقد بت فی الحرم و اللّه أعلم و بعد ذلک الیوم هو یوم الذهاب فیه لمنی ثم إلی عرفة ثم إلی مزدلفة فی الرجوع.

نعم حین نزلنا مبکة طفنا نهارا أی الرجال و أما أهلی النساء و کذا نساء من یحجب من الرکب أی المخدرات طفن طواف القدوم لیلا

فبعد ذلك اليوم عند صلاة العصر ارتحلنا إلى منى اليوم الثامن من ذى الحجة فانفصلنا عن مكة فى ازدحام عظيم من كثرة الأركاب.

و فى ذلك اليوم قتل لى جملا طيبا قل نظيره سيدى محمد ابن سيدى خروف تلميذى فنزلنا بمنى قرب مسجد على أى استندنا لحائطه من جهة اليمين بينه و بين الجبل الذى فوقه و هذا المسجد الدعاء فيه مقبول مستجاب و ورد فيه فضل عظيم، و ثواب جسيم، و الصلاة فيه كذلك فصلينا فيه المغرب و العشاء و إن بعض الأركاب من المصرى و الشامى و العراقى و المغربى لم يرحل إلى نصف الليل أو الثلث الأول ثم ارتحلوا إلى عرفة فترك الكل الفضيلة و هو النزول هناك إلى شروق الشمس على ذلك الجبل فلما تحرك الكل إلى الرحلة وقع الكلام فى ركبنا بالرحلة ليلا فتشاورنا على المبيت ثم مرة أخرى تحركوا ظنا منهم أن من رحل ليلا ليدرك المبيت فى عرفة لأنها ليلة شكثم أن الجميع ارتحل فارتحلنا. فلما خرجنا من مزدلفة و وصلنا بينها و بين عرفة طلع الفجر أى بين العلمين فوجدنا أكثر الأركاب هناك نائمين أو الكل و اللّه

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۴۵۶

اعلم و بطل ظننا الذى أنهم ارتحلوا ليدركوا الوقوف ليلا فى عرفة فوصلنا ضحى مسجد نمرة الذى ينبغى الجمع بين الظهرين فيه بالقصر و لو لأهل مكة أى لغير أهله فنزلنا ثم كذلك إلى قرب الزوال فاغتسلنا أيضا الوقوف بين ذلك المسجد و مسجد عرفة فامتلأ المسجد ناسا و كذا مراحه و اشتد فيه الحر بحيث لا يقدر أحد أن يضع رجله على الأرض عند الضحى و ورد على رجل ضرير فقيه عظيم يحفظ أكثر الشراح و هو مالكى من جزيرة العرب أعنى البحرين فلما سألته عن أكثر أهلها فقال مالكيون نعم مسائل الفقه كلها أوجلها على طرف لسانه ليس يبغى إلا رضاء اللّه تعالى فجدير على أنه من أهل الفضل و الكمال و وعدنى بالملاقاة بالمسجد الحرام ثانيا فلما حان وقت الظهر صلينا فى زحمة عظيمة يكاد الإنسان أن يموت من شدة الحر و أن العرق علينا يسيل فلا تجد أحدا إلا كاد أن تزهق روحه فصلينا خلف واحد من الأئمة و نوينا القصر و صلى هو بالإتمام من علم منا لما فرغ أعاد جميع أهل بلدنا و هو أننا نوينا القصر و نوى هو الإتمام فلما اختلفنا فى النية بطلت صلاتنا ثم أعدناها جماعة جمعا و قصرا ثم حثثنا مطايانا للوقوف بعرفة إلخ.

فلنرجع إلى ما ذكره شيخنا و نصه و اللّه اعلم بما نال وفد اللّه من الطرب و الفرح، و نسيان العناء و الترح، لما عاينوا تلك المشاهد، و شاهدوا تلك المراسم و المعاهد، فلا ترى إلا ضاجا بالذكر، و صارخا بالدعاء بالسر و الجهر، كما قال قائلهم و للّه دره:

و ما زال وفد اللّه يقصد مكةإلى أن بدا البيت العتيق و ركناه

فضجت وفود اللّه بالذكر و الدعاو كبرت الحجاج حين رأيناه

و قد كادت الأرواح تزهق فرحةلما نحن من عظم السرور شهدناه

تصاحفه الأملاك من كان راكباو تعتنق الماشى إذا تتلقاه

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۴۵۷ و طفنا به سبعا رملنا ثلاثةو أربعة مشيا كما قد وعدناه

كذلك طاف الهاشمى محمدطواف قدوم مثل ما طاف طفناه

و سالت دموع من مآقى جفونناعلى ما مضى من أثم ذنب كسبناه

و نحن ضيوف اللّه جئنا لبيتهنريد القرى نبغى من اللّه حسناه

ينادى بنا أهلا ضيوفى تباشرواو قروا عيونا بالحجيج أضفناه

غدا تنظرون فى جنان خلودكمو ذاك قراكم مع نعيم ذخرناه

فأى قرى يعلو قرانا لضيفناو أى ثواب فوق ما قد أثبناه

و أبدانكم قد طهرت من ذنوبكمو ما كان من رين القلوب غسلناه

و كل مسىء قد أقلنا عثارهو لا وزر إلا عنكم قد وضعناه

و لا نصب إلا و عندى جزاؤهو كل الذى انفقتموه حسبناه

سأعطيكم أضعاف أضعاف ضعفهفطيبوا نفوسا فضلنا قد أفضناه

رفعت لكم ما لم تر العين مثلهو لا علمت نفس ما قد رفعناه

فيا مرحبا بالقادمين لبيتناإليّ حججتم لا لبيت بنيناه

على الجزآ منى المثوبة و الرضىثوابكم يوم الجزآ نتولاه

و جاهى و أجلالى و عزى و رفعتىو جودى و من قد أمّنا ما رددناه

فطيبوا و سروا و أفرحوا و تباشرواو تيهوا و هيموا بابنا قد فتحناه

و لا ذنب إلا قد غفرناه عنكمو ما كان من عيب عليكم سترناه

فهذا الذى نلناه يوم قدومناو أول ضيق للصدور شرحناه

و لما كان اليوم الثامن هو يوم التروية و زالت الشمس طفنا فخرجنا لمنى إذ السنة

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۴۵۸

الخروج وقتئذ بقدر ما يدرك به الظهر كل على قدر حاله فإن المراد بقولهم يدركون بمنى الظهر أى يدركون أواخر الوقت المختار و يكره التراخى عن ذلك إلا لعذر كما يكره التقدم قبل ذلك و من خاف خروج وقت الظهر قبل أن يصل إلى منى صلاها فى الطريق و تردد مالك فى قصره و إتمامه و استحسن سند القصر.

تنبيه الطواف يوم التروية ذكره أبو الحسن قال أبو الحسن فى مناسكه و إذا كان اليوم الثامن و يسمى يوم التروية طاف سبعا بعد الزوال ثم يتوجه إلى منى ملبيا و السنة أن يخرجوا بقدر ما يدركون بمنى الظهر و كذلك ذكره خليل فى مناسكه و نصه ثم إذا كان اليوم الثامن و يسمى يوم التروية فإذا زالت الشمس منه طاف بالبيت سبعا ثم يخرج من مكة إلى منى ملبيا و فى مناسك ابن هلال ابن حبيب و غيره إذا مالت الشمس يوم التروية فطف بالبيت سبعا ثم أركع ثم أخرج إلى منى و كذا فى مناسك ابن فرحون.

و إنما ذكرت هذا لأنا لما أردنا الخروج إلى منى و أنكر بعض أن يكون الطواف وقتئذ عن أهل المذهب و لعله اغتر بما حكاه ابن المنير و الدماميني و ابن حجر عن مالك من أن الحاج لا يتنفل بطواف بعد طواف القدوم حتى يتم حجه فإن ذلك غريب ذكره الخطاب فى مناسكه و مررنا بمسجد العقبة و دخلناه و صلينا فيه و دعونا اللّه تعالى و كان نزولنا بمنى شرقى مسجد الخيف قريبا من بابه الشرقى و صلينا بمسجد الخيف الظهر و كذلك العصر خارج القبة التى التواتر أنها موضع خيمة مولانا على كرم اللّه وجهه.

و اجتمعت هناك بالشيخ محمد أكرم بن الشيخ عبد الرحمن مفتى الهند و هو

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۴۵۹

رجل عالم له تآليف على رجال البخارى و اختصر البخارى فى مجلد خدف الأسانيد و المكرر و هو ضرير كبير السن به مرض ملازم بيته و يوم النحر قدمناه من منى للإفاضة و لما رجعنا إلى منى التقينا محفة و بها رجل كبير مستلقى و لما لحق بنا الأخ الشقيق الصالح سيدى محمد الأخصاصى أخبرنى أنه هو و أخبرنى ولده الشيخ محمد انه شرح نخبة ابن حجر عشرين كراسة و له تأليف فى الرد على الروافض و هو رجل صالح محقق فيما ذكروا و سألناه عن المسافة بيننا و بين الهند فقال أربعون يوما فى البحر و أربعة أشهر أو ستة فى البر و أن بلده هو السند و بينه و بين الهند ثلاثون يوما انتهى.

و لما صلينا العصر و جلسنا فى مناخنا هنيئة إذ أخبرنى بعض أصحابنا أن أهل تونس زعموا أنهم رأوا الهلال ليلة الثلاثين و الراؤن له سبعة أحدهم من طلبة العلم و سألنا عنهم لنستخبر رؤيتهم فنكون على يقين من أمرهم فوجدناهم ذهبوا مع الذاهبين لعرفة لأن الأركاب كلها ذهبت كما هى للجبل و لم ينزل أحد بمنى سوانا و جماعتنا و هذه السنة عياذا باللّه أميتت منذ أزمان.

و قد ذكر ذلك الكثير من المرتحلين كالعبدرى و ابن رشيد و من بعدهما و ذكروا أن الخوف يمنع من المبيت هناك بعد ذهاب الاركاب و قد من اللّه علينا بإحياء هذه السنة و لم تفتنا فى حدة من الحجات و للّه المنة و الحمد و لما طرق أسماعنا ما ذكر من الخبر

عن التونسيين اجتمع رأينا على الذهاب وقتئذ لعرفات فنستيقن الخبر فرحلنا وقتئذ و بلغنا نمرة و قد غاب الشفق و بتنا بإزائها فإذا بخبر الرائين خبر سجاح، ثم اضمحل مدارج الرياح، و لا هدى علينا فى ذلك على ما شهر فى المذهب و نقل التادلى و الجزولى عن ابن العربى انه يلزمه الهدى و لم يحك غيره فى سقوط الدم خلافا و من تورع فليهد و لا حرج عليه فيه و نزل بإزائنا الشيخ عبد القادر بن أبى بكر مفتى

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۴۶۰

الحنفية و أتانى ضحى مع ولدين صغيرين له و سألته عن البناء القائم الآن بمسجد الخيف و نمرة و أخبر انه بناء قايت باى و لما زالت الشمس أفضنا علينا الماء للإحرام و اغتسلنا غسلا خفيفا و تلك سنة هذا الغسل و جمعنا بين الظهرين مع أصحابنا و من انحاز إلينا من أهل الافاق باذانين و بأقامتين و تقدمنا إلى المنوقف و وقفنا تحت الجبل الذى عليه القبة المنسوبة لآدم عليه السلام و الخطيب لم نر له شخصا و لا سمعنا له صوتا و إن لم يكن بالبعد منا لكثرة الازدحام و اختلاط الأصوات، مع اختلاف اللغات، و تباين الرغبات بأصوات التلبية لاشتراك الكل فيها و لا سبيل لأحد إلى تغييرها و وقفنا على إبلنا و أرحنا بغالنا اغتناما لبركة سنة سيدنا محمد صلى اللّه عليه و سلم و لم نزل فى موضعنا ذلك واقفين مستغفرين مكبرين مهللين داعين إلى أن غربت الشمس تحققنا أنا أخذنا جزءا من الليل فإذا الإمام نفر و نفر الناس و نفرنا معهم فى زحمة محفوفة بالألطاف، مصحوبة من اللّه بالمواهب و الإتحاف، و لم نر أحدا نفر قبل ذلك فى سنتنا هذه و إن كانت الجمالون و الأعراب تنفر قبل ذلك فى غير هذه السنة و الحمد للّه على ذلك فانصرفنا بين المأزمين بلا كلفة و لا تعب و لما وصلت إلى الشعب ملت إليه ففعلت كما به فعل سيدنا محمد صلى اللّه عليه و سلم.

ثم سرنى آمّين المصلى بالمزدلفة فبلغناها بعد مغيب الشفق فجمعنا بين العشاءين و نزلنا فبتنا فيها فتفرق للقط الجمار هناك من أراده من الناس قلو شاهدت يا هذا تلك الحال و ما عليه الناس فى جبل عرفات، و وقوفهم بتلك العرصات، لهالك ذلك المشهد الذى هال أمره، و عجز عن وصفه زيد البيان و عمره، إذ ترى الملوك فى مقام الافتقار و الذلة، و الفقراء فى محل الاضطرار و القلة، و الجميع يرغبون فى المغفرة من الرحمان، و يطلبون الرحمة و العفو من العفو الرحيم الحنان المنان:

جاؤا بأحمال أوزار تؤدهم‌منها جبال و حسن الظن و طاها

فسأل لما رأى الرحمان ذلتهم‌طوفان عفو و غفران فغطاها

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۴۶۱

فكم دموع تدفقت، و كم ضلوع تحرقت، و كم نسمات هبت، و كم سحائب رحمة صبت.

فكم حامدكم ذاكركم مسبحو كم مذنب يشكو لمولاه بلواه

و كم خاضع كم خاشع متذللو كم سائل مدّت إلى اللّه كفاه

و ساوى عزيز فى الوقوف ذليلنافكم ثوب ذل فى الوقوف لبسانه

و رب دعانا ناظر لخضوعناخبير عليه بالذى قد أردناه

و لما رأى تلك الدموع التى جرتو طول خشوع مع خضوع خضعناه

تجلى علينا بالمتاب و بالرضىو باهى بنا الأملاك حين وقفناه

و قال انظروا شعثا و غبرا نراهم‌اغثنا أجرنا يا إلاها عبدناه

و قد هجروا أموالهم و ديارهمو أولادهم و الكل يرفع شكواه

إلى فأنى ربهم و مليكهم‌لمن يشتكى المملوك إلا لمولاه

ألا فاشهدوا أنى غفرت ذنوبهم‌ألا فانسخوا ما كان عنهم نسخناه

فقد بدلت تلك المساوى محاسناو ذلك وعد من لدنا فعلناه

فيا صاحبى من مثلنا فى مقامناو من ذا الذى قد نال ما نحن نلناه

على عرفات قد وقفنا بموقف‌به الذنب مغفور و فيه محوناه

و قد أقبل البارى علينا بوجههو قال ابشروا فالعفو فيكم نشرناه

و عنكم سمحنا كل تابعة جرت‌عليكم و أما حقنا قد وهبناه

أقلناكم من كل قد جنيتمو من كان ذا عذر إلينا عذرناه

فيا من عصى من يا أسالو رأيتناو أوزارنا ترمى و يرحمنا اللّه

وددت بان لو كنت حول رحابناو ترجو رحيما كلنا قد رجوناه

و قمنا إليه تائبين من الخطاو غفراننا من ربنا قد طلبناه

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۴۶۲ أمرنا بذاك الظن و اللّه حسبناعليه و هذا فى الحديث نقلناه

عليه اتكلنا و اطمأنت قلوبنالما عنده من وسع عفو عرفناه

فطوبى لمن ذاك المقام مقامهو بشراه فى يوم التغابن بشراه

يرى موقفا فيه الخزائن فتحتو والى علينا اللّه منها عطاياه

و صالح مهجوار و قربت مبعدافذاك مقام الصلح فيه أقمناه

و دارت علينا الكأس بالوصل و الرضى‌سقينا شرابا مثله ما سقيناه

فإن شئت تسقى ما سقينا على الحمافخلّ الونى و احلل محلا حللناه

و فيه بسطنا للرحيم اكفناو قال كفيتم عفونا قد بسطناه

و اعتقنا كلا و اهدر ما مضى‌و قال لنا كل العتاب طويناه

و إبليس مغموم لكثرة ما يرى‌من العتق محقور ذليل خزيناه

على رأسه يحثو التراب مناديابأعوانه ويلاه ذا اليوم ويلاه

و أظهر منه حسرة و ندامةو كل بناء قد بناه هدمناه

تركناه يبكى بعد ما كان ضاحكافكم مذنب من كفه قد سلبناه

و كم من منى نلنا بيوم و قوفناو كم من أسير للمعاصى فككناه

و كم ذا رفعنا للإله مسائلاو لا أحدا ممن نحب نسيناه

و خصصت الأباء و الأهل بالدعاو كم صاحب نودى به و دعوناه

كذا فعل الحجاج هاتيك عادةو ما فعل الحجاج نحن تبعناه

فظل حجيج اللّه لليل واقفافقيل انفروا فالكل منكم قبلناه

فلما سقط قرص الشمس نفرواو كشفوا عن وجوه الاستبشار و اسفروا

الهنا الهناو عدتنا منك الهنا

فإن تجد برحمةفكم مضى عنا العنا

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۴۶۳

و لما أصبحنا بالمزدلفة، و صارت القلوب على حصول الرحمة و المغفرة مؤتلفة، غير مختلفة، و أسفر الفجر عن وجه الغرض، و أدينا من صلاة الصبح الحق المفترض، غلسنا الرحلة، و نادى منادى النقلة.

أفيضوا و أنتم حامدون إلهكم‌إلى مشعر جاء الكتاب بذكراه

و سيروا إليه و اذكروا اللّه عندهذكرنا كما رب العباد هداناه

و وقفنا به إلى الأسفار، و ما تركنا من الدعاء و حميد الأذكار، فسرنا حتى جئنا بطن وادى محسر و هو وادى النار فأسرعنا و حركنا دوابنا و هو أول ما تحاذى البركة الخربة التى على يسارك أن مررت بطريق الأركاب و أنت ذاهب إلى منى حتى تأخذ فى الطلوع إلى منى و ترتفع بك الأرض و بهذا عرفه أعلم أهل عصره بالمناسك خليل المكى المالكى حسبما نقله عنه البلوى فى رحلته إذ سأله عن حده و الإسراع فيه مشروع ذهابا و إيابا فمضينا كما نحن على الطريق الكبرى التى تشقّ منى إلى أن أنينا جمرة العقبة حين الطلوع بعيده و رميناها بسبع حصيات من أسفلها مكبرين مع كل حصاة كما كنا راكبين غير راجلين كما هو السنة عن سيد الأولين و الآخرين، عليه أفضل صلاة المصلين، و أزكة سلام المسلمين، فعدنا لرحالنا و مناخنا، و نحرنا هدايانا، و دعونا لحلاقنا، أخينا و وديدنا الحاج عبد القادر فحلقنا فسرنا إلى مكة فاتيناها على هيئتنا، من ثياب إحرامنا، فطفنا للإفاضة و وجدنا البيت مفتوحا و الناس على ظهره يكسونه و لما قضينا فريضة الطواف، عرض لى و فى المطاف، الأخ الحاج أبو عزة المراكشى و حث على فى الدخول للبيت فامتنعت تأدبا و تعللت له بالزحمة و قال لا زحمة بداخله و هو فارغ منبسط و ما ترى من الزحمة لا يتعدى بابه و لا يتجاوزه الآن و إذا بأمير الحاج المصرى إبراهيم أبو شنب واقف بالباب و خاطبه قائلا أن فلانا ذا واقف بالباب يبتغى الدخول للبيت و أشار إلى و فرح بى و رحب، و هش و اطرب، و تقدمت و أخذ بيدى و أطلعنى من غير كلفة و لا زحمة فدخلت

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۴۶۴

البيت و علانى من الهيبة ما اللّه به عالم فركعت به ركعتين لناحية الباب مواجهه غافلا عن السنة بأن اجعله خلف ظهرى لما علانى من الخجل، و الدهش و الوجل، و دعوت بما أمكننى و حضر لى من الدعوات، معمما و مخصصا أهل المحبة و القرابات، و لم تطل مدة فتحه و إنما يفتحونه هذا اليوم لتعليق الكسوة الجديدة و إزالة العتيقة و ليس بيوم دخول عام و إنما يدخل القيم و أمير الحاج المصرى و أتباعهما المعينين فى ذلك و لا ينصب سلم للدخول و إنما يدخل من تكلف الصعود بمعين أو بخفة أعضاء و على الباب أحد خدام الأمير يمنع الناس من الدخول إلا أن الناس يكاثرونه فإن منعوا من جانب دخلوا من جانب و ربما يتعامى عن البعض و يحصل لكثير من الناس فى ذلك المكان سوء أدب من ضرب و شتم بألفاظ ينزه المكان عنها فألاولى عدم الدخول إلا لمن تيسر له ذلك عفوا و صفحا من غير إيلام و لما دخلت إليه المرة الثانية فى حجتنا هذه إلى أن قال ركعت فيه إلى الجهات و جعلت الباب أولا خلف ظهرى و كبرت فى نواحيه و أجلت النظر فى نواحيه و طوله و عرضه و سمائه و أرضه طلبا للتحقيق و إن كان الأولى خلاف ذلك إلا أن الأمر سهل إن كان لطلب العلم و الوقوف على حقيقة الشىء و لم تزايلنا فى ذلك السكينة و الوقار، و الإعظام و الإكبار، و الإجلال، و الابتهال، و اللّه يغفر لنا و يتقبل.

و أما لطلب التفرج و التنزه فلا بل يستشعر الداخل عظمته و حرمته و روى عن عائشة رضى اللّه عنها أنها قالت عجبا للمرء المسلم إذا دخل الكعبة كيف يرفع بصره قبل السقف ليدع ذلك إجلالا للّه تعالى و إعظاما ما دخل رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم الكعبة فما خالف نظره موضع سجوده حتى خرج منها صلى اللّه عليه و سلم و البيت الآن على ثلاثة أعمدة من العود و نقضوا منها من جهة الحجر مقدار السلم و لما فرغنا من الطواف ركعنا خلف المقام و أكثرنا من شرب ماء زمزم و لم نسع لأنا سعينا أثر طواف القدوم كما هو السنة.

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۴۶۵

تنبيه قال الإمام أبو سالم و كثير من العوام يظن أنه يلزمه سعير آخر أثر الإفاضة و بعض المتفقهة أفتى من لم ينو فرضية القدوم بإعادة السعى اغترارا بظاهر قول المختصر و نوى فرضيته و إلا فدم و التحقيق أن من شروط السعى وقوعه أثر طواف أى طواف كان و كونه فرضا إنام هو واجب يجبر بالدم و لا يلزم منه بطلان السعى و معنى الفرضية كونه يتوقف عليه صحة السعى لا كونه فرضا فى نفسه و هذا القدر يعلمه كل من له أدنى معرفة بالمناسك و إذا كان كذلك فلا إعادة على من سعى أثر طواف القدوم و لو لم يستحضر نية

فرضيته إذ كان عالما بذلك فإن نية الإحرام كافية فى الحج لأنه عبادة واحدة و لا يشترط فيه إفراد نية لكل جزء منه كالصلاة و تمييز الفرائض من غيرها أمر مختلف فيه فى كونه شرطا فى صحة الصلاة أم لا- و الحج أوسع من الصلاة و لا- إعادة عليه أيضا لو جهل فرضية طواف القدوم لأن الشرط كما تقدم هو وقوعه أثر طواف و هذا واقع أثر طواف فإن كان عالما بالتلازم بينهما فلا دم أيضا إذ ذلك القدر هو المعبر عنه بالفرضية و إلا فدم و هذا ما حققه بعض المشائخ و أدلة ذلك يطول سردها و كثير من المتفقهة لا يحقق المسألة هذا التحقيق و يشغب على الناس بإلزامهم الإعادة و يقول لا بد من إفراد نية لطواف القدوم أنه فرض و إلا بطل السعى و العجب كيف يجعلون نية الفريضة شرطا فى صحة السعى و لا يجعلونها شرطا فى صحة الطواف ذى النية فتكون نية الفرض فى ركن شرطا لركن آخر لا له و الشرط إذا لم يؤثر عدمه فى محله فكيف يؤثر فى محل آخر فشد يدك على ما ذكرنا من التحقيق و لا تلتفت إلى من طريقه التقيد بظواهر ألفاظ المختصر و اللّه تعالى اعلم انتهى كلامه.

قلت و فى مناسك الشيخ يحيى الحطاب أما تقديم طواف صحيح على السعى فقال ابن عبد السلام انه متفق عليه فلو سعى من غير طواف لم يجزه ذلك السعى بلا خلاف و لا يشترط كون ذلك الطواف الذى يتقدمه واجبا بل ذلك من الواجبات

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۴۶۶

التى تجبر بالدم فيجب عليه أن يوقعه إن كان فى حج أثر طواف القدوم أو أثر طواف الإفاضة و إن كان فى عمرة أثر طواف عمرة فإن أوقعه بعد طواف الوداع أو بعد طواف التطوع إعادة ما دام بمكة فإن لم يعاوده حتى بعد عن مكة لزمه الهدى باتفاق انتهى.

و قال والده فى شرح المختصر بعد نقول فعلم مما تقدم أن معنى قول المصنف و نوى فرضيته إلخ أن الطواف الذى يقع بعده السعى يجب أن ينوى فرضيته بأن يكون طواف الإفاضة أو طواف القدوم فى الحج أو طواف العمرة فإن أوقعه بعد طواف لا ينوى فرضيته كطواف الوداع أو طواف تطوع كمن أحرم بالحج من مكة و طاف و سعى فإنه يؤمر بإعادته بعد طواف واجب فإن لم يفعل حتى تباعد فعليه دم و قول المصنف و إلا فدم فيه مسامحة لأن ظاهره أنه لا يؤمر بالإعادة و ليس كذلك.

و لما فرغنا من الطواف و توابعه جلسنا للاستراحة فى أخريات المسجد و اشترينا خبزا و سمنا و عسلا فأكلنا و رجعنا لمنازلنا بمنى و صلينا بها الظهر كما فعل المصطفى صلى اللّه عليه و سلم و قيل إنما صلى الظهر صلى اللّه عليه و سلم بمكة على قول الأكثر و كان نزولنا إزاء ثبير قرب الغار الذى أنزلت فيه و المرسلات على النبى صلى اللّه عليه و سلم و خبره مذكور فى الصحيح و قد بنى عليه بابه محوط شبه مسجد صغير و الناس يقصدونه للصلاة فيه و الدعاء و هو فى أصل جبل ثبير بينه و بين مسجد الخيف رمية حجر و كان نزولنا بهذا المحل إيثارا للقرب من هذا المكان و قرب المسجد مع كونه أنظف و أوسع و استر و أمكن للإنسان فى حاجته و الناس يتحامون من القرب من الجبل تقية من أذى السراق فيستجير بعضهم ببعض و يفرون إلى الدخول فى غمار الناس و لا يبالون بما نالهم فى ذلك من وطء الأقدام و تقطيع الحبال و تعفن الأرجاء و استنشاق الروائح الكريهة و نحن استسهلنا أمر السرقة فى جانب

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۴۶۷

هذه المضار و كذلك فعلنا فى كل ما مضى من الحجات و اللّه يعيدنا إليه الكرات بعد الكرات و قد ذبح بمنى فى ذلك اليوم و الذى بعده من الغنم ما أكسب الغنى و الفقير، و كفى البصير و الضرير، و أغنى الوراد و المستوطن فامتلأت الطرقات و أفنية المنازل باللحم و أما الجلد و الساقط و الأكارع فلا ترى أحدا يأخذها ضيافة اللّه الملك الحق الذى لا يقدر أحد على كفاية الخلق سواه فقد ورد من أفاق الأرض أصناف من الخلق لا- تحصى أغنياء و فقراء فأكل الكل من ضيافة مالكهم و تزودوا ما قدروا و فضل ما أعجز الطير و الوحش و الهوام. قال أبو سالم فاقسم لقد مررت بهذا المكان بعد سنة أو قريبا من ذلك فى قفولى من الطائف فوجدتا فيه عدة كثيرة من الغنم قد يبست جلودها على لحومها و عظامها لم تمس إلى أن صارت مثل الخشب من يبسها و المرجو بل المحقق من كرم الملك الوهاب ذى الطول كما عم وفده بالضيافة المحسوسة التى صيرت الفقير كالغنى فى أيام الضيافة كذلك أو أعظم منه ضيافته المعنوية بالمغفرة و قبول الدعاء و أجزل المثوبة لعباده فوق ما يخطر بالبال، و ما ينال بقياس و مثال، فما سعدنا به من رب كريم منعم

متفضل وهاب، جواد محسن متطول لا إله إلا هو مالك الملوك و رب الأرباب، و لا يهلك على اللّه إلا هالك نسأله سبحانه أن يعمنا بفضله و كرمه، و يتحفنا برضوانه، و يعاملنا بإحسانه، آمين و بتنا بمنى تلك الليلة فى نعمة كاملة، و رحمة من اللّه شاملة، و انقضى ذلك النهار و قد عيدنا، و علينا مناسك الحج و شيدنا، و فوق أمانينا أعطينا.

بلغت يا نفسى المنى فى منى و قد أزال اللّه عنك العنا

فاستنفدى وسعك فى حمدهو شيدى منك بناء الثنا

ثم فى الغد عمرت الأسواق، و كثرت الأنفاق، و أخرجت البضائع ذوات

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۴۶۸

الأثمان و صنوف التجارات و تزاحم الناس على الشراء رجاء بركة ذلك المكان فى ذلك الزمان و أكثر التجار يقولون إن من اشترى شيئا من منى و جعله فى تجارته وجد بركته، و ظهرت له ثمرته، و لا يبعد ذلك فانه موسم شريف، و محل بركة و تشريف، يأتيه الناس من كل فج عميق ليشهروا منافع لهم و يذكروا اسم اللّه فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام، و قد عمهم اللّه فيه من أمر دنياهم و أخراهم بغاية الإنعام، و لما زالت الشمس توضأنا فخرجنا لرمى الجمار من غير تراخ و لا توان مبتدئين بالأولى التى تلى مسجد الخيف ثم بالوسطى و ختمنا بالعقبة فوقفنا أثر الأولين بقدر الإمكان، مجتهدين فى الدعاء لنا و لعامة المسلمين و خاصتهم و سائر الأحبة و الإخوان، و ما نسينا أحدا فى ذلك المكان.

و لما كانت الليلة الثانية من ليالى منى بالغ أهل مصر و أهل الشام فى إيقاد المصابيح و أتخاذ المصانع منها و صور الأشجار و الأخبية و إكثار الرمى بالمدافع و البنادق و المحارق المرتفعة فى الجو و فى ذلك نزهة للأبصار، و تسلية للأفكار، و مجال للاتعاظ و الأذكار، و القبول و الإنكار، فنزل جميع أصناف العباد، و حشر إليه عمار البلاد، فهو أجمل الأنديه، و مبانيه أحسن الأبنية، تشرق فى النهار فساطيطه المؤنقة، و بالليل مصابيحه المشرقة.

قال الإمام أبو سالم و بالجملة فليالى منى غرر فى أوجه الزمان، و مواسم فرح و سرور لأهل الإيمان، و مناهل رحمة و مغفرة من اللّه و رضوان، و محال بركة و عافية و أمان، يتجلى فيها الحق لوفده بصفة الجمال، جزاء على رضاه قبل ذلك بتجلى الجلال، فهناك يستصغر المرء ما قاسى فى طريقه من الشدائد، فى جنب ما حصل له من النعيم و الفوائد، انتهى.

فلما أصبح الناس فى اليوم الثالث أخذوا فى الرحيل متعجلين، فمن تعجل فى

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۴۶۹

يومين، فلا- آثم عليه، و من تأخر فلا آثم عليه، لمن اتقى و تعجلت الأركاب و طويت الأخبية، و نقضت القبب و الأبنية، و لم يبق إلا جماعتنا و بعض أهل البصرة و الإحسا نزلوا تحت الجبل، على بعد منا و لواء السلطان المكى تعجل، و كان من عادته إلا يتعجل، و بتنا وحدنا و لم نر و الحمد للّه بأسا و بتنا آمنين أين ما كنا و اللّه يختم بخير و اغتنمنا الصلاة بمسجد الخيف فى هذا اليوم منفردين بعمارته دون غيرنا من أهل الأفاق.

نكتة و هذا المسجد أعنى مسجد الخيف يسمى مسجد على قيل أن على بن أبى طالب رضى اللّه عنه أول من بناه و هو موضع منزل النبى صلى اللّه عليه و سلم و أصحابه رضى اللّه عنهم فى حجة الوداع.

قال الإمام أبو سالم و طول هذا المسجد من المحراب إلى الباب الذى يقابله أربعمائة قدم و عرضه ثلاثمائة و أربعون و بوسط المسجد قبة مثمنة كل ثمن منها أربع و عشرون قدما و رأيت فى بعض التواريخ أن فى محل هذه القبة كان فسطاط النبى صلى اللّه عليه و سلم و صحن هذا المسجد كبير إذ المسقف من مقدمه نحو أربعة من الصفوف و من سائر الجوانب غير مسقف قال و قد رأيت قبل هذا فى إحدى سوارى هذا المسجد مكتوبا ما أظن أن صورته هذا:

أيها الغائبون باللّه جودوا لغريب بدعوة إن قدمتم

كان من قبل هاهنا مثل ما قدكتم حاضرا كما قد حضرتم

و تحته مكتوب ما نصه :

قد حضرنا بذا المكان و غبتمو شهدنا به كما قد شهدتم

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۴۷۰ و ذكرناكم بكل جميلفاذكرونا بمثله إن حضرتم

و وجدت فى سارية أخرى بيتا مفردا و هو:

إن فى الجنة نهرا من لبنلعلى و حسين و حسن

قال و قد صدق قائله إلا أنه تشم منه رائحة التشيع و إن هذا النهر خاص بهم رضى اللّه عنهم و بمن والاهم دون غيرهم من الصحابة رضى اللّه عنهم و هو مذهب الرافضة و مذهبنا معشر أهل السنة أنه لهم و لغيرهم من الصحابة و صالحى الأمة رضى اللّه عن جميعهم و جعلنا ممن أحسن من تابعيهم آمين انتهى.

و لما زالت الشمس من اليوم الرابع ارتحلنا من منى و رمينا الجمار بلا زحمة بعد الزوال و أرغمنا انف الشيطان بقذف تلك الحصيات التى تكونت من طينة الوبال.

قد رميت الشيطان فى يوم حجىبجمار بطاعة الرحمان

و عجيب أن لم يكن قد تلظىو هى سبعون جمرة بالعيان

و ملنا إلى مسجد الكبش فزرناه ثم بعده، مسجد العقبة أتيناه، و هو المكان الذى بايع فيه الأنصار رضى اللّه عنهم بيعة العقبة فهو من المساجد المنسوبة إلى النبى صلى اللّه عليه و سلم المتبرك بها و هو معدود من الأماكن التى يستجاب فيها الدعاء و هو فى الشعب تحت جمرة العقبة بيسير على يسارك و أنت ذاهب من مكة إلى منى فسرنا فجئنا المحصب فنزلنا به بإزاء مسجد عائشة فصلينا به الظهر و العصر و المغرب و العشاء و رقدنا رقدة.

ثم ذهبنا للعمرة و أحرمنا بها من التنعيم لتعذر الجعرانة من شدة الخوف و قلة الرفيق بعد أن اغتسلنا لإحرامها هناك مع من لم يغتسل بالمحصب من أصحابنا و اتينا مكة فطفنا و وطىء إنسان على بنصر رجلى اليسرى و لا أظنها إلا انكسرت و أتممت

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۴۷۱

الطواف و أنا أحجل و لم أقبل الحجر مباشرة فى أكثر الأشواط.

هل أنت إلا إصبع دميتو فى سبيل اللّه ما لقيت

و خرجت إلى السعى و سعيت من الصفا إلى المروة و من المروة إلى الصفا على رجلى و تعبت جدا فعجزت عن إتمامه راجلا فأتيت بدابة فركبت و أتممته راكبا و أتيت المنزل الذى اكتريناه و رقدت رقدة و أصحابنا بمكة يوم الجمعة رابع عشر ذى الحجة ثالث فبراير و أقمنا بها بعد قضاء النسك تسعا، و فى هذه المدة فى تلك العرصات نجول و نسعى، و دخلنا البيت الشريف كما قدمنا فتمتعنا بإجالة النظر فى نواحيه، حرصا على تحقيق مبانيه، كما قيل:

و ردّت إلى البيت الحرام وفودناتحن له كالطير حنّ لمأواه

و طفنا طوافا للإفاضة حولهو لذنا به بعد الجمار وزرناه

و من بعد ما زرنا دخلناه دخلةكأنا دخلنا الخلد حين دخلناه

و نلنا أمان اللّه عند دخولهكما أخبر القرآن فيما قرأناه

فيا منزلا قد كان أبرك منزلنزلناه فى الدنيا و بيت وطئناه

ترى حجة أخرى إليه و دخلةو ذاك على رب الورى نتمناه

و إخواننا ما كان أحلى دخولناإليه و لبثنا فى حماه لبثناه

و إخواننا اوحشتمونا هنالكمفيا ليتكم معنا أوان حققناه

نطوف به و اللّه يحصى طوافناليسقط عنا ما نسينا و احصاه

و بالحجر الميمون لذنا فإنهلرب السما فى الأرض للخلق يمناه

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۴۷۲ نقبله من حبنا لإلاهنافكم لثمة طول الطواف لثمناه

على لثمة للشعث و الغبر رحمةفكم اشعث أغبر قد رحمناه

و ذاك لنا يوم القيامة شاهدو فيه لنا عقد و عهد عهدناه

و نستلم الركن اليمانى رحمة و نستغفر المولى إذا ما لمسناه

و ملتزم فيه التزامنا لربناعهودا و عفو اللّه فيه لزمناه

و كم موقف فيه يجاب لنا الدعادعونا به و الفضل فيه نويناه

و لما قضينا للإله مناسكاذكرناه و المطلوب منه سألناه

فمن طالب حظا لدنياه ما لهخلاق بأخراه إذا اللّه لاقاه

و من طالب حسنى بدنيا لدينه و حسنى بأخراه و ذاك يوفاه

و آخر لا يبغى من اللّه حاجةسوى نظرة فى وجهه يوم يلقاه

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۴۷۳

ذكر المشاهد التى ينبغى للحاج أن يزورها بمكة شرفها اللّه تعالى

منها الدار التى ولد فيها سيدنا محمد صلى اللّه عليه و سلم و قد اتخذت الآن مسجدا و مزارا عظيما تفد إليه الوفود من كل ناحية أيام المولد النبوى هذا على ما علم مما وقع من الاختلاق فى كتب السير فى مولده صلى اللّه عليه و سلم هل هو بمكة أو بالأنواء و على انه بمكة فقيل بالشعب و قيل بالمحصب إلى غير ذلك من الأقوال و لا أدرى من أين أخذ الناس تعيين هذا المحل بالخصوص اللهم إلا أن يثبت أن تلك دار والده صلى اللّه عليه و سلم فيترجح القول بأنه فى مكة بقضية عادية و هى أن ولادة الإنسان فى الغالب فى منزل والده و أن أريد بالشعب شعب أبى طالب الذى انحاز إليه مع بنى هاشم و بنى المطلب فى قضية الصحيفة فلا يبعد ذلك لأن هذه الدار قريبة من الشعب من أسفله و العجب أنهم عينوا محلا من الدار مقدار مضجع و قالوا انه موضع ولادته صلى اللّه عليه و سلم.

قال شيخنا أبو سالم و يبعد عندى كل البعد تقييد ذلك من طريق صحيح أو ضعيف لما تقدم من الخلاف فى كونه بمكة أو غيرها و على القول بأنه فيها ففى أى شعابها و على القول بتعيين هذا الشعب ففى أى الدور و على القول بتعيين الدار فيبعد كل البعد تعيين الموضع من الدار، بعد مرور الأزمان و الإعصار، و انقطاع الآثار، و الولادة وقعت فى زمان الجاهلية و ليس هناك من يعتنى بحفظ الأمكنة لا سيما مع عدم تعلق غرض لهم بذلك و بعد مجىء الإسلام فقد علم من حال الصحابة و تابعيهم ضعف اعتنائهم بالتقييد بالأماكن التى لم يتعلق بها عمل شرعى لصرف اعتنائهم رضى اللّه عنهم لما هو أهم من حفظ الشريعة و الذب عنها بالسنان و اللسان و كان ذلك هو السبب فى خفاء كثير من الآثار الواقعة فى الإسلام و من مساجده عليه الصلاة و السلام و مواضع غزواته و مدفن كثير من أصحابه مع وقوع ذلك فى

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۴۷۴

المشاهد الجليلة فما بالك بما وقع فى الجاهلية لا سيما ما لا يكاد أن يحضره أحد إلا من وقع له كمولد على رضى اللّه عنه و مولد عمر و مولد فاطمة رضى اللّه تعالى عن جميعهم فهذه أماكن مشهورة عند أهل مكة فيقولون هذا مولد فلان و ذلك مولد فلان و فى ذلك من البعد أبعد من تعيين مولده صلى اللّه عليه و سلم لوقوع كثير من الآيات ليلة مولده صلى اللّه عليه و سلم فقد يتنبه بعض

الناس لـذلك بسبب ما ظهر من الآيات و إن كانوا أهل جاهلية و أما مولد غيره ممن ولد فى ذلك العصـر فتكاد العادة أن تقطع بعدم معرفته إلا أن يرد خبر عن صاحب الواقعة بنفسه أو أحد أهل بيته و حاصل الأمر أن هذه الأماكن اشـتهرت بين الناس فتزار بحسن النية رعاية لتعظيم قدر من أضـيفت إليه صـلى اللّه عليه و سـلم فليستحضر الزائر فى قلبه عظمة من نسبت إليه الأمكنة و عظمة تلك النسبة و لا يشغل قلبه بصحة النسبة و ضعفها لوجودها فى الخارج و لو عدمت فى نفس الأمر لرعاية تعظيم الموجودة على النسبة له أثر كبير فى الجلب و الـدفع نسـأل اللّه تبارك و تعالى أن يجعلنا ممن يعظم حرماته و شـعائره تعظيما يوافق أمره و من المزارات أيضا مولـد فاطمة رضـى اللّه عنها و النفس أميل إلى صـحة هذا المكان أكثر من غيره و منها البيت البيت الذى سـكنه سـيدنا رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم مع السـيدة خديجـة رضـى اللّه عنهـا و ولـدت فيه الأولاد و فيه توفيت و لم يزل صـلى اللّه عليه و سـلم مقيما به حتى هاجر و منها مولد على رضـى اللّه عنه و منها دار أبى بكر الصديق رضى اللّه عنه و بقربها حجر فى جدار فيه كأثر المرفق يقال أن مرفق النبى صلى اللّه عليه و سـلم غاصت فيه لما استند إليه و الناس يتمسحون به و يتبركون و منها دار الخيزران عند الصفا فله فيها صلى اللّه عليه و سلم تردد و إقامـة و منها مسـجد العقبـة الـذى بايع فيه رسول اللّه صـلى اللّه عليه و سـلم الجن و منها مسـجد إبراهيم بعرفـة و هو غير الـذى يصلى فيه الإمام و لا يعرف اليوم و منها مسجد الكبش بمنى الذى نزل فيه فداء إسماعيل عليه السلام و منها مسجد بأجياد

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۴۷۵

يقال له المتكأ قيل أنه صـلى اللّه عليه و سـلم اتكأ هناك و منها مسـجد العقبـة حين بايع الأنصار و منها غار جبل ثور الـذى اختفى فيه رسول اللّه صـلى اللّه عليه و سـلم و أبو بكر رضـى اللّه عنه فى هجرتهمـا و صـرح القرآن بـذكره فى قوله تعالى: ثانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُما فِي الْغارِ و جبـل ثور على ثلاثـة أميال من مكـة إذا مر السالك إليه فيما بين الخندمـة و أبى قبيس و هو وراءهما و أما من مر بأسـفل مكة حتى يـدور إليه بأضـعاف ذلك و عليها يسـلك من مر راكبا مع بعدها لتوعر القربية و هو جبل منقطع عن الجبال التى حوله ذاهب فى الهواء مشـرف على كل ما حوله من الجبال مكسو جلالة و مهابة صـعب المرتقى غاية و ارتفاعه فى السماء نحو من ثلاثة أميال و الغار فى أعلاه من الناحية الموالية لمكة و هو من عجائب آثار قدرة إلهه تعالى و له بابان بابه الأصـلى الذى دخل منه النبى صلى اللّه عليه و سلم مع صاحبه أبى بكر رضـى اللّه عنه من ناحية الغرب و هو صغير جدا ملاصق بأرض الغار و هو شق صغير بين صخرتين عرضه نحو ثلاثة أشبار و ارتفاعه أزيد من شبرين.

قال أبو سالم و لقـد خيل لى عند ما رأيته أن أحدا لا يمكنه الدخول منه فأيست من الدخول منه حتى رأيت من هو أعظم منى جثة قد دخل منه فتحاملت و دخلت من ذلك الشق مع مشقة و ترتيب أعضاء من تقدم إحدى اليدين إلى المنكب و إتباع الرأس لها و إرسال اليد الأخرى مع الجنب.

و لقـد طال تعجبى من معرفة الناس بكون غارا واسـعا من داخل فهو إن لم يكن معروفا عندهم قبل ذلك معهودا فالأقرب أنه بالوحى أو إلهام من اللّه تعالى لرسوله صـلى اللّه عليه و سـلم لأن العادة تكاد تقطع بأن مثل ذلك لا يكون كهفا متسعا من داخل إذ هو صخرة واحدة منقطعة عن غيرها منكفئة على أخرى منقورة فى وسـطها قدر قامة الإنسان ارتفاعا وسعة نح العشرة أذرع و لو لا عظم الصخرة و تواتر الخبر

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۴۷۶

بـأنه كـذلك من قـديم الـدهر لتوهم أنها صـخرة نقرت فى وسـطها ثم قلبت على أخرى بصـنع آدمى و أما الباب الأخر فإنه إلى ناحية المشـرق و هـو واسـع يـدخل منه الإنسـان و يخرج كيف يشـاء و زعموا أنه مفتوح بصـنع الآـدمى و أن سـبب فتحه أن شـخصا تكلف الـدخول فلم يقـدر على الخروج و كرهوا تغيير الباب الأصـلى بتوسـعته ففتحوا هـذا الباب من الناحيـة الأخرى لخروج هذا الشـخص و ليدخل منه من لم يقدر على الدخول من الباب الأصلى.

و بإزاء هذا الباب المفتوح مصـطبة محوط عليها بأحجار شبه مسجد مفروش برمل و الناس يصلون فيه و يصلون أيضا فى داخل الغار و

فوق الغار فی قنهٔ الجبل غار کبیر واسع تحت صخرهٔ عظیمهٔ مفتوح من جوانبه محوط علیه بأحجار شبه مسجد آخر یجلس فیه الناس و لا أدری ما أصله و فیه منظر رائق یشرف منه الإنسان علی بلاد کثیرهٔ قال و لم أر فی تلک الناحیهٔ جبلا أعلی منه إلا جبل اکری الذی یصعد منه إلی الطائف.

و قد ذکر بعض من ألف فی أخبار مکهٔ و جبالها أن من زار هذا الغار و کان به حزن آلمه و سأل اللّه إذهابه أذهبه اللّه عنه و لا یحزن بعد ذلک و کأنه اقتبس ذلک من قوله تعالی: إِذْ یَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا. انتهی.

و منها جبل حراء و فضله مشهور و فیه الغار الذی کان رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم یتحنث فیه قبل النبوءهٔ و فیه نزل الوحی أول ما نزل و فیه نزلت سورهٔ اقرأ کما فی الصحیح و هو جبل متوحد بأعلی مکهٔ علی ثلاثهٔ أمیال منها و علی رأس قبهٔ.

قال أبو سالم تری هذه القبهٔ من المسجد الحرام و الغار فی أعلاه من الناحیهٔ الغربیهٔ الموالیهٔ لمکهٔ و هو مع صعوبته قد سویت طریقه و أزیلت الأحجار المتعرضهٔ

الرحلهٔ الورثیلانیهٔ، ج۲، ص: ۴۷۷

من غالب طریقه و بنی ما یحتاج للبناء فیها حتی أن الدابهٔ یمکنها الصعود براکبها إلی أعلاه و فی أعلاه شبه مسجد علی باب القبهٔ یصلی فیه و الغار أسفل من القبهٔ بین صخرات هنالک و هو صغیر جدا یسع ثلاثا أو أربعا فیما أظن و یصلی فیه الناس للبرکهٔ و قد جلسنا هنالک هنیئهٔ و باب الغار متنکب إلی ناحیهٔ الشمال.

قال و قد کنت أسمع قبل هذا و رأیته منصوصا أن الجالس فی الغار یری الکعبهٔ و لذلک اختار النبی صلی اللّه علیه و سلم التحنث فیه لأن النظر إلی البیت عبادهٔ فتجتمع له فیه أنواع العبادات التی لا تکاد تجتمع فیه غیره و هذا لا یصح إلا أن أرید المحل الذی هو فیه فإن البیت قبل أن یتکنفه البنیان العظیم قد یظهر من الخارج و أما من الغار فلا.

قال و أخبرنا شیخنا أبو مهدی أنه خرج ذات مرهٔ للتحنث بهذا الغار و کان یخرج إلیه بهذا القصد قبل ذلک و خرج إلیه فی هذه المرهٔ مع ثلاثهٔ من أصحابه من الهنود و کان اثنان مقیمین معه و الثالث یتردد علیهما بما یحتاجون من ماء و طعام.

قال کان معی بدایهٔ المجتهد للحفید ابن رشد أطالع فیها أحیانا فبینما هو ذات یوم فی الغار و صاحباه فی القبهٔ و الثالث تحت صخرهٔ هنالک إذ عرض فی السماء عارض غیم و برق ثم أرزم الرعد و أتی بأمر هائل ما رأیت مثله قط فلم أشک أنه الموت و لزمت مکانی و طبت نفسا بشرف البقعهٔ فقلت حبذا لقاء اللّه تعالی فی هذا المکان و ألزمت نفسی حضور القلب منتظرا حلول القضاء حتی انکشف ذلک و خرجت من الغار فإذا صاحبای اللذان فی القبهٔ قد ماتا و أحدهما جالس علی هیئته لم یتغیر منه شعرهٔ و الآخر شاقط قد سال الدم من بعض منافذه فلم أر منظرا أهول و لا أفزع من ذلک فالتمست الثالث من أصحابی فوجدته تحت صخرهٔ و قد سلمه اللّه تعالی فبعثته إلی مکهٔ لیعلم أصحابنا فبقیت هنالک وحدی منفردا معهما فی اللیل

الرحلهٔ الورثیلانیهٔ، ج۲، ص: ۴۷۸

فلم أر أمرا أفزع و لا أوحش من ذلک و لا أعظم و اشق علی من الحال التی کنت علیها فی الغار فما جاءنی الناس مع صاحبی حتی کدت أهلک غما فاحتملنا صاحبینا و ذهبنا فمن ذلک الوقت ما رجعت للتحنث إلا أن أذهب زائرا ثم أرجع.

قال أبو سالم و الانفراد عن الناس لا سیما فی المفازات و المغارات البعیدهٔ عن العمران لا یقوی علیه إلا من أید بروح القدس و کانت له همهٔ عالیهٔ و سقطت من قلبه مخافهٔ غیر اللّه تعالی فإن الإنسان دنی الطبع لا یحتمل وحشهٔ الانفراد لا سیما إن نزلت به ملمهٔ و هو منعزل عن الناس فإن عیشه یتکدر و حاله یتغیر و تضیق نفسه و تخرج من معتادها فربما یتلف من ذلک أو یذهب عقله و أما من کان قلبه متعلقا باللّه لا یلتفت إلا إلیه فی السراء و الضراء فذلک هو قرهٔ عینه و لو انطبقت السماء علی الأرض ما زاده ذلک إلا تلذذا بما فیه لأنه فی تلک الحال یقوی تعلقه بربه و انحیاشه إلیه و تنتفی الخواطر المشتتهٔ له فی أودیهٔ الأغیار و أی شیء هو طلبهٔ المرید و بغیته إلا هذه الحال و لذلک قیل مواسم الفاقات أعیاد المریدین.

قال و لا أظن أن شيخنا فى ذلك الوقت كان من أهل هذه الحال لما غلب عليه من محبة العلوم الرسمية و صرف بعض الهمة إليها يدل على ذلك استصحابه لكتاب بداية المجتهد و من كانت هذه حاله و إن كانت محمودة لا يقوى على تحمل واردات القدر الخارجة من باب القهر المتلفقة بمروط الجلال و الهيبة لتعلق قلبه بأمور و خيالات و علوم هى فى الحقيقة و سائل فإذا تجلى الحق بصفة القهر ذهبت الوسائل و حق الحق و بطل ما كانوا يعلمون فيفجأ القلب أمر غير معهود له و لا مألوف و لا متصور قبل ذلك فلا تسأل عما يكابده من ألم الغربة و الوحشة و الخروج عن المألوف نسأل اللّه تعالى أن يثبت قلوبنا و يؤيدها بنور المعرفة عند كل وارد و عند واردات القهر خصوصا و يشهدنا اللطف المصحوب بها و يغرقنا فى بحار التلذذ بمشاهدته

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۴۷۹

حتى لا نحس بذلك و عافيتك أوسع لى يا أرحم الراحمين انتهى.

و منها الجعرانة و هى موضع بين مكة و الطائف و هى إلى مكة أقرب بكثير بينها و بين مكة ثمانية عشر ميلا و منها كانت عمرة النبى صلى اللّه عليه و سلم فى ذى القعدة حين قسم غنائم حنين كما فى الصحيحين و ذكر المحب الطبرى عن الواقدى أن إحرامه صلى اللّه عليه و سلم بالعمرة منها كان ليلة الأربعاء لاثنتى عشرة ليلة بقيت من ذى القعدة.

قال المجب الطبرى و منها يحرم أهل مكة كل عام فى ليلة سابع عشرة من ذى القعدة و ذلك خلاف ما ذكره الواقدى.

قال القاضى تقى الدين الفاسى مؤرخ مكة فى شفاء الغرام و ما ذكره الطبرى يخالف ما أدركنا عليه أهل مكة فإنهم يخرجون من مكة فى اليوم السادس عشر من ذى القعدة و يقيمون السابع عشر بالجعرانة و يصلون المغرب بها ليلة الثامن عشر و يحرمون و يتوجهون إلى مكة و هو يلايم ما ذكره الواقدى.

قال الحطاب و على ما ذكره القاضى تقى الدين أدركنا عمل أهل مكة.

قلت و لا- أدرى متى أنقطع عمل أهل مكة هذا فإنهم الآن لا يحرمون منها و لا تكاد تجد أحدا يعلم أنها من مواقيت العمرة إلا من مارس كتب الفقه و أما العوام فلا يطلقون أسم العمرة إلا على التنعيم و مكانها وادى أفيح كثير العضاه و ماؤه شديد الحلاوة غزير و بها بئران عظيمتان مطويتان بالحجر المنحوت و عنده دوحات عظيمة و على شفير الوادى مكان مسجد يقال أن منه أحرم النبى صلى اللّه عليه و سلم.

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۴۸۰

و من فضائلها ما يروى أنه أحرم منها بالعمرة ثلاثمائة نبى و يقال إن النبى صلى اللّه عليه و سلم فحص موضع مائها بيده المباركة فانبجست فشرب منه و سقى الناس و يقال انه غرز فيه رمحه فنبع و منها مسجد التنعيم حين اعتمرت عائشة رضى اللّه عنها و فى مكة غير هذا من المساجد التى صلى فيها رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و آثار مشهورة عند أهل مكة قد تطاولت عليه الأعصار و وجدنا التنصيص على اشتهارها فى القرون الماضية من كثير من المؤرخين و المرتحلين مع العلم بعدم اشتهارها فى القرن الأول و الثانى و ما يقرب منهما فتزار بالنية المتقدمة و بنية من دخلها و تبرك بها من المسلمين من لدن تلك الأعصار إلى الآن و قد علم اختلاف الأئمة فى القديم و الحديث فى تنذه هذه الآثار و المشاهد التى لم يرد بها خبر صحيح بمكة و المدينة و القدس و ميل أكثرهم لا سيما المالكية إلى عدمن التقييد بذلك لما علم من شدة حرصه على الإتباع فقد ورد أن سيدنا عبد اللّه بن عمر رضى اللّه عنهما ارتحل إلى المسجد الأقصى فلما دخله لم يزد على أن صلى فيه ركعتين و دعا و رجع من يومه و لم يقف إلى الصخرة و لا إلى غيرها من الآثار و المشاهد الكائنة هناك مع كثرتها إذ لم يصح فى الحديث إلا إتيانه للصلاة فاقتصر على ما صح عنده و لم يعرج على غيره و الكل إن شاء اللّه تعالى مصيب، ففاز من الأجر بأوفر نصيب، قل كل يعمل على شاكلته، و حسن نيته و صفاء طويته.

انعطاف إلى ما كنا بصدده و هو أننا لما صلينا الظهر و العصر فى المسجد المشهور و هو مسجد نمرة توجهنا إلى محل الوقوف و المشاهدة، و مكان التضرع و المساعدة، زاد الاشتياق إلى الجليل، و التعلق بكل حبيب و خليل، فأصاب الناس شدة الحر و الوهج،

حتى كاد أن يذيب الأكباد و المهج، فتفرقت الناس على رفع أحمالها، و سلكت مسالك جمالها، فركب من ركب و مشى الماشى و الغريب، و ساق الإبل كل أجير و نقيب، و قد انفصل الجميع بالتوجه و الأدب، إلى محل الاعتراف و الاغتراف

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۴۸۱

من فيض القرب، و عند ذلك تظهر زفرات المحبين، و لوعة المخبتين و المشتاقين، فحركها ريح السعادة لمأوى الرضى و التوفيق، إن لم يصبها وابل فطل من رضى مولاها بالتحقيق، نعم كادت النفوس ترجع إلى أصولها، و تتنور بنور المعارف فى تنقلاتها، فقذف ما بها ما سكن فيها حين تحرك، و أزعجها تلاقى الأرواح فى ذلك الفلك، ثم القوالب و الأجباح تابعة، و الصفقة السعيدة رابحة، فشمروا لما وصلوا، و أهلوا لما به أهلوا، فدخلنا محل الوقوف بالذل و المهابة، و الروع و الخوف و الإنابة، و الدعاء و التضرع و الاضطرار لتقع الإجابة، فوقفنا راكبين، لسنة نبينا صلى اللّه عليه و سلم و سنة الخلفاء و التابعين، غير أن الركوب على الإبل أفضل، اقتفاء به صلى اللّه عليه و سلم و أجمل، و أنا وقفت على بغلتى و كذا أخى فى اللّه سيدى أحمد الطيب و مثله سويداء القلب سيدى أحمد بن حمود و إنسان غين قلبى سيدى محمد الشريف الطرابلسى و قد وقفنا عند الأحجار قرب الجبل و أما تحت الجبل ففيه الزحمة الكثيرة التى تمنع الإنسان الدعاء فألزمنا الدعاء لأنفسنا سرا و جهرا عموما و خصوصا مجتهدين غير مقصرين لعل اللّه يقضى حوائجنا الظاهرة و الباطنة، و أن يجعل هممنا عالية و نفوسنا كاملة، و أن يطهرها من التعلق بسواه، لتكون مطمئنة به و صاحبها معتصما بمولاه، فألزم الكل التضرع و الابتهال، و اللجأ و الاضطرار و التنقل من حال إلى حال، فعم اللّه الجميع بالعفو و المغفرة و المنة و الأفضال، و كيف لا- و الموسم فيه النبى صلى اللّه عليه و سلم و جميع الأنبياء و من خص بالإرسال، و كذا أهل الوقت من أهل التصريف و الخضر و إلياس و من نعت بالكمال، فاستمر جميعنا إلى تحقق الغروب و الخطيب يخطب، و بدعائه تقضى الحوائج و تنفرج الكرب، ريحانة أو عرفة موضع جود و كرم و رحمة و وسع تعم الحاج و غيره كالمتسوقين و المتنزهين لأنها فيها

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۴۸۲

قوم لا يشقى بهم جليسهم و هو محل عظيم لا يغضب فيه الرب تعالى و إنما ينظر بالرحمة إلى أهل السعادة من أوليائه فتصيب جميع من فيها و أن اللّه يغفر الذنوب الكبائر و الصغائر لأهل عرفة و انه يعطى عنهم التبعات و يتولاهم بالخصوصية و إن الواقف بها يستأنف العمل فهو كيوم ولدته أمه.

و هذا كله نص عليه الفاسى فى شرح دلائل الخيرات و أن الشيخ زروق رجح القول بالتكفير بالحج للصغائر و الكبائر خلافا لا بن عبد البر و من تبعه القائل بأن الكبائر لا تغفر إلا بالتوبة أو بفضل اللّه تعالى لأن التكفير خاص بالصغائر و هذا القول خلاف المعتمد و إن قال بعض انه مجمع عليه لأن من فضل اللّه تعالى أن تغفر الذنوب بأعمال الصالحات و هو من فضل اللّه قطعا إذ لا مانع عقلا و نقلا لا سيما و قد نص عليه غير واحد و انه روى فى ذلك أحاديث صحيحة فلم يبق إلا- الجزم به أو ترجيحه و يعضد هذا ما وقع لنا من المرائى الحسنة التى لا شك فيها إذ لا يمكن إفشاؤها و فى التلويح، ما يغنى عن التصريح، و فى الإشارة، ما يغنى عن العبارة.

ثم أن من فضل اللّه على أنى نزلت على بغلتى و نويت رؤية الخطيب الذى يخطب بها لتعلق همتى به و تاقت نفسى أيضا لسماع كلامه و هو لا تمكن رؤيته لازدحام الناس عليه ربما قاصده أن احتمل المشى إليه و الاجتماع به مات أو أنكسر و ذلك معلوم بالعيان إلا- من سبق إلى مكان قبل اجتماع الجموع فيها فتوجهت إلى موضعه و رأيته فدخلت الصف الذى يليه و الناس حوله بالأعمدة يضربون من يريده فلما توجهت إليه و دخلت من حوله و إذا بالناس تركوا لى ممرا إليه و فرجة لديه إلى آن وصلت إلى الضرابين بالأعمدة فأتى إلى واحد منهم فأخذ بيدى إلى أن بلغ بين إليه و سلمت على ركبته و سمعت كلامه أعنى خطبته و تبسم فى وجهى و انبسط و لم ينقبض و هو رجل شريف كبير السن و كلامه عليه حلاوة و طلاوة يعلوه نور و هو أجمل خلق اللّه قدا

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۴۸۳

و خدا بياضه مشرب بحمرة وسيع الوجه يتلألأ نورا قد شاب فلم تبق فيه شعرة سوداء و اللّه أعلم و لو حواجبه لا يسأم الناظر فيه فعلمت

أن اللّه نور بصيرته و طهر سريرته و أعلى همته فوجدت قلبى حين رأيته بل أخذ مجامع قلبى و ان اللّه أسعدنى برؤيته فلما قضيت مآربى منه رجعت إلى موضعى و اشتغلت بالدعاء إلى أن تحقق الغروب لأخذ جزء من الليل لأنه ركن يبطل الحج بتركه بخلاف الوقوف نهارا فانه واجب يجبر بالدم فنفر جميعنا بعد المغرب و تحقق الأخذ من الليل و الإمام قد نفر قبلنا غير أنه لا يخرج من عرفة إلا بعد تحقق الليل.

نعم قد وجدنا قلوبنا فى ذلك المحل و أننا شاهدنا فيه أمرا عظيما لا يمكن التعبير عنه إذ يعلم الإنسان من حاله آثار الوجود و القرب من الحبيب فعممنا بفضل اللّه تعالى بدعائنا القريب و البعيد و الخالص و العام لأن الوقت واسع فمنّ اللّه تعالى بفضله و كرمه و جوده أن جعلنا من أهل ذلك الموقف فنفرنا راكبين و ماشين بين المغرب و العشاء متفرقين لا يعرف أحد صاحبه إلى أن وصلنا بعد العشاء مزدلفة فحط الجميع رحالهم إذ السنة هو ذاك فجمع اللّه بين المعارف و الأقارب و صلينا المغرب و العشاء إذ السنة التأخير فبتنا هنالك فى نعمة شاملة، و زحمة كاملة، و رفعة عظيمة، فحمدنا اللّه على ذلك، و شكرناه على ما هنالك، فلله الكمال و التمام فلما أصبح اللّه بخير الصباح ظعنا مغسلين كما هو الأثر و السنة و صلينا الصبح و التقطنا الجمار الجميع من الحصا ثم كذلك إلى قرب الأسفار وصلنا المشعر الحرام على أكمل حال و أتمه فوقفنا به وقفة عبد خاضع، و ذليل خاشع، انصدع القل بالشوق إليه، و العشق لديه، فكل من له الفقه التاما نوى بوقوفه منا الوجوب إذ بعض المذاهب يقول بوجوبه و الورع ينوى به الخروج من الخلاف حسبما ذكروا ذلك فى قراءة البسملة فى الفرض ناويا الخروج من الخلاف.

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۴۸۴

فإن قلت قراءة البسملة فى الفرض مع نية الخروج من الخلاف و كذا نية الوجوب بالوقوف بالمعشر الحرام مخالف لمذهب مالك و القائل به ممن يقتدى بما لك فكيف يمكن الجمع بينه و بين هذه المذهب.

قلت لا أشكال فى ذلك و اللّه اعلم لأن مذهب مالك كراهة البسملة و استحباب الوقوف بالمشعر الحرام فما هذا إلا كونه احتياطا مع نفى الخلل بفعل ذلك فالحاصل أن الاحتياط فى الشىء مع كونه غير موجب للخلل فى نفس العبادة هو من قواعد مالك إذ مذهبه مبنى على سد الذرائع و الاحتياط فهو من لازم مذهبه و إن كان ليس صريحا من مذهبه و إنما تكره البسملة فى الفرض إذا نوى أنها آية من الفاتحة جز ما فذلك مكروه على مذهب أمامنا و أما أن نوى الخروج من الخلاف احتياطا فإن مالكا لا يقول بكراهته بل لو سئل لقال بكونه حسنا و كذانية الوجوب فى الوقوف بالمشعر و مثلهما فى الفقه كثير.

فلما وقفنا وجدنا أمير مصر واقفا هناك داعيا مستقبلا المحل المذكور و هو من طرف المزدلفة من جهة منى فسألنا اللّه تعالى فى الوقوف به سؤال مضطر ذليل خاضع و كل من رآنا من الركب وقف معنا و سألنا عن ذلك الموضع فأخبرناهم به و انه يستحب الوقوف عنده و انه من شعائر الحج و من يعظم شعائر اللّه فإنها من تقوى القلوب و وقفنا عنده وقوف قربة و طاعة إلى طلوع الشمس و انتشارها فسألنا اللّه تعالى قبول حجنا و إخلاص سعينا و ربح تجارتنا و زال الحجاب عن سرائرنا و الدخول لحضرة اللّه و التمتع بالنظر لوجه اللّه تعالى و الموت على حسن الخاتمة بمنه و كرمه و أن يجعل البركة فى ذريتنا و أن يرزق الأخذين عنا بالعلوم و المعارف الإلهية و الفتوحات اللدنية و المواهب الربانية و الأخلاق المحمدية و التخلق بأوصاف اللّه تعالى التى يجوز

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۴۸۵

التخلق بها و التعلق بجميع أسمائه و الخروج عن الأكوان بمشاهدة المكون و إتباع الشريعة و نهج الحقيقة و التأدب بالآداب الأشياخ و مواساة الإخوان و موادتهم على لسان الشريعة و النصيحة للأمة المحمدية بان يجعل الكبير أبا و الصغير ابنا و المساوى أخا و تعليم الجاهل بالرحمة و الشفقة و أخذ العلم بالتواضع و حرمة الأولياء و حسن الظن فى جميع المسلمين عند عدم المخالطة و إلا فسوء حتى يظهر خلافه و التسليم للفقراء فيما لم يكن مجمعا عليه و التصديق بأحوال أهل اللّه تعالى من مواجدهم و مواردهم و خرق العادة فى حقهم إذا كان مغلوبا مطلقا أو كان متبعا للسنة هذا و إن المشعر الحرام موضع عظيم لا يكاد يخفى فضله على كل مسلم فضلا عن

الأتقياء.

و لما وصل وقت الأسفار سرنا منه إلى أن وصلنا إلى بطن محسر و كثير من الناس لا يعرفه و قد شغفت بالسؤال عنه فلم أجد من يعرفه بالعيان نعم لما توجهنا إلى الطلوع إلى منى رأينا الناس يسرعون فيه بالمشى فلدناهم فى ذلك فأسرعنا فيه فذلك هو و اللّه اعلم.

قال شيخنا سيدى أحمد بن ناصر ما نصه و هو وادى النار و أسرعنا و حركنا دوابنا و هو من أول ما تحاذى البركة الخربة التى على يسارك أن مررت بطريق الأركاب و أنت ذاهب إلى منى حتى تأخذ فى الطلوع إلى منى و ترتفع بك الأرض و بهذا عرفه أعلم أهل عصره بالمناسك خليل المكى حسبما نقله عنه البلوى فى رحلته إذ سأله عن حده و الإسراع فيه مشروع ذهابا و إيابا فمضينا كما نحن على الطريق الكبرى التى تشق منى إلى أن أتينا جمرة العقبة و رميناها بسبع حصيات من أسفلها مكبرين مع كل حصاة كما كنا راكبين غير راجلين كما هو السنة عن سيد الأولين و الآخرين عليه أفضل صلاة المصلين و أزكى سلام المسلمين انتهى.

انعطاف فسرنا إلى قرب منى فتسارعنا كالناس المسارعين فى وادى النار فعلمت

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۴۸۶

أنه هو و إن لم نعرف الحدود ثم كذلك إلى أن وصلنا جمرة العقبة فرميناها كما قال شيخنا بالتكبير إلخ.

فرجعنا فمن عنده هدى ذبحه ثم حلقنا كما هو السنة ثم ذهبا إلى مكة فى غير وقت الفضيلة و هو قرب العصر لطواف الإفاضة و هو ركن فطفنا ذلك الوقت فوجدنا باب الكعبة مغلقا لأنه يفتح ذلك اليوم غير أنه عند الزوال فمن أسرع أدركه و من لا فلا و نحن أشغلنا أمر الأهل فمنعنا من المشى ذل الوقت غير أن الأركان قد تمت و ان فاتنى الدخول ذلك الوقت فقد دخلناها مرة أخرى و الحمد للّه إذ دخلت فى الليل غير أن الزحمة كثرت على الباب فلما دخلت الكعبة وجدت فيها فسحة عظيمة و هى مملوءة بالناس و الزمان زمان الحر و ركعت ركعتين و جعلت الباب وراء ظهرى ثم ركعتين ركعة لكل جانب منها و قد علانى من الهيبة ما لا يعلم به إلا اللّه فينبغى للإنسان أن يصحبه الإجلال و الهيبة النورانية و العظمة و الابتهال و الخشية و التذلل و المسكنة فيعتقد أنه ضيف ربه و أن الرحمة قريبة منه هناك فلا- ينبغى أيضا النظر إلى السقف إلا للعلم به فيخف الأمر كما ذكره شيخنا المتقدم حاصله يستحب الدخول إليها إلا إذا كانت زحمة فلا يليق دخولها بل تركه أولى هذا كله إذا كان فيه السلامة من الأذية للمسلمين و إلا فيحرم نعم الحال يحمل الإنسان على أكثر من هذا و قد حصل لى عند الدخول أمر عظيم لا أستطيع التعبير عنه إذ ورد على حال عظيم و ابتهال قوى و قد طال بقاؤنا فيها حتى قضينا حوائجنا على التمام و الوفاء فاللّه يتقبل منها و من كل من كان معنا بمنه و كرمه إذ يحدث عند الدخول أمر عظيم لا- يمكن التعبير عنه غير انه لا- ينبغى رفع البصر فيه إلى السقف بل يستشعر الداخل عظمته و حرمته و روى عن عائشة رضى اللّه عنها قالت عجبا للمرء المسلم إذا دخل الكعبة كيف يرفع بصره قبل السقف ليدع ذلك إجلالا و إعظاما دخل رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم الكعبة فما خالف نظره موضع سجوده حتى خرج منها صلى اللّه عليه و سلم.

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۴۸۷

و البيت الآن على ثلاثة أعمدة من العود و نقضوا منه من جهة الحجر مقدار السلم و لما فرغنا من الطواف ركعنا خلف المقام و أكثرنا من شرب ماء زمزم عند ذلك و أنى شربته بنفس اشتياق قذفت منه طعم الحليب السخن و لقد سألت عن ذلك من ظننت فيه الذوق أخبرنى بذلك و لا سعى بعد طواف الإفاضة [لمن قدم السعى عند طواف القدوم و نحن قد سعينا عنده فلا سعى بعد طواف الإفاضة] و كثير من الجهال يعيد السعى و هو عذاب من غير فائدة إذ الأول كاف حاصله أن السعى لا بد و أن يكون بعد طواف و أما كونه بعد طواف واجب فيجبر بالدم و كثير من المتفقهة يعتقد أن من لم ينو الفريضة أعاد السعى كما حكاه الإمام أبو سالم و ليس كذلك إذ شرط صحة السعى أن يكون متوقفا على الطواف و أما كونه واجبا فيجبر بالدم إذ كونه بعد طواف شرط و كونه بعد الفرض واجب فيجبر بالدم فإن من سعى بعد طواف القدوم صح و لو لم يستحضر نية الوجوب لأن نية الإحرام كافية إذ النية عند الأجزاء غير شرط كما فى الصلاة. و بالجملة فإن علم التلازم بين السعى و الطواف فلا دم و إلا فدم إذ الفريضة هى العلم بالتلازم بين السعى و الطواف

إلخ ما ذكره انتهى.

و قد ذكر الشيخ يحى الحطاب و كذا والده فى شرحه على المختصر أن من سعى بعد طواف الوداع أو طواف تطوع يؤمر بإعادته إن كان بمكة و إن تباعد لزمه الهدى و قوله و نوى فرضيته أى فلا بد أن يكون السعى بعد طواف ينوى فرضه كطواف القدوم و طواف الإفاضة هذا معناه و إن كان هذا غير ظاهر منه أنظر الشيخ إبراهيم الشبر خيتى و غيره.

و لما فرغنا من الطواف استرحنا ساعة فى أخريات المسجد بل صلينا المغرب فيه و قد خالفنا السنة لأنه من السنة أن يأتى الإنسان قبل الزوال فيطوف و يرجع و يصلى

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۴۸۸

الظهر بمنى كما هو فعل النبى صلى اللّه عليه و سلم. و قيل إنما صلى الظهر بمكة و كان نزولنا فى منى بسفح الجبل وراء المسجد الكبير قرب مسجد محوط أعنى غارا يشبه المسجد الصغير و الناس يزورونه و يصلون فيه و قد زرته و اللّه اعلم انه الغار الذى نزل فيه و المرسلات و خبره مذكور فى الصحاح و اسم الجبل تبير انظر رحلة شيخنا سيدى أحمد بن ناصر و إنما نزلنا هناك لقرب المسجد و الاستخلاء و التستر و إمكان المشى إلى الجمرات لقلة الخلق فيه و لقد جمع اللّه فيه أصناف الخلاق ما لا يعد و لا يحصى و كذا ما ذبح فى منى من الهدايا فلا تعلم الغنى و الفقير و هى ضيافة عظيمة لا يقدر على القيام بها إلا خالق هؤلاء الخلق لقد كثر اللحم و انتشر حتى استغنى الخاص و العام فضلا عن الفقراء و منى زمان الحاج آية عظيمة تدل على وحدانية اللّه و عظيم كبريائه و كذا مكة إنها متسع الحاج بلغ ما بلغ و كذا مسجدها فانه يسعهم للصلاة و كل ذلك من الخوارق المستمرة إلى قيام الساعة فالسعيد يحصل له اليقين التام و المعرفة الكاملة من اعتبار تلك الجموع و من كفايتها ماء و طعاما و حطبا و علفا وسعة و فواكه و بز التجارة فكيف يتوهم عاقل ثبوت الكمال لغيره تعالى و أنّى يصح لمتكبر أن يقول أنا أو لذى جاه أن يقول قدرت أو لغنى يقول ما ملكت أو ذى سلطان يقول عندى عساكر فلم يبق إلا التوكل على اللّه و الاعتماد عليه فإن العاقل تضمحل نفسه عند رؤية ذلك هيبة و إجلالا و عظمة و حينئذ يرى سطوة البارئ عز و جل فينطق المعتبر قهرا و غلبة بقوله سبحان الملك الخلاق إلا له الخلق و الأمر له الملك و له الحمد هذه الضيافة الحسية ما أشد وسعها إذ الغنى ذلك اليوم إن سخا صار من ملوك الجنة

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۴۸۹

و الفقير صار غنيا فيه فالضيافة المعنوية أعظم لأنها المغفرة الشاملة، و الرحمة التامة، و النعمة العظيمة، و المثوبة القوية، بحيث يكون كل أحد مغفورا له، و منعما عليه و مقربا منه، و محبوبا لديه و آخذا بيده، إذ ما كل موضع من تلك الأماكن الشريفة، إلا له خاصية عظيمة، فى الغفران و الاستجابة و كل ذلك فضل من اللّه تعالى نسأله سبحانه أن يعمنا فضله، و يتحفنا برضوانه، و يعاملنا بإحسانه، و قد انقضى عنا يوم العيد و بتنا تلك الليلة فى منى فى نعمة شاملة، و بركة عظيمة، و علينا منار الحج.

بلغت يا نفسى المنى فى منىو قد أزال اللّه عنك العنا

فاستنفذى وسعك فى حمدهو شيدى منك بناء الثنا

ثم عمرت الأسواق، و كثرت الإنفاق، و أخرجت البضائع ذوات الأثمان و صنوف التجارات و تزاحم الناس على الشراء رجاء بركة ذلك المكان فى ذلك الزمان و أكثر التحار يقولون من اشترى شيئا فى منى و جعله فى تجارته وجد بركته و ظهر له ثمرته و لا يبعد ذلك فانه موسم شريف و محل بركة و تشريف يأتيه الناس من كل فج عميق ليشدوا منافع لهم و يذكروا اسم اللّه فى أيام معدودات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام و قد عمهم اللّه فيه من أمر دنياهم و أخراهم بغاية الإنعام و لما زالت الشمس توضأنا فخرجنا لرمى الجمرات الثلاث بلا مهلة و لا توان مبتدئين بالجمرة الأولى التى تلى مسجد الخيف و وقفنا عندهما وقوفا ظاهرا بينا سائلين اللّه تعالى حوائج الدنيا و الآخرة مبتهلين متضرعين للّه عز و جل إذ المطلوب الوقوف عند الأوليين مقدار سورة البقرة عند الأولى و فى الثانية دون مقدار آل عمران و إن لم نقف كذلك فقد وقفنا قريبا من ذلك عند الأوليين ثم سألنا اللّه الرحمة و العافية و التوفيق لنا و للأحبة

و لجميع المسلمين عامهم و خاصهم لا سيما القريب لنا فى اللّه و فى الدم.

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۴۹۰

قال شيخنا المذكور و لما كانت الليلة الثالثة بالغ أهل مصر و أهل الشام فى إيقاد المشاعل و المصابيح و اتخاذ المصانع منها و صور الأشجار و الأخبية و إكثار الرمى بالمدافع و البنادق و المحارق المرتفعة فى الجو و فى ذلك نزهة للأبصار، و تسلية للأفكار، و مجال للاتعاظ و الأذكار، و القبول و الإنكار، منزل جميع أصناف العباد، و حشر إليه عمار البلاد، فهو أجمل الأندية، و مبانيه أحسن الأبنية، تشرق فى النهار فساطيطه المؤنقة و فى الليل بالمصابيح المشرقة.

قال الإمام أبو سالم و بالجملة فأيام منى غرر فى أوجه الزمان، و مواسم الفرح و سرور لأهل الإيمان، و مناهل رحمة و مغفرة من اللّه و رضوان، و مجال بركة و عافية و أمان، يتجلى فيه الحق لوفده بصفة الجمال، جزاء على رضاهم قبل ذلك بتجلى الجلال، فهنالك يستصغر المرء ما قاساه فى طريقه من الشدائد، فى جنب ما حصل له من النعم و الفوائد، انتهى.

و فى اليوم الثالث أخذ الناس فى الرحيل و التجهيز للانتقال إلى مكة لقوله تعالى:

فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَ مَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقى و تعجلت الأركاب و طويت الأخبية، و نقضوا الأبنية، و فى تلك الأيام لا تقع صلاتنا إلا فى مسجد الخيف الذى نزلنا حذاءه و هو المسمى بمسجد على قيل أن على بن أبى طالب أول من بناه و هو موضع منزل النبى صلى اللّه عليه و سلم و أصحابه رضى اللّه عنهم فى حجة الوداع.

قال الإمام أبو سالم هذا المسجد من المحراب إلى الباب أربعمائة قدم و عرضه ثلاثمائة و أربعون و بوسط المسجد قبة مثمنة كل ثمن منها أربعة و عشرون قدما و رأيت

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۴۹۱

فى بعض التواريخ أن فى محل هذه القبة كان فسطاط النبى صلى اللّه عليه و سلم و صحن هذا المسجد كبير إذ السقف من مقدمه نحو أربعة من الصفوف و من سائر الجوانب غير مسقف قال و قد رأيت قبل هذا فى أحد سوارى هذا المسجد مكتوبا ما أظن أن صورته هكذا:

أيها الغائبون باللّه جودوالغريب بدعوة أن قدمتم

كان ما قبل هاهنا مثل ما قدكنتم حاضرا كما قد حضرتم

و تحته مكتوب ما نصه:

قد حضرنا بذا المكان و غبتمو شهدنا به كما قد شهدتم

و ذكرناكم بكل جميلفاذكرونا بمثله إن حضرتم

و وجدت فى سارية أخرى بيتا مفردا و هو:

إن فى الجنة نهرا من لبنلعلى و حسين و حسن

قال و قد صدق قائله إلا أنه تشم منه رائحة التشيع و ان هذا النهر خاص بهم رضى اللّه عنهم و بمن والاهم دون غيرهم من الصحابة رضى اللّه عنهم و هو مذهب الرافضة و مذهبنا معشر أهل السنة أنه لهم و لغيرهم من الصحابة و صالحى الأمة رضى اللّه عن جميعهم و جعلنا ممن أحسن من تابعيهم آمين انتهى.

فلما رمينا الجمار الثلاث عند الزوال و أرغمنا بها أنف الشيطان. زرنا المساجد أحدها فوق العقبة و لا تعرف ما اسمه و الثانى مسجد فى الشعب و أظنه الذى نص عليه شيخنا فى رحلته و نصه و ملنا إلى مسجد الكبش فزرناه ثم بعد مسجد العقبة أتيناه و هو المكان الذى بايع فيه الأنصار رضى اللّه عنهم بيعة العقبة فهو من المساجد المنسوبة للنبى صلى اللّه عليه و سلم المتبرك بها و هو معدود من الأماكن التى

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۴۹۲

يستجاب الدعاء عنده و هو فى الشعب تحت الجمرة بيسير على يسارك و أنت ذاهب من مكة إلى منى قال فسرنا فجئنا المحصب فنزلنا بإزاء مسجد عائشة و صلينا الظهر و العصر و المغرب و العشاء و رقدنا رقدة ثم ذهبنا إلى العمرة و أحرمنا لها من التنعيم لتعذر الجعرانة من شدة الخوف و قلة الرفيق انتهى.

هذا و أن شيخنا المذكور نزل المحصب للسنة و تأخر عن التعجيل ليحصل الفضيلة المتروكة و الناس فى زماننا قد تركوا ذلك كله إلا من شذ من الناس لكثرة الأذية و الخوف من اللصوص و قد زاد الفساد و الظلم و التعدى من الأشراف و غيرهم من أصحابهم فلا يكادون يرجعون عن التعدى بل على أقل شيء يقتلون عليه العبد و لقد قتلوا صاحب أخينا فى اللّه سيدى محمد بن قسوم الريغى على شربه الماء.

حاصله أنى دخلت على سلطان مكة المشرفة فى داره فى منى فى بعض الإبل ذهبت للحجاج أغار عليها العرب فاستأذنا فى الدخول عليه أنا و جماعة من الفضلاء فأذن لى منفردا فى الدخول وحدى و من معى بقى عند باب الدار ينتظرون ما أرجع به فلما دخلت عليه وجدته جالسا على فرش مرتفعة مواجها باب طاق ينظر الأركاب و يعتبر و معه أشخاص قليلة فلما قربت منه تحرك عن موضعه فقبل كتفى و قبلت كتفه ثم قال ما تريد قلت الجمال لأن العرب أغاروا عليها عند البئر الفلانى و قلت له ألم تعلم أن النبى صلى اللّه عليه و سلم يقول كلكم راع و كلكم مسئول عن رعيته.

نعم لما سمعنى قلت كلكم راع و كلكم الحديث و قد فرح بى و سر سرورا عظيما لما علم أنى صاحب علم و انبسط وجهه انبساطا كاملا فتحرك وجدا و قال نعم فإن دخلنا مكة نأتكم بالإبل التى ضاعت لكم و اعتذر لى بان قال ما ضيع الأحكام إلا

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۴۹۳

الأشراف فإن أمرهم قد قوى على و على غيرى أو كلاما هذا معناه و اللّه اعلم و قد سألنى عن وطنى و نسبى فأجبته بما حاصله أنى من عمالة الجزائر و أنى شريف فلما أردت الانفصال سألنى الدعاء له و لذريته و قام و ودعنى توديع الحبيب لحبيه و هذا السلطان اسمه مساعد و أما الحجة الأولى فقد كانت فى ولاية أخيه السلطان مسعود و هذا كله يرشد إلى أن الزمان قد زاد فى الظلم و التعدى نعم الحج قد كاد أن يكون ساقطا من الظلم من الولاة و أصحابهم و العرب و الظلم الكبير من الشيالين زادوا فى الارتياش للظلام و الشكوة.

تتمة قد دخلنا مكة و سكنا دارا بالكراء أنا و أهلى و أما أصحابنا الفضلاء سيدى أحمد بن حمود و سيدى أحمد الطيب و سيدى أحمد الشريف الطرابلسى و أصحاب كل قد أكترى كل واحد دارا لنفسه مع أصحابه و إنما يكون اجتماعنا فى المسجد الحرام و قد لزمته أيامى هناك فلا أخرج إلا لأمر مهم لا بد من الخروج إليه و أنى دخلت الكعبة كما ذكرنا أولا و اللّه اعلم أنى لقيت صاحب السعد الكامل فى الطواف و فى بعض الجمرات تقبل اللّه من جميعنا ثم بعد ذلك أتينا بالعمرة من التنعيم لتعذر الجعرانة من الخوف كما سبق مع اغتسال جميعنا هناك و أحرمنا بها و قضيناها ليلا بسعيها و طوافها و حلاقها و الحمد للّه على التمام و للّه در شيخنا حيث قال:

و ردّت إلى البيت الحرام وفودناتحن له كالطير حنّ لمأواه

و طفنا طوافا للإفاضة حولهو لذنا به بعد الجمار وزرناه

و من بعد ما زرنا دخلناه دخلةكأنا دخلنا الخلد حين دخلناه

و نلنا أمان اللّه عند دخوله كما أخبر القرآن فيما قرأناه

إلى أن قال:

و كم موقف فيه يجاب لنا الدعادعونا به و الفضل فيه نويناه

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۴۹۴ و لما قضينا للإله مناسكاذكرناه و المطلوب منه سألناه

فمن طالب حظا لدنياه ما لهخلاق بأخراه إذا اللّه لاقاه

و من طالب حسنى بدنيا لدينهو حسنى بأخراه و ذاك يوفاه

و آخر لا يبغى من اللّه حاجةسوى نظرة فى وجهه يوم يلقاه

قال شيخنا المذكور ذكر المشاهد التى ينبغى للحاج أن يزورها بمكة شرفها اللّه تعالى:

منها الدار التى ولد فيها صلى اللّه عليه و سلم و قد جعلت الآن مسجدا و مزارا عظيما تفد إليه الوفود من كل ناحية أيام المولد النبوى هذا على ما علم مما وقع من الاختلاق فى كتب السير فى مولده صلى اللّه عليه و سلم هل هو بمكة أو بالأنواء و على انه بمكة فقيل بالشعب و قيل بالمحصب إلى غير ذلك من الأقوال و لا أدرى من أين أخذ الناس تعيين هذا المحل بالخصوص اللهم إلا أن يثبت أن تلك دار والده أو جده صلى اللّه عليه و سلم فيترجح القول بأنه فى مكة بقضية عادية و هى أن ولادة الإنسان فى الغالب فى منزل والده و أن أريد بالشعب شعب أبى طالب الذى انحاز إليه مع بنى هاشم و بنى المطلب فى قضية الصحيفة فلا يبعد ذلك لأن هذه الدار قريبة من الشعب من أسفله و العجب أنهم عينوا موضعا من الدار مقدار مضجع و قالوا انه موضع ولادته صلى اللّه عليه و سلم.

قال شيخنا أبو سالم و يبعد عندى كل البعد تقييد ذلك من طريق صحيح أو ضعيف لما تقدم من الخلاف من كونه فى مكة أو غيرها و على القول بأنه فيها ففى أى شعابها و على القول بتعيين هذا الشعب ففى أى الدور و على القول بتعيين الدار فيبعد كل البعد تعيين الموضع من الدار مع مرور الأزمان و الأعصار، و انقطاع الآثار، و الولادة وقعت فى زمان الجاهلية و ليس من يعتنى بحفظ الأمكنة لا سيما مع عدم

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۴۹۵

تعلق غرض لهم بذلك و بعد مجىء الإسلام فقد علم من حال الصحابة و تابعيهم ضعف اعتنائهم بالتقييد بالأماكن التى لم يتعلق بها عمل شرعى لصرف اعتنائهم رضى اللّه عنهم لما هو أهم من حفظ الشريعة و الذب عنها بالسنان و اللسان و كان ذلك هو السبب فى خفاء كثير من الآثار الواقعة فى الإسلام و من مساجده عليه الصلاة و السلام و مواضع غزواته و مدفن كثير من أصحابه مع وقوع ذلك فى المشاهد الجليلة فما بالك بما وقع فى الجاهلية لا سيما ما لا يكاد أن يحضره أحد إلا من وقع له كمولد على رضى اللّه عنه و مولد عمر و مولد فاطمة رضى اللّه تعالى عن جميعهم فهذه أماكن مشهورة عند أهل مكة فيقولون هذا مولد فلان و هذا مولد فلان و ذلك من البعد أبعد من تعيين مولده عليه الصلاة و السلام لوقوع كثير من الآيات ليلة مولده صلى اللّه عليه و سلم و قد يتنبه بعض الناس لذلك بسبب ما ظهر من الآيات و إن كانوا أهل جاهلية و أما مولد غيره ممن ولد فى ذلك العصر فتكاد العادة أن تقطع بعدم معرفته إلا- أن يرد خبر عن صاحب الواقعة بنفسه أو أحد من أهل بيته و حاصل الأمر أن هذه الأماكن اشتهرت بين الناس فتزار بحسن النية لعظم قدر من أضيفت إليه صلى اللّه عليه و سلم فليستحضر الزائر فى قلبه عظمة من نسبت إليه الأمكنة و عظمة تلك النسبة و لا يشغل قلبه بصحة النسبة و ضعفها لوجودها فى الخارج و لو عدمت فى نفس الأمر لرعاية تعظيم الموجودة على النسبة له أثر كبير يعنى الجلب و الدفع نسأله تبارك و تعالى أن يجعلنا ممن يعظم حرماته و شعائره تعظيما يوافق أمره و قد مر قريبا ذكر باقى المزارات التى تزار فى مكة.

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۴۹۶

ذكر من لقيتهم فى الحرم المكى من الأئمة

الشيخ أحمد المخيلى الشافعى و الشيخ عبد اللّه بن سالم البصرى الشافعى و الشيخ محمد تاج الدين مفتى الحنفية و ابناه الشيخ عبد المحسن و الشيخ عبد المنعم و الشيخ عبد القادر بن أبى بكر الحنفى المفتى كان تولى الفتوى قبل و الشيخ محمد أكرم الهندى و

الشيخ مصطفى بن فتح اللّه الحموى المكى الشافعى و له تآليف على التاريخ ذكر فيه علماء الحادى عشر و صلحاءه و أدباءه و ملوكه و شعراءه أطلعنى على سفر منه ذكر فيه المحمدين فقط و لم يكمل إلى الآن و له رحلة إلى اليمن و لقى الوالد و أخذ عنه و جعل له ترجمة و الشيخ محمد بن عبد الباقى الإسكندرانى المالكى و الشيخ إدريس بن أحمد الصعدى الشافعى و هو نسبة إلى صعدة بلدة باليمن و الشيخ عبد الرحمن السندى والد أكرم و الشيخ عبد الكريم الهندى.

و فى عام ستة و تسعين التقينا بمكة و أكرمنا بها الشيخ الحسين العجمى و الشيخ الحسين الحنفى المكى و أهدى لنا عكازا من الخيزران و الشيخ على اليمنى و الشيخ عبد اللّه اليمنى و هما من أصحاب سيدنا الوالد رضى اللّه عنه و طلعا معنا إلى جبل أبى قبيس فجلسنا هنالك سويعات للدعاء و مشاهدة البيت العتيق و المسجد الحرام و مكة كلها قعيقعان و غير ذلك من الأمكنة العظيمة و زرنا هناك وليا مدفونا بروضته عليه بناء بأحجار و هناك بيت فوق شعب بنى هاشم قالوا من حوله و حياله انشق القرم له صلى اللّه عليه و سلم و زارا معنا غير ذلك جزاهما اللّه خيرا انتهى.

و أما من أجازه فى مكة فأنظره فى رحلته و كذا من لقيه فيها و أما من لقيته فيها فقد

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۴۹۷

لقيت كثيرا من الفضلاء الآجلة و البدور الأهلة و كذا زيارة المواطن فقد زرت مقبرة مكة كالشيخ ابن حجر الهيتمى شارح الهمزية و كذا قبر زوج النبى صلى اللّه عليه و سلم خديجة و كذا الأماكن المذكورة فى مكة.

و أما الغار الذى اختفى فيه صلى اللّه عليه و سلم و كذا غار تحنثه أى غار حراء فإنما زرناهما بالنية فقط عن بعد و كذا الجعرانة.

تتمة أذكر من أخذ عليه شيخنا سيدى أحمد بن ناصر فأقول قال عن شيخنا الأنصارى و هو عن أبى محمد بن طاهر الحسنى و أبى عبد اللّه محمد بن أبى بكر بن الدلائى و الشهاب أبى العباس المقّرى التلمسانى.

أما الأول فأخذه كذلك عن غير واحد و من أجلهم أبو العباس أحمد بن على المنحور الفاسى و هو عن جماعة منهم أبو محمد عبد الرحمن بن على بن أحمد القصرى المعروف بسقين و العلامة أبو الحسن على بن هارون المضغرى و أبو عبد اللّه محمد بن عبد الرحمن اليسيننى و أبو محمد عبد الواحد بن أحمد بن يحيى الونشريسى الفاسيون و هم أربعة أخذوه عن حافظ المذهب فى عصره أبى عبد اللّه محمد بن أحمد بن غازى و زاد سقين عن أبى العباس أحمد زروق الفاسى و زاد عبد الواحد عن أبيه أبى العباس أحمد بن يحيى الونشريسى التلمسانى ثم الفاسى مؤلف المعيار المعروف فى النوازل.

و أما الثانى و الثالث فأخذاه عن أبى عبد اللّه محمد بن قاسم القيسى الشهير بالقصار و هو عن اليسيتننى و غيره و السيتننى عمّن تقدم و عن الفقيه أبى العباس بن على الزقاق الفاسى و هو عن أبيه على بن محمد الزقاق و زاد الثالث و هو الشهاب المقرى فأخذه عن عمه إمام الفتوى بتلمسان بالمغرب ستين سنة أبى عثمان سعيد المقرى و هو عن أبى عبد اللّه محمد بن محمد التنسى و هو عن أبيه الحافظ أبى عبد اللّه

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۴۹۸

محمد بن عبد الجليل التنسى التلمسانى و قد انتهت الطرق باعتبار ما وقفنا عليه إلى خمسة أعيان من أعلام فاس و تلمسان الإمام ابن غازى و الشيخ زروق و العلامة الونشريسى و المحقق الزقاق و الحافظ التنسى أما ابن غازى فعن جماعة من أجلهم أبو عبد اللّه محمد بن قاسم القورى اللخمى المكناسى و المحقق النظار أبو العباس أحمد المزدغى و أبو زيد الكاوانى أما القورى فعن الجاناتى و أما المزدغى و الكاوانى فعن أبى مهدى عيسى بن علال و أبى القاسم التازغدرى و الجاناتى و ابن علال فهما عن العبدوسى الفاسى و هو عن القورى الفاسى صاحب التقييد على المدونة المنسوب لأبى الحسن الصغير و عن شيخ الرسالة و المدونة أبى زيد عبد الرحمن بن عفان الجزولى و القورى عن شيخ الإسلام أبى الحسن الصغير بضم الصاد المهملة و فتح العين المعجمة و تشديد المثناة التحية و هو و ابن عفان الجزولى عن الشيخ أبى الفضل راشد ابن أبى راشد الوليدى الفاسى و عن شيخ المدونة الأعرج صاحب الطرر على المدونة

و هما عن أبی محمد صالح الهسکوری الفاسی و هو عن أبی موسی المومنانی و أبی القاسم بن البقال و هم عن خلف ابن عبد الملک بن بشکوال و هو عن ابن عتاب و أبی الولید ابن رشد و القاضی أبی بکر ابن العربی و غیرهم.

و أما الشیخ زروق فعن القوری و عن عالم الصلحاء و صالح العلماء أبی زید عبد الرحمن الثعالبی الجعفری مؤلف شرح ابن الحاجب و غیره و عن أبی العباس حلولو شارح المختصر و غیره و عن قاضی الجماعة الرصاع التونسی شارح حدود ابن عرفة و غیره و الثلاثة الرصاع و الثعالبی و حلولو أخذوه عن النظار البرزلی مؤلف النوازل المشهورة و زاد الثعالبی عن العلامة محمد بن خلفة الأبّی مؤلف إکمال الإکمال و الحافظ أبی الفضل ابن مرزوق الحفید زواد حلولو عن ابن ناجی شارح الرسالة و المدونة و زاد الرصاع عن ابن عقاب التونسی و زاد الرصاع أیضا مع الثعالبی عن عبد العزیز بن موسی بن معطی العبدوسی الفاسی و الجمیع ما عدا العبدوسی عن أبی عبد اللّه محمد

الرحلة الورثیلانیة، ج۲، ص: ۴۹۹

بن عرفة الروغمی التونسی و زاد البرزلی عن قاضی الجماعة أحمد بن حیدرة التونسی و أما العبدوسی فعن أبیه أبی عمران العبدوسی بسنده المتقدم و أخذه الإمام ابن عرفة و القاضی ابن حیدرة عن جماعة منهم قاضی الجماعة أبو عبد اللّه محمد بن عبد السلام الهواری التونسی شارح ابن الحاجب و هو أخذه عن جماعة منهم العلامة المعمر و الإمام المجتهد محمد بن هارون التونسی شارح ابن الحاجب و مختصر المتیطیة و هما أخذاه عن جماعة منهم ابن هارون القرطبی ثم التونسی و هو عن أبی القاسم ابن بقی القرطبی و هو عن محمد بن عبد الحق الخزرجی القرطبی و هو عن ابن فرج مولی ابن الطلاع.

و أما الحافظ الونشریسی فعن جماعة أعلام أجلهم أبو الفضل قاسم بن سعید العقبانی التلمسانی و ولده أبو سالم و العلامة محمد العبادی التلمسانی و أخذ أبو العباس عن أبی الفضل قاسم المذکور عن إمام المغرب و قطبه الحافظ المطلق أبی الفضل محمد ابن مرزوق الحفی التلمسانی و هما أخذاه عن أبی عثمان سعید العقبانی و زاد الحفید عن أبیه و عن العلامة المحقق أبی محمد عبد اللّه بن محمد الشریف التلمسانی عن الإمام ابن عرفة بسنده المتقدم و أما العقبانی و ابن عرفة أیضا فأخذاه عن أبی عبد اللّه محمد بن سلیمان السطّی و زاد العقبانی عن التلمسانیین أبی زید و أبی موسی ابنی الإمام و هما أخذاه عن جماعة منهم ابن تمیم الیفرنی و هو و الحافظ السطی عن أبی الحسن الصغیر.

و أما والد الحفید ابن مرزوق فعن والده الإمام الجلیل ابن مرزوق الخطیب و هو عن السطی بسنده و عن العلامة ابن راشد البکری القفصی شارح ابن الحاجب و هو عن العلامة المجتهد شهاب الدین أحمد ابن إدریس القرافی مؤلف الذخیرة و غیرها

الرحلة الورثیلانیة، ج۲، ص: ۵۰۰

و هو عن القاضی ناصر الدین الأبیاری و عن العلامة النظار أبی العباس ناصر الدین ابن المنّیر الاسکندرانی و ثلاثتهم أخذوه عن إمام التحقیق و فارس الإتقان أبی عمر جمال الدین عثمان بن أبی بکر ابن الحاجب و هو أخذه عن العالم الراسخ شمس الدین أبی الحسن الأبیاری بکسر الهمزة و سکون الباء الموحدة بعدها مثناة تحتیة و هو أخذه عن أبی طاهر إسماعیل بن مکی بن إسماعیل بن عیسی بن عوف الزهری من ذریة عبد الرحمن بن عوف رضی اللّه عنه و هو عن الإمام الکبیر أبی بکر الطرطوشی.

و أما العلامة عبد اللّه الشریف التلمسانی فعن والده الإمام النظار التلمسانی و هو عن ابنی الإمام أبی موسی و أبی عیسی و عن الحافظ السطی بسنده المتقدم و هو عن الرزلی و هو عن أبی الحسن الصغیر بسنده.

و أما أبو الحسن الزقاق الفاسی فعن القوری و عن الحافظ العبدری الغرناطی المعروف بالمواق و هو عن جماعة منهم الإمام القاضی محمد بن محمد بن السراج الغرناطی و هو عن فرج ابن قاسم بن أحمد بن لب الغرناطی أیضا و هو عن أبی عبد اللّه المعروف بابن أبی بکر المالقی و هو عن الحافظ الکبیر أبی جعفر أحمد بن إبراهیم بن الزبیر و هو أخذه عن جماعة منهم القاضی الجلیل أبو عبد اللّه ابن غازی الأنصاری السبتی و القاضی أبو الخطاب السکونی و هو عن أبیه أحمد بن خلیل و هو و ابن غازی عن إمام الشوری أبی

الفضل عياض ابن موسى اليحصبى مؤلف التنبيهات و غيرها و هو عن شيوخ المذهب أبى عبد اللّه التميمى السبتى و قاضى الجماعة بقرطبة أبى الوليد ابن رشد القرطبى مؤلف البيان و التحصيل و المقدمات و غيرها و الإمام أبى عبد اللّه

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۰۱

ابن الحاج القرطبى صاحب النوازل و غيرها و القاضى أبى بكر ابن العربى الأشبيلى مؤلف القبس و غيره و الإمام ابن عتاب القرطبى أيضا و بالإجازة مثله.

و أما الحافظ التنسى فعن جماعة منهم الحافظ أبو الفضل ابن مرزوق الحفيد و هو عمن تقدم و من جملتهم العلامة عبد اللّه بن محمد الشريف التلمسانى و هو عمن تقدم و عن الإمام القباب و هو عن قاضى الجماعة أبى عبد اللّه القشتالى صاحب الوثائق و هو عن أبى الحسن ابن سليمان القرطبى و هو عن أبى عمر ابن حوط القرطبى أيضا و هو عن أبيه و هو عن الإمام الجليل أبى الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد الحفيد مؤلف بداية المجتهد و نهاية المقتصد و غيره و الحافظ البرزلى عن أبى عبد اللّه بن سعيد بن زرقون مؤلفا لأنوار فى الجمع بين المنتقى و الاستذكار و غيره فالأول و هو الحفيد أخذه عن أبيه عن جده و عن الإمام النظار المجتهد القوى الباع فى تحقيق النظر أبى عبد اللّه محمد بن على التميمى المازرى مؤلف شرح التلقين و غيره و الثانى و هو ابن زرقون أخذه عن القاضى أبى الفضل عياض.

جامعة، مشارق أنوارها لامعة قد انتهت الطرق إلى أعلام الطبقة و شيوخ الفتيا و أئمة الشورى الإمام المازرى و أبى الوليد ابن رشد و ابن الحاج و أبى بكر الطرطوشى و ابن العربى و أبى محمد ابن عتاب و القاضى ابن عيسى التميمى أما الإمام المازرى فعن أبى الحسن على بن محمد اللخمى مؤلف التبصرة و المحقق النظار أبى محمد عبد الحميد المعروف بابن الصائغ مكمل تعليقة التونسى و هما عن أبى إسحاق إبراهيم بن حسن التونسى مؤلف التعليقة على المدونة و العلامة ابن محرز القيروانى مؤلف التبصرة و هما عن الإمامين أبى بكر بن عبد الرحمن و أبى عمران الفاسى و هما عن شيخى المذهب و موشى طرازه المذهب أبى محمد عبد اللّه ابن أبى زيد مؤلف الرسالة و النوادر

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۰۲

و المختصر و غيرها و أبى الحسن على بن محمد بن خلف القابسى و زاد أبو بكر بن عبد الرحمن عن أبى القاسم الغافقى الجوهرى المصرى و زاد أبو عمران الفاسى عن و هما أبى عبد اللّه المعروف بالوشاء المصرى و هما أعنى الوشاء و الجوهرى أخذاه عن أبى إسحاق ابن شعبان المعروف بالقرطى بقالف مضمومة و راء ساكنة و طاء مهملة بعدها ياء النسبة المصرى مؤلف الزاهى و مختصر ما ليس فى المختصر و هو عن أحمد الصدفى المصرى المعروف بالزياتى و هو عن رابع المحمدين أبى عبد اللّه محمد ابن عبد الحكم و هو عن أبيه و ابن القاسم و أشهب و ابن وهب.

و أما الشيخان الراسخان أبو محمد ابن أبى زيد و أبو الحسن القابسى فأخذاه عن أبى ميمونة ابن إسماعيل الفاسى و عن الأبيانى بكسر الهمزة و الموحدة المشددة المكسورة بعدها مثناة تحتية و زاد ابن أبى زيد عن الحافظ أبى بكر محمد بن اللباد القيروانى و عليه عمدته و عن أبى العرب محمد بن أحمد بن تميم التميمى أما أبو ميمونة ابن إسماعيل المذكور فأخذه عن جماعة منهم الحافظ ابن عبد اللّه ابن أبى مطر و هو أخذه عن محقق المذهب أبى عبد اللّه محمد بن المواز مؤلف المختصر المعروف بالموازية و هو أخذه عن محمد ابن عبد الحكم و ابن الماجشون و اصبغ و الحارث بن مسكين و الأخيران أخذاه عن ابن القاسم و أشهب و ابن وهب.

و أما الثلاثة أبو العباس الأبيانى و أبو بكر ابن اللباد و أبو العرب التميمى فأخذوه عن الإمام المجاب الدعوة أبى زكرياء يحيى بن عمر الأندلسى القيروانى مؤلف اختصار المستخرجة و عن الحافظ المقدم أبى جعفر المعروف بابن الصواف و عن أحمد بن محمد الأشعرى المعروف بحمديس القطان و ثلاثتهم أخذوه عن الإمام أبى سعيد

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۰۳

عبد اللّه بن سحنون القيروانى مؤلف المدونة و تسمى أيضا المختلطة و هو أخذه عن على بن زياد التونسى و أبى أشرس و ابن غانم و ابن القاسم و أشهب و ابن وهب و عبد اللّه بن عبد الحكم و عبد الملك بن الماجشون.

و أما زعيم فقهاء وقته أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد و أبو عبد اللّه أحمد بن الحاج فأخذاه عن جماعة منهم ابن زرقون القرطبى و عن أبى عبد اللّه محمد بن فرج مولى الطلاع مؤلف كتاب الشروط و كتاب الأحكام و هما أخذاه عن أحفظ الناس للمدونة ابن اقطا و هو أخذه عن ابن حدّون القرطبى و عن الشيخ ابن الشقاء القرطبى أيضا و هما أخذاه عن ابن المكوى مؤلف كتاب الاستيعاب فى المذهب و هو عن أبى بكر اللؤلؤى القرطبى أيضا و عن ابن مسرة مؤلف كتاب النصائح فاللؤلؤى أخذه عن أبى صالح المعافرى القرطبى و الثانى و هو إبراهيم عن أبى عبد اللّه ابن لبابة و عن ابن عبد الملك ابن أيمن القرطبى و الثلاثة أبو صالح و ابن لبابة و ابن أيمن أخذوه عن ابن عتبة ابن أبى سفيان مؤلف العتبية و يقال لها المستخرجة أيضا و عن ابن وضاح القرطبى و عن أبى زكرياء يحيى ابن مزين القرطبى مؤلف المستقصية و غيرها و عن النظار ابن مطروح الأعرج و الأربعة أعنى العتبى و ابن وضاح و ابن مزين و ابن مطروح أخذوه عن يحيى بن يحيى الليثى القرطبى و عن أبى عبد اللّه أصبغ بن الفرج المصرى و زاد الثلاثة سوى ابن مزين عن الإمام سحنون و زاد ابن مطروح و ابن مزين عن فقيه الأندلس أبى محمد عيسى بن دينار القرطبى صاحب الأسمعة و هو و سحنون و أصبغ و يحيى عن ابن القاسم و زاد ابن وضاح عن القاضى أبى عر و الحارث بن مسكين المصرى و عن الفقيه أبى مروان عبد الملك بن الحسن المعروف بزونان و عن عالم الأندلس أبى مروان عبد الملك بن حبيب مؤلف الواضحة و غيرها و الأولان ابن

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۰۴

مسكين و زونان أخذاه عن ابن القاسم و أشهب و ابن وهب و الثالث و هو ابن حبيب أخذه عن أصبغ بن الفرج و عن الغازى ابن قيس و عن زياد بن عبد الرحمن المعروف بشبطون و عن مطرف و ابن الماجشون و عبد اللّه بن نافع و عبد اللّه بن عبد الحكم.

و أما شيخ الشيوخ أبو بكر الطرطوشى فأخذه عن النظار المعروف بالباجى الأندلسى مؤلف المنتقى و غيره و هو عن أبى الأصبغ ابن سهل القرطبى مؤلف الأعلام بنوازل الأحكام و من طريق القرويين عن مكى القيسى و من طريق العراقيين عن أبى الفضل ابن عمروس البغدادى أما ابن سهل فعن القطان بسنده و عن شيخ المفتين ابن عتاب القرطبى و لازمه و اختص به و عن الفقيه أبى بكر يحيى بن محمد الغسانى القليعى أما ابن عتاب فأخذه عن جماعة منهم القاضى أبو المطرف ابن بشير المعروف بابن الحصار و لازمه و اختص به و كان يفخر به و عن أبى بكر عبد الرحمن بن أحمد التجيبى المعروف بابن حربيل فالأول و هو ابن بشير أخذه عن قاضى الجماعة ابن ذكوان و هو عن ابن اصبغ البيانى و هو عن ابن وضاح و الثانى و هو ابن حربيل التجيبى المذكور فأخذه عن الخشنى مؤلف كتاب الاتفاق و الاختلاف فى المذهب و هو أخذه عن أبى بكر بن اللباد و أبى جعفر أحمد بن أبى نصر الهوارى و هما أخذاه عن يحيى بن عمر و محمد بن عبدوس و محمد بن سحنون و جميعهم عن سحنون.

و أما القليعى فأخذه عن محمد بن عبد اللّه بن أبى زمنين بفتح الزاى و الميم و كسر النون البيرى مؤلف كتاب المنتخب فى الأحكام و هو عن ابن مسرة بسنده.

و أما أبو محمد مكى فعن شيخيه ابن أبى زيد و القابسى بسندهما.

و أما ابن عمروس فعن البغدادى المعروف بابن القصار مؤلف عيون الأدلة فى الانتصار للمذهب و عن عبد الوهاب البغدادى مؤلف التلقين و المعونة و غيرهما و هو

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۰۵

أخذه عن الحافظ ابن الجلاب مؤلف التفريع و هو و ابن القصار و عبد الوهاب أخذوه عن الأبهرى مؤلف الشرح لمختصر ابن عبد الحكم و هو عن الليثى البغدادى مؤلف الحاوى و عن أبى عمرو محمد بن يوسف و عن ابن الجهم المعروف بابن الرواق مؤلف كتاب مسائل الخلاف و الحجة لمذهب مالك و شرح المختصر الصغير لابن عبد الحكم و هو و أبو الفرج و أبو عمر و أخذوه عن

سهيل بن حماد البصرى و هو أخذه عن أحمد ابن المعدل البصرى و هو عن ابن الماجشون و محمد بن مسلمة.

و أما المعافرى الإشبيلى فأخذه عن الطرطوشى بسنده و عن ابن العربى و هو عن ابن عتاب بسنده أما ابن عتاب فعن أئمة بسنده.

و أما محمد بن عيسى التميمى السبتى فعن النسيلى و ابن عبد الرحيم ابن العجوز و عن الغسانى القرطبى أما النسيلى فعن فقهاء سبتة إبراهيم بن يربوع السبتى و ابن غالب الهمدانى السبتى و هو عن ابن أبى زيد أخذ عنه جميع كتبه بسنده و ابن يربوع و هو الهمدانى أخذ عن الباجى و هو عن ابن لبابة و ابن أيمن بسندهما.

و أما أبو عبد اللّه ابن العجوز فعن أبى محمد عبد الرحمن و هو عن أبى إسحاق التونسى بسنده و عن أبيه أبى عبد الرحمن عبد الرحيم السبتى و هو عن ابن أبى زيد بسنده.

و أما أبو على الجيانى فعن ابن عبد البر مؤلف الكافى و الاستذكار و التمهيد و غيرها و هو عن ابن المكوى بسنده و عن ابن القاضى القرطبى و هو عن جماعة منهم ابن الفخار البيرى و عن ابن أصبغ البجانى بموحدة فجيم مشددة أما ابن الفخار فعن ابن سلمة مؤلف مختصر الواضحة و هو عن ابن مروان الهمدانى القيروانى و هو عن ابن عبدوس و هو عن سحنون و أخذ ابن مروان أيضا عن سحنون و عن ابن عبد الحكم

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۰۶

أما مجاهد ابن أصبغ فعن سعيد البجانى و هو عن المغامى الدوسى من ذرية أبى هريرة رضى اللّه عنه و عن ابن ميسر بفتح السين المهملة فالمغامى عن يحيى بن يحيى و ابن حبيب و ابن مزين و غيرهم بسندهم و ابن ميسر أخذ عن ابن المواز بسنده.

جامعة من المدنيين الإمام الثقة المغيرة المخزومى و ابن دينار الجهنى مولاهم و ابن مسلمة و ابن مطرف اليسارى و ابن الماجشون و ابن نافع مولى بنى مخزوم و من المصريين عبد الرحمن ابن القاسم العتقى و أشهب و ابن وهب و ابن عبد الحكم و من الأفريقيين ابن زياد التونسى و ابن اشرس الأنصارى و ابن راشد القيروانى و من الأندلسيين الغازى ان قيس القرطبى و أبو عبد اللّه ابن شبطون و يحيى بن يحيى الليثى و جميعهم أخذوه عن إمام دار الهجرة مالك بن أنس و هو أخذ عن الزهرى و ربيعة و يحيى ابن إسحاق الأنصارى و أبى نمر الليثى و العلاء بن يعقوب مولى الحرقة و الحرقة فخذ من جهينة و أبى عبيدة حميد الطويل و أبى عبد اللّه الثقفى و أبى عثمان بن ميسرة مولى المطلب ابن حنطب المخزومى و هؤلاء عن أنس بن مالك خادم رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و منهم ابن يدرس مولى حكيم بن حزام و أبو عبد اللّه المنكدر التيمى القرشى و أبو أسامة مولى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه و أبو نعيم وهب بن كيسان مولى ابن الزبير بن العوام و هؤلاء عن جابر بن عبد اللّه و زاد بن وهب عن عمر بن أبى سلمة و منهم أبو عبد اللّه نافع و ابن دينار موليا ابن عمر و هما عن سيدهما و مولاهما عبد اللّه بن عمر و زاد نافع عن أبى سعيد الخدرى و أبى لبابة رضى اللّه عنهما و منهم سلمة بن دينار مولى بنى ليث و هو عن سهل الساعدى و كذا ابن شهاب الزهرى أيضا و منهم سعيد بن أبى سعيد و اسمه كيسان مولى بنى جندع و هو عن الكعبى و منهم نعيم بن عبد اللّه و هو عن أبى هريرة و الجملة من الصحابة المذكورين تلقوه عن سيد الكونين و جمال الثقلين أبى القاسم سيدنا و مولانا و نبينا محمد بن عبد اللّه ابن عبد المطلب بن هاشم صلى اللّه عليه و سلم و شرف و كرم و عظم و مجد و هو عن

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۰۷

الروح الأمين جبريل عليه السلام عن رب العالمين جل جلاله و تقدس كماله انتهى ما نسب لجامعها و صاحب سلسلتها سيدى عيسى بن محمد الثعالبى.

انعطاف الأماكن التى ينبغى زيارتها بمكة خلاف ما تقدم دار الأرقم التى اختفى فيها النبى صلى اللّه عليه و سلم و بها كان إسلام عمر رضى اللّه عنه و خبرها مشهور فى السير و هى الآن مسجد قرب الصفا و منها موضع بسوق مكة يسمى المودع يقال أن فيه ودع النبى صلى اللّه عليه و سلم أهل مكة فى حجة الوداع لما أراد الخروج إلى المدينة و هو مكان مشرف تظهر منه بعض أستار الكعبة و ليس

فی أسواق مکة محل تظهر منه الکعبة إلا هذا فیقف الناس للدعاء و قریب من هذا المکان رباط ینسب للشیخ عبد القادر الجیلانی یسکنه الفقراء و له أوقاف و به قبور تزار لا أتحقق أصحابها و منها مسجد الجن و هو بأعلی مکة بجانب الطریق بین الدور فیه شجرة یأوی إلیها الفقراء و یستظلون فیه و هو المکان الذی جاء فیه الجن إلی النبی صلی اللّه علیه و سلم و أسلموا و منها شعب أبی طالب الذی انحاز إلیه هو و بنو هاشم و خبره مشهور فی السیر و منها جبل أبی قبیس یشرف منه علی مکة کلها و المسجد و البیت و فیه مغارة یقال أن بها قبر آدم علیه السلام و الحجاج یشترون من مکة رؤوس الغنم المشویة و یصعدون إلیه یأکلونها و یزعمون أن من فعل ذلک أمن من وجع الأسنان و الرأس و منها قبة علی الجبل الذی علی یسار الذاهب إلی الشبیکة یقال ان فیها مولد عمر رضی اللّه عنه و منها محل فی الجبل المشرف علی المحصب علی یمین الذاهب إلی منی یزعم أهل مکة أن به قین عبد اللّه بن عمر رضی اللّه عنه فیخرجون إلیه فی إحدی لیالی ذی القعدة أظنها الثالثة عشرة رجالا و نساء کبارا و صغارا یبیتون هنالک عامة لیلتهم.

قال أبو سالم و سألت أهل العلم بمکة عن ذلک فأخبرونی أنهم لا یعلمون لذلک

الرحلة الورثیلانیة، ج۲، ص: ۵۰۸

أصلا و من جملة خرافاتهم المتعلقة بتلک اللیلة فی ذلک أنهم یأخذون معهم نوی التمر فیدفنونه بالأرض فی ذلک الجبل تلک اللیلة و یزعمون أن من دفن شیئا حصل له فی تلک السنة بعدده ریالا- أو دنانیر و أغرب من ذلک ما حکی لی بعض أصحابنا تصدیقا لزعمهم ذلک أن الشیخ علی بن الحمال الشافعی و کان من فقهاء مکة المعتبرین خرج مع بعض أهل مکة فی بعض السنین إلی هذا المحل فلما رأی فعلهم ذلک أنکره ثم انه جمع شیئا من النوی حتی جمع نحو المائتین فدفنها ثم وجد سبعا أخری و دفنها و هو فی ذلک کالمتلاعب فلما کان وقت الموسم بینما هو جالس فی المسجد الحرام إذ جاء شخص من أهل العراق یسأل عنه حتی وجده فناوله صرة کبیرة و قال له أن جماعة من طلبة الإحساء کانوا یقرءون هنا عندک قبل ذلک و قد جمعوا لک هذه الدار هم بقصد التبرک منک و قد سلموا علیک و هذه مائتا ریال قال فوقع فی نفسی تصدیق ما زعموا و أنی کنت دفنت مائتی نواة ثم قلت و أین السبعة التی دفنتها بعد ذل فلم أرم مکانی حتی رجع إلی ذلک الشخص و قال لی یا سیدی و هذه سبعة أخری قد تبعنی بها شخص بعد ما فارقت الجماعة و قال لی أوصلها إلی الشیخ قال فتعجبت من ذلک و من موافقته للحال و اللّه اعلم.

و لأهل مکة فی هذه اللیلة أیضا عمل مولد کبیر فی مشهد العیدروسی رضی اللّه عنه عند الشبیکة یجتمع هناک جماعة من أولاده و إتباع السالکین علی طریقه و یعملون هنالک سماعا و قراءة و تلاوة و یجتمع فیه خلق کثیر و قد فرش المشهد کله و ما حوله و أعدت للحاضرین أطعمة و أشربة و یستکثرون هنالک من المصابیح فهو من المشاهد المشهورة بمکة و المزارات المعظمة و بیتهم له صیت و مکانة عند الخاص و العام.

و أما المقابر فالحجون کله مزارات و أشهر المزارات فیه قبة أم المؤمنین السیدة

الرحلة الورثیلانیة، ج۲، ص: ۵۰۹

خدیجة رضی اللّه تعالی عنها و قبة فیها قبر الفضیل بن عیاض و غیر ذلک و محوط فیه قبور کثیرة لأئمة من العلماء الغرباء قال أبو سالم قرأت علی حجر فیه هذا قبر الإمام أبی القاسم القشیری و هذا غریب إلا أن یکون قد نقل بعد موته إلی هنالک و لم نر أحدا من المؤرخین ذکر انه مات بمکة.

و قد رأیت فی طبقات الإمام تاج الدین السبکی التعریف بولد أبی القاسم القشیری و ذکر انه توفی بمکة المشرفة فعلمت أن القبر قبره لا قبر أبیه رضی اللّه تعالی عنهما و عل حجر آخر قبر أبی حامد بهاء الدین السبکی و جماعة کثیرة و أسفل الحجون بجانب الطریق قباب کثیرة غالبها للشرفاء أمراء مکة و منها قبة سامیة یقال لها قبة أبی طالب و عوام الغرباء یظنونه أبا طالب عم النبی صلی اللّه علیه و سلم و بعضهم یقول أبو طالب المکی و إنما هو أمیر مکة المتأخرین من أشرافها من آل نبی نمر اسمه أبو طالب قالوا کان فی حیاته شجاعا مقداما فاتکا دوخ بلاد الحجاز و قهر عربانها غایة القهر و أهل نجد و تهامة إلی الآن یؤرخون بعهده فیقولون کان هذا فی

زمان أبى طالب و كان سفاك للدماء و مع ذلك كان حسن السيرة و لم يكن أحد يأتيه بالولاية لما هو عليه من الفتك و البطش إلا أن بعض أهل الكشف كان يقول هو مظهر من مظاهر أسمائه تعالى القهرية أقيم فى مقام الجلال فلما توفى ظهرت له كرامات كثيرة و صار قبره من أعظم المزارات.

فمما ظهر منها أنهم قالوا جلس جماعة من القراء حول قبره يقرءون القرآن قرب موته كما هو عادتهم و بين أيديهم شمعة تضىء بليل فوقعت إلى الأرض فانطفأت فتحيروا فلم يجدوا من يوقدها لهم فانشق القبر عيانا فخرج منه و أوقد لهم الشمعة فرجع و منها أن بدويا خرج من مكة بقفص عنب فلما وصل إلى قبره تذكر حاجة بمكة فوضع القفص و رجع فجاء سارق ليأخذه فيبست يده و التصقت بالقفص و بقى

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۱۰

واقفا عنده حائرا إلى أن جاء البدوى فلما رأى ذلك قال على حسب نيته و اعتقاده جاد يا أبا طالب جاد يا أبا طالب جاد يا أبا طالب جاد يا أبا طالب أطلقه الآن و قد قضيت حاجتى و انطلقت يد السارق و ذهب.

و من المزارات قبر الولى الصالح القطب الشهير الذكر عند أهل مكة و أعرابها سيدى عمر العرابى و غالب السائلين بمكة و المستصرخين إنما يهتفون باسمه و أهل البادية تسمع الرجال منهم و النساء يقولون شىء للّه يا عرابى و هو عندهم عظيم القدر شهير الذكر و حق له ذلك فانه كان من أئمة الطريق رضى اللّه تعالى عنهم.

و من الأماكن التى لا ينبغى للمجاور أو من معه نفس من الزمان إهمال زيارتها و الورود عليها مدينة جدة و ما بها من المشاهد كالمحل الذى يقال أنه فيه قبر أمنا حواء و ممن جزم أن قبرها بها ابن خلكان فى ترجمة ابن قلاقس الشاعر و ذكره أيضا فى ترجمة أخرى على أن جدة فى نفسها من أعظم البقاع فقد ورد فى فضلها و فضل المقام بها و الرباط فيها عدة آثار نقلها أهل الأخبار و هى مدينة كبيرة ممتدة مع ساحل البحر نحو ميلين فى كلا طرفيها حصار متقن البناء فيه مدافع كثيرة و عسكره لا يفارقه.

قال الشيخ أبو سالم و قد رأيت فى الحصار الغربى منها ما يستغرب و صفه من المدافع طولا و كبرا و قد رأيت فيها مدفعا له خمسة أفواه بصنعة غريبة و فى مرساها سفن كثيرة كبار و صغار و غالبها معمول بالشريط بصنعة عجيبة ليس فيها مسمار، و هى مع ذلك كبيرة المقدار، متباينة الأقطار، واسعة الإنحاء تحمل أضعاف ما يحمل غيرها من السفن و أسواق البلد ممتدة مع جانب البحر و غالبها أخصاص واسعة مفتحة إلى البحر و إلى ناحية البلد فيها قهاوى و مجالس حسنة يبالغ أصحابها فى كنسها و تنظيفها و رشها بالماء و فيه جلوس غالب أهل البلد و قد اتخذوا فيها أسرة كثيرة منسوجة بشريط المسد بصنعة محكمة و مسجدها الكبير من أجل المساجد فيه أعمدة

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۱۱

من الساج مخروطة على هيئة أعمدة الرخام المخروط صليب عودها يحسبها من لم يتأملها رخاما أحمر.

قال و أخبرنى شيخنا أبو مهدى انه يقال أن أعمدة ذلك المسجد جلبت فى صدر الإسلام من كنيسة بأرض الحبشة عند ما افتتحها المسلمون قال و قد شاهدناه فى هذه الخطرة من العافية التى بسطها اللّه تعالى فى الطرق و القرى و الأمان التام ما قضينا منه العجب فمن ذلك أنا لقينا عيرا فى ليل مظلم تحمل أحمالا من البر الهندى و القماش الرفيع نحوا من عشرين جملا و طلبنا أحدا من أصحابها نسأله عن أخبار البلد فلم نجد معها أحدا و ذهبنا نحوا من ميل فوجدنا أصحابها فى قهوة مستريحين و أخبرونا أنها لو ذهبت كذلك إلى مكة لم يتعرض لها أحد و أخبرونا بعجائب من مثل ذلك وقعت فى أيام الأمير زيد و والده محسن.

فمن ذلك أنهم زعموا أن رجلا جاء إلى السلطان محسن فقال له أنى وجدت فى البلاد الفلانية حملا من البز فى الطريق فقال له و من أخبرك بأنه من البز فقال له مسسته برجلى فأمر بقطع رجله و قال له لم مسسته برجلك إلى غير ذلك من أمثال هذه الحكاية لا نعلم صحيحها من سقيمها.

و من لطيف ما شاهدناه من أمان هذه الديار و عافيتها أن المسافرين من مكة إلى جدة و من جدة إلى مكة يكترون الحمير للركوب و لا يذهب صاحب الدابة معها فإذا ذهب المكترى إلى المحل الذى ذهب إليه أرسل الحمار و لا عليه فيه و لا يأخذه أحد إلا ربه إن كان فى ذلك البلد أو نائبه و لكل واحد من أصحاب الدواب نائب فى غير البلد الذى هو فيه يعرف دابته و يقبضها حتى يكريها ممن يرجع إلى البلد الذى هو فيه و هناك من فاره الحمر ما يقضى العجب من سرعتها.

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۱۲

قال و لم أر أسرع مشيا من حمر الحجاز و لا أوطأ مركبا و لا أقل لغبا من السرعة المفرطة فى المشى فلقد كنت أنظر و أنا راكب إلى أطرافى هل يتحرك فيها شىء مع الإسراع فى المشى فلا يكاد يتبين حركة شىء منها مع أن مركوبى من أجادوها فلقد أخبرت انه كان حمار عند رجل من أهل مكة يصلى المغرب بجدة فيركب عليه و يصلى الصبح بمكة و هى مسافة القصر تحقيقا و هم يتغالون فى ثمن ما هذه صفته منها فيبلغ الحمار مائة دينار ذهبا. و قد رأيت حمارا عند فقيه الحنفية الشيخ الزنجيل رافقنا عليه من المدينة إلى مكة تقتحمه العين فأخبرت أنه اشتراه بقريب من ذلك الثمن.

و منها بلد الطائف فإن فيها مزارات كثيرة و يمر إليها على طريق الحاج إلى منى ثم إلى مزدلفة ثم إلى بسيط عرفة و الطريق من مكة إلى الطائف فيها قهاوى يستريح المارة بالنزول فيها و اشتراء المحتاج من طعام و علف كما ذلك أيضا بطريق جدة و يسلك مع طريق الساقية التى من أصل الجبل إلى عرفات ثم إلى المشاعر ثم إلى مكة و منها تأتى المياه إلى مكة فى هذه الأزمنة بعد اندثار الأخرى التى تأتى من الجعرانة.

و قد ذكر المؤرخون أخبر العينين معا و أن التى من الجعرانة من عمل بنى أمية و هذه من عمل بنى العباس و هى من صدقات زبيدة بنت جعفر المنصور إلا أنها ما وصلت إلى مكة إلا فى دولة بنى عثمان ملوك العصر من الترك.

قال أبو سالم و قد شاهدنا فى بنيان هذه الساقية ما يدل على فخامة ملكهم و قوة اعتنائهم بأمر الحرمين فكلما مررنا غلوة أو غلوتين وجدنا عينا منها مفتوحة عليها بناء وثيق و وجدنا الفعلة فى وقتنا جادين فى إصلاح ما و هى من بنائها و كسر ما تهور من أرجائها و هى صاعدة مع وادى نعمان الأراك بفتح النون الذى أكثرت شعراء العرب فمن بعهدهم من ذكره و هو واد عظيم افيح منحدر من جبال نجد به أدواح يانعة يصافحها نسيم نجد فتهتز أغصانها طربا و تميل إلى أن تلثم أفواه الأزهار الغضة

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۱۳

الناعمة الملتفة بجانبى ذلك الوادى و قد كساه الخصب من مروط الزهر ألوانا و عمّم رؤوس هضابه أقاحا و أرجوانا.

قال فلم نزل نسايره صاعدين إلى أن قربنا من جبل أكرى فعدلنا يمينه مع بعض تلك الهضاب و آوانا الحر إلى قهوة بأصل الجبل بين صخور عظام حولها ماء صاف يجرى على حصباء كالزبرجد عذب بارد سهل التناول للصادر و الوارد قال فما رأينا فيما سلكنا من بلاد الحجاز مكانا أشبه ببلادنا منه فلما زالت الشمس و توضأنا للصلاة أخذنا فى صعود الجبل العظيم الذى لا يماثله فى عظمه جبل من جبال تهامة و سلكنا فى طريق تميل مع الهابطة من أعلاه و غالب الطريق فى هذا الجبل قد نقى من الصخور العظام و نضدت الحجارة فيه بناء وثيق مصفح على ممره و يقال أن ذلك من عمل بنى العباس لكثرة اعتنائهم ببلد الطائف و نزول ولاة الحجاز منهم به و قد أثرت السيول مع طول العهد فى أماكن كثيرة من هذا الجبل فخربت بناءه و كثرت للسالك عناءه.

قال و وجدنا فى هذا الجبل أشجار عظيمة من العرعار و غيره من أشجار بلدنا فأنسنا بذلك غاية و رأينا القرود به تصيح و تثب فى أعالى تلك الصخور فتعجبنا من ذلك فأخبرنا أنها توجد فى ذلك الجبل و ما سمعنا قط أنها بأرض الحجاز و إنما يقال أنها تجلب من الشام و الروم إلى مصر و الحجاز و قد لقينا فى صعود هذا الجبل مشقة و نزلنا عن الدواب و ارتحلنا أوعاره و أغواره كرها و ما كدنا نصل أعلاه حتى تمكن وقت المغرب و صلیناه و تلففنا بثيابنا لشدة البرد و تعجبنا من صنع اللّه تعالى و بديع قدرته فقد قاسينا أول النهار من شدة الحر و سمومه ما كادت العظام منه تذوب و تفطر القلوب و كابدنا من شدة البرد آخره ما ارتعدت المفاصل منه

وكلت القوى عنه.

قال ثم وصلنا إلى قهوة هنالك و نزلنا بها بعد العشاء فدخلنا محلا أوقد أصحابنا فيه نيرانا عظيمة فاصطلينا بها عامة ليلنا من شدة البرد وحدنا اللّه تعالى على ذلك و كان

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۱۴

هذا فى أبان الحر الشديد و لذلك خلفنا ثيابنا بمكة و لم نلبس منها إلا ما يوافق الوقت و قضينا عجبا من شدة الحر و البرد فى المكانين المتقاربين قال ثم ارتحلنا من ذلك المكان قرب صلاة الصبح و هبطنا عقبة هنالك و هى دون التى طلعناها بكثير إلا أنها و عرة و سلكنا فى شعاب ذات مياه غزيرة و نبت ملتف إلى أن خرجنا إلى قرن الثعالب الذى هو ميقات أهل نجد بإزائه قرية ذات مزارع و أشجار من أنواع الفواكه حولها واد يسيل ماؤه و تجاوزناها قرب الطلوع و سلكنا بين تلول هنالك فى صعود و هبوط و استواء إلى أن وصلنا بلد الطائف و هى و قصور فى مستو من الأرض تحيط به جنات من نخيل قليل و أعناب كثيرة و فواكه مما يشتهون و قصدنا المسجد الأعظم.

و من الأماكن التى تزار ببلاد الطائف البلد نفسه فقد وردت آثار تدل على فضله و انه منقول من الأرض المقدسة نقله جبريل عليه السلام بإذن اللّه تعالى و ورد فى الحديث ان النبى صلى اللّه عليه و سلم حرم عضاه وجّ و هو الطائف و هو عند الشافعية كحرم مكة لا يقطع شجره و كفاه هذا هذه فضيلة شارك فيها الحرمين الشريفين.

و منها قبر ترجمان القرآن حبر الأمة سيدنا عبد اللّه بن عباس رضى اللّه تعالى عنهما و هو فى قبلة المسجد الأعظم من يمناه و عليه بناء فخم و حوله على يسار الداخل من الباب قبر البطل الهمام و الليث المقدام فارس بنى هاشم سيدنا محمد بن الحنفية ابن أمير المؤمنين مولانا على بن أبى طالب رضى اللّه تعالى عنه و فضائله مشهورة و سبب انحيازه هو و ابن عمه عبد اللّه بن عباس رضى اللّه عنهما إلى الطائف مذكور فى التواريخ و بإزاء

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۱۵

قبر ابن عباس قبر يقال انه قبر عبد اللّه الطيب الطاهر ولد سيدنا محمد صلى اللّه عليه و سلم و الناس يتبركون به بهذه النية.

و منها المسجد الأعظم نفسه فانه فى محل نزول عسكر النبى صلى اللّه عليه و سلم عند محاصرة ثقيف بعد غزوة حنين و فى صحن المسجد مسجد صغير يقال انه منزل النبى صلى اللّه عليه و سلم فى الحصار المذكور و فيه محل يقال انه محل قبة أم المؤمنين أم سلمة بفتح اللام و قبة أم المؤمنين عائشة رضى اللّه عنهما و خبر حضورهما معه صلى اللّه عليه و سلم فى هذه الغزوة و انه اتخذ لكل واحدة قبة و مصلاه صلى اللّه عليه و سلم بين القبتين مذكور فى كتب السير و هناك محال متعددة فيها آثار فى الصخر الصلد كأثر ظلف الغزالة و الناس يتبركون بها و يقولون أنها أثر غزالة جاءت إلى النبى صلى اللّه عليه و سلم و سلمت عليه فى ذلك المحل و لم نر لذلك ذكرا فى شىء من كتب السير.

و منها مسجد على شفير الوادى بأعلى البلد فيه شجرة كبيرة لها أصلان متقاربان بينهما مثل ممر الشاة يقال أنها الشجرة التى اعترضت للنبى صلى اللّه عليه و سلم فى طريق له فانشقت شقين حتى مر بينهما و خبرها مذكور فى بعض الأحاديث.

قال أبو سالم و لم أر من ذكر أنها بهذا المحل و لا إنها باقية إلى الآن و أظن أن حديثها مذكور فى معجم الطبرانى الصغير و اللّه تعالى أعلم.

قال و فى هذا البلد أسواق حافلة يحضرها الناس من أطراف نجد و يجلب إليها من الحبوب و الثمار و الزبيب و العسل ما قضينا العجب من كثرته بحيث يخيل لنا أنا لم نر مثل ذلك فى الكثرة فى أسواق الأمصار العظيمة و ذكر فى رجعته هذه أنه طلع لهم الفجر بمنى قال فدخلت مسجد الخيف و صليت فيه الصبح و ليس به داع و لا مجيب و قد كان فى وقت الموسم ربما لا يجد الإنسان أين يضع جبهته من الأرض أحيانا لكثرة

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۱۶

الزحام قال و تأملت بسيط منى و شعابه و تبينت سعتها و امتدادها و كانت فى أيام الموسم ربما يخيل إلى الناظر ضيقها لكثرة الخلق و من رأى منى و ما حولها من الأماكن فى غير أيام الموسم علم حسن تشبيه من قال من أراد أن ينظر إلى الدنيا بعد انقراض أهلها فلينظر إلى منزل الركب بعد ارتحاله.

و منى فى أيام الموسم هى الدنيا بأسرها قصور عالية و أسواق حافلة و جنود مجندة و ملابس فاخرة و أطعمة شهية و مراكب هنية و بضائع غير معدودة و متاجر ثمينة إلى أنواع العبادات من تكبير و تهليل و صلاة و قراءة و نحر و ذبح و إطعام طعام و رمى جمار و ما الدنيا محمودها و مذمومها إلا ما ذكرنا و لا تمر على ذلك كله إلا ثلاثة أيام حتى لا تحس منهم من أحد و لا تسمع لهم ركزا فلا ترى فى منازلهم إلا عظاما نخرة و خرقا بالية و فضلات منتنة و غثاء أحوى و قثاما أغبر تسفيه الرياح و تذروه و هذا هو المثل الحقيقى للدنيا فليعتبر أولو الأبصار من سكان البادية و الأمصار انتهى كلامه.

و مزارات مكة كثيرة جدا بل أعظم المزارات و محط أمال الراغبين و منتهى سير الأملين و مناخ همم العارفين و غاية منية الشائقين و قبلة العابدين و وجهة المعتبرين و إليها تفد الوافدون و مسقط رأس سيد العالمين صلى اللّه عليه و سلم و على آله و أصحابه أجمعين فيا لها من بلدة ما أعز سناها فأهون بالطريف و التليد فى الاحتماء بحماها جنة من دخلها كان من الآمنين و من نحا نحوها من الفائزين و للّه در الإمام أبى على اليوسى رضى اللّه تعالى عنه و أرضاه و أناله منه بغاية مناه إذ يقول و ما أحسن ما يقول فى وداع وفد اللّه:

أحجاج بيت اللّه سيروا و أبشروابما لم ينله رائح و مبكر

و طيروا عجالى فوق أجنحة القطاو أجنحة الشوق المبرح أطير

إلى أن قال:

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۱۷ لقد ضاع دهرى فى المقام بمغربو مطلع وحى اللّه يرجى و ينظر

أنهنه نفسى فى السياق إلى العلىفتشمس عن ذاك الرهان و تنفر

و أسمو بها عن روضة الغى و الهوىفيقعدها صلصالها المتكدر

و أدفع عنها فى الوغى لاجيرهافتنهك أجناد الهوى و تكثر

فهل لى من صوب من الغيب باهريشيعها فيما تروم و ينفر

و هل لى من ريح تثير ركائبىإلى روضة فيها النبى المبشر

عليه صلاة اللّه ما انسجم الحيابروض و رضوان من اللّه أكبر

و أصحابه الغر الذين تالفواعلى اللّه فى الدين القويم و شمروا

خصوصا أبا بكر رفيق نبيهو صاحبه و هو الكبير المؤثر

و أيضا أبا حفص و كان محدثايكشف أحلاك الدجى و ينور

فيا روضة فيها لنبى محمدسفاك من الغيث السجيم المكرّر

و يا روضة تزهو بشمس منيرةو بدرين ملتاحين فيها و تزهر

دعاك غريب أوثقته بمغربمساوى المساعى و القضاء المقدر

فهل تسمح الأيام فيك بزورةو يشفى غليل فى الفؤاد مسعّر

و هل تنجز الدين الذى مطلت بهفتكفى بقايا ذنبها و تكفّر

فيا رب تحرم عبيدك سؤلهو أبلغه ما أبلغت من تتخيّر

و قد جاء سعيا بالحشا إذ تعذرتعليه خطاه و هو أشعث أغبر

سألتك بالمختار أحمد أنهلأنفس علق فى المطالب يذخر

عليه صلاة اللّه ثم سلامهو رضوانه ما فاح روض معنبر

و أصحابه والال ما ذر شارقفأجلى الدياجى ضوءه المتفجر

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۱۸

ذكر خروجنا من مكة المشرفة

بعد قضاء المناسك كلها و الإتيان بالعمرة على تفصيلها و الإحرام بها من مكان الإحرام فقد تم ذلك على الوجه الأكمل تقبل اللّه منا جميع ذلك و أننا مكثنا فى مكة ما مكثنا أعنى المدة المعلومة كما قيل.

أقمنا بها يوما و يوما و ثالثاو يوما له يوم الترحل خامس

إذ مدة إقامتنا فى مكة نحن مشتغلون بالطواف و الذكر و النظر فى الكعبة على أكلم حال و أتمه ليلا و نهارا و الحمد للّه تعالى على ذلك و قد انفصلنا من مكة عند الظهر و البعض عند العصر أما أحمالنا و أهل بيتنا فعند صلاة العصر إذ ودعوا البيت عند ذلك الوقت و أما أنا فقد ودعته ذلك الوقت ظنا منى الانفصال ثم ظهر لى بعض الشئون لا سيما المحب فى اللّه و الأخ من أجله سيدى محمد الشريف الطرابلسى فانتظرته إلى أن صلينا المغرب فودعت التوديع بقلب حاضر فلما كمل الوداع، و تم الانتفاع، و اشتاق الروح و أصابه الاتساع من ألم الفراق، و اضطرمت نار الشوق فى الفؤاد و أصابه حر الاحتراق، فركبنا و انفصلنا و الحمد للّه فوصلنا إلى موضع الخيام عند العشاء أو بعدها بقرب و خرجنا من أسفل مكة من الموضع المسمى بكدى بضم الكاف و هو الموضع الذى خرج منه النبى صلى اللّه عليه و سلم إذ يستحب الخروج منه و هو باب الشبيكة و نزل الركب هناك فى منزله المعلوم ينتظر كمال الرفقة و العالم بالأحكام كلها يخرج من كدى اقتداء به صلى اللّه عليه و سلم فى حجته على أن ابن رشيد ذكر فى رحلته عن بعض الأئمة أن الخروج إلى عرفات من الثنية السفلى أيضا فروى عن الحافظ أبى محمد بن أحمد الأندلسى قال كداء الممدودة هى بأعلى مكة عند المحصب حلق رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم من ذى طوى إليها أى صعد إليها و كدى بالضم و التنوين بأسفل مكة عند ذى طوى بقريب من شعب الشائعين

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۱۹

و الشعب بكسر الشين و ذلك عند قعيقان حلق رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم منها إلى المحصب إلى أن قال بات صلى اللّه عليه و سلم بذى طوى ثم نهض إلى أعلى مكة فدخل منها و فى خروجه إلى أسفل مكة ثم رجع إلى المحصب.

قال أبو محمد الأندلسى الظاهرى أخبرنا بذلك أحمد بن محمد العذرى عن كل من لقى بمكة من أهل المعرفة بمواضعها من أهل العلم بالأحاديث فى ذلك قال ابن رشيد و إنما سلك رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم هذا الطريق محلقا شبه الدائر لأنه لا يحصل التيامن فى النزول و الدخول إلى مكة و الخروج عنها إلا كذلك فتأمله و اللّه تعالى اعلم.

قال الشيخ أبو سالم و ما نقله ابن رشيد ابن حزم الظاهرى من أن خروجه صلى اللّه عليه و سلم إلى عرفات من كدى لم أر من ذكره من أهل السير و الحديث مع شدة تتبعهم لأفعاله صلى اللّه عليه و سلم فى حجته لما جمعت من معالم الشريعة و قواعدها و حضور جمع من المسلمين لم يجتمع مثله قط فى حياته صلى اللّه عليه و سلم و مثل هذا لا يخفى من أفعاله فى ذلك المجمع العظيم فقد حفظ من أفعاله صلى اللّه عليه و سلم فى تلك الحجة الجلى و الخفى حتى مباله صلى اللّه عليه و سلم فى الشعب قبل الوصول إلى المزدلفة فكيف يخفى هذا على أئمة الحديث و السير مع أن الحافظ أبا محمد ابن حزم مغرما بجميع الغرائب مع سعة اطلاعه و وفور علمه و كثرة حفظه الذى لا ينكره له موافق و لا مخالف فقد ذكر بعض الأئمة أنا أبا محمد ابن حزم ساق حجة الوداع فى كتابه الذى أفرده لحجة الوداع لا يمكن أن يسوقها كذلك حتى بعض من حضر لكثرة ما جمع و مبالغته فى التتبع للطرق و جمع الروايات و

ترجيحها و هو أهل لـذلك و المـذكور عند سائر المحدثين أنه صـلى اللّه عليه و سـلم لم يزل من يوم دخوله مكة نازلا إلى أن ارتحل ذاهبا إلى منى يوم التروية و يبعد أن يرتحل من الأبطح و ينحدر إلى

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۲۰

مكـة ثم يخرج من كـدى ثم يصـعد إلى كـداء فينزل منها إلى الأبطح فيذهب إلى منى من غير حاجة أكيدة لما فى ذلك من المشـقة الفادحـة الحاصـلة من تحليقه بأمكنة متعددة حتى يعود إلى المكان إلى ارتحل منه و مثل هذا ليس من الأفعال الجبلية و لو فعله صـلى اللّه عليه و سلم لكان يه أقوى دليل على مشروعيته و تأكيد العمل به و لسأله أصحابه عن السر فى ذلك لمخالفته للعادة مخالفة قوية و لو كان كـذلك لنقل نقلا مسـتفيضا و صار من أفعاله المطلوبـة و ليس هـذا مثل إدارته ناقته فى محل لخفة الإدارة و قد تكون لغرض أقتضاه الحال مثل قصـد العـدول إلى ناحيـة أو إرادة تكليم أحـد فـدارت الناقة لأجل ذلك و ذلك كثير ما يقع للإبل و مع ذلك فقد نقل فليتأمل ما ذكرنا و اللّه تعالى اعلم انتهى.

انعطـاف و هو أننـا نزلنـا فى محـل الركب مع نزول المصـرى أى المغربى على ناحيـة و هو على ناحيـة ثم أن أمير الحاج المصـرى أى حسـين بـاى مملوك عمر بـاى و هو رجـل صالـح محسن عاقـل و مع ذلـك انه أراد أن يتخلف المغربى وراء المصـرى قهرا إذ العادة السابقية أن الركب المغربى يتخلف فى الطلعة و فى الرجعة يسبق على أن المصرى لما تقوى و كثر فيه الظلم من الجند و ضعف الركب المغربى جعلوه وراءهم ذهابا و إيابا نعم لما تقوى ركبنا كثر نحو المصـرى غاية المصـرى كثر فيه الإبل و الخدام فتشـعب أمر المغربى فاجتمع رأى جميعهم على السـبق أعنى الفلالى و الجزائرى و الطرابلسـى لا سيما أن سلطان فزان هو الذى قدم بنفسه قد اشتهر بالعدالة فاتفق أمرهم على التقدم بل تعاهد الجميع على ذلك غير أن الفزانى تأخر فى مكة و كذا الفلالى فلم يسبق إلا ركبنا الجزائرى غير أنه قوى قوة عظيمـة لو اتفقت كلمته إلاـ أنه وقع فيه النزاع لأن الشـيخ سـيدى محمـد المسـعود نجل الشـيخ سـيدى الموهوب نجل البركة سيدى محمد الحاج

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۲۱

سهل الحكم لين العريكة يترك الناس على هواهم فلما حان وقت الظهر و إذا بالناس ارتحلوا خوفا من سـبق المصـرى لأن أميره يبعث إلينا و يقول بالذهاب جميعا إلى منزل الينبع أما أنا و أمثالى فقد رضـينا بذلك و أما باقى الركب فلم يرض إلا بالسـبق و لو أدى ذلك إلى الفتنة العظيمة بين المسلمين فارتحلوا و ما بقى إلا العبد الضعيف لأن من اكتريت منه قد هرب بالجمال فلم يترك إلا أربعة منها و مع ذلك أنها ضـعيفة و قـد دخل المصـرى إذ الجمال إذا هرب و دخل الصـرى تعـذر وجـدانه فلم يبق فى المنزل إلا خيمتى و عزمت على المشى فى المصرى و لم يبق معى إلا سيدى أحمد بن حمود ببلغته مع سيدى أحمد الشريف الطرابلسى و أصحابه كانوا متأخرين فى مكـة بأحمالهم فوقع بنا أمر عظيم ثم إن فضل اللّه علينا إذ جاءنا واحد من الجمالين الذين هربوا فمسـكناه و ربطناه و إذا بواحد من أصـحابه قد اسـتغاث به ليسـرحه فلما ذكرنا له الحجة قال سبحان اللّه أكرى لكم و أكرى لنا ثم إن واحدا من أصحاب عسكر المغربى من الجزائرى أتى ليسـرحه منهـا قهرا لكونه جعل له رشوة فلما عرفنى و علم بحالى رجع عليه و و دخل المصـرى نعم لحقه و مسـكه و قـال له لاـ بـد أن تـأتى بالجمال الـذى هرب للشـيخ و هو يوم قـد اشـتد فيه الحر و نحن نبحث فى المصـرى عليه أنا و ولـدى و ذلك الشـخص فأصـبانى عطش عظيم قد بلغ بى حد الموت فلما رآنى بعض من المصرى علم بحالى فسقانى سقاه اللّه من حوضه صلى اللّه عليه و سـلم فأحيـانى ثم أدخلنى لخيمته حتى زال عنى ذلـك فرجع إلى ذلـك الجزائرى أسـعده اللّه دينـا و دنيا فـذهب بى إلى خيمة عسـكر المصرى أعنى بيت كاخيتهم و هو رجل مسوسى قد فرح بى فرحا شديدا و أمر بالبحث عن جمالى و قال لا تذهب به إلى أمير المصرى فانه تغير شديدا على تقدم ركب

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۲۲

المغربى فقالوا له لا تبقى إلا خيمة الشـيخ فقال لا بأس عليه ثم أنهم أنوا إلى بجملين فى محل جمالى قالوا و أما هو فلم نجد له خبرا و

ذلک عنـد وقت العصـر فذهبنا إلى الخيمة فرفعنا الأهل و الدبش على تلک الجمال و ذهبنا منفردين ثم لحقنا الركب الفزانى ثم ذهبنا كذلک إلى أن صـلينا المغرب بعد مرورنا بالتنعيم و لم نزل كذلک فى أثر الركب الفزانى حتى مضى وقت العشاء بمدة فوجدناه نازلا فنزلنا معه ثم صبيحة تلک الليلة ظعنا معه إلى أن بلغنا وقت الضـحى الوادى الشـريف المسمى الآن فى ألسنة العوام بوادى فاطمة فنزلنا فيه بخيامنـا بعـد أن أردنا اللحوق بركبنا الجزائرى منفردين فلما سـمع السـلطان الفزانى بعث إلينا فكلمنا فقال بعـد زوال الحر عن وقت الظهر نرتحل و نسير ليلا إلى أن نلحق بالركب فى عسفان ثم لم يخلف الوعد كذلک فظعنا عند الظهر و لم نزل كذلک إلى أن قرب الصبح و إذا بزوجته أى السلطان المذكور توفيت فنزلوا فى الغيضة المعلومة بين عسفان و الجبل فلما دفنوها ارتحلنا عند الضحى.

ثم سـرنا كذلک إلى أن اشـتد الحر فوصـلنا عسـفان فنزل فأردنا الذهاب إلى الركب فى خليص فتشارونا مع السيد الشريف الطرابلسى فقـال إلى أن الفراغ من الغـذاء فلما فرغنا من شـغله ارتحلنا مع خيمتين للشـريف المـذكور مع أصـحابه متقلـدين بالحديـد نحو الأثنتى عشـرة بندقـة فـذهبنا إلى ان طلعنا الثنيـة التى بعد عسـفا فوجدنا فيه سـبالة فشـربنا و توضأنا و صـلينا الظهر و لم نزل كذلک ذاهبين فى الطريق المعلومـة فعنـد العصـر رأينا جموعا من العرب أصابنا منها خوف شديـد لأنهم لا يغادرون أحدا إلا قتلوه و أخذوا ما له و ذلک معلوم ضـرورة فاسـتعددنا لهم مع الخوف الشديد غير أن أصـحابنا من طرابلس فيهم قوة و شـجاعة إذا حلفوا باللّه تعالى أنكم لا ترون شيئا إلا بعد موت جميعنا و لم نزل كذلک سائرين و هم بمرأى منا و مسمع فبعيد ساعة زمانية إلا و رجل

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۲۳

انفصـل منهم جاءنـا نـذيرا و محـذرا منهم فقـال اجمعوا أمركم و لاـ تهملوا حـالكم و أظهروا شوكتكم فان العرب قـد اسـتعدوا لكم و أرادوا شـركم و قال حسبنا اللّه و نعم الوكيل أو كلاما هذا معناه فعلمنا انه رجل صالح مع الاحتمال انه منهم أو من غيرهم فالذى دلت عليه القرائن انه منهم ثم تركناه و انفصلنا عنه متوقعين أمرهم و متخوفين شوكتهم فهم أكثر من أن يحصوا غير أن اللّه تفضل علينا بقوة اليقين فى قلوبنـا فلم نسـتنشق منهم رائحـة خوف نعم لم يتحرك إلينا أحـد و لا التفت إلى جهتنا شـخص فهم على حالهم و نحن على حالنا بعد أن صـلينا العصر جماعة فلم نزل كذلک إلى أن صلينا المغرب فرأينا النار بعدية فظننا أنه عمارة خليص فلم نزل كذلک إلى العشـاء فقربنـا العمارة و لم نزل كـذلک إلى أن وصـلنا إلى الساقيـة الكبيرة التى تخرج من خليص فوجـدنا ركبنا نازلا بإزائها و فرحوا بلحوقنـا فرحـا شديـدا و قـالوا مـا نزلنا إلا منتظرين أمركم لا سـيما من انفرد عن رفقته منقطعا عنها و هم جماعـة انقطعوا معنا يأكلون و يشربون فى رحلنا نحو الثلاثة أيام إلى أن بلغنا إلى خليص فتلاحقت الناس و تم الأمر و اجتمعت الأحباب.

ثم ان الركب صـار مقيمـا ذلک اليوم إلى أن صـلينا الظهر فظعنا بعـد صـلاة الظهر بعـد السـقى و الاسـتقاء و دفنا من مات هناک و هو الحاج عبد اللّه بن الحاج الشـبانى و قد جعلنى وصيا على أولاده و لم يكن له ابن و إنما له بنات فوجدنا عند زوجته طفلا جعل اللّه فيه البركـة و لم نزل سائرين إلى أن بلغنا عقبـة السـكر و فيها بناء و قـد كتب فى بعض أحجاره أن أقبـح الناس من أتى إلى الحج بامرأة و كتب فى أخرى أن أقبـح النـاس من أتى بلا زوجـة ففهمنا منهما أن القبيـح إذا كان قادرا و لم يأت بزوجته فعليه الـذم المكتوب و أما الذى لا يقدر و أتى بها فعليه الذم المسـطور و هو كذلک و نحن و الحمد للّه ذهبنا بأهلنا و لم نر ما يخل بديننا و مع ذلک قد علم قلة زادنا و ضعف حالنا نعم لما تفضل اللّه علينا سرنا سيرة الملوک و ذلک كله بفضل من اللّه و منة و لم نزل كذلک

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۲۴

سـائرين إلى الصـبح ثم إلى قرب الظهر فنزلنـا و بتنـا فيه و لما أن أصـبح اللّه بخير الصـباح ظعنا منه و نزلنا رابغا و هى قريـة كبيرة ذات أسواق و نخيل كثير و واد عظيم.

ثم ظعنا منه و النفس مسرورة إلى أن نزلنا مستورة و أكثر الناس يسمونها قاع البزوة و أظن أنهما مكانان متباينان ثم ظعنا منه فنزلنا بدرا و هى قريـة عظيمـة ذات أسواق و مساجـد و ميـاه و نخـل كثير و أتى النـاس إلى الركب من كل فـج عميق إذ اجتمعت الأركاب كلها هناک و أقاموا فيه يوما صـحيحا فى شـرهة عظيمة و نزهة كبيرة و هى بدر التى ذكرها اللّه فى القرآن و هى مزارة عظيمة لا سـيما قبور

الشهداء ثم ارتحلنا منه بعد صلاة الظهر قرب صلاة العصر و سبقنا الركب المصرى بل وقع الازدحام فى الوادى المعلوم فكثيرا لا يجد الإنسان فرجة يخرد منها غير أن المصرى لا يستوى ذاهبا إلا بعد صلاة المغرب لأنه حينئذ يسوّى الأقطار و يتسع الطريق و لم نزل كذلك سائرين فى الليل الراكب راكب و الماشى ماش على أن أكثر الناس من الفلاحين و من لا قصد له فى زيارته صلى اللّه عليه و سلم يذهب من بدرا إلى الينبع حاصله نحن سائرون فى الليل فى ذلك الوادى و فيه قرى كثيرة ذات بساتين و انه قد وجد فيها شجر الموز و قيل انه يصلح فيها و يثمر و لم نزل راكبين كذلك سائرين فى الوادى و فى تلك الخيوف فلم يكن أشد حرا من تلك الخيوف بل فى بلاد الحجاز.

ثم كذلك إلى أن نزلنا القرية المعلومة التى ينزل فيها الركب و هى جديدة و فى هذه القرية مسجد جامع له بناء متقن تجرى العين من تحته من بناء الأمير رضوان رحمه اللّه تعالى و كم له فى طريق الحجاز من مآثر و معالم تدل على همته ثم ظعنا منه عند الظهر ثم ذهبنا على الطريق المعلومة و هى الوادى و لم نزل كذلك و لم نزل كذلك إلى أن وصلنا مسجد الغزالة و هى من الأمكنة التى صلى فيها النبى صلى اللّه عليه و سلم و هو المسمى عند المؤرخين بمسجد عرق الظبية فزرناه و سألنا اللّه تعالى فيه كل ما يصلح دينا و دنيا.

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۲۵

ثم صعدنا كذلك مع الوادى إلى وقت المغرب فبتنا إلى الصبح و مررنا ببناء عظيم و أظنه ما نقله شيخنا المذكور و نصه أتينا الروحاء وقت الظهيرة و تفرق الناس بأشجارها و لوقت الظهر ينتظرون و وجدنا بئرها لا ماء به و حوله بركة معطلة و بإزائها مسجد وثيق البناء صحيح و صلينا به الظره و لو قيض اللّه تعالى لذلك الموضع من يعمره لكانت فيه أعانة للحجاج لكن اللّه يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد و قد ذكر السيد السمهودى قريبا من البئر مسجدا من مساجده صلى اللّه عليه و سلم و لا أدرى هل هو المبنى الأول أو غيره.

ثم سرنا و صلينا العصر بملل بعد ما تجاوزنا السيالة و مررنا على شرف الروحاء و هو المكان المسمى الآن بقبور الشهداء و قد ذكر بعض الناس أن الشهداء الذين سمى بهم المكان قوم قتلوا هنالك ظلما.

و قد ذكر السمهودى أيضا مسجدا من مساجده صلى اللّه عليه و سلم بشرف الروحاء قال أبو سالم و كان هناك مكان محوط عليه بحجارة شبه مسجد يزوره الناس و أظنه هو و فى شرف الروحاء آثار آبار معطلة و بيان داثر و قد كانت فى القديم هناك قرية و لم يبق بها الآن شىء من ذلك و أخبرنا أن وراء الجبل بلدا خاليا فيه آبار و بعض نخيل و أظنه أنه السقيا فإنها قريب من شرف الروحاء فلما تجاوزنا شرف الروحاء سرنا و رأينا هلال المحرم ليلة الاثنين حتى مغيب الشفق و أهل طيبة على مشرفها أزكى السلام و أطيبه رأوه ليلة الأحد انتهى.

فأقول لم نزل سائرين إلى أن بلغنا قبور الشهداء عند الظهر فوجدنا الركب المصرى نازلا هناك و مررنا سائرين كذلك إلى أن صلينا المغرب و نزلنا إلى الصبح بل قبل طلوع الفجر ظعنا مبكرين عازمين نهارنا و ليلنا دخول المدينة المشرفة فسرنا نهارا و ليلا فتراسلت الناس أفواجا، و تتابعت بحور الأركاب أمواجا، كأنها البحر فى

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۲۶

سيرها، أو البرق فى خفة أمرها، و لم يسأم الناس مما لقوا من النصب و التعب لشدة الفرح، الذى استولى على الترح، و قد خف بعض ذلك بل أزاله من أصله و إذا عمرت القلوب بالمسرات، ذهلت الأجسام عما تلاقى من المضرات، و إذا تنعمت بروح القرب الأرواح، لم تبال بما حصل من المشقة الأشباح، و أى مسرة أعظم من الدنو من دار الحبيب الرسول صلى اللّه عليه و سلم، و أى لذة أهنأ و أتم من رؤية حضرته صلى اللّه عليه و سلم و الوقوف عند روضته التى هى غاية المنى و السؤل، فلعمرى لقد انتعشت الأجسام بعد ما ذبلت، و طلعت شمس الأفراح بعد ما افلت، و انبسطت أنوارها من القلوب إلى الوجوه فأشرقت، و سرى أجلالها و أعظامها من الأفئدة إلى الرؤوس فأطرقت، و ظهر أثر النشاط و المراح فى الركائب فأسرعت، و خبئت من دون حاد و لا سائق و أوضعت، و كأن ما ينالها من سموم النصب و لهيب التعب نسيم السحر، و كأن عرفها السائل مع الأعناق بليل المطر، لا تلوى إلى سمرة خضراء، و لا تألو ما

أسرعت فى موماة غبراء.

قال أبو سالم و عند ما شاهدت من صنيعها الغريب ما شهدت ترنمت، فوق الأكوار و أنشدت:

خليلى ما للعيس فى سيرها تعدوو من قبل اعيت من يسوق و من يحدو

أظن لها علما يقينا بأنهالقبر رسول اللّه قد أصبحت تغدو

لذلك لم تجزع لحر أصابهاكما جزعت بالأمس إذ مسها الجهد

فلا تعجبوا من علمها باقترابهاو ليس لها بالدار من قبل ذا عهد

ففضل رسول اللّه فى الكون ظاهراقرت به العجماء و الحجر الصلد

و أنوار أرض حلها قد تلألأتأحست بها الأبصار و العظم و الجلد

دنت فدنت أعلامها فبدالنامن الشوق فى الاحشاء ما لم يكن يبدو

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۲۷ عليها من الرحمان أزكى تحيةتدوم دواما ما لأخره حد

تكاد من الأشواق أرواحنا لهاتطير و لم تجزع و أن نالها كد

و لو لا الذى قد عافها من جسومنالطارت و لكن الجسوم لها قيد

و كنا نظن القرب يذهب بعض مابها فإذا بالقرب زاد لها الوجد

و لم لا و آن الوصل محكم ذكرهاغدا ناسخا ما كان يقرأه البعد

أناح لنا الرحمان فيها إقامةبخير إلى أن يحوى الجسد اللحد

بجاه حبيب اللّه أفضل من بهتوسل من لم يغنه الجد و الجد

عليه الصلاة اللّه ما دام وصلهيزيد له شوقى إذا ذكرت نجد

و لم نزل كذلك بصواعق الشوق ترتعد الجوارح منها و تطش، و لا تشاهد العين إلا مشاهدة الضمير فجناح العشق له ريش ، و الزوار فى كل واد يهرعون، و إلى الارتقاب فى كل مرقب يسرعون، ليشاهدوا بعض تلك القباب، فتمتع العين قبل تتمع الجسم بالدخول من الباب، و أول مكان ترى منه قبابها و أسوارها، و تشاهد منه بالبصر و البصيرة أنوارها، الجبل المسمى بمفرح، إذ لا يبقى بعد الصعود إليه همّ مبرح، فتسارع الناس عند الدنو منه لصعوده، و تباشروا برؤية منزل الرسول و شهوده، فلم يتخلف عن الصعود إليه، إلا من لا قدرة له عليه.

قال شيخنا المذكور عن شيخه أبى سالم و فى ذلك قلت هذه الأبيات، ذاكرا لبعض المعالم التى هى للقرب من أصدق الآيات:

يا صاحبى نلت المنى فاستبشرو دنوت من دار الرسول الأطهر

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۲۸ و بدت معالم طيبة لك فاستمعأوصافها من صادق لك مخبر

هذا مفرح كاسمه و كأنهياقوتة رشت بذائب عنبر

و أمامه البيداء يسطع نورهالبصائر الزوار هل من مصر

و على يمينك قد بدا عير يرىبالقرب كالثور العقير الأعفر

و انخ ركابك بالمعرس انهلمبارك و بمائه فتطهر

واحد الركاب مع العقيق منعماعينيك فى ذاك المكان النير

يا حبذا أحد نراه يحبناو نحبه جبل جميل المنظر

فكأنما هو حلة من عسجدصبغت جوانبها بمسك اذفر

و إذا اتيت لحرة غربيةو علوت غاربها علوّ مشمّر

و دنا النقا و بدا المصلّى فاغتبطبالقرب من أصل المفاخر و افخر

و أترك قبا من عن يمينك و اجعلن‌سلعناغ فديتك فى الجناب الأيسر

و اصمد تجاهك يعترضك مهنيابطحان دون مناخة و العنصر

ما بعد ذا إلا الدخول لطيبةبسكينة تمشى بدون تكبر

يهديك للحرم المكين شذاه من‌باب السلام أدخله دون تصبّر

و عن الصلاة على النبى مسلمامهما قربت لداره لا تفتر

و اعلم بانك أن وقفت مصلياما بين روضة سيدى و المنبر

فى روضة من جنة متقلبامن أرضها فى طاهر و مطهر

تغشاك من رحمات ربك نفحةتحظى بها دنيا و يوم المحشر

فلأنت بينهما يقينا واقف‌ما بين جنة عدنه و الكوثر

فإذا وقفت أمام وجه نبيه‌حيّاك بالرضوان منه الأكبر

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۲۹ فهناك تستحلى البصيرة إن صفت‌اصل الجمال بدا بأعظم مظهر

فترى العوالم كله بجمالهاو جلالها حضرت بأقدس محضر

أصل الوجود و منبع الجود الذى‌عمّ المظاهر فى جميع الأعصر

نور الإله به استنار عباده‌دنيا و اخرى ذى المحيّا الأزهر

محمود كل الخلق أحمد حامدو محمد بمقام حمد أشهر

صلى عليه اللّه خير صلاتهو الآل و الأصحاب أكرم معشر

لما تجاوزنا جبل مفرح بمسيفة قطعناها دون مين، وصلنا إلى منتهى أبعد الحرمين، و هو حرم الشجر الذى هو بريد فى بريد، و حده طرف البيداء التى بها الهموم تبيد، و قطعناها بفرح و سرور، و نشاط و حبور، و جئنا قبيل الزوال ذا الحليفة قد نسى كل ألف من شدة السرور ألفه، و هى البطحة المباركة المكينة، و ميقات ساداتنا أهل المدينة، و بها المعرس الذى أمر النبى صلى اللّه عليه و سلم بالتعريس فيه، فنحن فى ذلك نقتفيه، و اغتسل من أصحابنا من أراده هنالك و توضأت و صلينا بمسجد ذى الحليف و بالمعرس أيضا انتهى.

انعطاف إلى ما كنا بصدده و هو أننا سرنا بالليل إلى طلوع الفجر فقربنا المدينة المشرفة ثم كذلك إلى الإشراق بل إلى الضحى دخلنا المدينة المشرفة و نزل الركب المغربى عند الباب الذى يذهب منه إلى جبل أحد و تخلف أكثر أصحابنا و معهم ولدى محمد حتى ظننت أنه نام فى بعض المواضع و خفت أن يأخذه اللصوص فكنت اسأل عنه فأخبرت أنه تخلف مع الأصحاب راكبا على فرس الشيخ سيدى محمد المسعود و هو راكب على بلغتى إذ هو مريض قد أشرفه المرض على الموت و أوصانى على أهله و أولاده بأن أكون لهم حافظا و مراعيا إلى أن يصلوا مدكال فبرئ و الحمد للّه ثم بعد وصول ولدنا.

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۳۰

حاصله لما أشرفنا على المدينة المشرفة على ساكنها أفضل الصلاة و السلام غشينا نور عظيم و بهاء قوى لا يخفى عن أهل الذوق السليم و الطبع المستقيم إلا من حجب بالحجاب الجسمانى و الهوى النفسانى و نزغات الشيطانى و أقول كما قال شيخنا المذكور و لم نزل يومنا هذا فى حل و ارتحال، و انتقال من حال إلى حال، حتى إذا لاحت حدائق النخيل من المدينة و القباب، و تلك المآذن فى الحرم الشريف على باب، تذكرنا قول القائل و لقد صدق من قائل :

و لما رأينا رسم من لم يدع لنافؤادا لعرفان الرسوم و لا لبّا

نزلنا على الأكوار نمشى كرامةلمن بان عنه إن نلمّ به ركبا

انتهى.

و لما استقر بنا المنزل، و اجتمعت فيه الأصحاب و الأهل، ذهبنا إلى الحرم الشريف، و المسجد المنيف، إلى أن وصلنا فدخلنا من باب السلام، على صاحبه أفضل الصلاة و السلام، و لقد تاه القلب فى الجلال، و البهاء و الكمال، و انبسط علينا النور فى الحال، و كنا فى التنقل فى مراتب التجلى أعز انتقال، فاطمأن الفؤاد و طاب الحمد و الثناء على الوصول إلى روضة المتعال، فبلغ القلب مناه فغاب عن الأكوان بكامل البدور و قمر العز فتنزه عن سواه غير أنى خفت بل تيقنت أنى لست أهلا لمشاهدة الرسول، و لا ممن يتأدب بأدب الفحول، نعم الفضل و المنة على الأصاغر لا يزول، فتوجهت إلى الموضع الذى صلى فيه الرسول، و هو القريب من العمود المخلق لأنه ليس بمجهول، فركعت تحية المسجد و مع ذلك أنى فى مرض و نحول، و هو مرض الإسهال و تقوى على السقم غير أن القلب منى قوى يجول فى العالم العلوى يسرى و بالعلوم اللدنية يقول، فلا يكاد يرجع بل يتيه و يتعالى فى الارتفاع فهو بعيد عن التنزل

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۳۱

و النزول، فلم يمر على زمان أحلى من هذا الزمان، و لا استقررت بمكان أحلى من هذا المكان، فذلك الوقت هو عيد الأرواح، و جنة الأشباح، و بستان الفؤاد يزهر بالأقاح، و حور المعارف قد حليت بحلل الألمع و الألماح، فيها لها من صفقة قد علت و قامت بالأرباح، فليس لذلك الزمان ثان، و لا لذلك العصر أوان، بخبخ على زيارة الحبيب، و الأشراف على رحيم قريب، حريص عليكم بالمنى، رءوف بالغنا، رحيم بالهنا، لطيف بالسنا، شفيق يودنا، هنيئا مريئا لنا، إذ قال مرحبا و أهلا و سهلا بوفودنا، و هو أكرم من تكرم من أنبيائنا و رسلنا، حاشاه أن يحرم تلك الوفود و الزوار منا و من أصحابنا، بل ما عنده من خزائن الكرم لضيافه تقتنى، فانه أجل أن يمنع بعض الناس بسوء فعله و ما حصل له من العنا، نعم بسط رداء كرمه لجميع من أتاه فلم يخب أحد مما تمنى، فحقيق و جدير قد حصل للناس كلهم الغاية القصوى و المنى، و كيف لا و اللّه يقول حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم فليس إلا الفرح و الحبور و الهنا، لأن كل أحد من الواقفين لديه تيقن من نفسه أنه حصل له منه صلى اللّه عليه و سلم ما به القصد و المعتنى، هذا و إن العبد ذهب للقبر الشريف، و المحل العظيم المنيف، يستنشق سباحة طلعته، صلى اللّه عليه و سلم و كريم نشأته، و طيب ذاته الكريمة و جميل هيئته، لأنه صلى اللّه عليه و سلم حى فى قبره الشريف و انه روضة من رياض الجنة ينظر القاصدين إليه بأن يكمل الكاملين، و يغسل المتلوثين، فكل يعامله على حسب نيته، و يرفعه على حسب همته، فلما توجهت إليه أقول كما قال شيخنا المذكور.

ما نصه فركعنا بمصلى النبى صلى اللّه عليه و سلم بإزاء العمود المخلق الكائن فيه روضة الجنة، و عظمت علىّ من اللّه المنة، فتقدمت إلى الحجرة الشريفة، البهية المنيفة، و لما واجهت الضريح، و عدلت عن حديث النفس إلى البيت الصريح، و أفصحت عما فى النفس أى إفصاح، و ألححت أى إلحاح، أخذت الدموع فى الانحدار، و مناداة البدار البدار، على ذلك الحال الأول، من توالى العبرات و العهد الذى ما تحول:

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۳۲ خلّى الدموع لوقتهايا مقلتى و تمتعى

و تغنمى طيب اللقاوردى لذيد المشرع

هذا الذى يوم القيامة راج خير مشفع

هذا الذى إن جاد أزرى بالغيوث الهمّع

فترقبى خلع القبول مع النّدى المتنوّع

و أنا الكفيل إذارحلت من البكا أن تشبع

فزرنا أكرم نبى و أفضل رسول، و سلمنا عليه و على صاحبيه الفائزين من قربه بأعظم مأمول، و أسنى رسول.

وصلنا إليه و اتصلنا بقربهفلله ما أحلى وصولا وصلناه

و قمنا و سلمنا عليه و انه‌ليسمعنا من غير شك شككناه

ورد علينا بالسلام سلامناو قد زادنا فوق الذى نحن زدناه

كذا كان خلق المصطفى و صفاته‌بذلك فى الكتب الصحاح وصفناه

و من كان وصّى بالسلام لأحمدفبشراه بلّغنا السلام و نبناه

و ثمّ دعونا للأحبة كلهمو كم من حبيب بالدعاء خصصناه

و ملنا لتسليم الإمامين بعدهفإنهما حقا هناك ضجيعاه

و متعت بذلك الحرمو كرعت فى مناهل الفضل و الكرم

انتهى.

نكتة و فائدة قد فعلنا ما أمرنا به و امتثلنا طبق ما نحن بصدده تقبل اللّه من الجميع و للّه المنة فأيام إقامتنا بمسجده صلى اللّه عليه و سلم أن لازمنا الصلوات الخمس فيه و الحمد للّه ما صلينا صلاة فى غيره و بالجملة فقد لازمت المسجد النبوى للصلاة

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۳۳

و لغيرها فلا نخرج منه إلا لما لا بد منه كالأعراض البشرية و زيارة البقيع و غيره من المزارات و لما استقربن الحال خرجنا لزيارة البقيع مع البعض من أصحابنا من المدينة المشرفة على ساكنها أفضل الصلاة و السلام.

قال شيخنا المذكور.

ذكر المشاهد التى زرناها بالمدينة المنورة إلى أن قال خرجنا إلى زيارة أهل البقيع، ذوى المجد الأثيل و القدر الرفيع، رضوان اللّه تعالى عليهم و تتبعنا الأماكن المشهورة إلى أن قال و دعونا اللّه عند كل مشهد بما نرجو اللّه قبوله لنا و لإخواننا و أحبائنا الحاضرين و الغائبين و مشائخنا نسأل اللّه تعالى أن يعود ببركة ذلك علينا و عليهم فى ديننا و دنيانا و قد استوفى السيد السمهودى فى تاريخ المدينة ذكر المشاهد الظاهرة بالبقيع أحسن استيفاء فليراجعه من أراد تحقيق ذلك.

و لنذكر بعض المشاهد ممن زرناه و إلا فمقبرة المدينة لا مقبرة على وجه الأرض أشرف منها بالإجماع فهى خارجة من الخلاف الذى فى تفضيل المدينة على مكة إذ لا نعلم مقبرة على وجه الأرض مثلها دفن فيها من سادات هذه الأمة و أفاضلها من الصحابة خصوصا الخلفاء و أزواج النبى صلى اللّه عليه و سلم و أولاده و أكابر أهل بيته و سادات التابعين و تابعيهم بإحسان فهم آل زمرة تحشر مع النبى صلى اللّه عليه و سلم فيهم خلفاؤه و أعمامه و عماته و بناته و ولده إبراهيم و أزواجه و أكابر أهل بيته و الجم الغفير من أصحابه و أنصاره و أولادهم و أتباعهم فلا يشك مسلم أن ليس فى امة النبى صلى اللّه عليه و سلم أفضل من الزمرة التى تبعث من المدينة.

و قد روى عن الإمام مالك رضى اللّه عنه انه قال دفن بالمدينة أكثر من عشرة آلاف من الصحابة و بها شهداء أحد و ليس فى غزواته صلى اللّه عليه و سلم أكثر من

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۳۴

هذه الغزوة شهيدا و بها شهداء الخندق و بها شهداء الحرة و ليس فيمن استشهد بعد النبى صلى اللّه عليه و سلم أكرم منه شهيدا و كم فيها من مآثر و مشاهد يعلم بعضها بالنظر فى تأليف من ألف فى فضلها فأول من يلقاك من المشاهد إذا خرجت على باب بالنظر فى تأليف من ألف فى فضلها فأول من يلقاك من المشاهد إذا خرجت على باب المدينة المسمى بباب البقيع قبة فيها صفية بنت عبد المطلب عمة النبى صلى اللّه عليه و سلم على يسارك و أنت ذاهب فى الزقاق الذى وسط البقيع إلى ناحية المشرق و إن ملت إلى اليمين مع سور المدينة فهناك مسجد صغير قيل انه موقف النبى صلى اللّه عليه و سلم حين خرج يستغفر لأهل البقيع و قيل هو زاوية دار عقيل بن أبى طالب التى دفن فيها و فيها دفن أكثر أهل البيت روى عن خالد بن عرفجة قال كنت أدعو ليلة إلى زاوية عقيل فمر

بى جعفر بن محمد فقال لى: أعن أثر وقفت هنا؟ فقلت: لا. قال: هذا موقف النبى صلى اللّه عليه و سلم، إذ خرج يستغفر لأهل البقيع.

قال المراغى و قد أخبرنى غير واحد ان الدعاء هناك مستجاب فإذا مررت كذلك تحت سور المدينة يمينا إلى أن توازى قريبا من زاوية سور المدينة الذى فيه مشهد السيد إسماعيل فهناك على يسارك القبة الكبيرة المؤثلة فى الهواء و فيها مشهد العباس و مشهد الحسن بن على و مشهد أمه السيدة فاطمة الزهراء على المشهور رضى اللّه عنهم أجمعين.

و قيل أمامهم لجهة القبلة و مشهد زين العابدين و محمد الباقر و جعفر الصادق و كثير من أهل البيت و بين هذا المشهد و زاوية دار عقيل مشاهد متعددة إلى جهة المشرق و منها مشهد أمهات المؤمنين يروى أن فيها أمهات المؤمنين كلهن ما عدا خديجة و ميمونة رضى اللّه تعالى عن جميعهن و هو فى قبلة المشهد المنسوب لعقيل و منها المشهد المنسوب لعقيل و فيه قبر ابن عمه أبى سفيان بن الحارث روى أن عقيل ابن أبى طالب رأى أبا سفيان بن الحارث يجول بين المقابر فقال يا ابن عمى ما لى أراك هنا فقال أطلب موضع قبر فأدخله داره فأمر بقبر فحفر فى قاعتها فقعد عليه أبو سفيان ساعة ثم انصرف فلم يلبث إلا يومين حتى توفى و دفن فيه و منها مشهد يقال أن فيه بنات النبى

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۳۵

صلى اللّه عليه و سلم كلهن رضى اللّه تعالى عن جميعهن ما عدا فاطمة الزهراء رضى اللّه تعالى عنها و هو قرب مشهد عقيل و لا شك أن من مات من أهل بيت النبى صلى اللّه عليه و سلم فى حياته كان فى قبة قرب قبر عثمان بن مظعون لما ورد فى الأحاديث الصحيحة أن النبى صلى اللّه عليه و سلم لما مات عثمان بن مظعون وضع عند رأسه حجرا قال اعلّم به قبر أخى و أدفن فيه من مات من أهلى و هذا المشهد قريب من ذلك.

و منها مشهد سيدنا إبراهيم ابن النبى صلى اللّه عليه و سلم فيه قبره و قبر عثمان بن مظعون فقد جاء فى الحديث أن أول من دفنه رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم بالبقيع عثمان بن مظعون فلما توفى ابنه إبراهيم قالوا يا رسول اللّه أين نحفر له قال عند فرطنا عثمان بن مظعون و فى الحديث ما يدل على أن بنات النبى صلى اللّه عليه و سلم هناك فقد روى الطبرانى عن ابن عباس رضى اللّه عنهما لما ماتت رقية بنت رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم قال ألحقى بسلفنا عثمان بن مظعون و الثابت فى الصحيح أن النبى صلى اللّه عليه و سلم لم يحضر ابنته رقية لغيبته ببدر و انه حضر ابنته أم كلثوم و زينب قال السمهودى أصل المروى فى الطبرانى و أرد فى أحداهما ثم قال و الظاهر إنهن جميعا عند عثمان بن مظعون لقوله عليه الصلاة و السلام لما وضع الحجر عند رأس عثمان بن مظعون اعلّم به قبر أخى و أدفن إليه من مات من أهلى رواه ابن ماجه بفتح الجيم مخففة و الحاكم و فى ذلك المشهد أيضا قبر فاطمة بنت أسد أم على رضى اللّه عنه كما حققه السيد و استدل لذلك بأحاديث ثم قال و هذا صريح فى مخالفة ما عليه الناس اليوم فى المشهد المنسوب إليها فى فم زقاق أقصى البقيع من شرقيه بل ليس من البقيع و فى هذا المشهد قبر عبد الرحمن بن عوف رضى اللّه عنه فقد روى عن حميد بن عبد الرحمن قال أرسلت عائشة إلى عبد الرحمن بن عوف رضى اللّه تعالى عنهما حين نزل به الموت أن هلم إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و إلى أخويك فقال ما كنت مضيقا عليك بيتك إنى كنت عاهدت ابن مظعون أينا مات دفن إلى جنب صاحبه.

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۳۶

و فى المشهد أيضا سعد بن أبى وقاص رضى اللّه عنه روى عن ابن دهقان قال دعانى سعد بن أبى وقاص فخرجت معه إلى البقيع و خرج بأوتاد حتى إذا أتى موضع زاوية دار عقيل الشقية الشامية أمرنى فحفرت حتى إذا بلغت باطن الأرض ضرب فيها الأوتاد ثم قال إن هلكت فأدلهم على هذا الموضع يدفنونى فيه فلما هلك قلت ذلك لولده فخرجنا حتى دللتهم على ذلك الموضع فوجدوا الأوتاد فحفروا له هنالك و فى هذا المشهد أيضا قبر عبد اللّه بن مسعود فقد روى ابن سعد فى طبقاته ان ابن مسعود رضى اللّه عنه قال ادفنونى عند قبر عثمان بن مظعون و فى المشهد أيضا قبر خنيس بن حذافة السهمى زوج حفصة قبل النبى صلى اللّه عليه و سلم فقد روى أنه دفن عند عثمان بن مظعون و فيه أيضا قبر أسعد ابن زرارة رضى اللّه عنه.

قال السيد السمهودى بعد ذكره لما تقدم مبسوطا بأدلته فينبغى السلام على هؤلاء كلهم عند زيارة مشهد سيدنا إبراهيم معه فاطمة بنت رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم على القول بأنها بالبقيع و هو الأرجح انتهى.

قلت و قد تقدم إنها فى قبة العباس مع ابنها الحسن و ذريته و هو الأولى إن شاء اللّه تعالى قاله أبو سالم.

و منها مشهد أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى اللّه تعالى عنه بموضع يسمى حش كوكب فى أقصى البقيع من ناحية المشرق عليه قبة عظيمة هائلة و فى قبلته خارجه محوط من خشب مخروط فيه قبر النقشبندى رضى اللّه عنه و منها مشهد ينسب لحليمة السعدية مرضعة النبى صلى اللّه عليه و سلم شامى مشهد عثمان إلى جانب الطريق عليه قبة لطيفة.

و منها مشهد الإمام مالك رضى اللّه عنه إذا خرجت من باب البقيع كان مواجها

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۳۷

لك على يمين زقاق البقيع الذى يشق وسطه و إلى جانبه يقال أنها لنافع مولى ابن عمر و قيل لنافع القارئ و قيل لبعض ولد عمر بن الخطاب رضى اللّه عنهم و منها المشهد المنسوب لفاطمة ابنة أسد بأقصى البقيع و قد تقدم عدم ارتضاء السيد لذلك قال عند ذكره لهذا المشهد و الظاهر انه مشهد سعد بن معاذ الأنصارى رضى اللّه عنه و من المشاهد القريبة من البقيع و ليست منه مشهد سيدنا إسماعيل بن جعفر الصادق و هو كبير يقابل مشهد العباس فى المغرب و هو ركن سور المدينة هناك و بنى قبل السور فصار بابه من داخل المدينة و المسجد الذى بجانب المسجد لزين العابدين و عرصة المسجد داره و البئر التى بين الباب الأول و المشهد بئره و قد ذكر انه يتداوى بها.

و قال شيخنا أبو سالم و هناك بئر أخرى فى الرحبة الواسعة التى هى خارج المشهد يقال أنها هى التى يستشفى بمائها.

غريبة قال شيخنا أبو سالم فى رحلته لما قدم ركب أهل العراق و كان غالبهم روافض بل كلهم و كانوا يكثرون زيارة مشهد السيد إسماعيل رضى اللّه عنه كغيره من مشاهد أهل البيت و كانوا يأتون إليه أفواجا فلما ينقطع زائر منهم أيام إقامتهم بالمدينة قال فبينما نحن ذات يوم جالسون إذ جاءت طائفة منهم فيهم بعض من يشار إليه منهم فزاروا و سلموا و كان من جملة سلامهم إن قالوا السلام عليك يا سيدنا إسماعيل و بالغوا فى تعظيمه إلى أن قالوا نشهد أنك على دين أخيك موسى يعنون موسى الكاظم رضى اللّه عنه و نشهد أنك غير مخالف له متبع لطريقه فى هذيان كثير.

و سبب ذلك و اللّه اعلم أن الرافضة قبحهم اللّه منهم طائفة تقدم إسماعيل على أخيه و يقولون أنه الإمام بعد أبيه و أنه أحد الأئمة الأثنى عشر المعدودين عندهم يعتقدون فيهم العصمة و هذه الطائفة تسمى الإسماعيلية و كثير منهم بأرض اليمن الآن لهم مذاهب ينتحلونها و آراء فى العقائد يعتقدونها و من سوى هؤلاء الروافض

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۳۸

يعتقدون الإمامة لأخيه موسى الكاظم رضى اللّه عنه و يعتقدون أن أخاه لا ينازعه فى ذلك و يرون إن الإسماعيلية كاذبون عليه مفترون فى ادعائهم الإمامة له و لأجل ذلك ينزهون إسماعيل عن مخالفة أخيه رضى اللّه تعالى عنهما و من علم أحوال هؤلاء الأئمة من أهل البيت و أسلافهم و أولادهم رضى اللّه عنهم و علم ما كانوا عليه من تعظيم السنة و وفور العلم و تعظيم أصحاب جدهم صلى اللّه عليه و سلم علم براءة ساحتهم من كذب هؤلاء الأرجاس و أفترائهم عليهم أحاديث ما أنزل اللّه بها من سلطان، و لا جاء فى سنة نبيه بيان، و لما خرجت الطائفة المذكورة من المشهد و جاءوا إلى البئر الخارجة وقفوا عليها و ترحموا و دعوا و قال لهم كبيرهم أن هذه البئر هى التى دخل فيها الإمام جعفر الصادق رضى اللّه عنه فغاب عن أعين الناس إلا الآن و هم يظنون أنه قد مات أو كلاما هذا معناه فقضينا العجب من حمقهم و قبح اعتقادهم فى آل البيت الذى آل بهم إلى تنزيههم عن الموت و ذلك معتقد الروافض بأجمعهم فى الإمام الثانى عشر من أئمتهم و هو محمد بن حسن العسكرى رضى اللّه عنه يعتقدون أنه إلى الآن حى و انه هو المهدى الذى يخرج فى آخر الزمان الموعود به فى الحديث الصحيح أنه يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا قلت و العجب كل العجب من

متابعة بعض أهل التصوف فى ذلك لهم حسبما نقله سيدى عبد الوهاب الشعرانى عن بعض مشائخه و انه اجتمع به و أخبره بمقدار عمره و انه جاوز السبعمائة سنة إذ ذاك بل فى كلام بعضهم ما يشير إلى أن الشيخ محيى الدين يقول بذلك و لو لا الإطالة لنقلت كلامهم فى ذلك و العلم عند اللّه تعالى فإن صح عن هؤلاء الأئمة أنهم قالوا ذلك فنحن ممن يعتقدهم و يجزم بصدقهم فيما يقولون لأنهم خيار الأمة إلا أنا نكل العلم إلى اللّه تعالى فى فهم ما ورد عنهم فى ذلك إذ ليس فى الشريعة قاطع يدل على كذب الروافض فى هذه المسألة بخصوصها و إن كانوا كاذبين فى غيرها و موافقة بعض أئمتنا الصوفية لهم فى ذلك من جهة الكشف لا يقدح فى كمال منصبهم لعدم القاطع فى كذبهم و لا يدل

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۳۹

أيضا على صدق الروافض فيما سوى ذلك مما تبين كذبهم فيه و افتراؤهم فإن موافقة المحق للمبطل فى جزئية لا دليل على بطلانها لا يدل على صدق المبطل فيما سوى ذلك و لا على كذب الصادق فيما سوى ذلك و قد وافق كثير من الأئمة المحققين أهل الكشف الصادق آراء الفلاسفة فى جزئيات مما ادعوه لم يقم الدليل على بطلانها كما وافق كثير منها أيضا الجم الغفير من المحققين من علماء الظاهر أهل الكلام فالا يشكل عليك ما تجده فى كلام أئمة الطريق رضى اللّه عنهم موافقا للفلاسفة تارة و للروافض أخرى فذلك لا يقع فى كلامهم غالبا إلا فيما لم يقم دليل على بطلان قولهم فيه و ان فرض فيما سوى ذلك و ما أبعده من جلالة منصبهم فهو مؤول قطعا فشد يدك على ما قررنا و هذه الفائدة ساق اللّه تقريرها فى هذا المحل و لم يكن تستطيرها قبل ذلك لنا ببال انتهى.

و منها مشهد على يسارك و أنت مار فى زقاق البقيع يقال انه لأبى سعيد الخدرى رضى اللّه عنه و قد ذكر السيد السمهودى المشاهد كلها التى ذكرناها إلا هذا و الذى نسب لحليمة فلم يذكرهما و لا أدرى هل حدث بناؤهما بعده أو لم يتضح له صحة نسبتهما لمن ذكر مع أن السيد السمهودى قد ذكر أبا سعيد فيمن دفن بالبقيع و روى عن عبد الرحمن ابن أبى سعيد قال قال لى أبى يا بنى أنى قد كبرت و ذهب أصحابى و حان موتى فخذ بيدى فأخذت بيده حتى جاء إلى البقيع فجئت أقصاه مكانا لا يدفن فيه فقال يا بنى إذا هلكت فاحفر لى هاهنا فإذا ثبت أن قبره أقصى البقيع فلا يبعد أن يكون هذا قبره.

و أما قبر حليمة فقال لم أر أحدا ذكر أنها دفنت بالبقيع و اللّه تعالى اعلم و على كل حال فيزار كل مشهد نسبة إلى اللّه أو إلى رسوله صلى اللّه عليه و سلم و لو لم تصح نسبة المشهد إليه فإن لمجرد النسبة أثرا فى حصول البركة.

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۴۰

و من المشاهد التى تزار بالمدينة و ليست بالبقيع ثلاثة أحدها مشهد مالك بن سنان والد أبى سعيد الخدرى و هو من شهداء أحد رضى اللّه عنهم و مشهده غربى المدينة بلصق السور من داخله و عليه قبة قديمة البناء و محله من سوق المدينة القديم روى عن أبى سعيد رضى اللّه عنه أنه قال أمر رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم من نقل من شهداء أحد إلى المدينة أن يدفنوا حيث أدركوا فأدركه مالك بن سنان عند أصحاب العباء أى الذين يبيعون العباء فى طرف الحناطين و لابن زبالة فوافوه فى السوق فدفن عند مسجد أصحاب العباء و هنالك كانت أحجار الزيت ثانيها مشهد ذى النفس الزكية و هو محمد بن عبد اللّه بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى اللّه تعالى عنهم أجمعين و هو أخو السيد إدريس أول أهل البيت قدوما إلى المغرب و عامة شرفاء أهل المغرب من نسله إلا شرفاء سجلماسة فإنهم من نسل النفس الزكية استوطن أسلافهم الينبع فقدم جدهم منه إلى المغرب فى السابعة و اللّه اعلم و مشهده بناء فى جوف مسجد كبير شرقى سلع و فى قبلة المسجد منهل من عين الأزرق و هذا هو المستفيض بين أهل المدينة.

قال السيد و ذكر سبط ابن الجوزى أن كثيرا من الناس كان قد بايعه فخرج على المنصور بعد حبسه لأبيه و أقاربه فجهز إليه المتصور عمه عيسى بن موسى فى أربعة آلاف و ذكر قتله عند أحجار الزيت أى عند مشهد مالك بن سنان و أن جسده دفن بالبقيع إلى أن قال و ثالثها مشهد سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب رضى اللّه عنه و هو بأحد فهذه المشاهد هى المعروفة بالمدينة فينبغى لزائرها أن يزورها و يسلم على أصحابها و يتوسل بهم إلى اللّه تعالى فى بلوغ مآربه.

نكتة مما ينبغى لزائر المدينة الإكثار من الصلاة فى المسجد النبوى فقد روى الإمام أحمد و الطبرانى فى الأوسط و رجاله ثقاة عن أنس بن مالك رضى اللّه تعالى عنه من

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۴۱

صلى فى مسجدى أربعين صلاة لا تفوته صلاة كتب له براءة من النار و براءة من العذاب و برىء من النفاق و لفظ الصلاة و إن كان شاملا- للفرائض و النوافل فالظاهر من الحديث خصوص تلك بالفرائض بدليل زيادة الطبرانى لأن الفوات فيها أظهر و لا يبعد إلحاق النوافل الموقته بأوقات معلومة بها كالوتر و ركعتى الفجر و أن ألحقت بها الرواتب أيضا و الضحى و التهجد خصوصا عند من لا يرى التحديد فيها كالإمام مالك رضى اللّه عنه اتسع الفضل و رجى حصول ذلك الفضل لمن أقام و لو يوما واحدا و حافظ على تلك الصلوات فى المسجد النبوى كحجاج المغرب فإنهم فى بعض السنين لا يقيمون إلا يوما واحدا فليتنبه لهذه الدقيقة و ليحافظ عليها من قصرت إقامته بالمدينة ليحصل له هذا الفضل العظيم الذى فيه خير الدنيا و الآخرة و أما من تطول إقامته بالمدينة ثمانية أيام فانه يحصل له هذا الفضل بالفرائض دون النوافل كأهل الشام فإنهم يتأخرون بالمدينة عن الأركاب المغربية و المصرية و يتسع مجالهم فى المدينة و ينتفعون بالمشاهد من غير منازع و لا مدافع فيقيمون العشرة أيام فأكثر و يتمتعون بمشاهد تلك البقاع و نصبت الأسواق، و اتسعت الأرزاق، و قسمت الصدقات، و كثرت الارتفاقات.

و بالجملة فلا ينتفع أهل المدينة بركب انتفاعهم بأهل الشام فإنهم يقدمون بتجارات كثيرة و طعام و زيت و أشربة يبيعونها بالمدينة عند قدومهم و يدخرون ما بقى إلى الإياب فيبيعون كل ذلك بالمدينة.

قال أبو سالم لأهل المدينة عند قدومهم عادة مذمومة و هو انه لا تبقى مخدرة من النساء شريفة كانت أو وضيعة إلا خرجت تباشر البيع و الشراء بنفسها و لهن فى ذلك الوقت على الرجال أتاوة يؤدونها لهن يبتعن بها ما أحببن من اللائق بهن من طيب و شبهه و ربما لا تقنع أحداهن من زوجها إلا بالخميس دينارا فما فوقها فقد حكى ان

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۴۲

امرأة بعض المدرسين بها أعرفه طلبت منه فى ذلك اليوم ما تخرج به إلى السوق على العادة فدفع لها عشرة دنانير ذهبا فاستقلتها و ذهبت من شدة الغضب فرمت بها فى المرحاض و أتلفتها عليه و قالت أمثلى يخرج إلى السوق بهذا المقدار فلم يملك من أمره إلا أن ذهب و تسلف خمسين دينارا فدفعها لها و هذه حسرة عظيمة و ذل للرجال الذين جعلهم اللّه قوامين على النساء فلا ينبغى لذى همة أن يرضى بذلك بيد أن نساءهم يبالغن فى الستر الظاهر بحيث لا- يبدو من المرأة و لو مغرز إبرة حتى من أطرافها يلبسن الخفاف السود و يترفعن و يسدلن من أزرهنّ ما يكون نهاية فى الستر إلا أنهن يكثرن من الطيب عند الخروج فيوجد عرف الطيب منهن من مسافة فيكون ما سترنه ظاهرا بدينه باطنا و بهذا فسر بعض العلماء قوله صلى اللّه عليه و سلم رب كاسية فى الدنيا عارية فى الآخرة لأن الحكم فى الآخرة إنما هو للحقائق و من هذه صفته من النساء و ان اكتست فى الظاهر فهى فى الحقيقة عارية لأن حقيقة التعرى إبداء ما حقه أن يخفى كما ان التستر إخفاء ما لا ينبغى أن يظهر و لا خفاء أن عطرة المرأة من أعظم زينتها و ألذ ما يشتهى منها و قد أمرت بإخفاء ما هذا سبيله من أوصافها فإذا ظهر منها ذلك فهى فى الحقيقة عارية و إن اكتست فإن من العورات ما لا تواريه الكسوة و لا يواريه إلا تركه رأسا أو الخلوة ككلام المرأة فالصحيح أنه عورة كذلك عطرها فلا يواريه إلا تركه و لذلك جازلها الطيب المؤنث و هو ما ظهر لونه و خفى ريحه لأن اللون تستره الثياب بخلاف الريح فلا يستره إلا الترك رأسا أو عدم الخروج فليتأمل. انتهى.

ذكر المساجد التى تزار بالمدينة لنسبتها للنبى صلى اللّه عليه و سلم فمنها مسجد قبا و هو المسجد الذى أسس على التقوى فى أصح الأقوال و قيل هو مسجده عليه الصلاة و السلام كما ورد فى حديث و جمع بأنه يطلق على كل منهما و ينبغى زيارة هذا المسجد و يختار كونها يوم السبت كما ورد فى الصحيح أن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم كان يأتى مسجد قبا كل سبت راكبا أو ماشيا و كان عبد اللّه يفعله يعنى ابن عمر

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۴۳

رضى اللّه عنهما و ورد فى فضل هذا المسجد أثار كثيرة منها ما روى عن عمر رضى اللّه عنه أنه قال لو كان مسجدنا هذا بطرف من الأطراف لضربنا إليه أكباد الإبل و عن سعد بن أبى وقاص رضى اللّه عنه لأن أصلى فى مسجد قبا ركعتين أحب إلى من أن آتى إلى بيت المقدس مرتين لو يعلمون ما فى قبا لضربوا إليه أكباد الإبل و عن زيد بن أسلم رضى اللّه عنه الحمد للّه الذى قرب منا مسجد قبا و لو كان بأفق من الآفاق لضربنا إليه أكباد الإبل و عنه عليه الصلاة و السلام أنه قال الصلاة فى مسجد قبا كعمرة إلى غيرها من الأحاديث و الأخبار و قد أتيناه فدخلناه و صلينا فى مصلاه صلى اللّه عليه و سلم سجدة الضحى و هو إلى حرف الاسطوانة التى فى الصف الموالى لمحراب المسجد عن يمين المصلى فيه و هناك أماكن أخر ذكر أنه عليه الصلاة و السلام صلى فيها منها فى رحبته و منها فى زاويته الشرقية من الصف الأول.

و قد ذكر السيد السمهودى ذلك كله و بينه أحسن بيان و خارج المسجد من قبلته موضع يسمونه مسجد على قال السيد لعله مسجد دار سعد بن خيثمة فقد ورد انه عليه الصلاة و السلام اضطجع فيها و توضأ من المهراس الذى فيها قال و فى قبلته أيضا دار كلثوم بن الهدم الذى نزل عليه الصلاة و السلام لما قدم قبا قلت و لعل موضعه مسجد صغير آخر لم نجد من يسميه قاله أبو سالم.

و قريب من مسجد قبا كناسة كبيرة من شرقيه يقال إنها مسجد الضرار و دخلنا الحديقة التى فيها بئر اريس و شربنا من مائها و توضأنا منه و منها مسجد الجمعة و هو فى طريق قبا نحو ميل أو أقل من مسجد قبا على يمين الذاهب من المدينة على الطريق التى تمر بين النخل و من مر على طريق الحرة الغربية فهو عن يساره فقد روى أن النبى صلى اللّه عليه و سلم لما خرج من قبا فى هجرته أدركته الجمعة فى بنى سالم بن عوف فى بطن الوادى و هى أول جمعة صلاها عليه الصلاة و السلام بالمدينة و هذا المشهد اليوم

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۴۴

فى منخفض من الأرض قد أحاطت به حدائق النخل من أكثر جهاته و فى شماليه أطم خراب قيل أنه محل عتبان ابن مالك رضى اللّه عنه و فيه أثر مسجد صغير غير مسقف يقال انه المكان الذى صلى به صلى اللّه عليه و سلم من بيته و مسجد الجمعة فى مستبطن الوادى الذى يحول بينه و بين قومه إذا سأل و منازل قومه فى غربى الوادى على طرف الحرة و منها مسجد الفضيخ و هو مسجد صغير شرقى مسجد قبا على شفير الوادى على نشر من الأرض مرضوم بحجارة سود.

فقد روى عن جابر بن عبد اللّه رضى اللّه عنهما قال حاصر رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم بنى النضير فضرب قبته قريبا من مسجد الفضيخ و كان يصلى فى موضع مسجد الفضيخ ست ليال و سمى مسجد الفضيخ لما روى أن النبى صلى اللّه عليه و سلم أتى بفضيخ و هو فيه فشربه و قيل غير ذلك و يعرف الآن بمسجد الشمس. قال السيد و لا أعرف سبب هذه التسمية و منها مسجد بنى قريظة قرب حرتهم الشرقية على باب حديقة هناك و عنده خراب أبيات شمالى الحديقة من دور بنى قريظة و أطم الزبير بن باطيا القرظى داخل فى هذا المسجد ففى الصحيح أن النبى صلى اللّه عليه و سلم بعث إلى سعد بن معاذ رضى اللّه عنه لما نزل بنو قريظة على حكمه فلما كان قريبا من المسجد قال عليه الصلاة و السلام للأنصار رضوان اللّه تعالى عنهم أجمعين قوموا إلى سيدكم و ليس المراد مسجد المدينة لأنه عليه الصلاة و السلام لم يكن بها بل مسجد بنى قريظة كما أشار إليه الحافظ ابن حجر رضى اللّه عنه و أخطأ من زعم أن لفظ المسجد غلط و هذا المسجد كبير عليه حظيرة من حجارة قريب من القامة و فى زاويته الغربية الشمالية دكة كبيرة هى موضع منار المسجد قبل انهدامه فقد روى أن النبى صلى اللّه عليه و سلم صلى فى بيت امرأة من الحضر و أن المكان الذى صلى فيه هو موضع هذا المنار.

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۴۵

و منها مسجد مشربة أم إبراهيم عليه السلام فقد روى أنه عليه الصلاة و السلام صلى فى مشربة أم إبراهيم و سميت بذلك لأن مارية ولدت سيدنا إبراهيم بن نبيا صلى اللّه عليه و سلم فيها و كان النبى صلى اللّه عليه و سلم أسكنها هناك فهى من أموال مخيريق التى

هى من صدقاته صلى اللّه عليه و سلم و هذا المسجد شمالى مسجد بنى قريظة قريب من الحرة الشرقية و منها مسجد بنى ظفر من الأوس شرقى البقيع بطرف الحرة الشرقية و يعرف الآن بمسجد البغلة فقد روى أن النبى صلى اللّه عليه و سلم صلى فى مسجد بنى ظفر و انه أتى لبنى ظفر فى مسجدهم فجلس على الصخرة التى فى المسجد و معه عبد اللّه بن مسعود و معاذ بن جبل و ناس من أصحابه و أمر صلى اللّه عليه و سلم قارئا فقرأ حتى أتى على هذه الآية فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ الآية فبكى الحديث.

و عند هذا المسجد أثار فى الحرة من جهة القبلة يقال انه أثر حافر بغلته صلى اللّه عليه و سلم و هناك آثار على حجر كأنه أثر مرفق يذكر أن النبى صلى اللّه عليه و سلم أتكأ عليه و وضع مرفقه الشريف عليه و على حجر آخر أصابع و الناس يتبركون بها و منها مسجد الأجابة و هو لبنى معاوية بن مالك من الأوس و هو شمالى البقيع قريب منه على يسار السالك إلى العريض بإزائه تلول هى آثار قرية بنى معاوية ففى صحيح مسلم من حديث عامر بن سعيد عن أبيه أن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم أقبل ذات يوم من العالية حتى مر بمسجد بنى معاوية دخل فركع ركعتين و صلينا معه و دعا ربه طويلا ثم انصرف إلينا فقال سألت ربى ثلاثا فأعطانى اثنتين و منعنى واحدة سألته أن لا يهلك أمتى فأعطانيها و سألته أن لا يهلك أمتى بالغرق فأعطانيها و سألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها و عن سعد بن أبى و قاص أنه كان مع النبى صلى اللّه عليه

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۴۶

و سلم فمر بمسجد بنى معاوية فدخل فركع فيه ركعتين ثم قام فناجى ربه ثم انصرف و عن محمد بن طلحة بلغنى أن النبى صلى اللّه عليه و سلم صلى فى مسجد بنى معاوية على يمين المحراب نحو ذراعين قال السيد فليتحر ذلك مع الدعاء قائما.

و منها مسجد الفتح و المساجد التى فى قبلته و تعرف اليوم كلها بمساجد الفتح و الأول هو المرتفع على قطعة من جبل سلع فى المغرب يصعد إليه بأدراج شمالية و شرقية و هو المراد بمسجد الفتح عند الإطلاق و يقال له أيضا مسجد الأحزاب و المسجد الأعلى.

و فى مسند الإمام أحمد برجال ثقاة عن جابر بن عبد اللّه أن النبى صلى اللّه عليه و سلم دعا فى مسجد الفتح ثلاثا يوم الاثنين و يوم الثلاثاء و يوم الأربعاء فاستجيب له يوم الأربعاء بين الصلاتين فعرف البشر فى وجهه قال جابر فلم ينزل فى أمر مهم غليظ إلا توخيت تلك الساعة فأدعو فيها فأعرف الإجابة و روى انه عليه الصلاة و السلام مر بمسجد الفتح الذى على الجبل و قد حضرت صلاة العصر فرقى فصلى به صلاة العصر و روى انه عليه الصلاة و السلام دعا فى مسجد الفتح يوم الأحزاب حتى ذهب الظهر و ذهب العصر و ذهب المغرب و لم يصل منهن شيئا ثم صلاهن جميعا بعد المغرب.

قال أبو غسان و سمعت غير واحد ممن يوثق به ان الموضع الذى دعا عليه رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم من الجبل هو اليوم إلى الاسطوانة الوسطى الشارعة فى رحبة المسجد قال السيد و محل ذلك اليوم ما يقابل محراب المسجد من الرحبة لتوسطه فانه كان على ثلاثة أساطين بنى المشرق و المغرب فمسقفه رواق واحد كما هو اليوم

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۴۷

لكن غيرت أساطينه و ذكر الدعاء الذى ينبغى أن يدعو به فى ذلك الموضع و هو لا- إله إلا- اللّه العظيم الحكيم لا إله إلا اللّه رب العرش العظيم لا- [إله إلا- اللّه رب السموات و الأرضين و رب العرش العظيم] اللهم لك الحمد هديتنى من الضلالة فلا مكرم لمن أهنت و لا- مهين لمن أكرمت و لا معز لمن أذللت و لا مذل لمن أعززت و لا ناصر لمن خذلت و لا خاذل لمن نصرت و لا معطى لمن منعت و لا- مانع لمن أعطيت و لا- رازق لمن حرمت و لا- حارم لمن رزقت و لا- رافع لمن خفضت و لا خافض لمن رفعت و لا خارق لمن سترت و لا ساتر لمن خرقت و لا مقرب لمن أبعدت و لا مبعد لما قربت اللهم أنت عضدى و نصيرى بك أحول و بك أصول و بك أقاتل اللهم يا صريخ المستصرخين و المكروبين و يا غياث المستغيثين و يا مفرج كروب المكروبين و يا مجيب دعوة المضطرين صلى اللّه على سيدنا محمد و آله و صحبه و سلم تسليما و اكشف عنى كربى و غمى و حزنى و همى كما كشفت عن حبيبك و رسولك صلى اللّه عليه و سلم كربه و حزنه و همه فى هذا المقام و أنا استشفع به إليك صلى اللّه عليه و سلم فى ذلك فقد

ترى حالى و تعلم عجزى و ضعفى يا حنان يا منان يا ذا الجود و الإحسان أسألك من خير ما سألك منه عبدك و حبيبك محمد صلى اللّه عليه و سلم و يدعو بما أحب و يبغى أن يضم لذلك ما دعا به الشافعى عند دخوله على الرشيد فى محنته فقد روى أبو نعيم من طريق الشافعى أن النبى صلى اللّه عليه و سلم دعا به يوم الأحزاب و هو دعاء عظيم و ان كان رفعه غير صحيح كما قال البيهقى و هو شهد اللّه أنه لا إله إلا هو و الملائكة و أولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم إن الدين عند اللّه الإسلام اللهم أنى أعوذ بنور قدسك و بركة طهارتك و بعظمة كلامك من كل عاهة و آفة و طارق الأنس و الجن إلا طارق يطرق بخير يا رحمان اللهم أنت ملاذى فيك ألوذ و أنت غياثى فيك

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۴۸

استغيث يا من ذلت له رقاب الفراعنة و خضعت له مقاليد الجبابرة اللهم ذكرك شعارى و دثارى و نومى و قرارى أشهد أن لا إله إلا أنت أضرب على سرادقات حفظك و قنى رغبتى بخير منك يا رحمان.

قال و عن ابن عمر رضى اللّه عنهما أن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم قرأ يوم الأحزاب شهد اللّه إنه لا إله إلا هو و الملائكة و أولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم أن الدين عند اللّه الإسلام ثم قال و أنا أشهد بما شهد به و استودع اللّه هذه الشاهدة و هذه الشهادة وديعة لى عنده يؤديها لى يوم القيامة اللهم أنى أعوذ بنور قدسك و عظيم ركنك و عظمة طهارتك من كل آفة و عاهة و من طوارق الليل و النهار إلا طارقا يطرق بخير اللهم أنت غياثى بك استغيث و أنت ملاذى بك ألوذ و أنت عياذى بك أعوذ يا من ذلت له رقاب الجبابرة و خضعت له أعناق الفراعنة أعوذ بك من خزيك و من كشف سترك و نسيان ذكرك و الانصراف عن شكرك أنا فى حرزك ليلى و نهارى و نومى و قرارى و ظعنى و أسفارى و حاتى و مماتى ذكرك شعارى و ثناؤك دثارى لا إله إلا أنت سبحانك و بحمدك تشريفا لعظمتك و تكريما لسبحات وجهك أجرنى من خزيك و من شر عبادك و اضرب على سرادقات حفظك و أدخلنى فى حفظ عنايتك وجد على منك بخير يا أرحم الراحمين انتهى.

قال و تسمية هذا المسجد بمسجد الفتح لأن الاستجابة وقعت به و جاء حذيفة بخير رجوع الأحزاب ليلا به فأصبح رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و المسلمون و قد فتح اللّه عز و جل لهم و نصرهم و أقر أعينهم و قد كان النبى صلى اللّه عليه و سلم قال لهم ابشروا بنصر اللّه و فتحه و قول ابن جبير إن سورة الفتح أنزلت به لا أصل له انتهى.

قلت إنما أنزلت بين مكة و المدينة فى شأن الحديبية فرجع النبى صلى اللّه عليه

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۴۹

و سلم منها و قد حيل بينهم و بين نسكهم و كان الصحابة بين الكآبة و الحزن فنزلت تسلية لهم و بشرى.

و أما المساجد التى فى قبلته فقد روى عن سعد بن معاذ أن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم صلى فى مسجد الفتح الذى على الجبل و فى المساجد التى حوله.

قال السيد و هو ظاهر فى أنها ثلاثة غيره فأحدها الذى يلى المسجد الأعلى يعرف بمسجد سلمان الفارسى و ثانيها ففى قبلة هذا المسجد يعرف بمسجد على بن أبى طالب رضى اللّه تعالى عنه و ثالثها فى قبلة الثانى على طرف جبل سلع جانحا لجهة الشرق و يعرف بمسجد أبى بكر و هو أصغرها و فى باب المعروف منها بعلى ماجل ماؤه ينزل إليه بدرج و أهل المدينة يخرجون إلى هذه المساجد لقصد التفرج فى أيام كثيرة و لهم يوم معلوم فى السنة يخرجون إليها بالأخبية و الأطعمة الكثيرة فيبيتون بها فى لهو و طرب و هو يوم النصف من شعبان.

و قال شيخنا أبو سالم و قد خرجنا مرة لزيارة المساجد فوجدنا الأعلى منها مملؤا نساء و لم نتمكن من الدخول إليه و هن يطبخن فيه أنواع الأطعمة و نساء المدينة لهن عوائد مذمومة فى الخروج إلى التنزه و التفرج فى البساتين و الأماكن المنفسحة و يسمون ذلك القائلة فيقولون نقيل اليوم فى الموضع الفلانى و خروج الرجال لذلك أكثر فتكلف المرأة زوجها من النفقة ما لا قدرة له عليه و من

الأماكن التى هى فى عدد المساجد و ينبغى التبرك بها و الصلاة فيها كهف سلع و هو كهف بنى حرام فقد جاء أن النبى صلى اللّه عليه و سلم جلس به و كان يبيت به ليالى الخندق.

قال السيد السمهودى و الظاهر انه المراد بما فى الأوسط و الصغير للطبرانى من أن معاذ بن جبل خرج يطلب النبى صلى اللّه عليه و سلم فدل عليه فى جبل ثواب فخرج

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۵۰

حتى رقى جبل ثواب فبصر به فى الكهف الذى اتخذ الناس إليه طريقا إلى مسجد الفتح فإذا هو ساجد فقال فهبطت من رأس الجبل و هو ساجد فلم يرفع حتى أسأت به الظن فظننته قبضت روحه قال جاءنى جبريل بهذا الموضع فقال ان اللّه تعالى يقرئك السلام و يقول ما تحب أن تصنع بأمتك قلت اللّه أعلم فذهب ثم جاء إلى فقال أنه يقول لا أسوءك فى أمتك فسجدت فأفضل ما أتقرب إلى اللّه السجود.

قال السيد جبل ثواب لم أقف له على ذكر لكن وصفه الكهف بما ذكر ظاهر فى إرادة الكهف المذكور بسلع على يمين المتوجه من المدينة إلى مساجد الفتح من الطريق القبلية بقرب شعب بنى حرام فإن عن يمينه هناك مجرى سائلة تسيل من سلع إلى بطحان فإذا دخلها صعد يسيرا فى المشرق و كان الكهف عن يمينه و أعلى منه فى المشرق و كهف آخر لكنه صغير جدا فالأول هو المراد و إذا توجه من هذه السائلة طالب مسجد الفتح كان شعب بنى حرام عن يمينه و هو شعب متسع به آثار مساكنهم و أثر مسجدهم الكبير الذى زاد عمر بن عبد العزيز فى بنائه و اختلف فى صلاته صلى اللّه عليه و سلم بهذا المسجد بناء على أن تحولهم إلى هذا الشعب كان فى زمانه عليه الصلاة و السلام فانه روى أنه كان فى زمان عمر رضى اللّه تعالى عنه اه قال أبو سالم و أثر المسجد اليوم باق بأسفل الوادى إلا أنه لا بناء عليه و إنما عليه حظير صغير و هو لا يعرفه كثير من الناس و لا يوبه به كذلك الغار المذكور لا يعرفه كثير من الناس و لا يقصد للزيارة و منها مسجد القبلتين و هو لبنى سلمة و سمى مسجد القبلتين لأن القبلة حولت فيه.

قال السيد و الأرجح أن تحويل القبلة كان بمسجد القبلتين و النبى صلى اللّه عليه و سلم كان يصلى به و ليحيى عن محمد بن الأخنس قال زار رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم أم بشر ابن البراء من بنى سلمة فى بنى سلمة فصنعت له طعاما فآن الظهر فصلى

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۵۱

رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم بأصحابه فى مسجد القبلتين الظهر فلما أن صلى ركعتين أمر أن يوجه إلى الكعبة باستدار رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم إلى الكعبة و استقبل الميزاب و هى القبلة التى قال اللّه فلنولينك قبلة ترضاها فسمى ذلك المسجد مسجد القبلتين و هو غربى بطحان و سلع قريب من العقيق فى مكان مرتفع و الطرايق إليه فى أكام سود من الحرة و شعاب و منها مسجد السقيا اللاتى ذكرها فى الآبار و ليست السقيا التى بينها و بين المدينة مرحلة بل محل آخر بالحرة الغربية و هذا المسجد على يسار الذاهب إلى المدينة من العقيق فى الحرة الغربية على طريق الحاج عند ما يقرب من المساكن و يشرف على المدينة و قد روى أن النبى صلى اللّه عليه و سلم عرض جيش بدر بالسقيا و صلى فى مسجدها و دعاء هنالك لأهل المدينة ان يبارك لهم فى مدهم و صاعهم و أن يأتيهم بالرزق من هاهنا و هاهنا.

قال السيد و قد تطلبت المسجد بهذا المحل فرأيت رضما على ربوة هناك فأرسلت إليه بعض العمال ليحفر عن أساسه فظهر تربيعه و بقية محرابه و من جدرانه أزيد من نصف ذراع فى دوره مبيضة بالفضة فيفى على أساسه الأول.

قال الشيخ أبو سالم و هو اليوم مبنى ببناء وثيق يأوى إليه الغرباء فى بعض الأحيان خصوصا أيام الموسم فإن الركب المصرى ربما وصلوا بالنزول فى بعض السنين إلى تلك الناحية و منها مسجد ذباب و يعرف اليوم بمسجد الراية و هو على جبل صغير قريب من سلع من شرقيه قريب من ثنية الوداع على يسار الداخل إلى المدينة من طريق الشام فقد روى أن النبى صلى اللّه عليه و سلم صلى على ذباب و عن أبى سعيد الخدرى رضى اللّه تعالى عنه ضرب النبى صلى اللّه عليه و سلم قبته على ذباب يعنى فى غزوة الخندق و

الأرجح أن الخندق كان من ناحية ذباب قال السيد و قد رأيت لذباب ذكرا فى أماكن كثيرة كلها متفقة على وصفه بأنه الجبل المذكور بحيث لا تردد

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۵۲

عندى فيه.

قال و لعل اشتهاره بمسجد الراية لقول الواقدى فى وصف اصطفافهم على الخندق و كان يزيد بن هرمز فى موضع ذباب يحمل راية الموالى وصفهم كراديس بعضها خلف بعض إلى رأس الثنية يعنى ثنية الوداع.

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۵۳

ذكر جبل أحد و ما به أو بطريقه من المساجد النبوية و ذكر مشهد سيد الشهداء حمزة و من معه من الشهداء رضى اللّه تعالى عنهم

جرت عادة أهل المدينة شرفها اللّه تعالى بزيارة قبر سيدنا حمزة رضى اللّه تعالى عنه كل يوم خميس و ربما باتوا هنالك ليلة الخميس فى أغلب الأحوال.

قال شيخنا أبو سالم و لا أعلم لاختيارهم الزيارة فى الخميس سببا إلا أن يكون ما ورد أن الأموات يعلمون بزائرهم يوم الجمعة و يوما قبله و يوما بعده فلما كان يوم الجمعة يضيق المشى فيه بسبب الاشتغال بمقدمات الصلاة و زيارة البقيع و يوم السبت لزيارة قبا فلم يبق إلا يوم الخميس.

و زيارة أحد و الشهداء به من السنن المأثورة ففى صحيح البخارى أن النبى صلى اللّه عليه و سلم صلى على قتلى أحد بعد ثمان سنين كالمودع للأحياء و الأموات و فى حديث أبى داود خرجنا مع رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم نريد قبور الشهداء حتى إذا أشرفنا على حرة واقم فلما تدلينا منها فإذا قبور فقلنا يا رسول اللّه أقبور إخواننا هذه قال قبور أصحابنا فلما جئنا قبور الشهداء بأحد على رأس كل حول فيقول سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار و كان إذا واجه الشعب قال سلام عليكم بما صبرتم فنعم أجر العاملين و روى أن فاطمة رضى اللّه تعالى عنها كانت تزور قبر عمها حمزة رضى اللّه تعالى عنهما ترمه و تصلحه و قد علمته بحجر و روى الحاكم عن على أن فاطمة رضى اللّه عنهما كنت تزور عمها حمزة رضى اللّه عنهما كل جمعة فتصلى و تبكى عنده و روى البيهقى أن النبى صلى اللّه عليه و سلم زار قبور الشهداء بأحد فقال اللهم أن عبدك و نبيك يشهد أن هؤلاء شهداء و إن من زارهم و سلم عليهم إلى يوم القيامة

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۵۴

ردوا عليه و المشهور أن الذين أكرموا بالشهادة بأحد سبعون رجلا أفضلهم و سيدهم حمزة بن عبد المطلب رضى اللّه عنه و روى أن مصعب بن عمير رضى اللّه عنه دفن معه ف قبر واحد و أن عبد اللّه بن جحش معهما قال السيد و الصحيح أنه ليس معه أحد فى قبره و أن مصعبا و عبد اللّه دفنا بقربه فيسلم على الثلاثة فى مشهد حمزة رضى اللّه عنهم و المشهد عليه قبة عالية متقنة و بابه مصفح بالحديد و حوله بناء متسع فيه بئر و فيه أخيلة للوضوء متصلة بالسطح.

قال السيد و القبر الذى عند رجلى سيدنا حمزة رضى اللّه عنه و الذى فى الصحن ليسا من قبور الشهداء و باب المشهد فى سائر الأيام مقفل لا يفتح إلا يوم الخميس يأتى القيم من المدينة بالقصد لذلك و لأهل المدينة موسم كبير فى رجب يختلفون فيه لزيارة حمزة و الشهداء رضى اللّه عنهم يأتى الناس إليه من أقطار الحجاز من مكة و اليمن و الطائف و الينبع فيحشر هنالك خلائق لا يحصون يقاربون ما يجتمع فى موسم الحج و يخرج أهل المدينة إلا القليل بأولادهم و نسائهم و يخرجون معهم المضارب الحسان و الخيام الكبار و يخرج أمراء المدينة و عسكرها و تنصب الأسواق العظيمة هنالك يخرجون من أوائل رجب و يتلاحق الناس كل على قدر حاله فيتكامل خروجهم فى اليوم الثانى عشر و هو اليوم المشهود عندهم و يوم الزينة فلا يبقى بالمدينة إلا أهل الأعذار و من شاكلهم

و يحصل هنالك فى تلك الليلة من أنواع اللهو و الطرب و اللعب بأشياء كثيرة و الرمى بالمدافع و المحارق و يبيت الناس طول ليلهم و يومهم فى القراءة و الزيارة حول القبر و يوقد هنالك من الشمع شىء كثير.

قال الشيخ أبو سالم و أصحاب شيخنا القشاشى هم المتولون لوظيفة القراءة حول القبر لا تنقطع القراءة فى الليل بأجمعه و النهار بتمامه قال و كبيرهم شيخنا الملا إبراهيم رضى اللّه عنه معهم لا يفارق ذلك المحل و كيفية القراءة أن تجتمع جماعتهم كلهم فيبدأ

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۵۵

أحدهم فيقرأ جزءا فيستمع الباقون فإذا فرغ من جزئه أخذ الذى يليه فى القراءة و الآخرون يستمعون ثم كذلك سائر الليل و النهار.

قال و حكى أن بعض الفقهاء بالمدينة كان ينكر على أهل المدينة خروجهم إلى أحد فى رجب و يقول لهم أن ذلك من البدع المذمومة لما يحصل فى ذلك من أنواع اللهو و السرف فى المطاعم و غيرها و التكلف فى النفقات و الخروج من المدينة بالأهل و الأولاد و الخيم الشبيه بشد الرحال بل هو مع ما فى ذلك من التشبه بمواسم الحج فى الهيئة و اعتقاد القربة و اعتياد يوم فى السنة إلى غير ذلك من الأمور التى لا توافق ظاهر الشرع و كذلك الفقيه لا يخرج معهم إذا خرجوا و يشدد النكير عليهم فى ذلك فبينما هو ذات يومن من الأيام التى تهيأ الناس فيها للخروج جالس فى الروضة أو قريبا منها إذ غلبته عيناه فرأى النبى صلى اللّه عليه و سلم و هو يدخل و يخرج من الحجرة و يقوم و يقعد كفعل المتهيئ للسفر و أثاث السفر معدة بين يديه فقال له يا رسول اللّه ما هذا الذى أرى أتريد الانتقال عنا و الخروج من المدينة قال لا إنما أريد الخروج لزيارة عمنا حمزة مع أهل المدينة أو كلاما هذا معناه فانتبه الفقيه من نومه و تهيأ للخروج مع الناس فتعجبوا من ذلك و سألوه فأخبرهم بذلك و لا بدع فإن النبى صلى اللّه عليه و سلم تعلقا معنويا و موافقة روحانية لأمته فى سائر شئونهم و تقلباتهم فيهتم بما يهتمون و يفرح بما يفرحون و يسوءه ما يسوءهم فما بالك بأهل المدينة الطيبة المطيبة و كل ذلك رحمة منه لهم و رأفة بهم و حنانا و لا يمنعه من ذلك كون بعض شؤونهم قد يلابسها و يخالطها خلاف المشروع فقد كان رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم فى حياته معهم على هذا الحال و فيهم المسىء و المحسن و الطائع و العاصى بل المومن و المنافق فيعلم جاهلهم و يرشد ضالهم و يرفق بالشرير الأخلاق منهم حتى ينقاد و لم تحمله إساءتهم و لا عصيان بعضهم بل نفاقه على مفارقتهم و التخلى عنهم إذ لو تخلى عنهم لعوجل المسىء بالهلاك و خذل المطيع فى طاعته و لم يبال اللّه بهم باله فكذلك حاله صلى اللّه عليه

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۵۶

و سلم مع أمته بعد موته و قد قال حياتى خير لكم و مماتى خير لكم الحديث فهو معهم صلى اللّه عليه و سلم فى كل أطوارهم و تقلباتهم بمدده الربانى و سره الحقانى يستغفر لمسيئهم و يشفع له و يشهد لمحسنهم و يستوهب له من اللّه الزيادة و لا يخفى عليه شىء من أحوالهم و لا يغفل عنهم طرفة عين فى كل شئونهم فلا يستبعد حضوره صلى اللّه عليه و سلم بروحانيته فى محافل المسلمين و مواسمهم و محال اجتماعهم على أى حال كانوا فلو فارقتهم روحانيته صلى اللّه عليه و سلم الشريفة طرفة عين لضلوا عن سواء الطريق، و لهوت بهم الضلالة فى مكان سحيق، فسبحان من منّ به على عباده، و جعله برزخا بينه و بين أهل وداده، فما أرأفه بنا من إله إذ جعله رسولا إلينا، و رحمة علينا، نسأله سبحانه أن لا يخلينا من مدده صلى اللّه عليه و سلم طرفة عين آمين.

و تفهم من هذا ما يحصل من الاجتماع العظيم فى محال بعض الصالحين و اشتماله على بعض المناكر و مع ذلك يحضره الأولياء و أرباب القلوب من الصالحين فيشاهدون حصول مدده لكل زائر، و سرينا سره فى كل حاضر، و ذلك كمولد سيدى أحمد البدوى بمصر و مولد الإمام الشافعى و عند سيدى أبى مدين و سيدى أبى يعزى و سيدى أبى العباس السبتى بأرض المغرب و عند مولاى عبد السلام بن مشيش يوم المولد النبوى و غير ذلك من الأماكن الشهيرة المنسوبة لكثير من الأولياء شرقا و غربا.

فقد ذكر سيدى عبد الوهاب الشعرانى فى كثير من تواليفه عن جماعة من أهل الكشف أنهم يشاهدون النبى صلى اللّه عليه و سلم فى مولد سيدى أحمد البدوى رضى اللّه عنه و انه يحضره كل سنة مع اشتماله على كثير من الأمور التى لا تنبغى.

قال قد أخبرنا شيخنا أبو مهدى عيسى الثعالبى عن بعض مشائخه أن سيدى عبد الوهاب الشعرانى عزم مرة على التخلف عن مولد سيدى أحمد البدوى و إن لا يذهب إليه لما يقع هنالك من المناكر فلما عزم على ذلك و قرب الوقت رأى فى المنام

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۵۷

سيدى عبد العالى خديم الشيخ سيدى أحمد البدوى و خليفته من بعده فقال له مباسطا يا عبد الوهاب لا تنقطع عن زيارتنا و نحن نطعمك ملوخية و الملوخية عن أهل المصر و الريف من أشهى الأطعمة التى لا كبير مؤنة فيها فلما استيقظ عزم على المشى فذهب فكان من الأمر الغريب الدال على صدق الرؤيا لية وصوله لمكان الشيخ أتفق انه لم يطبخ أحد تلك الليلة فى الزاوية كلها و لا فى القرى التى حولها إلا الملوخية فكانت طعامه و طعام أهل تلك الناحية كلها فى تلك الليلة و الحكايات الدالة على أمثال هذا كثيرة من انتصار الأولياء لمن آذى من حضر محالهم أو انتهك حرمتهم و لو كان من أدنى ممن يستحق ذلك فى بادىء الرأى و مع هذا كله فلا يتخذ هذا ذريعة إلى الاستهانة بإقامة الحدود على من وجبت عليه فى تلك المحال و إلى التغافل عن إزالة المناكر الواقعة هنالك لمن قدر عليها و إلى التعامى عن ذلك بل التنبه لذلك و الاشتغال به لمن له قدرة عليه من أفضل القربات لمن حسنت نيته و لا يمنعه من ذلك ما يقع لبعض من تعاطى ذلك من الأمور التى هى كرامة لذلك الولى فإن ذلك فى الغالب لا يقع إلا لمن لم تكن له نية صالحة فى النهى عن المنكر و قصد بذل إظهار نفسه أو تنقيص ذلك الولى فإن فرض وقوعه لحسن النية فهو مما يزيده عند اللّه قربة و يقيم حرمة عبده المنسوب إليه المكان و للّه فى ذلك أسرار خفية لا تخفى على أهل القلوب الصافية.

قال و إلى مثل هذا التقرير يجنح شيخنا علامة الوقت سيدى عبد القادر الفاسى رضى اللّه عنه فين يأوى إلى قبور الصالحين من الجناة و قد يكون على أحدهم حد من الحدود فلا ينبغى إهماله و إن أخرج من المحل كان فى ذلك هضم لحرمة الولى و استهانة بقدره عند العامة فليلخص من ابتلى بذلك عمله للّه تعالى و ليصدق اللّه فى أمره فإن اللّه جاعل له من ذلك مخرجا و اللّه الموفق انتهى.

تتمة مما يجب التنبه لمثل ما سبق ما يقع عند الصالحين فى وطننا من المناكر

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۵۸

و المحرمات التى لا تحصى كثرة كاجتماع النساء و الرجال الذين فيهم فتنة عظيمة فإن أكثر ذلك الشبان و الشابات المتنعمات فمن شاهد ذلك تاه عقله و خاب سعيه و ضل قصده و فسد مذهبه و قبح عمله إلا من حفظه اللّه و عصمه بقصده الربانى و سره النورانى و حبه الصمدانى لأن روحانيته صلى اللّه عليه و سلم امتزجت به فلا يضره ما يقع فى ذلك المكان من المناكر لأنه محجوب عن التلبس بها و الإناطة بماهياتها و إن شاهدها بحواسه الظاهرة لأن قلبه مجذوب و ممحو عن سواه فقالبه مشغول بالأحكام الظاهرة و قلبه منور بنور الحقيقة فتاه فى حضرة المكون و إن إلى ربك المنتهى إلا له الخلق و الأمر تبارك اللّه رب العالمين و ذلك كالاجتماع ببجاية آخر رمضان فانه موسم عظيم يجتمع فيه العامة و الخاصة و كذا يوم عرفة عند قبر القطب سيدى يحيى العيدلى فإن النساء و الرجال يجتمعون هنالك و كذا عند الولى الصالح سيدى على بن شداد و سيدى على بن موسى بل و عند سيدى عبد الرحمن الثعالبى (نفعنا اللّه ببركاته آمين) فى الجزائرى و سيدى سعد السفرى بقسنطينة و فى جبلنا المثقوب و كذا قبر جدنا سيدى أحمد الشريف و قبر سيدى على بن عبد العزيز و كذا مسجد حنيف و غيرهم من المواضع التى يكون الاجتماع فيها فى الظاهر على اللّه و فى الباطن على شهوات النفس و خطرات الشياطين و وساوس اللعين فإن مفاسد تلك المحال أعظم من خيرها.

نعم قد شاهدنا من تلك الجموع حين كنا نجتمع معهم قوة الحب فى اللّه و الشوق لديه بل و اللّه كنت شابا لا يخطر لى خاطر فاسد و إنما شغفت بحب اللّه و حب رسوله صلى اللّه عليه و سلم و غيرى ممن له قوة نفس و شغف فى النساء قد حصل له مقصوده من هؤلاء الجموع كما حكى لى عن بعض الطلبة من فساقهم و كذا بعض الفقراء المدعين بالكذب بيد أنى لم أشاهد منهم ذلك.

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۵۹

و بالجملة فإن كان فى تلك الجموع العلماء العاملون و الصديقون و الصالحون و غيرهم ممن له نصيب قوى فى اللّه و الرغبة لديه بأن

يكون له تعظيم الشريعة و تعظيم أهلها فالغالب أن من له نية صافية و قصد صحيح أفلح إذ الشوق ربانى و الحضرة الإلهية و الدائرة نورانية فلا يخيب قاصدها إن صفا قلبه من اللهو و الفساد فلا شك انه يفوز بنيته لأنهم من قوم لا يشقى بهم جليسهم فلا يقدح بما وقع فيه من المناكر لكثرة المجتمعين لأن روحانيته صلى اللّه عليه و سلم سارية فى إسرارهم فلا يخلو محلهم ذلك من أهل التصريف و رجال الغيب فلا- تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين من الرحمة و الأسرار النبوية و الفتوحات [الإلهية لما علمت أن كل جمع يستحيل تواطؤه على الباطل لا بد فيه من الرحمة الإلهية و الفتوحات] النبوية و العلوم اللدنية و الأسرار النورانية و لا يضرهم المخالف لهم فى أفعالهم و مقاصدهم و أحوالهم الشريفة لأن جمعه صلى اللّه عليه و سلم لا يخلو من المنافقين و العاصين و كذا من الكفار غير انه لا يرضى بذلك و أن حصل له العلم بشىء من ذلك نهى عنه لأنه لا يقر على معصية و أما غيره قد يحصل لهم العلم بذلك فلا يجدون سبيلا- للنهى أو للمنع أما لكثرة المجتمعين أو ذلك موكل لأرباب الولاية فإنهم المكلفون به أو قلوب الصالحين من ذلك الجمع غائبة عن ذلك المنكر.

حاصله كل سوق من الأسواق أو جمع من الجموع لا يخلو عن أهل اللهو و الباطل لكن إن كانوا غير مقصودين فلا يلتفت إلى ذلك إذ النظر إلى من يصلح منهم فلا يخيب من له قصد صحيح و إن كان أهل اللهو هم المعتبرون فلا يصلح المجتمع

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۶۰

بهم و القصد لديهم فاعلم هذا رحمك اللّه و أشدد يدك عليه حاصله الحق يدور مع أهل المحفل فإن كان الغالب فيهم أهل العلم و العمل و الجذب الصحيح و الصدق الصريح فقاصدهم يفوز من غير شك لأنهم العبرة و إن كان المحفل أعد لأهل الفساد و من أجلهم وقع فلا- شك أن قاصدهم خائب لا- يفلح أصلا و ان كان فيه أهل الخير فلا التفات إليهم إذ المقصود أهل اللهو و سطوة المجلس لهم فالأحوط عدم الاجتماع بهم و هذا هو الفارق بين المحفلين فالمحفل الأول ضوء شمسه تتزايد و المحفل الثانى شمسه منكسفة على الدوام و الحمد للّه على ما من اللّه به على فى هذا المقام.

قال شيخنا المذكور ما نصه و من الأماكن التى ينبغى زيارتها فى أحد قبور الشهداء سوى قبر حمزة و من معه و أماكنهم ليست معلومة العين على التحقيق لكنها معلومة الجهة فأما مصعب بن عمير و عبد اللّه بن جحش فليسلم عليهما فى مشهد حمزة كما تقدم و أما سهل بن قيس من بنى سلمة فقبره دبر قبر حمزة شاميا بينه و بين الجبل و أما عمرو بن الجموح و عبد اللّه بن عمرو بن حرام ففى الموطأ أنهما فى قبر واحد مما يلى المسيل قال الواقدى و مع عمرو بن الجموح قبر خارجة بن زيد و سعيد بن الربيع و النعمان بن مالك و عبد اللّه بن الحسحاس قال أبو غسان و قبرهم مما يلى المغرب من قبر حمزة نحو خمسمائة ذراع.

و قال السيد و قد تأملته فوجدته كذلك بالربوة التى غربى المسيل الذى هناك و مجرى العين بقربهم من القبلة و قد روى أنا أبا أيمن مولى عمرو بن الجموح معهم أيضا و كذا خلاد بن عمرو بن الجموح فيسلم على هؤلاء الثمانية هنالك قال و أما بقية الشهداء فلا تعرف قبورهم و الذى يظهر أنها قرب قبر الموضع المذكور و بقرب قبر حمزة رضى اللّه عن جميعهم و أسماؤهم مذكورة عن أهل السير.

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۶۱

و فضل جبل أحد على الجملة معلوم مشهور فقد قال عليه الصلاة و السلام أنه يحبنا و نحبه و كان يأنيه و قال انه على باب من أبواب الجنة فترابه يستشفى به و قال الزركشى ينبغى أن يستثنى من منع نقل تراب الحرم تربة حمزة رضى اللّه عنه أى المأخوذة من المسيل الذى به مصرعه لاطباق الخلف و السلف على نقلها للتداوى للصداع.

قال السيد و تربة صهيب أولى بذلك و للطبرانى أن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم قال لأحد هذا جبل يحبنا و نحبه على باب من أبواب الجنة و هذا عير جبل يبغضها و نبغضه على باب من أبواب النار و عير جبل كبير على يسار ذى الحليفة و أنت خارج من المدينة و هو يقابل أحدا إلى ناحية مكة من المدينة و أحد إلى ناحية الشام.

قال السيد و سمى أحد أحدا لتوحده و انقطاعه عن جبال أخرى هنالك أو لما وقع من أهله من نصر التوحيد و لا اسم أحسن من اسم اشتق من الأحدية بخلاف عير الذى هو اسم الحمار المذموم أخلافا و الحب فى أحد من الجانبين حقيقة كما صححه النووى و غيره و لذا كان من جبال الجنة إذ المرء مع من أحب و لا مانع من وضع الحب فيه كما وقع التسبيح من الجبال و قد خاطبه صلى اللّه عليه و سلم مخاطبة من يعقل فقال لما أضطرب أسكن أحدا و لا ينكر وصف الجماد بحب الأنبياء ما حنّت الأسطوانة لمفارقته صلى اللّه عليه و سلم حتى سمع القوم حنينها.

و مما ينبغى لزائر أحد أن يأكل شيئا من نباته فقد روى عن زينب بنت نبيط و كانت تحت أنس بن مالك رضى اللّه عنهم أنها كانت ترسل أولادها فتقول اذهبوا إلى أحد فأتونى من نباته فإن لم تجدوا إلا عضاها فأتونى به فإن أنس بن مالك رضى اللّه

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۶۲

عنه قال سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم يقول هذا جبل يحبنا و نحبه قالت زينب فكلوا من نباته و لو من عضاهه قال فكانت تعطينا منه قليلا قليلا فنمضغه انتهى.

لطيفة قال أبو سالم و قد وقع البحث بين الطائفة المالكية و نحن بالمدينة عما يقطع من نبات الحرم المنتفع به للأكل كالخبيرز و غيره فانه يؤتى به و يباع فى الأسواق فهل يحل للمالكى و من لا يرى جواز ذلك شراؤه و أكله فكنت أميل إلى الجواز إذا كان القاطع لذلك و البائع له ممن يرى جواز ذلك فى مذهبه لأنه فعل ما يسوغ له شرعا لأنا نقول بأصابة كل مجتهد و إن كنا نرى أن غيره أصوب و الممنوع عندنا إنما هو قطعه فلو وجد الإنسان منه شيئا مقطوعا بنفسه من غير أن يكون له سبب فى قطعه جاز له الانتفاع به و هذا بعد القطع و وصوله إلى الأسواق بوجه سائغ لمتناول ذلك صار فى حقنا كالمقطوع بلا سبب إذ لا سبب لنا فى قطعه و لا يقاس النبات على صيد الحرم الذى هو ميتة لظهور الفرق بين الصيد و النبات و الإجماع على حرمة صيد الحرم و الخلاف فى نبات حرم المدينة و لو فتح باب الامتناع من الشراء لأدى ذلك إلى فساد كبير و حرج فى المعاملات بالامتناع عن ذبائحهم و الشراء منهم و البيع لهم لوقوع الخلاف بين الأئمة فى فروع كثيرة من الذبائح و الصيد و أبواب الربا فيمنع البعض ما يجيزه غيره فلو كنا لا نشترى إلا ممن يتقى الربا على مذهبنا و يشترط فى الصيد و الذبيحة و اللقطة ما نشترطه لأدى ذلك إلى ضيق و حرج و تضليل بعض الأئمة لبعض و هو بعيد من نظر الشارع فلما صح لنا الاقتداء به فى الصلاة صح لنا أيضا فى غيرها مما يقع فيه الارتباط بين الفعلين فإن البيع حقيقة متوقف حصولها على وجود فعل فاعلين من بائع و مشتر فلا يشترط فى صحة البيع إلا كون كل فعل واحد منهما موافقا للمشروع فى مذهبه و معتقده و كذلك صلاة المأمون متوقفة صحتها على وجود فعل فاعلين هما الإمام و المأموم فإذا كل منهما ما تصح به الصلاة فى مذهب إمامه

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۶۳

صحت الصلاة و لا يلزم كون الإمام فاعلا لما تصح به الصلاة فى مذهب المأموم على المذهب المشهور.

قال و بعد أن كتبت هذا رأيت فى نوازل البرزلى ما يدل على أن اجتناب مثل ذلك من الورع و تشتد فيه الكراهية عند بعد المأخذ و نص ما ذكر و قد سئل اللخمى عن تناول ما اختلف فيه الفقاء كشافعى رأى مالكيا غصب طعام فنقله أو عقد عقدا فاسدا فى عين و خلطها و قال ملكت ذلك على مذهبى فهل ملكه ملكا صحيحا لا شبهة عليه فيه أم لا و هل يجو للشافعى أن يعامله بالشراء منه و الأكل له أم لا فأجاب لا ينبغى لمن قلد الشافعى أن يفعل ذلك و هذا مما يتأكد فيه الورع و إن قلد مالكيا فى هذا و أمثاله فلا بأس به و إن كان شافعيا مقلدا لمالك فى هذا و لعل هذا مما تشتد فيه الكراهة لعبد المأخذ فيه البرزلى لظاهره أن العزيمة فى هذا أرجح من الرخصة إلا أن يقال أن هذا مما تعارض فيه الخطر و الإباحة فالورع تركه انتهى.

قال فقد ظهر من قوله لا ينبغى و من قوله مما يتأكد فيه الورع أن لك سائغ لا ممنوع و هذا كله إذا لم نقل بجواز التقليد للمذاهب المختلفة مع القول بصحتها و أما إن قلنا به و هو قول جم غفير من المحققين منهم عز الدين ابن عبد السلام فقد ارتفع الأشكال و

اتضح المقال انتهى كلامه.

و من فضائل أحد ما روى عن جابر رضى اللّه عنه مرفوعا أن موسى و هارون عليهما السلام أقبلا حاجين فمرا بالمدينة فخافا من يهود فخرجا مستخفيين فنزلا أحدا فغشى هارون الموت فقام موسى فحفر له و لحد ثم قال يا أخى أنك تموت فقام هارون فدخل فى لحده فقبض فحثى موسى عليه التراب. قال السيد و هناك شعب يعرف بشعب هارون يزعمون انه بأعلاه و هو بعيد جدا و بأعلى الجبل بناء اتخذه بعض الفقراء قريبا.

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۶۴

قال أبو سالم و قد شاهدت هذا البناء يوم طلوعنا إلى الجبل فى الرجبية و هو صورة مسجد قريب منه موضع معد لماء المطر و هو فى قبة الجبل فى مكان عال مشرف على المدينة و ما حولها من البقاع فيه نزهة للناظرين خصوصا وقت طلوعنا إليه فى فصل الربيع و بعض الناس يسمون تلك القبة قبة هارون قال و قد أخبرنى بعض الناس أن بانيها رجل كان يتعبد هنالك و اسمه هارون فسميت به و لم تزل إلى الآن يتعاهدها الناس للعبادة و الخلوة و ما أولاها بذلك فقد وجدت بقلبى عند الوقوف بها و الصلاة هنالك ما لا مزيد عليه من الحلاوة و التلذذ بالعبادة و كيف لا و مستقبل القبلة فيها يكون الحرم النبوى بين يديه و القبة الشريفة بين يديه و بقاع المدينة المشرفة كلها تلقاءه و مكة تجاهه حتى أنه ليخيل عليه انه مشرف على الحرمين الشريفين و ما بينهما و ما فيهما من الأماكن المشرفة و على كل حال لم أر مكانا ينشرح فيه الصدر و يصفو القلب من الأكدار و تتجلى فيه عظمة الربوبية و جلالة النبوءة كهذا المكان و يقرب منه فى ذلك جبل حراء و جبل ثور بمكة.

و فى أصل الجبل غار يزعمون ان النبى صلى اللّه عليه و سلم اختفى فيه و لا يصح ذلك ففى مسند أحمد عن ابن عباس رضى اللّه عنهما و جال الناس جولة نحو الجبل و لم يبلغوا حيث يقول الناس الغار إنما كان تحت المهراس انتهى.

و فى أعلى الشعب عند مضيقه من حيث يشرع فى الصعود للجبل الموضع المسمى بالمهراس و هو مواضع منقورة فى الجبل بين صخور عظيمة يجتمع فيه المطر فلما تخلو منه. و منه غسل جرحه صلى اللّه عليه و سلم يوم أحد كما فى الصحيح و تحت المهراس بقليل موضع يقال انه موضع الصخرة التى نهض صلى اللّه عليه و سلم ليعلوها و جلس طلحة تحته رضى اللّه عنه و قال ابن هشام فى السيرة بلغنى عن ابن عباس رضى

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۶۵

اللّه عنهما أن النبى صلى اللّه عليه و سلم لم يبلغ الدرجة المبنية فى الشعب أى فليست هى الصخرة المذكورة.

و من المساجد التى تزار فى أحد المسجد الملاصق بأحد على يمينك و أنت ذاهب فى الشعب إلى المهراس و هو صغير منهدم. قال السيد و الناس يسمونه مسجد الفسح و يقولون أن فيه نزلت يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ الآية و يقال أن النبى صلى اللّه عليه و سلم صلى فيه الظهر و العصر يوم أحد بعد انقضاء القتال و عن رافع بن خديج أن النبى صلى اللّه عليه و سلم صلى فى المسجد الذى بأحد فى شعب الخرار على يمينك لازق بالجبل.

قال أبو سالم و بين هذا المسجد و مشهد حمزة فى البيداء التى هناك مسجد صغير مبنى بالحجارة المنحوتة مرتفع عن الأرض أقل من قامة يصعد إليه بدرج غير مسقف و لا مرتفع الحيطان يقال له مسجد الثنية واحدة ثنايا الإنسان قال أن فيه كسرت رباعيته صلى اللّه عليه و سلم و هذا المسجد لم يذكره السيد السمهودى رضى اللّه عنه .

و منها مسجد ركن جبل عينين الشرقى على قطعة من الجبل و هذا الجبل فى قبلة مشهد سيدنا حمزة رضى اللّه عنه و هو الجبل الذى كان عليه الرماة يوم أحد و موضع السجد هو المكان الذى طعن فيه سيدنا حمزة رضى اللّه عنه و قد روى عن جابر رضى اللّه عنه أن النبى صلى اللّه عليه و سلم صلى الظهر يوم أحد على عينين الطرق الذى بأحد عند القنطرة. قال السيد يعنى بالقنطرة قنطرة العين التى كانت هناك قديما.

و منها أيضا مسجد الوادى على شفيره شامى جبل عينين قريب من المسجد قبله يقال انه مصرع حمزة رضى اللّه عنه و أنه مشى بطعنته من الموضع الأول إلى هذا الموضع

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۶۶

فصرع و قد روى أن حمزة رضى اللّه عنه لما قتل أقام فيه موضعه تحت جبل الرماة ثم أمر به النبى صلى اللّه عليه و سلم فحمل من بطن الوادى و يسمى هذا المسجد أيضا بمصلى رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم.

قال السيد و تسميته بالمصلى أما لكونه موضع مصلى الصبح على ما جاء فى غزوة أحد أن النبى صلى اللّه عليه و سلم صلى بأصحابه الصبح بموضع القنطرة و عليهم السلاح يعنى قبل القتال و أما لما ورد من صلاته صلى اللّه عليه و سلم على حمزة.

و من المساجد مسجد طريق السافلة و هى طريق اليمنى الشرقية إلى مشهد حمزة رضى اللّه عنه يقال انه مسجد أبى ذر الغفارى رضى اللّه عنه و روى البيهقى فى شعب الإيمان عن عبد الرحمن بن عوف رضى اللّه عنه أنه كان برحبة المسجد فرأى النبى صلى اللّه عليه و سلم خارجا من الباب الذى يلى المقبرة فخرج على أثره فدخل حائطا من الأسواق فتوضأ ثم صلى ركعتين فسجد سجدة أطال فيها و أن النبى صلى اللّه عليه و سلم قال له أن جبريل عليه السلام بشرنى انه من صلى على صلى اللّه عليه و من سلم على سلم اللّه عليه و فى بعض طرقه ذكر السجود فقط و قال فسجدت للّه شكرا قال السيد بعد نقله لما تقدم و الأسواق قريبة من محل هذا المسجد فلعله مسجد السجدة المذكورة.

قال أبو سالم و فى الطريق إلى أحد أيضا عند آخر النخل مسجد صغير محوط عليه بأحجار يقال أن النبى صلى اللّه عليه و سلم جلس فيه للاستراحة بعد الرجوع من أحد و لم يذكره السيد رحمه اللّه تعالى.

و من المساجد التى ينبغى زيارتها و الصلاة فيها مساجد مصلى الأعياد التى صلى النبى صلى اللّه عليه و سلم العيد فيها و قد ورد انه صلى العيد فى أماكن متعددة

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۶۷

و المشهور منها الآن ثلاثة كلها غربى المدينة خارج الباب المصرى بين الموضع المعروف بالمناخة و بطحان أحد يسمى مسجد مصلى العيد و الآخر ينسب لعلى و الآخر لأبى بكر رضى اللّه تعالى عنهما.

قال السيد و لعل سبب نسبتهما إليهما كونهما صليا فيهما العيد أبو بكر رضى اللّه عنه فى خلافته و على رضى اللّه عنه لما حصر عثمان رضى اللّه عنه و لا يبعد أن يصليا فى غير مصلى النبى صلى اللّه عليه و سلم و روى عن أنس بن مالك رضى اللّه عنه أن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم خرج إلى المصلى يستسقى فبدأ بالخطبة ثم صلى و قال هذا مجمعنا و مستمطرنا و مدعانا لعيدنا و لفطرنا و اضحانا فلا يبنى فيه لبنة و لا خيمة و قد حمل بعضهم قوله صلى اللّه عليه و سلم ما بين بيتى و مصلاى روضة من رياض الجنة على مصلى العيد فتتسع الروضة و فضل اللّه تعالى أوسع و عن أبى هريرة رضى اللّه تعالى عنه كان النبى صلى اللّه عليه و سلم إذا قدم من سفر فمر بالمصلى استقبل القبلة و وقف يدعو و مصلاه صلى اللّه عليه و سلم عند العلم الذى عند دار كثير بن الصلت و هناك أيضا مسجد ينسب لسيدنا عمر رضى اللّه عنه و لعل السبب كما تقدم و هذا آخر القول فى المساجد المعلومة العين بالمدينة المشرفة و أطرافها و قد زرناها و الحمد للّه رب العالمين مع حسب الإمكان و يتقبل اللّه بالقبول التام.

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۶۸

ذكر الآبار التى ورد أن النبى صلى اللّه عليه و سلم تفل فيها أو شرب من مائها أو توضأ فيها فاكتسبت بذلك فضلا على غيرها فصارت مقصودة بالزيارة و الاستشفاء بمائها

و لم نذكر منها إلا ما زرناه و شربنا من مائه و هى سبعة أولها.

بئر اريس كجليس نسبة إلى رجل من اليهود اسمه اريس و هو الفلاح بلغة أهل الشام و فى الصحيح خبر خروج رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و أن أبا موسى الأشعرى خرج فى أثره حتى دخل بئر اريس و توسط فيها و كشف عن ساقيه و أن أبا بكر جاء ثم عمر ففعلا مثل ذلك ثم جاء عثمان و بشر الجميع بالجنة الحديث بطوله و فى الصحيح أيضا أن خاتم النبى صلى اللّه عليه و سلم كان فى يد أبى بكر ثم فى يد عمر ثم فى يد عثمان حتى سقط منه فى بئر اريس فنزحت فلم يوجد و أما ما اشتهر على الألسنة أن النبى صلى اللّه عليه و سلم تفل فيها فقد قال العراقى فى تخريج أحاديث الأحياء لم أقف له على أصل قال السيد و من الغريب قول العز ابن جماعة فى منسكه قد صح أن النبى صلى اللّه عليه و سلم تفل فيه و هذه البئر فى حديقة غربى مسجد قبا قريبا منه و ماؤها غزير يسنى منه إلى بركة فى الحديقة و فى هذه الحديقة أنواع من الفواكه و الأشجار و بها عنب كثير فلما يدخل أحد للزيارة فى وقت العنب إلا و يشتريه و يأكله فيها حتى ظن بعض العوام أن ذلك من القربات و أهل المدينة يقصدون هذه الحديقة للقائلة فيها للتفرج و التنزه و قد جعل لمائها نفق من أسفلها على وجه الماء حتى يتصل ماؤها بالبئر التى يقال لها العين الزرقاء و هى فى حديقة أخرى قريبة من بئر أريس و هى بئر كبيرة قد أمدت بمياه آبار متعددة منها بئر اريس فصارت متبحرة يشخب فيها ميزابان عظيمان من مياه غيرها من الآبار فاتخذت لها أسراب من تحت الأرض إلى أن خرجت إلى بطحان ثم إلى غربى المدينة فقسمت جداول فأدخل منها إلى المدينة ما احتيج إليه فأظهرت داخل المدينة فى مناهل متعددة و بنى لها بناء متقن يهبط إليها فى

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۶۹

نحو ثلاثين درجة محكمة البناء متقنة الوصف واسعة المشى منها يستقى أهل المدينة كلهم لشربهم.

قال أبو سالم و الذى رأيت منها ثلاثة مواضع أحدها شرقى المسجد بينه و بين باب البقيع فى المكان المسمى الآن بالحارة و الآخر خارج باب السلام فى الناحية الغربية عند سوق المدينة بالبلاط و الآخر شامى المسجد بعيدا منه إلى ناحية باب الشامى و أما خارج المدينة فأخرجت فى محال متعددة أيضا ثم لم تزل تقرب من وجه الأرض قليلا كما انحدرت فى أرض المدينة إلى أن خرجت على وجه الأرض قريبا من الغابة شرقى مسجد رومة بينه و بين أحد و عليها هنالك مزارع و قد رأيت جدولا منها قريبا من مسجد الراية فى طرف ذباب يهبط إليه فى نحو ثلاث درج و هذه العين المباركة من أغزر العيون و أحلاها ماء و ألذه بها جل انتفاع أهل المدينة و منها كل السبيلات الموقوفة بالمدينة و منها تملأ الدوارق التى توضع فى الحرم الشريف للشرب و هى لا تكاد تحصى كثرة فما أعظم بركتها و أوسع نفعها و لقد شاهدت من يستشفى بمائها فيشفى و قد حملنا بعض مائها للاستشفاء و للّه در القائل:

لئن قيل فى زرق العيون شئامةفعندى أن اليمن فى عينها الزرقا

و تسميتها بالعين الزرقاء من لحن العامة و صوابه عين الأزرق لأن مروان الذى أجراها لمعاوية كان أزرق العينين فلقب بالأزرق و كان أجراؤها لهذه العين بأمر معاوية لما ولاه المدينة و كان لمعاوية رضى اللّه عنه اهتمام بذلك فأجرة فى المدينة و ما حولها عيونا كثيرة قد دثرت كلها و لم يبق إلا هذه العين المباركة و قد اعتنى بشأنها من قبل السلطنة فلها أوقاف معلومة و جرايات تأتى من عند السلطان و لها أمير معلوم و له خدام يتفقدون أحوالها على ممر الأزمنة و يصلحون ما و هى منها و لو لا ذلك لدثرت

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۷۰

كغيرها من العيون.

قال الواقدى رحمه اللّه تعالى و كان بالمدينة على زمان معاوية صوافى كثيرة كان يجدّ بالمدينة و أعراضها ألف و سق و خمسين ألف و سق و يحصد مائة ألف و سق حنطة انتهى فهذا الذى كان يجدّه معاوية وحده فما بالك بما كان لغيره من الرعايا و وجوه الناس فقد كان للصحابة رضى اللّه تعالى عنه و أبنائهم فى ذلك الزمان ضياع و قرى و مزارع كثيرة بالمدينة و ما حولها و ما أظن هذا العدد الذى كان يستغل لمعاوية رضى اللّه عنه بالمدينة قط يستغل فى زماننا هذا من أرض الحجاز كلها مع سعة أقطارها ما عدا نجدا فإن بها مزارع كثيرة و بهذا نعلم نسبة زماننا هذا إلى الأزمنة الماضية فى سعة الأرزاق و كثرة الخلق مع ان اهتمامهم فى ذلك الوقت بالدين

كان أكثر من اهتمامهم بالدنيا فأنت ترى كيف انبساطها عليهم و أما الآن فالاهتمام كله بالدنيا و لم يبق من الاهتمام بالدين إلا ما نسبته إلى الاهتمام بالدنيا نسبة الفلك الأعظم إلى الجزء الذى لا يتجزأ و هذا أعظم دليل على قرب انقراض الدنيا و استبدال عمرانها بالخراب و أنهارها بالسراب فإن عمرانها إنما هو بأسباب الدنيا و والدين و أنت ترى ما آل إليه أمرهما معا فنسأل اللّه تعالى الخروج من الدنيا بلا محنة و لا بدعة آمين.

قال السيد و من الغرائب ما ذكره الميورقى فى فضائل الطائف عن شيخ الخدام بدر الشهابى انه بلغه أن ميضاة وقعت فى عين الأزرق بالطائف فخرجت بعين الأزرق بالمدينة انتهى.

قال شيخنا أبو سالم و لعل هذه الحكاية و أمثالها هى السبب فى اعتقاد كثير من جهلة الحجاج أن العين الزرقاء أصلها من مكة و أنها هى التى جاءت إلى مكة من

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۷۱

ناحية عرفة من جبال وراءه و يقولون أنه لما هاجر النبى صلى اللّه عليه و سلم من مكة تبعته فهى التى ظهرت بمر الظهران ثم بخليص ثم ببدر ثم بالخيوف كلها إلى أن وصلت المدينة و يصممون على ذلك حتى أنى رأيت بعض من هو معدود من الفقهاء يعتقد ذلك فقلت له كما قال الإمام أبو بكر بن العربى رضى اللّه عنه فى مسألة الصلاة على النجاشى حيث قال بعضهم رفع له حتى رآه فصلى عليه أن اللّه تعالى على ذلك لقادر و أن نبينا صلى اللّه عليه و سلم لأهل لذلك و فيما صح من معجزاته صلى اللّه عليه و سلم و الآيات الظاهرة على يديه غنية عن انتحال ما لا أصل له و بطلان كون هذه العين من مكة أوضح من أن يذكر فانه لم يكن فى زمانه صلى اللّه عليه و سلم بعرفة و لا بمكة و لا بالمدينة عين تذكر على هذا النعت و لا ما يقرب منه و إنما أجريت هذه العيون بعد ذلك بأزمان.

الثانية بئر البصة بضم الباء و تخفيف الصاد المهملة كما هو الدائر على ألسنة أهل البلد و قال صاحب القاموس انه بالتشديد كأنه من بص الماء بصا رشح و أن روى بالتخفيف فمن و بص يبص و بصا و بصة كوعد يعد وعدا وعدة إذا بلغ أو من وبص لى من المال أى أعطانى فقد روى عن أبى سعيد الخدرى رضى اللّه عنه قال كان رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم يأتى الشهداء و أبناءهم و يتعاهد عيالهم قال فجاءنى يوما فقال هل عندك من سدر أغسل به رأسى فإن اليوم الجمعة قلت نعم فأخرجت له سدرا و خرجت معه إلى البصة فغسل رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم رأسه و صب غسالة رأسه و مراقة شعره فى البصة و هذه البئر قريبة من البقيع على طريق قبا فى حديقة نخل على طرف بطحان و ماؤها أخضر و هناك بئر أخرى صغيرة.

قال المطرزى و الناس يختلفون فيهما أيتمها بئر البصة و الصغرى هى التى تلى أطم مالك بن سنان والد أبى سعيد الخدرى رضى اللّه عنه و رجح السيد أنها الصغرى حاكيا

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۷۲

عن غيره فى الأطم المذكور انه الذى يقال لبئره البصة قال و الكبرى لا تنسب للاطم لبعدها منه و قد ابتنى بقرب الصغرى مسجد و اتخذ لها درج ينزل فيها إليها و قد شربنا من مائها أى الكبرى و غسلنا رؤوسنا اقتداء به صلى اللّه عليه و سلم و المنة للّه وحده.

الثالثة بئر بضاعة بضم الموحدة على المشهور و حكى كسرها و فتح الضاد المعجمة و أهملها بعضهم و بالعين ثم هاء غربى بئر حا إلى جهة الشمال فعن أبى سعيد الخدرى رضى اللّه عنه قيل لرسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم انه يستقى لك من بئر بضاعة و هى يطرح فيها ما يكره من النتن فقال الماء لا ينجسه شىء و فى رواية إلا ما غلب على ريحه و لونه و طعمه و عن سهل بن سعد بصق النبى صلى اللّه عليه و سلم فى بضاعة و سقيته بيدى منها و عن سهل أيضا بئر بضاعة قد بصق النبى صلى اللّه عليه و سلم فيها فهى يتنشّر بها و يتيمن قال المجد فى الخبر أن النبى صلى اللّه عليه و سلم أتى بئر بضاعة فتوضأ من الدلو وردها إلى البئر و بصق فيها و كان إذا مرض المريض فى أيامه يقول اغسلونى من بئر بضاعة فيغسل مكأنما نشط من عقال.

و قالت أسماء بنت أبى بكر كنا نغسل المرضى من بئر بضاعة ثلاثة أيام فيعافون و هى فى حديقة كبيرة ذات نخل أقرب أبواب

المدينة إليها باب الشامى عن يمين الخارج منه قليلا و حولها مسجد و بركة ماء.

الرابعة بيرحا بفتح الموحدة و كسرها و بفتح الراء و ضمها و بالمد فيهما و بفتحهما و القصر فيعلى من البراح و هى الأرض المنكشفة و قيل بئر أضيف إلى حاء من حروف الهجاء و هو اسم رجل أو امرأة أو مكان و خبرها فى الصحيح و أنها كانت مستقبلة المسجد و كان رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم يدخلها و يشرب من ماء فيها طيب و هى اليوم فى حديقة صغيرة قريبة من سور المدينة شماليه بينهما الطريق و أقرب أبواب المدينة إليها باب البقيع و هى بينه و بين الباب الشامى.

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۷۳

قال السيد و الظاهر أن بعضها اليوم داخل السور و قد دخلناها و الحمد للّه و شربنا من مائها و سقيت الحاضرين معنا من أصحابنا رجاء للبركة و أكلنا من خضرها المسقى بمائها.

الخامسة بئر رومة بضم الراء و بالهمز و دونه و فى الحديث نعم القليب قليب المزنى فاشتراها عثمان فتصدق بها و ورد أيضا نعم الحفيرة حفيرة المزنى يعنى رومة و عنه صلى اللّه عليه و سلم من يشترى رومة فله مثلها فى الجنة و كان الناس لا يشربون منها إلا بثمن فاشتراها عثمان فجعلها للّه و كانت لرجل من غفار أو مزينة أو ليهودى اسمه رومة فنسبت إليه و هى بئر جاهلية روى أنه استقى منها لتبع لما نزل بقناة و هى بأسفل العقيق قرب مجتمع الأسيال و هى بعيدة من المدينة و إلى الجوف أقرب و الطريق إليها على مساجد الفتح ثم يعدل يسارا إلى ناحية مسجد القبلتين ثم يمر تحته أسفل منه قاصدا العقيق فهى هناك و بقربها مزارع فزرناها و شربنا من مائها و استقينا منها ما شربناه مدة.

السادسة بئر اليسيرة من اليسر ضد العسر و تعرف الآن ببئر العين بكسر فسكون و هو لغة الصوف الملون و هى معروفة بالعوالى مليحة جدا منقورة فى الجبل و عندها سدرة فقد روى أن النبى صلى اللّه عليه و سلم جاء بنى أمية بن زيد فوقف على بئر لهم فقال لهم ما اسمها فقالوا عسيرة فقال لا و لكن اسمها اليسيرة و بصق فيها و برّك فيها و روى ابن سعد فى الطبقات عن عمر بن أبى سلمة أن النبى صلى اللّه عليه و سلم سماها اليسيرة و أن أباه أبا سلمة غسل بعد موته بين قرنيها و قد زرتها و الحمد للّه و شربت من مائها و هى فى عوالى المدينة قريبا من مسجد بنى قريظة و على بابها حديقة كبيرة حسنة .

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۷۴

السابعة بئر غرس بضم فسكون و قال المجد بفتح فسكون و ضبطه بعضهم بالتحريك كشجر و هى بئر شرقى قبا على نصف ميل من مسجدها إلى جهة الشمال و قد ورد أن رباحا غلاما للنبى صلى اللّه عليه و سلم كان يستقى من بئر غرس مرة و من بئر السقيا مرة و لابن حبان فى الثقات عن أنس انه قال ايتونى بماء من بئر غرس فأنى رأيت رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم يشرب منها و يتوضأ. و لابن ماجة بسند جيد عن على رضى اللّه عنه قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم إذا أنا مت فاغسلونى بسبع قرب من بئر غرسر و كانت بقبا و كان يشرب منها و فى رواية لم تحلل أوكيتهن و كانت البئر لسعد بن خيثمة و روى انه عليه الصلاة و السلام توضأ و أهرق بقية وضوئه فيها و روى أيضا أنه قال رأيت الليلة أنى أصبحت على بئر من الجنة فأصبح على بئر غرس فتوضأ منها و بزق فيها و أهدى له عسل فصبه فيها و قد جعل لها درج ينزل إليها منها و حولها حديقة و بجانبها مسجد و قد زرتها و الحمد للّه فهذه الآبار السبعة هى المشهورة اليوم عند أهل المدينة و قد نظمها الزين المراغى فيما أنشد عنه السيد فى بيتين و هما:

إذا رمت آبار النبى بطيبةفعدتها سبع مقالا بلا وهن

اريس و غرس رومة و بضاعةكذا بصة قل بير حاء مع العهن

قلت و بقى بئر ان أخريان يتبرك بهما، إحداهما بئر السقيا فقد ورد أنه عليه الصلاة و السلام كان يستعذب له لماء من بئر السقيا و السقيا هذه هى آخر منزلة النقا على يسار السالك على بئر على و هى بالحرة الغربية و حولها بركة عظيمة لورود الحاج أيام نزولهم هنالك و الثانية بئر زمزم و هى قريبة من السقيا على يمين الطريق حتى زعم بعضهم أنها بئر السقيا و هى بئر مليحة فى حديقة نخل

حولها بركة و بناء و سميت زمزم تشبيها لها بزمزم فى التبرك بها و نقل مائها للآفاق و لم أقف على هاتين البئرين أما زمزم فوعدنا الأخ سيدى أحمد الاخصاصى أنه يقدم معنا إليها يوم خروجنا و لم يقدر لنا لك فتأسفنا

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۷۵

أسفا عظيما أنا للّه و إنا إليه راجعون و أما السقيا فلم يكن لى بها علم إذ ذاك و السقيا هذه غير السقيا المذكورة فى الحديث فى قول الراوى لقيته بتعهن و هو قائل السقيا بل تلك مكان قريب قرب شرف الروحاء.

و قد عدّ السيد رحمه اللّه آبارا متعددة سوى هذه ثم قال فمن ذكر أنها سبعة فقط قصور منه و إنما اقتصرنا على ذكر ما شاهدناه و زرناه منها و شربنا من مائها.

و من المواضع التى يتبرك بها بالمدينة تربة صعيب فقد روى أن النبى صلى اللّه عليه و سلم أتى بالحارث فإذا هم روبى فقال ما لكم يا بنى الحارث روبى فقالوا أصباتنا يا رسول اللّه هذه الحمى فقال فأين أنتم عن صعيب قالوا يا رسول اللّه ما نصنع به قال تأخذون من ترابه فتجعلونه فى ماء يتفل عليه أحدكم و يقول باسم اللّه تراب أرضنا بريق بعضنا شفاء لمريضنا بأذن ربنا. ففعلوا فتركتهم الحمى قال طاهر بن يحيى العلوى عقب رواية ذلك عن أبيه صعيب وادى بطحان دون الماجشونية و فيه حفرة مما يأخذ الناس منه و هو اليوم إذا و بى إنسان أخذ منه قال ابن النجار و قد رأيت أنا هذه الحفرة و الناس يأخذون منها و ذكروا أنهم قد جربوه فوجدوه صحيحا قال و أنا سقيته غلاما لى مريضا من نحو سنة تواظبه الحمى فانقطعت عنه من يومه و ذكر هو كالمطرى ان ترابه يجعل فى الماء و يغتسل به من الحمى.

قال السيد فينبغى أن يفعل أولا ما ورد ثم يجمع بين الشراب و الغسل. قلت و قد وصلت إلى وادى صعيب إلى موضع هذه الحفرة و أخذنا من ترابها و استصحبناه معنا لبلادنا بقصد التداوى.

قال أبو سالم و قد نص غير واحد على جواز نقله للتداوى كماء زمزم للتبرك و لم يزل على ذلك عمل الناس قديما و حديثا. قلت و الخلاف فى نقل تراب الحرم و أحجاره

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۷۶

و الكيزان المصنوعة من ترابه معلوم مشهور و الورع ترك نقله لاحتمال خصوصية الاستشفاء به لأهل الحرم و إمكان حمل الحديث عليهم و العلم عند اللّه و قد ذكر أيضا الاستشفاء من الحمى بتراب مشهد حمزة انتهى.

و مما زرناه موقف وقف فيه النبى صلى اللّه عليه و سلم يوم عرفة و مشربة أم إبراهيم و نخيل سلمان الفارسى و قصة النخيل مشورة فى الصحيح و غيره و فيه آيات باهرة، و معجزات ظاهرة، و اللّه تعالى يوفقنا و يعننا بمنه و يمنه آمين و هو المستعان، و عليه التكلان، و لا حول و لا قوة إلا باللّه العلى العظيم انتهى كلام شيخنا المذكور فانه حسن لأنه مشتمل على فوائد و نكت مستحسنة لا يملها ذو الذوق السليم و الطبع المستقيم.

انعطاف إلى ما كنا بصدده فأنى قد زرت المدينة المشرفة ثلاث مرات و شاهدنا تلك المشاهد المذكورة على الجملة لضيق مدة الإقامة فيها و إنما يحصل كمال التفتيش و البحث على المواضع المنورة و الأماكن المشرفة بمجاورة المدينة المنورة و استيطانها على الدوام فلا يزول الاشتياق إلا بطول المكث فيها لما علمت أن المسافر لا تقر عينه بالبلدان حال كونه مشتغلا بالسفر و شئونه فإن القلب واحد لا يمكن تعلقه بأمور مختلفة لا سيما أضداد المعتنى به يعلم ذلك من شد أزاره لتحقيق المراتب و نعوت المقامات لأن الضد لا يجتمع مع ضده نعم قوة الفضل من الكريم الوهاب و شفاعة أفضل الخلق على الإطلاق، و منة الغنى الخلاق، أمطرت سحائب الفتح فإن لم يصبنا منه وابل فطل.

فلما استقر بنا القرار فى مدينة الرسول و شاهدنا تلك المشاهد النبوية الفردانية الصمدانية القدسية الروحانية المحمدية الأحمدية ظهرت لنا معالم الأنوار، و نتائج النبى المختار، و ثمرة الود و كشف الأستار، و حضرة القهار، فانعكس فى قلوبنا

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۷۷

روحانيته عليه الصلاة و السلام فامتزجت بقوالبنا و ظهر نوره صلى اللّه عليه و سلم على الأجباح، فناط متمكنا منا بعلم الأرواح، فغاب منا عالم الصفات فى محو صفاته صلى اللّه عليه و سلم فاستعقب ذلك سريان آثار اللهوت، فتمكن فى المحل الذى هو الناسوت، فلم يبق لوجود الخلق أثار لأن سطوة الحق لا يبقى معها غيره إذ كل شىء ما خلا اللّه باطل.

و لذلك طبقات الطبقة الأولى مشاهدة الأفعال و الثانية مشاهدة الصفات و الثالثة مشاهدة الذات فمن شاهد من الحق تجلى الأفعال اضمحلت أفعاله لأفعاله و كذا من تجلى الحق [عليه بأوصافه اضمحلت أوصافه لأوصافه و مثله تجلى الذات فمن تجلى الحق عليه] أيضا بذاته اضمحلت ذاته فلم يبق لسواه أثر فهذا مقام المحو و الفناء لأن الكون كله ظلمة فمن لم يشاهد الحق فيه أو معه أو قبله فقد أعوزه وجود الأنوار، و غابت عليه شمس المعارف فى كنه الكون من غير قرار، فالحق سبحانه لا يثبت معه شىء فالوجود وجود واحد بل جميع الموجودات متحدة فلا أصل لها بل هى مستمدة من عين الوجود و بالجملة صاحب المحو يغيب فعله فى فعله و وصفه فى وصفه و ذاته فى ذاته تبارك و تعالى فإذا قوى عليه حال الشهود نسبت إليه شطحات حتى ينطق عن حاله، و عن قوة شهوده و إثبات اتصاله، و محو انفصاله، برعود الهيبة و الجلال فيقول فى حضرة الحق و الكمال و عالم الأمر و هو قوله إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون فتتجرد الروح عن مادة الاستعداد فيقول صاحب الشطحات أنا الحق لكونه مغلوبا فى حاله، و مضطرا فى مقاله، فتكون الشريعة قائمة عليه و على منواله، فإن العارف باللّه تعالى يقول رامزا لهذا المقام أعنى ابن مالك ما نصه:

و ذو ارتفاع و انفصال أنا هوو أنت و الفروع لا تشتبه

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۷۸

أى الضمير المرتفع أى الغائب عن الأكوان بوصوله إلى المكون و انفصاله عن الخلق و اتصاله بالحق أنا هو إذ هو محو محض و فناء صرف و أن صاحب الصحو رجع إلى ظاهر الشريعة فيقول فى حال صحوة و أنت و الفروع أى الصديقون لا تشتبه أى لا تلتبس لأن الصديق لا يلتبس بالزنديق، فإن ما خامر القلوب فعلى الوجه يلوح آثاره، الأسرة تدل على السريرة، و أن الناس أيضا حوانيت مغلقة فإذا تكلم الرجلان تبين العطار من البيطار، ما كان فيك ظهر على فيك، كل إناء بما فيه يرشح، و لأن الكلام صفة المتكلم، و يعرف صدق الرجل بثلاث عند مغاضبته أن لازم الحق و اتصف بالصدق فلهو ذاك و إلا فليس هناك انتهى.

و قال على بن أبى طالب رضى اللّه عنه المرء مخبو تحت لسانه فإن تكلم فمن حينه و إن سكت فمن يومهم انتهى.

هذا و إن شطحات العارف تقوى ما ذكرناه و تؤيد ما أصلناه نعم شطحه على قدر غيبته عن الأكوان و قوة اتصاله بالمكون لأن عالم الأرواح بقدر تمكنه و سريانه فى عالم الملك و الملكوت و كذا ما دونه من عالم الجبروت تتقوى بصيرته و تتجلى أنواره فتتدلى له العلوم الإلهية، و المواهب الربانية، و الواردات الجسمانية، فتضمحل نفسه و تتلاشى أحواله فيغلب عليه الشهود و تتراكم عليه الرعود و الصواعق من زواجر الخوف و سرادق الهيبة و لوائح الجلال فيكون كله بكله فلا يرى فى حضرته سوى محبوبه فإن التفت عنه زل قدمه و سقط حضه فيترامى جذبا و يملتئ عشقا و يكتسى معرفة فيتغذى بتجريد التوحيد و تجريد التفريد فينادى بلسان الحقيقة إلا له الخلق و الأمر تبارك اللّه رب العالمين و حينئذ تكون عنده مفاتيح الغيب فيعرف مسالك البر أعنى الشريعة و طرق البحر أعنى الحقيقة ثم يثمر بثمرات التجلى بأوصافه و يتخلق بمعانى أسمائه ليكون طاهر القلب بالتعريف، و جميل الظاهر، بالتكليف، فتنطبق عليه الصفة

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۷۹

المشبهة فيحسن فاعلها بأدبار المحن، و إقبال المنن، فيظهر فيه اللهوت، و يضمحل منه الناسوت، فإذا تنوب أوصافه عن أوصافه و أفعاله عن أفعاله و ذاته عن ذاته و وجوده عن وجوده فليس له ثبوت فى عالم الحق فإن استولى عليه ذلك بالمدد ارتقى فى المراتب، و تعالى فى الدرجات و المواهب، و بحسب ذلك تكون مراتب الأولياء و ذلك من بحر المعارف و عليها تبنى الشطحات و الأمور

الربانية الروحانية و الأوصاف الملكية و أهل الديوان لا تخلوا أحوالهم و مددهم و مواردهم و معارفهم و مواجدهم من هذا البسط لأن بسطها إنما يكون من الحقيقة الأحمدية و الدائرة المحمدية و النقط النبوية فإن الحروف قد جاءت لمعنى و هى الأعضاء المكسوة بالتكاليف و كلها فى جمع الجمع أعنى الحقائق ثم إن الأفعال المتصرفة و المنصرفة إنما تكون فى مساجد الرفع و هى الشريعة فمن لا شريعة له لا- حقيقة له و من لا حقيقة له فشريعته رسم قل اللّه ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون و عند ذلك تناديه حقائق الأكوان إنما نحن فتنة فلا تكفر فإن ترقى نادته هواتف الحق الذى تطلبه أمامك و إن إلى ربك المنتهى.

نعم و اللّه يقول وَ أْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوابِها و باب كل شىء بين فأبوابها الحقائق السلوك و الترقى و أخذ العهود و إلا فتنعكس شمسه و ينكسف نوره لأن ثدى المعارف لا- يثبت و لا- يتقوى إلا بغذاء الأرواح فالرضاع عندهم حولين كاملين فإن تصفية النفس و تنوير القلب إنما يكون بالفطام من الهوى و من الغيبة عن السواء غير أن صاحب التربية لا بد و أن يكون خاليا عن التلوين منعوتا بنعوت التمكين الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِى الْأَرْضِ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكاةَ وَ أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَ نَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۸۰

الآية بيد أن المطمئن يداوى المتحرك.

و قد قال أبو على الثقفى لو أن رجلا- بلغ العلوم كلها و صاحب طوائف الناس لا يبلغ مبلغ الرجال إلا بشيخ عارف أو أخ ناصح أو مفت محقق و إلا فلا تعبأنّ به فليس من اللّه فى شىء انظر القشيرى و لذا قال بعضهم من لم يكن له شيخ كان الشيطان شيخه لأن النفس كثيرة التلبس عظيمة الخدع و المكر توهم الإنسان أنه صادق و هو كاذب و انه موف بعزمه و هو ناكث إلى غير ذلك من أوصافه الذميمة و هذه العلوم من خزائن الغيب تنبع فى القلوب و تظهر فى الفهوم من غير مفتاح بل هى لدنية و هيبة صمدانية فردانية إلهية و من يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا رأى حكمة أعظم من هذه فتكون على حسب الفضل قل بفضل اللّه و برحمته و أهل هذا الشأن يسرعون بالجواب، لزوال الحجاب، لفتح رب الأرباب.

تتمة إنما ذكرت هذا الكلام، من فتح الرحيم العلام، إذ هو فيض إلهى من خزائن الغيب، و عطاء الغيب، فأعرضت عن ذكر التحفة التى ذكرها شيخنا المذكور لما فيها من التشابه و وشحت هذه النبذة بما يقرب للإفهام، و لا تزل فيه الأوهام، و قد علمت أن عجائب القرآن لا تنقضى و قد قال شيخنا المذكور ما نصه.

قال الإمام أبو سالم.

لطيفة أخبرنا الشيخ شهاب الدين رئيس الموقتين بالمدينة المشرفة أن والده لما كان فى الأسر تكلم مع راهب من رهبانهم فقال له الراهب أنكم معشر المسلمين تزعمون أن كتابكم لا يغادر صغيرة و لا كبيرة إلا أحصاها فقال له الشيخ تاج الدين نعم نقول بذلك فقال له أين تجد فى كتابكم أسمى فقال له ما اسمك فقال له كبك فأخرج له تاج

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۸۱

الدين المصحف فأراه ما بعد الراء من قوله ما شاء ركبك فتعجب الراهب من ذلك و صدق بأن فى الكتاب كل شىء قال و هذه فراسة قوية و هداية سنية من الشيخ رضى اللّه عنه و لا شك أن فى الذكر كل شىء و لكن لا يهتدى إلى ذلك إلا من خصه اللّه تعالى بالفهم الربانى و العلم الإلهى.

قال و قد ذكر لى بعض الناس أنه رأى منصوصا وقوع هذه الحكاية لغيره قلت و يحتمل أن يكون هذا الراهب أخذ هذه الحكاية ممن سبقه إليها ممن تقدم و ثبتت فى ذهنه و أبرزها فى معرض الاختبار للشيخ أو أقترحها من غير ثبوت سلف فيها و يكون من وقع الحافر على الحافر و اللّه تعالى اعلم.

قال من نظير ما تقدم من اشتمال القرآن الكريم على أخبار كل شىء حتى علم الحدثان و الوقائع ما أخبرنى به شهاب الدين أحمد بن التاج أن ملك بلاد الروم السلطان سليم أحد ملوك الترك و هو أول داخل منهم لمصر و تملكها من يد السلطان الغورى سنة ثلاث و

عشرين و تسعمائة كان سبب تملكه لها انه لما تملكت بلاد الشام حدثته نفسه بالتملك على بلاد العراق إذ هى أصل منشأهم و مساكن أسلافهم التركمان فخرج من بلد اصطنبول التى هى قاعدة ملكهم فلما وصل إلى الشام بعساكره تعذرت عليه العلوفة لغلاء حصل فى تلك الناحية فاحتاج إلى الميرة و التزود من مصر فكتب بذلك إلى الغورى يستأذنه فى الامتيار من بلده و كان الشاه ملك عراق العجم فى ذلك الوقت لما سمع بتحرك السلطان سليم كاتب الغورى و كانت بينهما صداقة يطلب منه أن يشغله عنه و أن يثبطه ما استطاع و صادف ذلك من الغورى غيرة من السلطان سليم و أنفة من تملكه بلاد الشام و خشى أن اتسع ملكه أن يستولى على مصر و مصر إذ ذاك هى أم البلاد الإسلامية و ملكها أعظم الملوك لانتقال الخلافة العباسية من العراق بعد واقعة التتار إلى مصر و عند ما طلب السلطان سليم من الغورى الميرة

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۸۲

تعلل له بان ذلك لا يمكن فى هذا الوقت لغلاء الأسعار و اعتذر له بأعذار ضعيفة ففطن سليم لما قصد و علم انه إنما أراد تعويقه عن المسير إلى العراق فحدثته نفسه بالركوب إليه و صرف العنان عن غزو العراق إلى غزو مصر فاستشار فى ذلك من كان بحضرته من العلماء و ذكر لهم عذره و أن الغورى منعه من التزود من بلده و هو محتاج إلى الزاد فكلهم قال إن ذلك لا يبيح لك قتاله لأنه ملك بلاده و لم يخلع لك يدا من طاعة و لا بادأك بحرب فكيف يحل لك الهجوم عليه فى بلاده و محاربته بلا سبب و كان من جملة العلماء الحاضرين المحقق ابن الكمال باشا و أصغرهم فقال له أيها الأمير أنه يباح لك غزوه فى كتاب اللّه أنك تدخل مصر فى هذه السنة فقال له و كيف ذلك فقال له لا أفتى بين يدى هؤلاء الأئمة و هم مشائخ الإسلام حتى تؤجلهم سبعا لينظروا و يتدبروا فإن اللّه تعالى يقول: ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ فكيف لا تكون هذه النازلة فى كتاب اللّه تعالى الذى فيه تبيان كل شىء فقال لهم سليم أنى أجلتكم سبعا عسى أن تجدوا أو يتبين لكم ما قال. فقالوا كلهم أيها الأمير ما كان جوابنا الآن هو جوابنا بعد سبعة فقال ابن الكمال لا بد من التأجيل و قصده و اللّه اعلم إظهار مزيته عند الملك و أنه اهتدى لما عجزوا عنه بعد التدبر و التلوم إذ لو أبدى ما عنده فى المجلس لربما أدعى أن ذلك يمكن الاهتداء إليه بالتأمل و التدبر فأجلهم الأمير سبعا فلما انقضت جمعهم فسألهم فقالوا له جوابنا فيما مضى جوابنا الآن فقال له ابن الكمال أيها الأمير أنهم ليقرءون فى كتاب اللّه العظيم إنك لتدخل أنت و جنودك هؤلاء مصر فى هذه السنة إلا أنهم لا يهتدون لفهمه فقالوا أين هو فقال قوله تعالى: وَ لَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ فضحكوا و قالوا أين هذا مما نحن فيه فقال لهم أن قوله تعالى و لقد فى قوة لفظ سليم بحساب الجمل فإن كل واحد من اللفظين مائة و أربعون عدده فتكون إشارة الكلام سليم كتبنا فى الزبور من بعد عشرين و تسعمائة أن الأرض يرثها لأن الذكر عدده بدون أداة التعريف ما تقدم

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۸۳

قال و الأرض فى الآية الكريمة على قول كثير من المفسرين هى أرض مصر و العباد الصالحون فى هذا الوقت هم جنودك إذ لا أصلح منهم فى عساكر المسلمين بأقطار الأرض لإقامتهم سنة الجهاد و فتحهم أكثر البلاد النصرانية و هم على مذهب أهل السنة و الجماعة و غيرهم من عساكر البلاد أما ممن فسدت عقائدهم كأهل العراق و أكثر اليمن و الهند و أما ممن ضعفت عزائمهم عن إقامة شعائر الإسلام كالمغرب و أما ممن استولت عليهم الدنيا كمصر و بالغ فى تقرير هذا المعنى و سر السلطان سليم بقوله و سلم له الفقهاء حسن الاستنباط و لطف الإشارة إلا أنهم قالوا له إن هذا لا يكفى فى إباحة قتال من لم يخلع يدا من طاعة و لا حارب أحدا من المسلمين و إن كانت الإشارة القرآنية تدل على أن هذا سيكون فلا بد من إظهار وجه تعتمده الفتوى الفقهية فقال ابن الكمال أيها الأمير أما هذا فهو أيضا متيسر و ذلك بأن تبعث إلى السلطان الغورى و تقول له أنى لما قدمت إلى هذه الأوطان و لم يتيسر الغرض الذى قدمنا لأجله عزمنا على التوجه للحجاز لأداء فريضة الحج و ليس لنا طريق و لا تزود إلا من بلادكم فأردنا أن تأذن لنا فى المرور ببلادكم و التزود منها فانه لا محالة مانعك و صادّك عن المرور ببلده فإذا صدك عن حج البيت جاز لك قتاله و صار محاربا

فاستحسن الفقهاء رأيه فى ذلك لأن الحيل فى مذهبهم سائغة، و انتهاج طريقها عندهم شريعة شائعة، فكتب السلطان سليم إلى الغورى فى ذلك فراجعه الغورى بجواب سىء و صرح بمنعه و صده و انه لا يشرب من نيل مصر جرعة ماء إلا أن مشى على ظهور الموتى إلى غير ذلك من التهديد فتقوى حينئذ عزم السلطان سليم على غزو مصر و تهيأ لذلك فكان ما كان من استيلائه عليها و محو الدعوة الغوريـة من مصر و إنحائه و قتله أكثر العلماء و الصلحاء و الخليفة العباسى و كثير من أرباب المناصب و كان أمر اللّه قدرا مقدرا فعظمت بذلك مكانة ابن الكمال عنده و خيره فيما شاء من الولايات فاختار الفتوى فتولاها و حسنت سيرته فيها و تصدى لنشر العلم و تعظيم أهله و اللّه يتقبل منه

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۸۴

آمين.

و نظائر هذه الحكايات و الاستنباطات كثيرة يتعاطاها أربابها على أن التسلق على مصل هذا و تعاطى فهمه من القرآن مما لا ينبغى إلا لذى بصيرة نورانية يصدق كشفه فتحه و إلا فالهجوم عليه ببضاعة العقل خطر فإن الواقع قد لا يكون كذلك فيؤدى إلى نسبة شبه الكذب لخبر اللّه تعالى و أن بالفحوى و الإشارة و القرآن ينزه عن مثل ذلك فإن اللّه تعالى ما أنزله على عبده لهذا و إن كان موجودا فيه و إنما أنزله هدى و موعظة و ذكرى لأولى الألباب فاستعمال الفكر فى معانيه التى حض اللّه عليها و رسوله أولى من استعماله فى أمثال هذه الأمور التى لم يرد عن الشارع و لا عن السلف الصالح اعتبار جنسها فى أمثال هذه الأمور و أن اعتبرها بعض السلف لكن فى غير هذا الجنس كاستخراج ابن عباس رضى اللّه عنه تعيين ليلة القدر من بعض آيات سورته و أما المتأخرون فمنهم من اعتبره فى هذا الجنس كاستخراج بعضهم فتح بيت المقدس على يد صلاح الدين ابن أيوب من قوله تعالى: غُلِبَتِ الرُّومُ إلى قوله: فِي بِضْعِ سِنِينَ إلا أنه أمر نادر لا ينبغى أن يعتمد و ذو الحال الصحيح، و الكشف الصريح، لا ينبغى أن يقتدى به و اللّه الموفق للصواب اه و إياك و أن تقفو ما ليس لك به علم فتقع فى مهواة لا قعر لها من العطب حذرا حذرا. الرحلة الورثيلانية ؛ ج۲ ؛ ص۵۸۴

من التقينا به بالمدينة خطيب الحرم الشيخ إسماعيل قرأنا عليه حديث إنما الأعمال بالنيات فأجازنى و نص إجازته أحمد اللّه سبحانه و نسأله أن يصلى و يسلم على نبيه و أشرف خلقه مولانا محمد و آله و صحبه و إتباعه و أحبابه أخذت قراءة القرآن و الحديث عن العارف باللّه تعالى الشيخ على الشمولسى عن الشيخ الحلبى صاحب السيرة عن القاضى شمهورش عن النبى صلى اللّه عليه و سلم و قد أجزت الشيخ

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۸۵

العارف باللّه تعالى أحمد بن محمد ابن ناصر أن يروى بهذا السند الشريف العالى المنيف حديث سيد المرسلين و حبيب رب العالمين ككتاب البخارى و غيره من الكتب و قد قرأ على حديث إنما الأعمال بالنيات نفع اللّه تعالى به المسلمين و جعلنى و أياه فى بركة سيد المرسلين آمين. إلى أن قال و من عادة أهل المدينة أيضا فى كل ليلة جمعة أن يجتمع الناس بعد صلاة العشاء فى آخر أروقة المسجد النبوى الموالى لصحن المسجد فتأتى جماعة من المنشدين فينشد كل واحد قصيدة أو قصيدتين بصوت رخيم، و تطريب و تقسيم، و الناس محدقون و لهم إتباع يردون عليهم مثل ما تقدم فى ليلة المولد إلا أنهم لا يحتفلون لذلك فى ليلة الجمعة كاحتفالهم لليلة المولد و لا قريبا منه.

و من عادته فى يوم الجمعة الخروج للبقيع و وضع الرياحين الكثيرة على القبور خصوصا المشاهد المعلومة فيكون عندها أضغاث من الرياحين و يؤتى به إلى الحجرة الشريفة أيضا و يلقى من طيقان الشبابيك إلى داخلها فلا يزال هنالك حتى يذبل و يذوى و يخرج فى كناسة الحجرة و يقتسمها الأغوات بينهم مع باقى الشمع الذى يوقد داخل الحجرة و ما يتساقط من الطيب فيجمعون ذلك فيهدون منه لأصحابهم و للأكابر و يبعثون منه إلى من يهاديهم من أهل الآفاق.

و من عادتهم يوم الجمعة أن يكنس المسجد النبوى كله و يؤتى بأغطية من ديباج أسود مخوص بالذهب فتعلق على أبواب المسجد و

يؤتى برايتين سوداوين من ديباج مخوص أيضا فيركزان عن يمين المنبر و شماله و تكسى درج المنبر من أعلاه إلى أسفله ديباجا من ذلك النعت و يعلق أيضا على أبواب الحجرة الشريفة فإذا كان قبل الزوال بقريب من ساعتين طلع المؤذنون على المآذن فيبتدئ مؤذن الرئيسة بالذكر و الصلاة على النبى صلى اللّه عليه و سلم و قراءة آيات من القرآن فإذا فرغ تلاه صاحب السليمانية على نحو من ذلك ثم لا يزالون كذلك يتناوبون الذكر و الصلاة على النبى

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۸۶

صلى اللّه عليه و سلم و التلاوة على المآذن كلها إلى أن يخرج الإمام بأثر الزوال يقتسمون الوقت بذلك فإذا قرب دخول الإمام قام احد المؤذنين على سرير المؤذنين فينشد ما شاء اللّه فإذا دخل الإمام و رقى المنبر أذن المؤذنون دفعة واحدة داخل المسجد على السرير الذى فى وسط المسجد و كيفية أذانهم انه يبتدئ رئيسهم فيقول اللّه أكبر اللّه أكبر فيقوله الآخرون بعده دفعة واحدة ثم يقول أشهد أن لا إله إلا اللّه مثنى فيقولونه أيضا بعد فراغه منه دفعة واحدة و هلم جرا إلى آخر كلام المؤذن و أما الخطابة فهى كالإمامة موزعة بين فقهاء المدينة لكل واحد مقدار معلوم من الأيام على قدر حصته التى يأخذها من جامكية الخطباء فمنهم مقل و مكثر و ذلك إما بالوراثة من أسلافهم أو بالشراء من الولاة و هو الغالب و منهم من تدور نوبته فى كل شهر مرة و منهم من لا تصل إليه النوبة إلا مرة فى السنة و منهم بين ذلك على حسب أنصبائهم فى المال المأخوذ على ذلك.

و من عادة المدرسين بالمدينة أيضا تعطيل القراءة فى المكاتب و التدريس يوم الثلاثاء و يوم الجمعة و يقرءون فيما سوى ذلك من الأيام خلاف عادتنا فى المغرب من التعطيل يوم الخميس و يوم الجمعة.

قال شيخنا أبو سالم و كنت أيام أقرائى بالحرم الشريف يكلفوننى القراءة يوم الخمسى فيشق ذلك على لكونه خلاف المعتاد لدينا و لخروجنا فى ذلك اليوم لزيارة أحد و غيره من المشاهد فطالبتهم كل المطالبة أن نعوض الخميس بالثلاثاء فأبوا كل الإباءة فجريت على عادتهم كما قيل:

إن جئت أرضا أهلها كلهمعور فغمّض عينك الواحده

قلت و لا أدرى ما السبب فى تعطيل الثلاثاء و الخميس و الجمعة فسببها مشهور قلت و السبب فى ذلك كما فى شراح الرسالة أن عمر بن الخطاب رضى اللّه تعالى عنه لما

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۸۷

أطال فى بعض أسفاره اشتاقه أهل المدينة فلما سمعوا بأيابه تلقاه الناس رغبة و شوقا فتسابق إليه الصبيان فيأتوا معه ليلة الخميس و الجمعة فأجازهم جائزة و أنهم لا يقرءون يوم الخميس و يوم الجمعة إلى صبيحة يوم السبت و هذا حاصل معناه.

ثم قال شيخنا المذكور و من عادتهم أيضا فى الحرمين الشريفين التهنئة بالشهر أى شهر كان خلاف المعتاد لدينا بالمغرب فإن التهنئة عندنا إنما تكون بالأعياد و ما شاكلها و لديهم لا بد من التهنئة فى أول يوم من كل شهر فيذهب كل واحد إلى من له عليه حق بولاية أو شيخوخة أو صحبة حتى يهنئه بالشهر فى منزله و للّه در القائل:

أن الأهلة فى السماء مناجل‌بطلوعها تتحصّد الاعمار

أبدا يهنىء بعضنا بعضا بها و طلوعها بأفولنا انذار

و من عادتهم فى إقامة الصلوات الخمس فى الحرم الشريف تقديم الصلاة فى أول الوقت ما عدا الصبح للحنفى فيؤخره إلى قرب الأسفار فيصلون الظهر أول ما تزول الشمس و ما يقبل غالب الناس إلا بعد الصلاة فيذهبون بعد الصلاة إلى منازلهم لنوم القائلة و كان ذلك يشق على الغرباء قبل اعتيادهم لذلك فتكاد صلاة الظهر تفوتهم فى المسجد لأنهم لا يتأهبون لها إلا بعد الأذان و ليس بين الأذان و الصلاة قدر يسع التأهب فمن لم يتأهب للصلاة قبل دخول الوقت فاتته الصلاة فى الجماعة غالبا و ذلك خلاف السنة فى تأخير صلاة الظهر إلى ربع القامة أو أزيد للإبراد فى شدة الحر فأنا للّه و إنا إليه راجعون على تفويت الفضائل فى أماكن قطب

الأفاضل و أول من يصلى من الأئمة الشافعى ثم الحنفى إلا فى صلاة المغرب فيتقدم الحنفى لضيق الوقت عنده كالمالكى و لا يؤم بالمدينة من الأئمة سواهما من أهل المذاهب إلا فى الجمعة فيصلى صاحب النوبة على أى مذهب كان فيتناوب الإمامان الصلاة فى المحراب النبوى فإن

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۸۸

صلى أحدهما فيه صلى الأخر فى المحراب الذى على يمين المنبر الشريف و أما المحراب العثمانى الذى فى الصف الأول فلا يصلى فيه إلا فى بعض أيام الموسم إن كثر الناس.

و من عادتهم فى الصلاة على الجنائز إدخال الجنازة إلى الحرم الشريف فيصلى عليها بالمسجد ثم يمر بها أمام الوجه الشريف و يوقف بها وقيفة ثم يذهبون بها إلى محلها من البقيع أو غيره إلا جنائز الروافض كالنخاولة فإنها لا يدخل بها المسجد و لا يؤتى بها إلى المواجهة بل يأتى بها أصحابها إلى خارج المسجد من ناحية الروضة ثم يرجعون و لقد أحسن من سن لهم ذلك من الولاة فحق من يبغض ضجيعى الرسول صلى اللّه عليه و سلم و رفيقيه فى المحيا و الممات أن يبعد عن حماه حيا و ميتا قيض اللّه من يخليهم منها إلى تيماء و اريحاء آمين.

و من عادتهم فى الأملاكات أن يكون عقد النكاح بالمسجد الحرام فيأتى أكابر المدينة من أرباب المراتب و المناصب و الخطيب فيجلسون صفين من المنبر إلى الحجرة الشريفة صف مستقبل القبلة و صف مسند ظهره إلى جدار القبلة و بإزاء الخطيب المتعاقدان فيشرع فى الخطبة فيثنى على اللّه بما هو أهله و على رسوله صلى اللّه عليه و سلم ثم يذكر المتعاقدين و يشير إليهما و يرضيان بذلك ثم يؤتى بأطباق الرياحين و توضع بين الصفين و أطباق من اللوز و السكر و يفرق ذلك على الحاضرين و يقوم المنشد ينشد قصيدة أو قصيدتين فى مدح النبى صلى اللّه عليه و سلم فيفترق المجلس و يقوم الحاضرون إلى المتعاقدين و يهنئونهما و هذه صورة أملاك كل ذى وجاهة و رياسة من أمير أو تاجر أو صاحب خطة و أما غيرهم فعلى حسب ما يتفق لهم فإذا كان ليلة الدخول أتى بالرجل و معه جماعة كبيرة من أصحابه و أقاربه و معهم الشموع حتى يوقف به على باب المسجد بعد العشاء الأخيرة فيدخل و يسلم على النبى صلى اللّه عليه و سلم و يدعو فيخرج ثم يذهب به كذلك يزفونه إلى بيت المرأة فى دار أهلها عكس

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۸۹

المعتاد فى كثير من البلاد أن المرأة هى التى تزف إلى زوجها و أن الدخول فى بيت الزوج و عند هؤلاء لما كانت العادة الدخول بالمرأة فى بيت أهلها صار الزوج هو الذى يزف فإذا أصبح الزوج ذهب من بيت الزوجة إلى بيته و أخذ فى إطعام الناس طعام الوليمة و جاء الناس لتهنئته و فى الليلة المقبلة تأتى الزوجة من دار أهلها إلى دار الزوج و لكل قطر عادة و لكل قوم سادة و عادة السادة سادة العادات.

و من عادتهم فى التعامل أنهم يسمون الأربعين مايديا صرفا فيقولون عشرة أصرف و عشرون صرفا يعنون كل أربعين قيراطا من قراريط الفضة المسكوكة يعد صرفا كقولنا فى بلادنا لهذا المقدار مثقالا و يقولون للدينار من الذهب شريفيا و سلطانيا و يقولون للريال المسكوك من الفضة ريالا و قرشا.

قلت و هذا خلاف مصر فى القرش فانه أقل من الريال و يقولون للقيراط المسكوك محلقا و فى مصر يقولون له فضة و مؤيديا و يقولون للصاع الذى به التعامل ربعيا و يسمون الصروف المتقدمة إذا ذكرت مجموعة ذهبا فيقولون عشرون ذهبا و ثلاثون ذهبا يعنون عشرين صرفا من غير قصد إرادة الذهب إذ التعامل بالذهب إنما هو بالدنانير و أجزائها.

و من عادتهم فى الشراء من الأعراب الذين يجلبون اللبن و الجبن و السمن و الغنم أن يشترى منهم قوم من الأعراب الساكنين بالمدينة و أطرافها و لهم اسم يختصون به كالبرغازين عندنا فيدخلونه الأسواق و يشترى منهم أهل المدينة و هذا من تلقى السلع المنهى عنه و لكنهم قد ألفوا ذلك و استمرت عليه عادتهم و ألف ذلك القادمون أيضا لو أن أحدا من أهل المدينة أراد أن يشترى منهم لم يبيعوه

إلا بأضعاف ما يشتريه

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۹۰

البرغازون فإذا جاء البرغازون أخذوه منهم بأقل من ذلك و يركنون إليهم و يميلون إلى قولهم و يعرفون كيفية المساومة معهم فلا يتعاصون عليهم لقرب الشكل من الشكل و غيرهم ليس بتلك المثابة فلا يكاد أحد يشترى منهم لحفائهم و غلظ طبائعهم فاستسهل الناس الشراء من البرغازين بربح قليل زيادة على ما اشتروا به من الأعراب و اغتفروا التلقى لذلك اللهم إلا أن يكون الموضع الذى يحطون فيه ما يأتون به من اللبن و غيره معلوما عندهم لذلك و لا يقصدون سواه و لا يتعدون لغيره لبيع ما يأتون به من سوق أو حانوت أو دكان فيكون ذلك كالسوق لسلعهم فلا نهى إذا إذ لا تلقى حينئذ لكون السلع بولغ بها سوقها و محل بيعها و ابتياعها.

و من عادتهم فى كراء الرواحل من القوافل الذاهبة إلى مكة و الينبع أن بالمدينة رجالا يعرفهم غالب الجمالين فمن احتاج الكراء من أرباب الدواب أو أرباب السلع أتى إليهم فيعقدون لهم الكراء مع صاحبه و يتكلفون بما عسى أن يصدر من الجمال من غرر فى الطريق بهروب أو مكر و يسمى أحد هؤلاء المخرج فلا يعقد أحد كراء إلا بحضرة أحدهم و جلوسهم فى الغالب بباب المصرى و يأخذون بذلك حلاوة من الجمال و من المكرى و ذلك دأبهم بمكة أيضا:

و فواكه المدينة المشرفة فى غاية الجودة خصوصا عنبها و رطبها و أما الخضر فأكثرها وجودا الجزر و الباقلاء و الملوخية و البامية و البصل و اللفت و الخضر البرية ليس فيها إلا الخبيز و لا يأكل أحد فى تلك البلاد المسن القديم و الشحم الغوى إلا أضرابه ما لم يكن حديث عهد بالبلد فإذا طالت إقامته فى البلد تطبع بطبعهم.

قال أبو سالم و طبع ذلك البلد الشريف و هواؤه فلما يوافق أحدا من أهل مغربنا الأقصى ممن بلده ريف ذات مياه و خصب و إنما يوافق أمزجة أهل الصحراء كنوات و تفورارن و أهل السودان و ذلك و اللّه أعلم لفرط حرارة بلاد هؤلاء فقلما رأيت

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۹۱

أحدهم مريضا فى تلك البلاد إلا مرضا خفيفا و قلما رأيت أحدا ممن بلده كبلادنا ريف و خصب إلا و قد ألظ به المرض إلا القليل ممن طالت إقامته جدا فى البلد و تطبع بطبع أهلها قال من يوم قدومنا للمدينة كل ما تكلمنا معه من أصحابنا المجاورين يقول لنا استعدوا الحمى المدينة فلا بد لكم منها فإنها تحفة النبى صلى اللّه عليه و سلم و كرامته لجيرانه لتمحيض ذنوبهم و كان بعض أصحابنا يتمغص من ذلك و يشق عليه سماعه منهم و يقول نحن نرجو أن تكون كرامة النبى صلى اللّه عليه و سلم لنا بغير ذلك فكان أولنا وقوعا فى المرض و أطولنا إقامة فيه و اللّه يغفر له و يكفر ز للّه قال و لا بعد و لا نكر فى تسمية الحمى استأذنت على النبى صلى اللّه عليه و سلم فقال لها أذهبى إلى الأنصار فإن لهم عينا يدا أو كما قال عليه الصلاة و السلام و روى الإمام أحمد و غيره برجال الصحيح عن جابر رضى اللّه عنه استأذنت الحمى على رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم فقال من هذه فقالت أم ملدم فأمر بها إلى أهل قبا فلقوا ما لا يعلمه إلا اللّه فأتوه فكشوا ذلك إليه فقال ما شئتم أن شئتم دعوت اللّه أن يكشفها عنكم و إن شئتم تكون لكم طهورا قالوا أو تفعل قال نعم قالوا فدعها و فى رواية و إن شئتم تركتموها و أسقطت بقية ذنوبكم انتهى.

و لا تحفة و لا كرامة لزائريه صلى اللّه عليه و سلم أعظم مما يطهرهم من الآثام و هل فارقوا الأهل و الأولاد، و قطعوا الأغوار و الأنجاد، و امتطوا ظهور النجائب، و فلوا بأرجلها ناصية السباسب، إليه صلى اللّه عليه و سلم ألا لتحط عنهم أوزارهم، و تغسل أدرانهم، فجزاه اللّه عن أمته، أفضل ما جرى به نبيئا عن قومه.

و قد حقق العارف الإمام ابن أبى جمرة رضى اللّه عنه أن المغفرة أعلى ما يناله العبد منه اللّه قائلا أن الرحمة و أن نال منها الإنسان ما عسى أن يناله فيمكن أن يبقى معها

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۹۲

بقية ذنب فيؤاخذ بها بخلاف المغفرة و لذلك أمتن اللّه بها على نبيه صلى اللّه عليه و سلم.

قلت فينبغى إذا للعارف أن يكون أهم ما لديه تعطى أسباب المغفرة من اللّه كصلاة التسبيح كل يوم مرة أو أسبوع أو شهر أو سنة أو مرة فى العمر فقد ورد فيها ما يحمل الراغب فى ربه، المشفق من ذنبه، على ان لا يدعها، لا يقدم عليها سواها، و أفضل أوقاتها ما بين الزوال و صلاة الظهر أن تأتى ذلك و إلا فسائر النوافل تصلى فيه أوقاتها من ليل أو نهار و تصلى تارة على ما رواه ابن المبارك رضى اللّه عنه و تارة على غيره من تقديم القراءة على الأذكار و الجلوس للاستراحة قائلا- الأذكار فيها قبل أن ينهض قائما و قبل التشهد فشديد الضنين عليها و لا يشغلنك عنها شاغل و استبشر بنعمة من اللّه و فضل أن وفقك اللّه و أهلك لتعاطيها و نشطك لها إذ لو أراد بك الأخرى عياذا باللّه لثبطك عنها فتكاسلت و توانيت و لا يزهدك عنها زاهد فإن العارفين باللّه بالغوا فى الحث و الحض عليها و اللّه يوفقنا و أياك.

و لنذكر هنا الأحاديث الدالة على الخصال المكفرة لما تقدم و تأخر من الذنوب جمع الإمام الحافظ ابن حجر فى جزئه المسمى بالخصال المكفرة للذنوب المتقدمة و المتأخرة تيمنا و تبركا فأقول عن ابن حجر بسنده إلى حمران ابن أبان مولى عثمان بن عفان رضى اللّه عنه قال دعا عثمان بماء فأكثر ترداد الماء على وجهه و يديه فقلت حسبك قد أسبغت الوضوء و الليلة شديدة البرد فقال صب فأنى سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم يقول لا يسبغ أحد الوضوء إلا غفر له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر أخرجه ابن أبى شيبة فى مصنفه و مسنده و أخرج أبو عوانة فى مستخرجه على مسلم عن سعد بن أبى وقاص قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم من سمع المؤذن فقال أشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له و ان محمدا عبده و رسوله رضيت باللّه ربا و بالإسلام دينا و بمحمد

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۹۳

نبيا و فى رواية رسولا غفر له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر. فقال له رجل يا سعد ما تقدم من ذنبه و ما تأخر فقال هكذا سمعته من رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم.

و أخرج أبو داود أن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم قال للعباس بن عبد المطلب يا عباس يا عماه ألا أعطيك إلا أمنحك ألا أخبرك ألا- أفعل بك عشر خصال إذا أنت فعلت ذلك غفر اللّه لك ذنبك أوله و آخره خطأه و عمده صغيره و كبيره سره و علانيته عشر خصال أن تصلى أربع ركعات تقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب و سورة فإذا فرغت من القراءة فى أول كل ركعة و أنت قائم قلت سبحان اللّه و الحمد للّه و لا إله إلا اللّه و اللّه أكبر خمس عشرة مرة ثم تركع فتقولها و أنت راكع عشرا ثم ترفع رأسك من الركوع فتقولها عشرا ثم تهوى ساجدا فتقولها عشرا ثم تسبح فتقولها عشرا ثم ترفع رأسك من السجود فتقولها عشرا فذلك خمس و سبعون مرة فى كل ركعة تفعل كذلك فى أربع ركعات أن استطعت ان تصليها فى كل يوم مرة فأفعل فإن لم تفعل ففى كل جمعة مرة فإن لم تفعل ففى كل شهرة مرة فإن لم تفعل ففى كل سنة مرة فإن لم تفعل ففى عمرك مرة انتهى.

و أخرج ابن وهب فى مصنفه عن أبى هريرة رضى اللّه تعالى عنه أن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم قال إذا آمن الإمام فآمنوا فإن الملائكة تؤمن فمن وافق تآمينه تآمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر.

و أخرج آدم بن أبى إياس فى كتاب الثواب له عن على بن أبى طالب رضى اللّه تعالى عنه قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم من صلى سبحة الضحى ركعتين إيمانا و احتسابا كتب اللّه له بها مائتى حسنة و محا عنه مائتى سيئة و رفع له مائة درجة أو مائتى درجة و غفر له ذنوبه كلها ما تقدم و ما تأخر إلا القصاص.

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۹۴

و أخرج أبو عبد الرحمان السلمى عن أنس رضى اللّه تعالى عنه قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم من قرأ إذا سلم يوم الجمعة قبل أن يثنى رجليه فاتحة الكتاب و قل هو اللّه أحد و قل أعوذ برب الفلق و قل أعوذ برب الناس سبعا سبعا غفر له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر و أعطى من الأجر بعدد كل من آمن باللّه و اليوم الآخر و فى إسناده ضعف شديد جدا.

و أخرج الإمام أحمد رضى اللّه تعالى عنه فى مسنده عن أبى هريرة رضى اللّه عنه أن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم قال من قام

رمضان إيمانا و احتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر.

و أخرج أحمد بن عبادة بن الصامت أن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم قال ليلة القدر فى العشر البواقى من قامهن ابتغاء حسبتها فإن اللّه تبارك و تعالى يغفر له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر و هى ليلة وتر تسع أو سبع أو خامسة أو ثالثة أو أحدى و عشرون.

و أخرج أبو سعيد النقاش فى أماليه عن ابن عمر رضى اللّه تعالى عنهما قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم من صام يوم عرفة غفر له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر.

من أهلّ بحجة أو عمرة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام غفر له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر أو وجبت له الجنة أخرجه أبو داود عن أم سلمة من جاء حاجا يريد وجه اللّه فقد غفر له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر و شفع فيمن دعا له أخرجه أبو نعيم عن عبد اللّه بن مسعود إذا خرج الحاج من بيته كان فى حرز اللّه فإن مات قبل أن يقضى نسكه وقع أجره على اللّه و إن بقى حتى يقضى نسكه غفر له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر أخرجه أبو يعلى و أحمد بن منيع عن جابر.

من صلى خلف المقام ركعتين غفر اللّه له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر و حشر يوم

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۹۵

القيامة مع الأمنين ذكره القاضى فى الشفاء. من قرأ سورة الحشر غفر اللّه له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر أخرجه الثعالبى و ابن مردويه فى تفسير هما.

من علم ابنه القرآن نظرا غفر اللّه له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر و من علمه أياه ظاهره فكلما قرأ آية رفع اللّه بها للأب درجة حتى ينتهى إلى آخر ما معه من القرآن أخرجه الطبرانى عن آنس.

و أخرج أبو محمد عبد اللّه بن محمد فى فوائد الأصبهانيين عن أم هانىء و كانت تكثر الصلاة و الصيام و الصدقة فدخل عليها رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم فشكت إليه ضعفها فقال لها سأخبرك بما هو عوض من ذلك تسبحين اللّه مائة مرة فتلك مثل مائة رقبة تعتقينها متقبّلة و تحمدين اللّه مائة مرة فتلك مثل مائة بدنة مجللة تهدينها متقبلة و تكبرين اللّه مائة مرة و هناك يغفر لك ما تقدم من ذنبك و ما تأخر.

من عدّ فى البحر بعين موجة و هو يكبر غفر اللّه له ذنوبه ما تقدم منها و ما تأخر و إن الأمواج لتحتّ الذنوب حتّا ذكره أبو الحسن الربيعى فى فضائل الشام. و روى أيضا عن أنس عنه عليه الصلاة و السلام مدينة بين الجبلين على البحر يقال لها عكا من دخلها رغبة فيها غفر اللّه له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر و من خرج منها رغبة عنها لم يبارك له فى خروجه و بها عين تسمى عين البقر من شرب منها ملأ اللّه بطنه نورا و من أفاض عليه منها كان طاهرا إلى يوم القيامة هذا حديث منكر جدا.

من قاد مكفوفا أربعين خطوة غفر اللّه له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر أخرجه ابن مندة فى أماليه عن ابن عمر.

من سعى لأخيه المؤمن فى حاجة قضيت له أو لم تقض غفر له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر و كتبت له براءتان براءة من النار و براءة من النفاق أخرجه ابن الناصح فى فوائده

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۹۶

عن ابن عباس رضى اللّه عنهما.

ما من عبدين متحابين فى اللّه و فى رواية ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان و يصليان على النبى صلى اللّه عليه و سلم إلا لم يفترقا حتى يغفر لهما ذنوبهما ما تقدم منها و ما تأخر أخرجه أبو يعلى عن آنس من أكل طعاما ثم قال الحمد للّه الذى أطعمنى هذا الطعام و رزقنيه من غير حول منى و لا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر و من لبس ثوبا جديدا فقال الحمد للّه الذى كسانى هذا و رزقنيه من غير حول منى و لا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر أخرجه أبو داود عن آنس و أخرج الحكيم الترمذى عن عثمان قال سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم يقول قال اللّه عز و جل إذا بلغ عبدى أربعين سنة عافيته من البلايا الثلاث من الجنون و الجذام

و البرص فإذا بلغ خمسين سنة حاسبته حسابا يسيرا فإذا بلغ ستين سنة حببت إليه الإنابة فإذا بلغ سبعين سنة أحبته الملائكة فإذا بلغ ثمانين سنة كتبت حسناته و ألقيت سيئاته فإذا بلغ تسعين سنة قالت الملائكة أسير اللّه فى أرضه و غفر له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر و شفع فى أهله قال الحكيم هذا من جيد الحديث و ذكرتها لمناسبتها لما نحن بصدده من المغفرة رغبة أن يعمل بها من وقف عليها أو ببعضها فقد أجزت بها من أراد العمل بها من المؤمنين رجاء الثواب و حسن المآب.

و من عادتهم إذا قرب زمن انقضاء الحر و أقبلت هوادى زمن البرد و ظهرت البرودة فى الهواء صباحا و مساء أخذوا يدثرون أبدانهم فى الثياب الكثيفة التى تلبس فى أيام البرد الشديد و يقولون أن البرد فى أول أبانه يسرع فساد الأمزجة و هو أضر من البرد الشديد الذى يكون فى وسط الشتاء و يقولون أن الناس يلبسون من غليظ الثياب فى آخر الخريف ما لا يلبسون فى صميم الشتاء و شديد الزمهرير.

قال شيخنا أبو سالم و كنا نحن لألفنا البرد الشديد فى بلادنا نتلقاه بأبداننا و نعرى

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۹۷

له أطرافنا فرحا بقدومه لما قاسينا من شدة الحر الذى لم نعهد مثله فى قطرنا فكانوا ينهوننا عن ذلك و لا ننتهى و يقولون ليس هواء هذه البلدة و بردها كالتى تعهدون فكنا لا نلتفت لذلك ثقة بما نعهد فى أنفسنا فى بلادنا من الصبر على بردها الذى لا يكون برد هذه البلدة بالنسبة إليه إلا كنسبة زمان الاعتدال قال فكان ذلك مع قدر اللّه تعالى هو السبب فى حصول المرض المتطاول لنا و لأصحابنا و يشهد لمقالهم فى ذلك قول أمير المؤمنين مولانا على بن أبى طالب رضى اللّه عنه اتقوا البرد فى أول أبانه و تلقوه فى آخر أوانه فانه يفعل بالأبدان ما يفعل بالأشجار فأوله محرق و آخره مورق ذكره الزمخشرى فى كتاب ربيع الأبرار له قال و لقد صدقوا فى ذلك خصوصا فى تلك البلاد فان بدن الإنسان يكون مشتعلا حرارة و يبسا لغلبة الحر فإذا فاجأ البرد البدن فى تلك الحرارة أضر به بخلاف البرد الذى يجىء فى آخر الأبان فانه يصادف البدن قد سكنت حرارته و اللّه أعلم.

و من عادتهم أن لا يتولى خدمة الحجرة الشريفة و المسجد إلا عبيد أغوات موقوفون على ذلك لا يشاركهم غيرهم و شيخ الحرم هو كبيرهم و الأغا بلغتهم كناية عن الخصى من العبيد و اختاروا وقف الخصى دون غيره لكونه أطهر و أنزه و أكثر فراغا من الأشغال إذ لا أهل له و لا ولد يشتغل بهم و هو أبعد من دنس الجنابة و مباشرة النساء و هم عدد كثير قريب من الثمانين يزيدون و ينقصون بحسب كثرة الراغبين فى الوقف و قلتهم و الأربعون منهم هم الكبار الذين يأتى رزقهم و مئونتهم من بيت المال و ما زاد على ذلك إنما يرزقون من الأوقاف التى لهم بالمدينة أو مما يأتيهم من الهدايا و الصدقات من أقطار الأرض و يسمى ما سوى الأربعين البطالين لأنهم إنما يستعملون فى الأشغال التى هى خارج الحجرة و المسجد النبوى من الأعمال الممتهنة و لا يجلسون مع الأكابر فى الدكة إنما يجلسون خارجها و لهم ضبط و سياسة كسياسة الملوك فلكل واحد منهم رتبة معلومة و شغل معلوم فإذا مر بالأصاغر أحد الأكابر

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۹۸

قاموا له كلهم و كذا الأكابر فيما بينهم فأكبرهم شيخ الحرم فهو يتجدد فى الغالب أما فى سنة أو سنتين أو أكثر و لا يأتى إلا من دار السلطان من عبيده و يليه النقيب و يليه المستسلم و هو الذى يتولى قبض الصدقات و ما يهدى لهم أو للحجرة و بيده مفاتيح الحجرة و حواصل الزيت و الشمع و بيده جميع ما يتصرف فيه الأغوات من مصالح المسجد و من أوقافهم فإذا مات واحد من الأربعين دخل و احدج من البطالين فى موضعه و هو من كان شيخ البطالين و الترتيب فى ذلك بالتقدم فمن تقدم مجيئه يقدم على من تأخر مجيئه و ليس فيهم شافعى و لا حنبلى بل كلهم حنفية و مالكية على مذاهب ساداتهم الذين أوقفوهم و ذلك لأن الشافعية و الحنابلة لا يرون صحة وقف الحيوان و من أوقف عبدا من الأغوات على الحجرة نسب إليه سواء كان من التجار أو من الأمراء أو العلماء فيقال أغا فلان و كلهم يبيتون فى المسجد عدا شيخ الحرم و النقيب و أما الآخرون فلا يبيت واحد منهم بداره إلا لعذر بين من مرض أو نحوه و لكنهم جزاهم اللّه خيرا عن تعظيم المكان و توقيره و تبجيله و كلهم أهل خير و بركة قد اختارهم اللّه لخدمة اشرف البقاع و شرفهم

بالنسبة إلى اشرف الخلق صلى اللّه عليه و سلم و للّه در الإمام البوصيرى إذ يقول:

و إذا سخر الإله أناسالسعيد فإنهم سعداء

و من عادة الأغوات كل ليلة إذا فرغ الناس من صلاة العشاء و رواتبها قاموا بأيديهم الفوانيس الكبار و هى الفنارات عندنا مشعلة ليخرجوا الناس من المسجد فيأتون إلى المواجهة و الصف الأول فيقف بعضهم أول الصف و وسطه و آخره فيخرجون كل من فيه فإذا لم يبق أحد بذلك الصف تكلموا بكلمة ذكر رافعين أصواتهم بها فينتقلون إلى الصف الذى يليه ثم كذلك حتى لا يبقى فى المسجد أحد سواهم فيغلقون أبواب المسجد و يطفؤن المصابيح كلها إلا التى فى مواجهة الوجه الشريف و التى داخل الحجرة فيخرجون من المسجد إلى الصحن و إلى الأروقة التى

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۵۹۹

بجانبه فيخرجون فرشهم من الحواصل فينامون هنالك و لا ينام أحد منهم فى المسجد بل و لا يأتيه إلا من قصد منهم الصلاة.

و منهم أناس على قدم صدق فى العبادة و غالب نوم الصغار منهم فى مؤخر المسجد و من وراء المسجد فى الناحية الشامية ميضاة كبيرة فيها بئر كبيرة و اخلية و فتح لها باب إلى مؤخر المسجد و لا تفتح إلا ليلا بعد غلق الأبواب و تسرج فيها المصابيح لوضوء الأغوات و إزالة حقنة من احتاج إلى ذلك ليلا فإذا غلقت الأبواب هدأت الأصوات منهم و خشعوا فلا تكاد تسمع من أحد منهم كلمة فمن احتاج منهم إلى كلام أحد منهم كلمه كأخى السرار.

قال أبو سالم و لقد رأيتهم يبالغون فى خفض أصواتهم بالليل حتى بالسعال و العطاس و تنزل عليهم السكينة و تلحقهم هيبة المكان و ليس منهم مجرد استعمال لما يخالط قلوبهم من هيبة المكان.

قال و لقد أخبرونى أنه لا يقدر أحد منهم بالليل أن يصل إلى الروضة و أطراف الحجرة و المواجهة إلا الأفراد منهم و أنهم ليسمعون بالليل قعقعة السقوف و فرقعة الشبابيك حتى يظنوا أن أحد أبواب الحجرة فتح و أن بعض السقوف وقع فلا يجدون شيئا من ذلك و ذلك و اللّه اعلم لتنزل ملائكة الرحمة على قبره صلى اللّه عليه و سلم أو قدوم بعض رجال الغيب للزيارة و يظهر أثر ذلك باللى لهدو الأصوات به و خلو المكان و أن كان تنزل الملائكة على قبره صلى اللّه عليه و سلم و غشيان الرحمة له لا ينقطع ليلا و لا نهارا.

قال و لقد شاهدت من الهيبة و العظمة فى أحدى الليالى التى بتها فى المسجد ما أعجز عن وصفه و لقد كنت اجتهد إذا عسعس الليل أن أصل إلى المواجهة واقف

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۰۰

للتسليم و الدعاء فما أصل إلى ذلك حتى تكاد أوصالى تنقطع هيبة فإذا وصلت و سلمت و أردت إطالة الوقوف للدعاء كما كنت أفعل نهارا فلا أقدر فاخفف السلام و الدعاء فارجع.

قال و لقد سمعت بعض ما ذكر من فرقعة السقف و ما أشبه ذلك فملئت منه رعبا إلا أنى كنت أشتغل عنه و التلهى عن سماعه بقراءة القرآن سرا فيها لها من ليلة هى عندى نتيجة عمرى و فريدة أيامى فلئن كانت ليلة القدر خير من ألف شهر فهذه الليلة عندى كألف ليلة القدر اللهم لا أحصى لك ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك فلك الحمد على جزيل عطائك، و لك الشكر على سوابغ آلائك، فإذا كان بعد الثلث الأخير من الليل جاء رئيس المؤذنين ففتحوا له و صعد إلى المآذنة الرئيسية و إذن و شرع فى الدعاء و الذكر و الصلاة على النبى صلى اللّه عليه و سلم فيقوم كل من فى المسجد من الأغوات فيتوضئون ثم يصبحون كل ما فى المسجد من المصابيح فإذا فرغوا من الأصباح و قرب الصباح فتحوا أبواب الحرم و لا يأتى وقت فتحها حتى يجتمع بأبواب المسجد جماعات كثيرة من المتهجدين ينتظرون الفتح فإذا فتحت الأبواب دخلوا مزدحمين و تسابقوا الصف الأول من الروضة فيما بين القبر و المنبر فمن سبق إلى موضع كان أحق به فإذا أراد القيام لحاجة كزيارة أو تجديد وضوء بسط نمرة له فى محله فلا يجلس فيه أحد و لو أبطأ و كثيرا ما يعتدى فى ذلك أقوام فيدخلون مع أول داخل من غير طهارة لقصد السبق إلى الموضع و تحجيره فإذا بسط فيه فروته أو منديله ذهب

إذ ذاك إلى الطهارة و أسبابها و كثير منهم يبطىء فى الطهارة فيحجر على الناس المحل و ربما عرض لأحدهم حاجة فى منزله أو فى السوق فيترك النمرة فى محله فلا يقربه أحد و أن أبطأ كثيرا و فى ذلك من الضرر على المصلين ما لا يخفى على أن فى دخولهم مزدحمين و استباقهم إلى الروضة حتى ربما سمع لأقدامهم من شدة العدو دوى سوء أدب لا يخفى و ربما يحتج لذلك محتج بقوله عليه الصلاة و السلام لو يعلم

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۰۱

الناس ما فى الصف الأول لاستبقوا إليه فلا بد من تقييد ذلك بما لا يخل بأدب البقعة المطهرة و ساكنها لقوله عليه الصلاة و السلام و أتوها يعنى الصلاة و عليكم السكينة و الوقار فما أدركتم فصلوا و ما فاتكم فاتموا.

قال و المراد بالمسابقة فى الحديث المتقدم الاهتمام بشأنه و الحرص على الصلاة فيه من غير عدو بالأقدام و مزاحمة بالمناكب.

و ساداتنا الأغوات رضى اللّه عنهم و جازاهم خيرا لا يغفلون طرفة عين عن حراسة الحرم الشريف و تأديب من أساء فيه الأدب بلغط أو رفع صوت أو نوم و لو فى قائلة إلا فى مؤخر المسجد و من وجدوه مضطجعا من دون نوم للاستراحة فإن مد رجليه إلى ناحية الحجرة زجروه و ان استقبل القبلة بوجهه أو الحجرة من غير أن يكون مستدبرا لها تركوه و لا يغفلون عن حضور المسجد فى ساعة من ليل أو نهار فإن خرجت طائفة جلست طائفة و لهم ديار و خدم و أتباع و ضياع و خيل و سعة دنيا و لا يشغلهم ذلك عما هم بصدده من خدمة المسجد بل لبعضهم أزواج و سرارى اتخذوها للتلذذ بما سوى الجماع و أحكامهم فيما بينهم منضبطة غاية الانضباط و لا يحكم فيهم سلطان و لا غيره و لا يولى عليهم و لا يعزل منهم إلا بأمر شيخهم و لا يرث معهم بيت المال شيئا إن مات أحدهم إنما يتوارثون بينهم و من وجبت عليه عقوبة أو أدب منهم أدبوه من غير أن تكون لأحد عليهم ولاية كل ذلك تعظيما لجانب النبى صلى اللّه عليه و سلم أن تكون لأحد ولاية على عبيده و خدم حجرته الشريفة و لا يدخل معهم من العبيد الذين يهدون من الآفاق إلا من رضوا إدخاله بمال يدفعه عنه سيده أو يدفعه هو إن كان له مال و مع ذلك يبقى فى مرتبة الصغار المشتغلين بالخدمة الخارجة فإن رضوا حاله و حسنت أخلاقه تركوه حتى تأتى نوبته فى الدخول فى زمرة الأربعين و إن ظهرت منه خيانة أو سوء أخلاق أو سرقة أو شىء يشينه نفوه إلى حيث شاء من البلاد.

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۰۲

و بالجملة فلعبيد سيدنا رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و خدام مسجده جلالة قدر و عظيم منصب و سعة أرزاق و كرم أخلاق و هم أحقاء بذلك و لكبيرهم كلمة نافذة فى المدينة و تصرف تام و يد مبسوطة و هو أحد عظماء الولاة بالمدينة تنفذ أحكامه و تمضى تصرفاته فى القوى و الضعيف و الشريف و المشروف و يطأ عقبه الكبراء و الأشراف.

و إذا كان أول رجب جعل الناس يقدمون من أقطار الحجاز و اليمن كمكة و الطائفة و نجد و جدة و ما ولاها من أطراف اليمن لشهود الرجبية و زيارة سيد الشهداء حمزة رضى اللّه عنه فما من يوم إلا و تدخل فيه قافلة من مكة و نواحيها و لم يزل الناس يتلاحقون فخرج أهل المدينة إلى أحد من اليوم الخامس و السادس من الشهر و رجعوا فى اليوم الثانى عشر و لم يبق بالمدينة إلا القليل و خرج العسكر لحراسة الناس فى الطرقات من المدينة إلى أحد كما تقدم شرح ذلك.

و بعد الرجوع من أحد نزل الوافدون بالمدينة ينتظرون الرجبية و هى ليلة سبع و عشرين منه ليلة المعراج و قدم خلق كثير من الأعراب و كانت بالمدينة سوق عظيمة و امتلأ المسجد و جوانبه فما من يوم إلا و يزداد فيه الخلق كثرة فإذا كانت الليلة السابعة و العشرون تكامل حشر الناس فمن لم يدخل إلى المسجد من قريب من العصر قلما يجد موضعا لصلاة المغرب و العشاء فيغص المسجد بمن فيه و يفتح الحرم طول الليل و يبيت الناس فى ذكر و قراءة و صلاة كل على حسب ما يسنح له إلى الصباح فإذا أصبح الناس أخذ الأعراب فى التوديع فيسمع لهم حنين كحنين الإبل فى المسجد و صياح و صراخ رافعين أصواتهم بالصلاة على النبى صلى اللّه عليه و سلم و الاستغاثة به فيرق قلب سامعهم و يحن و يشفق لهم على جفائهم و جهلهم فلا يأتى مساء ذلك اليوم حتى لا يبقى بالمدينة منهم

إلا القليل و عسى اللّه أن ينفعهم بحسن نياتهم.

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۰۳

و إذا استهل شهر شعبان أخذت القوافل فى الرجوع إلى مكة و يرجع غالب من جاء من أهلها و لا يبقى إلا القليل ممن يريد شهود رمضان بالمدينة.

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۰۴

ذكر بعض أودية المدينة التى تسيل إذا كثرت الأمطار فيخرج أهل المدينة للتنزه بها

فمنها وادى العقيق و هو أيضا من المواضع المباركة التى ينبغى زيارتها ففى الصحيح عن ابن عمر رضى اللّه تعالى عنهما قال سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم يقول بوادى العقيق أتانى الليلة آت فقال صل فى هذا الوادى المبارك و روى مرفوعا العقيق واد مبارك و روى أن عمر رضى اللّه تعالى عنه كان إذا انتهى إليه أن وادى العقيق قد سال قال اذهبوا بنا إلى هذا الوادى المبارك و إلى الماء الذى لو جاءنا جاء من حيث جاء لتمسحنا به و قال فيه عليه الصلاة و السلام هذا الوادى يحبنا و نحبه و هو واد كبير غربى المدينة وراء الحرة الغربية يأتى سيله من أماكن بعيدة و ربما دام شهرا فأكثر و ورى أنه صلى اللّه عليه و سلم ركب إلى العقيق ثم رجع فقال يا عائشة جئنا من هذا العقيق فما ألين موطأه و أعذب ماءه فقلت يا رسول اللّه أفلا تنتقل إليه قال و كيف و قد ابتنى الناس و عن أنس رضى اللّه تعالى عنه خرجنا مع رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم إلى وادى العقيق فقال يا أنس خذ هذه المطهرة و أملأها من هذا الوادى فانه يحبنا و نحبه و عن سلمة قال كنت أصيد الوحش و أهدى لحومها إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم فقال لو كنت تصيد بالعقيق لشيعتك إذا خرجت و نلقاك إذا جئت.

و أسفله مما يلى الجرف هو المسمى بالعرصة إلى غربى رومة و ما فوق ذلك إلى النقيع يسمى العقيق.

قال أبو سالم و المشتهر فى زماننا بالعقيق من غربى رومة إلى ذى الحليفة قال عياض النقيع صدر العقيق و هما عقيقان أدناهما عقيق المدينة و هو أصغر و أكبر فالأصغر فيه بئر رومة و الأكبر فيه بئر عروة و العقيق الآخر على مقربة منه و هو من بلاد مزينة انتهى. و سمى عقيقا لأن سيله عق فى الجرف أى شق و قطع و قيل سمى بذلك لحمرة

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۰۵

موضعه.

قال السيد و مر تبع بالعرصة و كانت تسمى بالسليل فقال هذه عرصة الأرض فسميت العرصة و مر بالعقيق فقال هذا عقيق الأرض فسمى به و فى العقيق بئر عروة بن الزبير رضى اللّه عنه و هى من أغزر الآبار ماء و أعذبها و أحلاها و هى بئر شهيرة فيها أخبار و أشعار.

قال الزبير بن بكار رأيت الخرّاج من المدينة إلى مكة و غيرها ممن يمر بالعقيق يتخففون من الماء و يتزودونه من بئر عروة و إذا قدموا منها بماء يقدمون به على أهليهم يشربونه فى منازلهم عن مقدمهم قال و رأيت أبى يأمر به فيغلى ثم يجعل فى القوارير و يهديه إلى أمير المؤمنين هارون.

قال جابر الربعى فيها:

يعرضها الأتى من الناس أهلهو يجعلها زادا له حين يذهب

و قال السرى بن عبد الرحمن الأنصارى:

كفنونى إن مت فى درع أرويو استقوا لى من بئر عروة مائى

سخنة فى الشتاء باردة مالصيف سراج فى الليلة الظلماء

و أنشد عبد الرحمن لأم يوسف و هو فى غاية العذوبة و السلاسة:

على ساكنى بطن العقيق سلامو ان اشهرونى بالفراق و قاموا

حظرتم على النوم و هو محللو حللتم التعذيب و هو حرام

إذا بنتم عن حاجر و حجرتمعلى السمع أن يدنو إليه كلام

فلا ميّلت ريح الصبا فرع بانةو لا سجعت فوق الغصون حمام

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۰۶ و لا انفقعت فيه الرعود و لا بكىعلى حافتيه بالعشىّ غمام

فما لى و ما للربع قد بان أهلهو قد فرضت من ساكنيه خيام

ألا ليت شعرى هل إلى الرمل عودةو هل لى بتلك البانتين لمام

و هل نهلة من بئر عروة عذبةأداوى بها قلبا براه أوام

ألا يا حمامات الأراك إليكمفما لى فى تغريدكن مرام

فوجدى و شوقى مسعد و مؤانسو نوحى و دمعى مطرب و مدام

و روى أن عمر بن الخطاب رضى اللّه تعالى عنه لما اقطع الناس العقيق وقف فى موضع بئر عروة بن الزبير التى عليها سقايته و هو يقطع الناس و يقول أين المستقطعون فنعم موضع الحفيرة فاستقطعه ذلك خوات بن جبير الأنصارى فاقطعه تلك الناحية فاشترى عروة موضع قصره و بياره بعد وقت صدقت فراسة عمر رضى اللّه عنه فى هذه البئر كما هو شأنه فى كل ما يفترسه فيه و للزبير بن بكار أن النبى صلى اللّه عليه و سلم اقطع بلال بن الحارث المزنى العقيق و لم يعمل فيه شيئا و أن عمر رضى اللّه تعالى عنه قال له إن قويت على ما أعطاك رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم فاعتمله فما اعتملت فهو لك فإن تعتمله أقطعته بين الناس و لم تحجره عليهم و فى رواية انظر ما أطقت أن تقوى عليه فامسكه و أردد إلينا ما بقى نقطعه فأبى بلال فترك عمر بيد بلال بعضه و أقطع ما بقى للناس و لما دنا عمر رضى اللّه عنه من موضع قصر عروة وقف فى موضع بئر عروة إلى آخر ما تقدم انظر كلام السيد فقد أشبعه و سيل العقيق عند أهل المدينة من أعظم المتنزهات من سالف الدهر و لشعرائهم الأقدمين فيه أشعار كثيرة مذكورة فى كتب الأدباء.

قال شيخنا أبو سالم إمام المرتحلين فى زماننا و قد حضرت بالمدينة سيله ثلاث مرات فخرج الناس على طبقاتهم و نصبت الخيام و المضارب بحافتيه و طبخت

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۰۷

الأطعمة الكثيرة مع سرور و لهو و طرب و أقاموا به يوما أو يومين و قد سال مرة سيلا عظيما منع الرفاق الواردين من مكة للرجبية عن الوصول إليها إلا بعد مدة قال و قد حضرنى أبيات و نحن على شاطئه مع جملة من أصحابنا أولها:

جرى العقيق و دمعى كالعقيق جرىفلا تسل سائلى عما هناك جرى

الوجد أورى زنادا فى الحشا فصلىبه الفؤاد فسال الدمع مبتدرا

اذكرنى جريه جرى السوابق فىبين الكتائب فى الميدان متعجرا

و ظله و النسيم فى جوانبهاطربنى فسرى الأحزان حين سرى

أذكرنى زمنا عند الذين بهمأفاخر الشهب فى وسط الدجى سحرا

قومى و أهلى و من البست بينهمشرخ الشباب نظيفا طيبا عطرا

ما استبدلت منهم نفس المشوق سوىطيب مجاورة المختار من مضرا

أكرم بذا بدلاق فاز آخذهلو أنه فى الشراء أدفع العمرا

و من جملتها هذه

سال العقيق و دمعی‌سال کمثل العقيق

وسيله کالرحيقو أدمعی کالحريق

فلا تلم يا عذولیو لتسعدن يا رفيقی

و منها وادی بطحان و هو الوادی المتوسط بيوت المدينة و دور الأنصار غالبها علی حافتيه شرقا و غربا و لابن زبالة يأتی من الحالتين حالتی صعب علی سبعة أميال من المدينة أو نحو ذلک ثم يصل إلی وادی جفاف شرقی مسجد قبا و أوله من الماجشونية ثم يمر کذلک إلی أن يمر غربی سور المدينة إلی طرف المصلی ثم يخرج إلی غربی سلع و قرب مساجد الفتح ثم يمر کذلک إلی أن يلتقی مع العقيق بالغابة حيث مجتمع الأسيال فقد روی البزار و ابن أبی شيبة مرفوعا عن عائشة رضی اللّه تعالی عنها بطحان

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۰۸

علی ترعة من ترع الجنة و يخرج الناس للتفرج فيه و علی حافتيه منازل کثيرة لأهل المدينة قد جعلت لها شبابيک و مجالس إلی ناحية الوادی و عليه قنطرة کبيرة قرب المصلی و قلما يخلو أعلاه من ماء يسيل به نجلا يقوی إذا کثرت الأمطار و يقل إذا قلت.

و منها وادی قناة و هو أعظم أودية المدينة سيلا فإن سيله يأتی من الأماکن البعيدة يروی أن تبع نزله فلما شخص منه قال هذه قناة الأرض فسمی به و يسمی أيضا بالشظاة. و فی القاموس أنه عند المدينة يسمی قناة و من أعلی منها عند سد نار الحرة يسمی بالشظاة.

قال ابن أبی شيبة وادی قناة يأتی من وج أی وج الطائف، و قال المدائنی قناة واد يأتی من الطائف و يصب فی الارحضية و قرارة الکدر ثم يأتی بئر معونة ثم يمر علی طرف القدوم فی أصول قبور الشهداء بأحد ثم ينتهی إلی مجتمع السيل بالزغابة.

و قال ابن ذبالة سيل قناة إذا استجمعت يأتی من الطائف و هو أحد فحول أودية العرب فيأتی من المشرق حتی يصل إلی السد الذی أحدثته نار الحرة بالمدينة و انقطع هذا الوادی بسببه ثم انخرق سنة تسعين و سبعمائة فجری الوادی سنة علی ما بين الجبلين و سنة أخری دون ذلک ثم انخرق بعد السبعمائة فجری سنة أو أزيد ثم انخرق سنة أربع و ثلاثين و سبعمائة بعد تواتر الأمطار فجفر واديا آخر غير مجراه الذی هو علی مشهد سيدنا حمزة قبليه و قبلی عينين و بقی المشهد و عينين فی وسط السيل نحو أربعة أشهر لا يقدر أحد علی الوصول إليهما إلا بمشقة و کان أهل المدينة يقفون علی التل الذی خارج باب البقيع فيشاهدونه و لو زاد مقدار ذراع فی الارتفاع وصل إلی المدينة ثم استقر فی الوادی بين القبلی و الشمالی قريبا من سنة و کشف عن عين قريبة قبلی الوادی جددها الأمير ودی ثم دثرت و هذا الوادی هو الذی ورد فی الصحيح فی استسقائه صلی اللّه عليه و سلم أنه سال شهرا و أهل المدينة يخرجون إلی موضع أعلاه

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۰۹

من ناحية المشرق وراء الحرة فيقيمون فيه الأسبوع و أکثر.

و قد ذکر السيد من جملة أودية المدينة وادی رانوناء کعاشوراء و وادی مذينب مصغر مذنب و وادی مهزور بفتح فسکون آخره راء و هذه الأودية کلها ترجع إلی بطحان.

قال الزبير بن بکار ثم يلتقی سيل العقيق و رانوناء و اذاخر و ذی صلب و ذی ريش و بطحان و معجب و مهزور و قناة بزغابة و سيول العوالی هذه تلتقی بعضها ببعض قبل أن تلتقی بالعقيق ثم تجتمع فيلتقی العقيق بزغابة عند أرض سعد بن أبی وقاص رضی اللّه عنه و ذلک عند أعلی وادی أضم سمی به لانضمام السيول و اجتماعها به.

قال الزبير ثم تمضی هذه السيول فتنحدر علی عين أبی زياد و الصورين فی أدنی الغابة ثم يتلقاها وادی نظما و وادی نعمان أسفل عين أبی زياد ثم تنحدر و تلقی وادی ملل بذی خشب و ظلم و الجنينة و يلقاها من الغرب بواط و الخرار و من المشرق ذراوان ثم الأثمة ثم يلقاها وادی رمة من الشام و وادی برعة من القبلة ثم يلتقی هو و وادی العيص من القبلة ثم يلقاه وادی احجر و وادی الجزل الذی به السقيا و الرحبة فی نخيل ذی المروة ثم عمود فی أسفل ذی المروة ثم يلقاه واد يقال له سفان حين يمضی إلی البحر عند جبل يقال

له أزاك ثم يدفع فى البحر من ثلاثة أمكنة يقال لها اليعبوب و النبجة و خفيف.

قال السيد و ذكرنا فى الأصل ما فى كلام المطرى من المخالفة لما ذكر و أن مصبه فى البحر من ناحية اكرى فى طريق المصرى.

قلت و هو الوادى المسمى اليوم بالاكره على ألسنة الحجاج شرقى الوجه بينه

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۱۰

و بين الوجه مرحلة .

تتمة فلما لاح لنا لائح الافتراق، و انقدح زناد الاشتياق، تحركت الأحشاء، و ذابت الأكباد و انهمرت العيون بالبكاء، و أصابت النفس العبرة فكادت ان تزهق الروح من شدة ما أصابها من ألم الفراق و اضطرم القلب و انحراق من قوة ما وجد من عذاب البين و مفارقة الصديق الأمين صلى اللّه عليه و سلم فلم يوجد زمان أحلى و أعذب من زمان الوصول إليه و مشاهدة حضرته و التلذذ فى محاسن روضته و لا أشهى من الوقوف بين يديه.

نعم و لا أصعب من يوم فراق دائرته و قد انغم القلب حزنا بل أعتل بعلة لا يعلمها إلا من وردت منه و خلقها عند قرب مفارقته فحرارة الجسم كادت أن لا تبرد و قلق القلب قد قوى و ضل وهام فعز أن لا يهتدى.

و بالجملة فأمراض البين لا يعلمها إلا من شارك فى هذا السبب و هو الذى أصابه ما أصابنا فعند ذلك ينتقى عند اللوم فلا مصيبة أعظم من هذه الآفات فأنا حيران و ولهان، بكثرة الهموم و الأحزان، و ضرورة عند مفارقة الأحباب و الخلان، نعم لما دنا و قرب السفر من المدينة المشرقة ظهر لى ترك السفر و الرجوع فى ذلك إلى الوطن ليزول عن الاشتياق بمجاورته صلى اللّه عليه و سلم فعزمت على المجاورة و سألت أولاد الفاضل الكامل ذى الحب و الود فى اللّه أولاد الشيخ الجملى إذ كان الشيخ صديقا لنا فى الحجة الثانية عن المنزل أسكن فيه فقالوا نعم و فرحوا بذلك و سروا سرورا عظيما فذهبت لخيمتنا فأعلمت أهل الدار بذلك أعنى النساء و قد أصابهن مرض شديد كاد بعضهن أن تصل إلى السياق و هى الحرة الجليلة الكريمة

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۱۱

الطيبة النخبة الشريفة المتطلبة فإنها تقرأ نحو الربع و تحفظ بعض الأذكار كوظيفة الشيخ زروق و كانت تحفظ الصغرى للشيخ السنوسى و كذا بعض الرسالة لابن أبى زيد حاصله فى غاية الأدب و الفهم و الفطانة بنت الشيخ الفقيه النزيه الفاضل الكامل صاحب الفضائل و الفواضل الشريف تحقيقا سيدى عبد اللّه بن رحاب من أولاد الشيخ سيدى رحاب المتوطن فى أولاد دراج و محلهم الولجة فوق قمر تحت جبل بو طالب مشهور عند الناس من غير التباس و قد حج معنا فلما أشرفت على الموت وجدت عذار عند الحجاج إذ لا يستطيعون مفارقتى و اسمها عويشة و كذا أختها فاطمة زوج ابنى و الأخرى زوجتى بنت الشيخ الفاضل المحقق المتكلم العالم الصالح خطيب وقته و فريد عصره لا سيما فى أصول الكلام سيدى المسعود بن عبد الرحمن جدها من قبل أبيها و هو منسوب للشيخ أبى محمد صالح الدكالى المعلوم فى الكتب الذى أخذ عن الشيخ أبى مدين و عن الشيخ سيدى عبد القادر فى القرن السادس و محله بنو عيدل بلد الشيخ القطب سيدى يحيى صاحب الوظيفة المشهورة فى وطنه و قد شرحتها و الحمد للّه و هو شيخ الشيوخ رزوق و قد قيل انه هو الذى ملكه مشارق الأرض و مغاربها نفعنا اللّه بهم و أفاض علينا من بركاتهم.

نعم لما ظهر ذلك عند الركب اجتمعوا و نادوا بالويل فقالوا و اللّه أن أقام أقام جميعنا فلما رأيت شدة اتصالهم بنا و كثرة عويلهم علينا و قالوا إن خصه ما يوصله جمعنا له ما يبلغه إلى وطنه بل ما يغنيه علما منهم بأن الذى حملنى على الإقامة قلة الزاد لا سيما و ان الشيالة أعنى أصحاب الإبل هربوا لى فقلت و اللّه لا أقبل درهما من أحد إذ لا أحمل المنة و غاية أمرى أقبل السلف لأنى ملى فى بلدى و عند ذلك ذهب سيدى عبد اللّه بن رحاب و سيدى أحمد بن حمود و كاتب الحاج ابن فانة شيخ العرب الذى هو محبنا سى عيسى فاشتروا لى ثلاثة جمال لحمل الأهل و عند ذلك ظعن الركب المصرى و المغربى فتأخرنا عنهم لشراء حوائج الإبل و علفهم لأن أبنى محمد ذهب لذلك مع

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۱۲

ابن عمنا سيدى عيسى الشريف فلم يبق إلا خيمتنا فرفعناها و ركب الأهل لأنهم و دعوا النبى صلى اللّه عليه و سلم ليلا فلما انفصلوا فى آخر الركب خفنا عليهم غير أن اللّه حفظهم و أنا بعض الأصحاب منتظرون ولدى و حين وصوله إلينا ذهبت لأودعه صلى اللّه عليه و سلم مع من كان معى من الحجاج فدخلت مسجده صلى اللّه عليه و سلم و قصدت قبره الشريف و علتى قد زادت فلم أجد لها درياقا سوى الصبر.

نعم لم يبق مودع إلا المعظم المكرم الشريف الفلالى أمير الركب منها فوقفت بعض وقوف عند قبره ثم أنى دخلت إلى الشيخ الصفى الودود النقى ذى الأحوال الصادقة و الأنفاس الطيبة و الأعمال الزكية و المواجد الإلهية و المعارف الربانية و العلوم اللدينة صاحب الأوراد و المريدين الشيخ السمان القرشى المدنى إذ داره عند باب البقيع فوجدت الود الصدوق و الخل الفاروق سيدى محمد الشريف الطرابلسى مع بعض أصحابه فأطعمنا خبزا و لحما و ما أحسنه من طعام فلم أذق طعاما مثله ثم ودعناه عند ذلك توديعا تاما قويا إذ نظر إلينا نظر رحمة علمنا منه أنه سقانا بتلك النظرة إذ وجدت أثارها فى الحين ثم أوصانى بشرح الصلاة المنسوبة إليه و هى صلاة عظيمة تكاد أن تكون كصلاة الشيخ عبد السلام بن مشيش فعلمت أن الشيخ لا حظنى بخاطره و إن كنت لست أهلا لشرحها ففتح اللّه بعلوم لا تكاد توجد فى عصرنا و لا غرابة فى ذلك و عند انفصالنا من داره رجعنا إلى توديعه صلى اللّه عليه و سلم و عظم على أمر التوديع حتى علا صوتى و ارتفع و كاد أمرى إلى العويل بل أنوح عليه نياح الثكلى العديمة لولدها و كيف لا و هو أن فراقه أعظم المصائب و لم انفصل عنه إلا بصبر عظيم و هول جسيم و حزن شديد فلم أملك نفسى عند ذلك فعظمت المصيبة و عز الصبر غير أن تسليت بانتقاله من دار الدنيا و فراق أصحابه ثم خرجنا منه على أصلح حال و منة

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۱۳

عظيمة مع ما كان فى القلب من مرض البين و حرقه و اضطرام الفؤاد بسببه مسرعين فى أزقة المدينة إلى أن خرجنا من الباب الذى يخرج منه الحجاج و إذا بالناس منها يقولون أن العرب يضرونكم و يؤذونكم لا- سيما أنى تخلفت منتظرا لحمل القول على الجمل فركب ولدى و كذا سيدى عيسى المذكور ثم لحقت بالأخ فى اللّه سيدى محمد المحفوظى يريد المجاورة و الإقامة بها فألححت عليه بالذهاب فامتنع فزجرته و قلت له تترك زوجتك خالية عن الزوج فأجابنى بأنى بعثت لها ما تنفقه حتى أرجع و ان اختارت التزويج فلها ذلك و كذا البقاء ثم قهرته على المشى معنا فقال أعاهدك أنى أقدم بعدكم من الينبع إلى الصعيد و إلى مصر فلم أقبل منه بل ذهب معى إلى أبيار على ثم فر من هناك إلى الآن و الحالة خرجنا منها مع الخوف و الحرامية يتبعون وراءنا إلى أن وصلنا إلى الركب.

و بالجملة فأنا أقول فى ذلك كقول شيخنا المذكور و أتمثل به ما نصه و لقد أحسن القائل:

ما اشتفت علتى و هذا فراقى‌قد تحققته بسير رفاق ى

هذه مهجتى تذوب دموعافانظروها تسيل من آماق ى

كبدى تلظى و عينى تهمى‌هكذا فليكن بديع الطباق

يا رسولا لنا أتى بكتاب‌لم تعارض آياته باتفاق

و الكريم المعراج و البرق خلانى‌طريحا إذ سار فوق البراق

و الذى اقتص من قلوب غلاظأبت الحق بالسيوف الرفاق

يا مزيل الغماء أن جل خطب‌يا شفيع العصاة يوم التلاق ى

آن عن قبرك الشريف انصرافى‌و انصرامى و ما شفيت اشتياق ى

و لئن كنت قد بللت غرامى‌بالتثام الثرى فعندى بواق

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۱۴ وقفة بى تجاه حجرتك الغمراءسارت ممالك الآفاق

اتمنى أنى بها أتملّىفى محل خلاه لى خلّاق ى

موقف لذّلى خضوعىّ فيهحين أطرا تأدّبى أطواق ى

و تلذذت فيه حين تذللتو نلت الأفراد بالأرفاق

معدن الخير مهبط الوحى مثوىخير هادى الورى على الإطلاق

كيف أسرى من طيبة لسواهاو هى عندى حديقة الأحداق

آه وا لوعتى أفارق منهامثل هاذى الأنوار و الأشراق

أنا عبد قد اثقلتنى ذنوبىلم يلق بى إلا إليها أباق ى

أترى يسمح الزمان بعودىفالأمانى علالة المشتاق

لا يكن ذا الوقوف آخر عهدىبك يا منبع الهدى الدفّاق

فالكريم الوهاب ذو الفضل حىو الذى عنده من الجود باق

ثم أنى سرت مع بعض الأصحاب، و الدموع فى الأماق أى انسكاب، و مشينا و زاد التصبر ينهب، و القلق قد أطنب، فى توقده أسهب، إلى أن قال و ينشد:

لما ترحل ركبنا عن طيبةو وجدت عندى للرحيل محركا

أودعت فى الحرم الشريف حشاشتىو رجعت لا أدرى الطريق من البكا

قلت و أما نحن فقد انفصلنا بين الظهر و العصر و فقد كل واحد منا الأصطبار، و زال منا أيضا الاختيار، لأن العبد مجبور فى قالب مختار، و إلا فكيف يفارق الخيار.

نعم الأرواح باقية فى عوالم الأسرار، فلو لا ذلك لانتقلت من الجسوم بالدثار، و لما نزلنا أبيار على إذ هى أول منزلة بعد فراق المدينة الشريفة، و فارقنا تلك المعاهد التى على الكواكب منيفة، رأيت مكانه على الركب و أهله خمول خمود، و على مطيهم

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۱۵

و جمالهم حمول جمود، ذاقه هذا من ذاقه، و تحققه من لقلبه بعد الإيمان أدنى علاقة.

يا ليلى ما جئتكم زائراإلا وجدت الأرض تطوى لى

و لا انثنى عزمى عن بابكمالا تعثرت باذيالى

ثم بتنا تلك الليلة و افترقنا عند المغرب لإتيان ما تتعشى به الإبل فصلينا المغرب فى تلك البساتين إلى العشاء فرجعنا إلى الأخبية و بتنا خير مبيت إلى طلوع الفجر ظعنا و أعقل الركب المطايا، و استخرج خبايا شوقه لأهله من حنايا الزوايا، فسرنا مع العافية و السلامة من كل مكروه و الحالة أنى راكب على بغلتى مع من ركب على البغال من أصحابنا فى شوق و وجد و حرق و نحن كذلك إلى أن وصلنا و اللّه أعلم قبور الشهداء بين الظهر و العصر و الركب المصرى نازل هناك إذ سبق من المدينة و نحن ركب الجزائر وراءه و إن كان عادة المغربى السبق فى الإياب و إنما سبقناه عند الينبع ثم خلفنا تلك المنزلة و سبقنا و تركنا الركب المصرى هناك إلى أن تجاوزنا العشاء الأخيرة فنزلا فى الوادى ثم أن الركب المصرى سبقنا فى الليل و أصبح فى الصفراء و قد بتنا هناك فى عافية ثم بكرنا قبل طلوع الفجر و وصلنا الصفراء عند الزوال و نزلنا وراء المصرى لتعذر المرور فى وسطه من شدة الضيق فبتنا هناك خير مبيت و استقينا من العين الكبيرة و رجعنا إلى خيامنا و بين هذه المنزلة و قبور الشهداء مسجد الغزالة و قد زرناه مرارا و الحمد للّه.

ثم أقام الركب المصرى فيها إلى قرب الظهر ثم ارتحل المصرى و ارتحلنا بعده بعد الظهر و ما ذكرناه من النزول وراء الركب بل نزلنا تحت القرية فى القيلولة ثم ان الشيال الذى اكترينا عليه من مكة الذى هرب لنا ببعض الجمال و ترك البعض فى يدينا و لم يعتبره

لشدة غلاء الفول و حصلت لنا مشقة عظيمة و كربة قوية إذ طلبناه فى بدر عند الأمير فلم يتفق لنا الاستواء معه لكثرة فجوره و تحيله فاختفى فى المصرى فرارا مما

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۱۶

يلزمهم منا شرعا ثم اشتكيت لأمير مصر حاله حين نزلنا الصفراء فوعدنى بالاستخلاص منه عند المدينة و لما وصلنا المدينة ذهبت إليه فأمرنا إلى كيخة الصوان إذ هو الذى يحكم بين العرب و غيرهم فأمرنى بترك الثلث من الكراء فلم أرض إلا بالربع فاختفى عند ذلك أيضا فلما شكوت له المرة بعد المرة أمرنى بالذهاب إلى آغة عسكر المغربى فأمرنى بترك الثلث أيضا و ظننت فيه و فيمن سبق عدم نصحى فلم يكن الأمر كذلك بل نصحانى جازاهما اللّه خيرا و لما امتنعت هرب و اختفى و لم أجد له خبرا إلا عند الصفراء فوجدته مارا و مسكته عند الظهر فضاقت حيلته و لم يجد سبيلا و أتى أهله لتسريحه فامتنعت من أطلاقه حتى آخذ ما أعطيت له و هو تسعون ريالا بوطاقة و لما حان وقت الظهر ذهبت للصلاة و خفت أن يهرب و تركته فى خيمة الفاضل الكامل سيدى عبد الرحمن بن قرى و أصحابه الحاج محمود و الحاج بلقاسم بن دحمان اليعلاوى مسكوه فلما قاموا إلى الصلاة تركوه فى يد شيال آخر فهرب منه فتبعه فاختفى فلم يلق له أثر و اختفى فى الركب المصرى فأدرت أن أغرم الذى تفلت من يده ظنا منى انه هو الذى أفلته فأصابتنى شفقة عليه حين رأيته يبكى و يحلف أنه ما تفلت منه اختيارا ثم لما ارتحل الركب المصرى و لم يبق منه أحد و تبعه المغربى و لم يبق منه شخص و بقى العبد و ابنه و تخلفنا لكثرة الدبش و قلة الأصحاب إذ منهم مريض و من لا يستطيع الخدمة مع ضعف النساء و مرضهن فاحتجنا لكثرة اليد غير أن اللّه تبارك و تعالى عصمنا من تكشيط العرب و سبلهم لنا إذ كل من مر منهم يقول لنا شيلوا بسرعة و احفظوا أنفسكم.

و لما انفصل المرحول من مدشر الصفراء تخلفت مع بعض الناس من الركب الفلاللى وقع بهم ما وقع بنا من التخلف غير أن المراحل شبقت و وصلت إلى الركب

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۱۷

و تخلفت مع هذه الرفقة فبعضهم يمشى على الرجل و بعضهم على البغال و قد صحبوا السلاح و البنادق فلم يصبنا خوف و لا روع و نحن فى جماعة من العرب فى أطراف القرية فلم تقع لهم عين سوء علينا بل فرحوا بنا فرحا شديدا فمنهم من يطلب الدعاء و منهم من يقول لا- تخافوا فلا- بأس عليكم و لا- ضرر لديكم و شيعونا إلى أن برزنا عن بساتين العمارة و أرونا الطريق التى نسبق فيها الركب أحسن اللّه إليهم و أجزل لهم الثواب فمشينا سويعة من الزمان و إذا الركب قد سبقنا الأكثر منه فافترقنا لما دخلنا وسطه إذ كل ذهب إلى رحله فكنت أنا أطلب رحلنا فلم يتبين لى غير أنى وجدت رحل الفاضل الأديب الود الصدوق الخل الفاروق سيدى محمد بن القاضى الملقب أبا وغثوش أمير زواوة راكبا فى محفة مريضا مرض الإسهال فلما وقع بصره على فرح بى و رحب و ضحك و سألته عن مرضه و حاله فأخبرنى بأنه أشتد مرضه فى المدينة و بعد خروجه منها ثم كذلك استمر عليه الحال بعد أن عزم أن يقيم بالمدينة المشرفة لظنه الموت فضيق عليه بعض الأصحاب بأن أمره بالعزم على السفر لعل الشفاء يحصل فخرج راجيا ذلك و منتظرا ما هنالك فقلت له لا يكون معك إلا الخير و العافية إن شاء اللّه فقال متأسفا لا أظن السلامة أو كلاما يقرب منه فعاودته الدعاء بالبرء.

ثم قال احكى لك رؤيا أنى رأيتها فقلت له و ما هى فقال أنى رأيته صلى اللّه عليه و سلم و كنت أسأله الشفاعة أو كلاما هذا معناه و أعيد له ذلك المرة بعد المرة حتى قال لى أنى شفعت فيك أو أنك مغفور لك أو لا تخف مما هو حاصل هذا المعنى فسرنى

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۱۸

ما رأى و طمعت فى البرء له بيد أنى لما أخبرنى بأنه صلى اللّه عليه و سلم بشره بالمغفرة خلت موته ثم أنى صحبته كذلك راكبا على بغلتى و هو راكب على جمله إلى بعيد المغرب و أتى على وقته فارقته ثم نحن كذلك نسير إلى العشاء بعدها بسويعات و زمان نزلنا قرب الاستشراف على المضيق قرب الجبل إذ لا يمكن سيره لصعوبة الطريق و كثرة الأحجار و ضيقه بين الجبال فليشكر اللّه من خرج

منه على عافية و سلامة و طيب وقت فى نفسه و مع ذلك تكثر فيه فساق الغرب و محاربوهم قل أن يخرج الركب سالمين منهم فبتنا فيه خير مبيت فلما قرب الصباح ظعنا منه و وصلنا المضيق الوعر و الركب المصرى قرب وصوله موضع النزول فسرنا فى ذلك الوعر رويدا رويدا و خرجنا منه على سلامة و عافية و مع ذلك دارت العرب ببنادقها مع ضرب البارود فى أطراف الركب فعلى النداء و الصياح فانحجم أول أول الركب و ربضوا إلى أن وصل سلطان فزان فى تخته مع أصحابه فسلم الحجاج و ركبنا و الحمد للّه نعم كل من مر على هذا المضيق قل أن يسلم من المحاربين.

فلما اجتمع الركب سرنا على بركة اللّه و حسن عونه إلى أن بلغنا المنزلة التى بعد نقب على و هى مشهورة و لما أن استقر بنا القرار فى يوم حلا لا قر و فى تلك المنزلة شجر كثير و فيها بئر عظيمة بعث لنا الفاضل سيدى محمد السابق ذكره و هو ابن القاضى أنا و المحب فى اللّه سيدى أحمد بن حمود و سيدى احمد الطيب لكونه أشرف على الموت فأوصى الجميع على حوائجه و حسبنا ماله و علمنا به أين كان و الحافظ له سيدى احمد بن حمود اد بيّنه هو و قد وصيناه أيضا لأنه هو الذى يصون أموالنا و عند الظهر

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۱۹

أخذت الناس فى الرحيل و التأهب للسفر فصلينا الظهر و عند ذلك ظعنا منه على أتم حال و أبركه فتقدم المصرى و تأخر المغربى من حيث هو فانفصل الجميع عن المنزلة نعم تخلفنا آخر الركب حسبما عادتى أنا و سيدى أحمد الطيب و سيدى محمد الشريف الطرابلسى صونا للذى يتأخر من ضعفاء الحجاج ممن ليس له مركوب كالدراوشة فربما يقع لهم الضعف فيكون جميعنا فى عونه فسرنا آخر الركب رويدا رويدا إلى أن صلينا المغرب ثم كذلك إلى أن صلينا العشاء ثم كذلك إلى أن سرنا سويعة بعدها فاخبرونا بموت أن القاضى المذكور فاجتمعنا لتجهيزه ليلا و هى مقمرة فنزل الركب ذلك الوقت فحفرنا له و كفناه و صلينا عليه أى جميع من كان من الفضلاء فى الركب و علمنا قبره و هو بين تلك المرحلة و منزلة الينبع و أصابنا بموته مصيبة عظيمة لم أنسها إلى الآن لأن ظننا أن يرجع إلى بيته سالما ينتفع به العامة و الخاصة غير أنه لما تاب و قبلت توبته مات بمرض البطن فهو شهيد و فى طريق الحج و انه غريب فكل واحد من هذه الثلاثة تقتضى الشهادة لأن الشهداء غير شهداء القتل معدودون و قد حصر عدهم الشيخ اليوسى فى حاشيته على كبرى السنوسى و لقد أجاد فى ذلك و ما ظننت أحدا أنه ذكرهم كذلك فأنظره و كذا الشيخ إبراهيم الشبراخيتى فى الجنائز فى شرحه لمختصر خليل ثم ارتحلنا آخر الليل و ظعنا من ذلك المحل و تبعنا المصرى و عند صلاة الصبح أشرفنا على الغيضة الملتفة بشجر أم غيلان القريبة من الينبع فإذا أنا فى التغليس بعد صلاة الصبح جماعة و ما فاتتنى ركعة و اللّه اعلم فى جماعة منذ خروجنا من بلادنا إلى أن رجعنا إلى بيوتنا و ذلك مع الفضلاء فى أكثر الأوقات و الحمد للّه و إذا برجل أتانى على رجليه زى الأعراب غير انه ليس عليه آثار السفر تشم منه رائحة الولاية فلما دنا منى أصابنى منه الرعب و الفزع و مع ذلك أسير مع أصحابى الفضلاء الذين أسير معهم على العادة المألوفة و الحالة أنى مشتغل فى ذلك الوقت بالوظائف و الأذكار الواردة بعد صلاة الصبح نعم أخذتنى شبه سنة و أنا راكب على بغلتى متفكر فى أمر الجمال التى

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۲۰

تركها الشيال فى يدى بأن أسلمها أهلها فصعب على شراء الفول و كذا القيام بها إذ شغلنى أمرها أتم شغل بل تشوش خاطرى غاية فلم أجد مسلكا من ذلك فكلما أمشى إلى الظلام و أرباب الدولة إلا ظننت انه ذهب دينى بل قال لى العارف باللّه سيدى محمد الشريف الأخ المذكور لما ذهب مرة معى فى شأن ذلك و أصابه من الجلوس بين يدى الملك ما أصابنى فقال لى سلم فى هذا الأمر و أتركه للّه فأخذ ذلك الكلام بمجامع قلبى فكنت أسأل اللّه الخلاص منهم و لو بالموت أى موتهم نعم قلبى متعلق بذلك الرجل إلا أنه استولت هيبته و جلالته على فلم استطع كلامه و أنا أسير و هو يسير معى ملاصقا ركبتى أظنها اليسرى فلما تمكن منه قلبى و ملأت عينى من نظره من غير نطق منى إجلالا- و تعظيما له علما منى أنه أحد أصحاب الوقت إذ يعلوه نور و نحن كذلك فإذا هو دفع لى مسواقا رقيقا يساق به مثل البغلة لراكبها كأنه عود الأراك أو من الريحان فلم أميزه لما فيه من اليبس فلما وصل إلى يدى شممت منه

رائحة المسك بل أقوى رائحة و تلك الرائحة لا نظير لها كافورا أو عنبرا أو زبدا أو مسكا فهو أى ذلك العود يعبق شذاؤه و بلغت تلك الرائحة جميع جسدى فذاقها الجميع منى ذوقا معتبرا و عند مده ذلك العود فارقنى بان قال لى خذ هذا ففهمت أن اللّه فرج عنى إذ منذ دخلت مكة و أنا فى كرب إلى الوقت الذى لقينى فيه ذلك الرجل الكامل فزال عنى كل ذلك ببركته فعلمت أنه ما جاء إلا إغاثة لى ثم أنى أخذت ذلك العود فى يدى مستحسنا لتلك الرائحة و متعجبا منها و منتظرا الخلاص من تلك الجمال فاستصحبته معى إلى أن نزلنا الينبع و أقمنا به و نزلنا قرب العين فى عافية و سلامة فوجدنا كل خير فى سوقه مع رخاء الأسعار و الحمد للّه.

و بعد ذلك اليوم بعت تلك الجمال دينا إلى أن وصلنا إلى مصر فسرنى بيعها لأنها

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۲۱

نعمة عظيمة و كأنى بعدها متجرد فلم يشغلنى شىء و لا همنى أمر سوى ما أحمل عليه شئوننا و حوائجنا فطلبت الكراء فلم أجده فنويت الإقامة فى الينبع بأهلى إذ ذهبت إلى شيخ الركب ليلا ليمهل بالرحيل من الينبع إلى طلوع الشمس و لعلنا نجد ما نحمل عليه بالبيع أو الكراء فرضى هو بالإمهال فلما سمع أكثر الركب بانتظاره أيانا تحزبوا أحزابا إليه و حركوه إلى السفر ليلا قاصدين سبق المصرى إحياء لعادة الركب المغربى لأنه يتقدم فى الرجعة فاجمعوا على ذلك و لو أداهم إلى القتال زعما منهم أنهم يستطيعون محاربته و ذلك سخافة عقل و تصرف ببضاعة و هم و إن سلّمنا تأتّى الحرب منهم فلا نسلم دخولهم مصر إذ فيها أربعة و عشرون بابا و فوقهم الباشا الذى يأتى من مدينة أصطنبول كل عام ما استوفى أحد عامه إلا ذهب و أتى غيره مع القاضى و ذلك دأبهم فالعسكر المصرى الذى يذهب مع الأمير و قوته غير موجودة فى عساكر ما رأيناه و إن ركبنا المغربى من إسكندرية إلى أقصى المغرب ركب واحد إلا الركب الفاسى فانه يذهب فى وسط المصرى يمشى ليلا و أما المغربى فبالنهار نعم ما طلع ركب من المغرب قط أقوى من ركبنا ذلك العام و قد تعجبوا منه فى مصر و فى طرابلس و قالوا فيهما أن هذه الإبل التى كانت فى ركبكم لم تكن مولدة من النوق و إنما هى مجتمعة من الحطب أو الرمل حتى صارت فى مصر كالمعز فلا تجد أحدا يسأل عنها لكثرتها و قد عم بيعها أرياف مصر و أطرافها من العرب و أكثرها بيع بالدين إلى الرجعة و لم يقتضوا من دراهمها إلا القليل.

نعم وافق الشيخ رأيهم فسافر معهم فبقيت أنا و أهل بلادى ممن شغله أمرى بان تخلف معى كسيدى أحمد الطيب و جملة زوارة و سيدى أحمد بن حمود و جملة أهل بلادنا و سيدى محمد الشريف الطرابلسى و أصحابه و سلطان فزان و ركبه إلى طلوع الشمس

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۲۲

على أن شيخ سيدى محمد المسعود نجل الشيخ البركة سيدى محمد الحاج الدكالى المعلوم بعث لى جملا فى الليل أحمل عليه جازاه اللّه خير و وقاه ضرا و جعل البركة فى أولاده أعاننى به فلما أصبح اللّه بخير الصباح وقع بيننا و بين ركب فزان شنآن لأن أهل وطننا فيهم الجفاء و الغلظة و سوء الأدب و عدم أذعانهم للحكم و سلطان فزان رجل عدل قائم بالأحكام لا سيما أمور السياسة فثقل عليهم المشى جميعا و ربما صرحوا بالقول لما يجدونه مما ذكرناه فى أهل وطننا و مع ذلك فيه رغبة لصحبة الفضلاء منا فلم يكترث بما وقع من سوء الأدب من أصحابنا مع أصحابهم.

و أما الركب الجزائرى فلا حكم عندهم أصلا و لا يقفون عند الأمر و النهى لا سيما أهل عامر فما فارقهم أحد فى هواهم ألا أبغضوه و جعلوه عدوا و قد أصابتنى منهم عداوة عظيمة من أجل أنى آمرهم بالسنة و القيام بالأحكام الشرعية لا سيما السير بسيرى الشيخ و النزول بنزوله و ستر نسائهم لأنهن يذهبن مكشوفات العورات فيبدين زينتهن لكل الناس بل يتزين لأجل ذلك ليرعن من فتن بهن فأردت إقامة الحد عليهن و على أزواجهن فصارت لى فتنة عظيمة غير أنى من عادانى منهم ببركة السنة لم يرجع إلى بيته فأظهر اللّه أمرى فتطيروا و تشاءموا بعد ذلك و تاب من بقى منهم بعد أن هلك من هلك منهم و الحمد للّه على إظهار السنة النبوية و قد قال تعالى: تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَ يُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ الآية و قال أيضا: وَ لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ و قد قال تعالى فى مثل أهل عامر ممن يريد الوصول إلى اللّه بالدعاوى الكاذبة و الزخارف البينة و الأباطيل المزينة يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولئِكَ و قال أيضا فى

شأن مثلهم: وَ مَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ و قال أيضا: سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ و قد سمعنا أن بعض الفاسقات ممن يزعم الأحوال الربانية و المواجد الإلهية ممن استولى الشيطان عليهن و سولت أنفسهن لهن تتعرض بنفسها للرجال و تزعم أن من لم يوافقها فى غرضها الفاسد ابتلى بمصيبة بل

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۲۳

قد تقول إن لم توافقنى فى غرضى أصابك كذا و كذا بان تعينه فيصير ذلك و يظن الجاهل المغرور المخدوع المخذول الشقى و العياذ باللّه تعالى إن ذلك أمر ربانى و كرامة منه تعالى لها و ما هو إلا استدراج و قد قال تعالى: سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (۱۸۲) وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ أى نأخذهم إن كيدى قوى تحقيقا أنه إذا أخذ الظالم لم يفلته طرفة عين و قد سمعنا مثل هذا ممن يوثق به و كثير من الناس يحكيه فمنهم من يؤمن به و منهم من يكفر به و أما التزين بالملابس الفاخرة و الكحل و الجوز استياكا و الخضب بالحناء و لبس الحلى من الفضة و غيرها مع المشى فى الأسواق و اجتماع الشبان معهن و من لا خير فيه و اللّه يقول افعز عليه الصبر، و أحنى عليه الكبر، فعظمت مصيبة فأمر مشهور لا يكاد يخفى على أوباش العامة فضلا عن الخاصة أما الجهال فيعتقدون أن ذلك من الدين معاذ اللّه و يأبى اللّه أن يكون ذلك دينا أو يكون الوصول إلى اللّه بحرام و الحمد للّه على عدم مسخهم أو يخسف بهم الأرض أو يسقط عليهم كسفا من السماء أى قطعة منها و يدلك على ذلك أنه تتجافى أنفسهم عن مخالطة أهل العلم و مباعدتهم إياهم فجمحت عن الاجتماع بهم فضلا عن الامتثال لأوامرهم و اجتناب نواهيهم و اللّه يقول: وَ ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا الآية.

و أما العلماء ممن فيه رائحة خير و حسن اعتقاد يقول فيمن هذا شأنه إذا اجتمع معهم و رأى المخالفة منهم أنهم من أهل التخريق و التلبيس عن أنفسهم إظهارا منهم للقبيح و إخفاء للحسن كما يحكى ذلك عن بعض الصديقين ممن سلف من أولياء اللّه تعالى فحشاهم أن يكونوا كذلك بل همه زنادقة خلته أنهم أباحوا المحرمات فقد تطبعوا بطبائع المرجية لأنهم يعتقدون أن لا آثم مع الإيمان فهذا أمر لا يليق بالعلماء بل

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۲۴

يجب عليهم زجرهم و النكر عليهم ما استطاعوا لقوله صلى اللّه عليه و سلم إذا رأى العالم بدعة و لم يغيرها فعليه لعنة اللّه أو كما قال و قد قال تعالى: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ الآية و العلماء خيار من خيار و أمته صلى اللّه عليه و سلم خير الأمم و العلماء هم خيار الأمة و لذا كانوا خيارا من خيار.

و أما السلاطين فيجب عليهم النكير و التغيير باليد إذ وظيفة العالم اللسان و وظيفة السلطان اليد لكن لما سكت العلماء زاد الناس فى البدع و اتسع الخرق على الرافع.

نعم فإن من يقتدى به من أهل العصر ممن ينسب إلى العلم بل إلى الصلاح يجلس معهن و يظهر للناس و دهن و يعلم الناس أنهن صالحات قانتات يعنى اللاتى ذكرهن فى القرآن العظيم بل يزعمون أنهن من أهل الحضرة فى اعتقادهم و بعضهن فى غاية الجمال و الحسن فيخاف على نفسه من زارهن من غير شك و مع ذلك تبقى هذه المزورة مكشوفة البدن بل تظهر محاسنها للشبان و من لا خير فيه بل قصد أكثر الناس الغرض الفاسد أن وصل إليه حتى صار بعضهن مرصادا للزيارة فلما أتانى بعضهن لام على من حيث أن أفضل العلماء خالطهن ليلا و نهارا و أظهر صلاحهن فى مجالس العامة و الخاصة و كيف بك يا قليل النية و يا كثير الحيلة أن لا تأتى إلينا و تكون معنا فقلت لهن لا يحل لكن الاجتماع بالأجانب و الاختلاء بهم لقوله صلى اللّه عليه و سلم ما اختلى رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما و قال أيضا باعدوا بين أنفاس النساء و أنفاس الرجال و قال أيضا لو كان عرق الرجل فى المشرق و عرق المرأة فى المغرب أو العكس لتحاتّا قلن فى الجواب القلوب مع اللّه فلا علينا من الصور الظاهرة لقوله صلى اللّه عليه و سلم أن اللّه لا ينظر إلى صوركم و إنما ينظر إلى قلوبكم فقلت لهن فإن لم يكن

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۲۵

لكن فتنة كانت الفتنة لمن أجتمع معكن فقالوا اللهم أهلكه و هذا كله ليس من السنة فأوصاف من هذا شأنه لا تعد و لا تحصى و لا تضبط و لا تستقصى فيجب أن نثنى القلم إلى ما كنا بصدده و هو انه لم أصبح اللّه بخير الصباح رفع سيدى أحمد الطيب و سيدى أحمد بن حمود و أصحاب الجميع بل ظعن الجميع ممن كان فى وطننا و أخذ فى السفر و الركب الفزانى لم يتحرك من موضعه يريد أن يضحى النهار ليقضى كل واحد حاجته من سوق الينبع فلم يذهبوا مع ركبنا الجزائرى [و لا بقينا مع الفزانى و لا مع المصرى بل انفردنا وحدنا فظعنا عند طلوع الشمس و انفصلنا و تخلف إخواننا فى اللّه سيدى محمد الشريف و أصحابه مع الفزانى لأنه لا يليق به الجزائرى] لما فيهم من الغلظة و سوء الأدب فلما غبنا عن الأركاب استقللنا أنفسنا ثم اجتمعنا و تقوى بعضنا ببعض فسرنا كذلك فى يوم حر لاقرو أن رأينا العرب انضم بعضنا إلى بعض فلم يستطيعوا الكرة علينا أبدا إلى أن وصلنا الخضيرة بأمن و عافية و سلامة فوجدنا الجزئرى نازلا فيها فتعجبوا منا إذ بلغنا إليه قرب المغرب فظعنا منه بكرة و هذا الموضع لا ماء فيه أصلا فسرنا مع الركب إلى أن وصلنا إلى النبط بعد الزوال فى يوم شديد الحر كادت النفوس أن تذهب من شدة العطش بل مات بعض الناس به و لما قربنا منزل النبط تحركت علينا ريح شديدة الحر مع حرارة الشمس بحيث من ذهب إلى رحله كاد أن يموت و أما من تخلف فلا تسأل عنه.

نعم تخلفنا فى جماعة من الفضلاء فى آخر الركب فأصابنا عطش شديد و نحن كذلك إلى أن أشرفنا على النبط فزاد بنا شدة الحر و قوة العطش و إذا بواحد من العرب لقينا بقربة من الماء فاسقى جميعنا ظنا منا أن هذا الشخص لم ير منا إلا الفلوس فشربنا الماء أحلى من العسل و أبرد من الثلج فلا نعلم انه من ماء المطر أو من العيون التى فى

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۲۶

الجبال فلما أتى عن آخرنا ارتقبنا منه أن يتكلم و يسأل الدراهم كما هى عادة عرب الحجاز أعنى هبّ الريح فلم يطلب من أحد دعاء و لا سأل شيئا منه بل رفع قربته و لم يلتفت إلى أحد منا فعجب جميعنا منه و وقع فى قلوبنا أن هذا الرجل من أهل اللّه و أنه من عباد اللّه الصالحة إذ يعلوه جلال و هيبة و نور فندم الكل من حيث أنهم لم يسألوا منه الدعاء و مع ذلك آثر بمائه العلماء من الركب و فضلاءه فزال ما بنا من العطش فنزل الركب قرب الآبار و ازدحموا عليها لسقى الإبل و ملء السقاية زحمة عظيمة حتى ظننا أنه لا يبقى فيها قطرة ماء بل بفضل اللّه يتزايد فاستقينا و سقينا و ملأنا السقاية فزاد الماء من عنده الوسع لأن ماء الحوراء ليس بطيب و بعده الدركين المسمى الآن بالحنك لا ماء فيه و بعده الإكراه فماؤه أقبح و أقبح مرارة فمن شربه ربما أذاه و أوجب له المرض و عنده تتغير الوجوه و تسود قل أن يسلم الناس منه من الوخم أى المرض و مع ذلك أنه لا يحصل إلا بمشقة عظيمة من الحفر و الاستسقاء بالأوانى الصغار كالقدح و غيره فلا ينبغى للحاج أن يكثر الأكل فى هذه المنازل لأن كثرته تستدعى الشرب الكثير و الشرب الكثير من هذه المعاطن يؤذى كثيرا و ربما أهلك و ذلك مجرب صحيح و قلة الأكل تشد العصب وثاقا و تقوى الأعضاء فلا يظمأ صاحبها أبدا و ضدها يرخى الأعضاء و يضعف البدن بل ربما أمرضه و بعده الوجه ماؤه عذب غير أنه قليل جدا فلا يكفى ماؤه عامة الركب أصلا و إنما يفترقون فى الوادى الذى فوقه فيحفرون فيه حفائر و ماؤه قليل فلا يحصل منه نفع إلا بطول المدة كعامة الليل و النهار بل ربما تشاجروا عليه فضعيف النفس أو الخدام أو الرفقة رجع منه خائبا فيكون ذلك سبب هلاكه و قد شاهدنا ذلك كله و لو لا فضل اللّه علينا ما ملأنا السقاية و لا استقينا أصلا و لقد أحسن اللّه إلينا فلله الحمد و المنة.

ثم ارتحلنا من النبط ليلا و قد اجتمع فيه الركب الجزائرى و الفزانى و الفلالى فلما ارتحل الكل اختلطت الأركاب فلا يعرف أحد صاحبه من كثرة الخلق و من عادتى مع

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۲۷

سيدى أحمد الطيب و سيدى محمد الشريف و أصحابه ممن يركب على البغال أو الخيل إذا انفصل الركب نذهب جميعنا لتحصل لنا الصلاة فى الجماعة و ليستعين بعضنا ببعض حتى الغذاء نجتمع عليه من غير اعتبار الجميع فانتظر بعضنا بعضا فلم يوافق ذلك اليوم إلا

سيدى أحمد الطيب فتخلفنا عن الركب فإذا برجل من الفضلاء من ركبنا تخلف رحله و هو مريض فى كرمود على جمل و اللّه اعلم أن زوجة ابنه راكبة أيضا فى باسور فوقع الجمل فى الأرض و أزال عنه الحوائج فلا عرفناه انتظرناه إلى أن استوى رحله و قام على جادة الطريق و إذا بالحجاج فأتونا فلم يقع لنا بصر على أحد و مع ذلك ضل علينا الطريق ثم ذهبنا مع سفح الجبل كذلك إلى أن سمعنا نباح الكلاب فقلت لسيدى أحمد يا حسرتنا قد هلكنا فقال كيف الفعل قلت له ها هى عمارة العرب ثم أنى نزلت عن بغلتى و انثنيت إلى الجبل و بتعنى سيدى أحمد و من معه و أنا كذلك أتحسس من الركب فلم اسمع صوتا و لا همسا ثم كذلك إلى قرب انقطاع الجبل فتحسست منه أيضا فسمعت صوت سائقة الإبل وراء الجبل ففرحت غاية الفرح و بينما أنا كذلك إذ رأيت الركب يمشى فكان مشى الحجاج عن يمين الجبل و نحن عن يساره و هو على جمعهم إذا يشاء قدير فرجعت إلى سيدى أحمد الطيب فذكرت له الخبر بعد أن آيس من لحوق الركب فإذا ركبت بغلتى و دخلنا وسط الركب و كل هذا من بركة الصالحين لأن المنقطع عن الركب ما وصل قط سالما أبدا إلا من عصمه اللّه و صانه و ذلك من الغرائب و نحن كذلك إلى أن نزلنا الحوراء بين الظهر و العصر فلما استقربنا القرار و إذا بخبر عال ان الفاضل الكامل الحسيب النسيب شيخ الركب الفلالى سيدى محمدا جرحه العرب فى النبط فى آخر الركب و قالوا ما ضربوا إلا بندقة واحدة فجاءت فيه و هو رجل جميل شجاع حسن الهيئة راكب على فرس حمراء قال أصحابه لا يخاف أصلا فلم نذهب إليه ليلتنا تلك فسقينا و استقينا ظنا من الرحلة ليلا كما هى عادتهم فلما سمعنا بالشيخ المذكور انه فى السياق انتظروه لطلوع الشمس ليدفنوه فلم يمت

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۲۸

صبيحة ذلك اليوم فذهبت إليه فوجدته قوى النفس كثير النهج فعلمت أنه قريب الموت غير انه يموت عن قرب فرجعنا فظعنا عند الضحى فنزلنا الدركين قرب الاصفرار و قد علمت أنه لا ماء فيه فبعد ذلك لحقهم الفزانى و ظعنا منه إلى الأكره فنزلنا عند الظهر و إذا بخبر موت الشريف فى الدركين ثم انه لما لحق بالركب الفزانى استطال العرب فى آخره فسلموا منه و ظننت أنهم قتلوا منه و نهبوه فظعنا منه إلى الوجه و وصلنا إليه و اللّه اعلم بين الظهر و العصر فنزلنا تحت البرج و هو خال من العسكر و إنما يحفظه العرب فقط ثم أن الناس افترقوا على المياه فى الوادى الذى أعلى البرج و أظنه المسمى بالزعفران فتبعه الناس إلى أعلى الوادى غير أنهم يخافون منهم خوفا شديدا لكن الناس طلعوا إليه بأسلحتهم و طلعت أنا و ولدى محمد إلى أن هيأنا موضعا للسقى فرجعت إلى الخيمة قرب العشاء فلما ملئوا أسقيتهم رجعوا إلينا ليلا و ان الفقيه الفاضل سيدى عبد الرحمن بن الزيعم العمرى كان يسقى بغلته من البئر التى قرب الطريق فإذا بالحراميين أخذوا بغلته و ذهبوا فأراد أن يمسك العرب فيها و أنا أريد أعانته فامتنع الشيخ من أعانته و كذا الكثير من الركب إذ خافوا منهم فذلوا و أن الفسقية التى تحت البرج مملوءة ماء فتركناها لأمير مصر بعدنا.

هذا و أنا ظعنا من الوجه صبيحة عند الأسفار فخاف الناس من العرب و أن العرب فى بلاد الحجاز من عسفان إلى الينبع بلاد حرب و من الينبع إلى الأكره بلاد جهينة و من الأكره إلى ظبة بالظاء المشالة و الباء الموحدة و الهاء واد دون المويلح بلاد بلى و منه إلى مصر بلاد الحويطات و مغارة الأعلوين و بنى عقبة ثم ظعنا من الوجه و بلغنا اصطبل عنتر و بنتنا فيه و استقت الناس منه ثم ظعنا منه صبيحة و سرنا كذلك إلى أن نزلنا الأزلم و اللّه اعلم ليلا و ماؤه حرف أى مر لا يصلح و لو لسقى الدواب ثم منه بكرة فى آخر الليل ثم سرنا كذلك و بين هذه المنزلة و التى نصل إليها قبر سيدى مرزوق الكفافى و الناس يزورونه و أنا لا أعرف قبره ثم سرنا كذلك إلى أن نزلنا آبار

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۲۹

دار أم السلطان و اللّه اعلم عند العصر و بعد الظهر بسويعة و ماؤه طيب من أحسن المياه فلا يكاد يوجد مثله فى الدرب إذ هو محل طيب و الأعراب كثيرة المكر فيه و الخديعة قل أن يسلم الركب منهم ثم ظعنا منه فى آخر الليل على خير و عافية إلى أن نزلنا بندر المويلح و أظنه قرب العصر و بتنا فيه ليلتين و وجدنا فيه ملاقية من مصر أتى بها بعض ملوك مصر و معه عسكر عظيم فيه طعام كثير و

بشماط كذلك و دقيق كذلك و قول أكثر الجميع و قد رخص يوم دخولنا البندر كثيرا و بعد ذلك قد ارتفع غلاؤه فكأنه لم تكن ملاقية من مصر فاشترينا منه ما نحتاج إليه من دقيق و فول و بشماط ثم إن أكثر الشيالين هربوا على الحجاج فمنهم من فر بإبله و منهم من تركها لغلاء العلف و قلة دراهم الكراء فهرب سيال سيدى أحمد الطيب بإبله فكان ما كان من قدر اللّه تعالى من احتياجنا إلى الكراء فأن أريد الكراء لحمل النساء و هو يريد الكراء له و لأصحابه فأتانا بعض الأعراب من البركة قد قدم مع تلك الملاقية فاكترينا منهم جميعا غير أننا خفنا منهم الخديعة و الهروب كما كان ممن قبلهم فقال رئيسهم عهد اللّه لا أخذنا منكم درهما إلا بعد البلوغ إلى مصر فرأينا الفضل من اللّه تعالى و المنة فاكترتى منهم جملين بأربعة عشر محبوبا فأحدهما ركب عليه امرأتنا فى المهيأ و الآخر ركب عليه ولدى مع زوجته فى المهيأ أيضا و أحسنوا إلينا أحسن اللّه إليهم و جعل البركة لديهم فلم يقع منهم نفور و لا مشاجرة إلى أن وصلنا مصر فوفوا بالعهد أكرمهم بمنه و كرمه.

ثم ان سيدى محمد المسعود هرب شياله أيضا بإبله فبقى كذلك مطروحا فى الأرض فظعنا آخر الليل على العادة المألوفة و تركنا المصرى وراءنا فلما أخذ الناس فى السفر سمعنا مناديا ينادى بان شيخ الركب لم يجد ما يحمل عليه فلم يلتفت إليه الركب بل ذهب جميعه و تخلف سيدى أحمد بن حمود و سيدى أحمد الطيب و العبد الزابر لهذه الرحلة مع أصحاب الجميع فرجعنا إلى منزل الركب فحططنا الرحال عند خيمة الشيخ فصلينا الصبح و انتظرنا من يكرى له بعد سويعات كذلك إلى طلوع الشمس

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۳۰

و إذا بالشيخ قد اكترى لنفسه و لأصحابه و الركب ذهب بأجمعه و تركنا وراءه فالبعض منا يقول ننتظر المصرى لأنه يرتحل عند الزوال و منا من يقول نذهب على بركة اللّه و حسن عونه إذ نحن فى جماعة كثيرة غير أن المحاربين إذا أتوا فى كثرة فلا طاقة لنا معهم ثم وقع الاتفاق منا على المشى من غير تأخير و لا انتظار فعزمنا و ارتحلنا ساعتئذ فظعنا منه فسرنا كذلك من غير بأس و لا خوف إلى أن وصلنا عيون الأقصاب فوجدنا ركبنا نازلا هناك فبتنا فيه خير مبيت و نحن لا سمن عندنا فاشترينا فى هذا الموضع عكة سمن و نعم السمن هو ذو قابل وضع اللّه فيه البركة العظيمة قد شاهدناها عيانا و نحن جماعة كثيرة.

و قد كان معنا فى الزاد الفاضل الكامل سيدى على نجل العالم الفاضل الخطيب المحدث سيدى عبد المؤمن البجائى الذى كان مفتيا فيها و سيدى على هذا قد استوطن محروسة الجزائر و ترك داره فى بجاية أجزل اللّه خيره و جعل البركة فى دينه و دنياه و كان لنا و له و لذريته بالخير و التوفيق و العلم و العمل و الغنى و الكفاف و الزهد و العفاف إلى غابر الدهر ثم أن هذا السمن فيه خير عظيم و فضل جسيم و ما شاهدنا ذلك إلا من الإحسان لإخواننا فى اللّه مثل الود الصدوق و الخل الفاروق ذى الفضائل و الفواضل و المتوكل على اللّه الزاهد فى الدنيا الراغب فى اللّه سيدى الصالح الغربى و قد شاهدنا فيه أمرا عظيما و كيف لا و هو تلميذ العالم العامل الورع لزاهد المتخلى عن الدنيا رأسا المتبتل المدرس المقتفى أثاره صلى اللّه عليه و سلم سيدى أحمد بن باباس الفليسى و قد أدركته و زرته فى محله المعلوم و تبركت به و قد حصلت لى بركته و الحمد للّه و كذا ولده و قد صاحبته و جعلته أخا فى اللّه و هو فاضل عالم متعبه زاهد ورع متمكن عارف منعزل فى خلوته مدرس له كرامات عظيمة و مراء طيبة قد زبرها تلامذته و قد

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۳۱

رأى اللّه مرارا فى النوم و كذا النبى صلى اللّه عليه و سلم و هو سيدى المحفوظ و ان سيدى الصالح هذا صهر الشيخ أيضا قد انفعلت سريرته له و ظهرت آثار فضله عليه فلله الحمد على كونه من معارفنا و إخواننا فى اللّه.

ثم ظعنا منه على بركة اللّه و حسن عونه إلى أن نزلنا مغارة سيدنا شعيب عليه السلام قرب العصر و هو قريب لمدين قال شيخنا ما نصه و أتانى رجل و بيده زيف فيه قليل عنب أسود و طرحه بازائى نحو عرجونين و اللّه اعلم و قلت له أنت من مدين قال نعم و ذكر أن العنب يطعم بمدين مرتين فى العام و أكلت ذلك العنب و وجدته عنبا جديدا كان فيه قليل حموضة و هو طيب حلو و أكلت العنب الجديد فى نصف مارس و ذكر أبو سالم لما أنهم نزلوا هنا أتاهم الأعراب بأحمال كثيرة من العنب الأسود و هو غاية الحلاوة و برمان

كثير و بيع العنب أولا بدرهمين للرطل ثم صار بعد ذلك رطل و نصف بدرهم .

ثم ظعنا منه فنزلنا شرف بنى عطية و هو الموضع المسمى أبا العظام كما ذكره شيخنا المذكور و أما الآن فيكنى أم العظام و لا ماء فيه بتنا فيه خير مبيت ثم ارتحلنا منه آخر الليل ثم سرنا كذلك إلى أن نزلنا بحفائر النخل فيه إحساء كثيرة فى وسط حدائق النخل تحت ظهر الحمار و على ساحل البحر و بتنا فيه فى أرغد عيش و أتمه ثم ارتحلنا منه و نزلنا بندر العقبة أظنه عند الزوال أو بعد الظهر و بتنا فيه ليلتين و استقينا من البئر التى فى وسط القصر فاشترى كل من أصحابنا كل ما يخصه لأن فيه سوقا عظيمة تائيها الناس من كل فج لا سيما الملاقية من الشام و قد بقى لى جمل بعته بثلاث ريالات أبى طاقة و قد اشتريته فى المدينة المشرفة بما يقرب من خمسة عشر أبا طاقة أو بأزيد منه ثم ظعنا منه صبيحة ثم سرنا كذلك على شاطئ البحر إلى أن وصلنا العقبة فنزل كل من

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۳۲

كان راكبا حتى النساء غير أن نساءنا ما نزلن فى الطلعة و لا فى الرجعة و لا أزيل عنهن الخدر فلله الفضل و المنة و كذا لم يصبهن ظمأ و لا- نصب كثير و لا- مخمصة و كذا أصحابنا فإنهم مرضى غير أن اللّه تفضل علينا فلم يبق أحد منهم و قد ركب الجميع مع العيش الرغد و الماء الكثير ثم كذلك إلى أن نزلنا السطح عند القيلولة فلما حان وقت الظهر صلیناه فاختلفت الحجاج فمنهم من يريد الارتحال و منهم من يريد المبيت فراودناهم الاتفاق أنا و الفاضل سيدى عبد اللّه بن رحاب فلم يساعدنا للارتحال سلطان فزان فارتحل جميعنا فلم يبق إلا ركبه ثم ارتحل وراءنا آخر الليل و نحن سرنا كذلك إلى الليل فبتنا ثم ظعنا آخر الليل ثم سرنا كذلك إلى أن مررنا ببئر العلائى المسماة الآن ببئر الصعاليك و توضأنا و صلينا الظهر عندها و ماؤها أقبح المياه غير أن فيه برودة و بئره طويلة كبيرة ثم تجاوزناها إلى الليل فبتنا خير مبيت ثم ظعنا و نزلنا النخيل عند الظهر و قربه و اللّه أعلم و وجدنا به الملاقى و بيع فيه الفول برخص و كذا الشعير و سائر الأطعمة ثم بتنا فيه خير مبيت و ماؤه كثيرا جدا فوجدنا فسقياته مملوءة فاغترف الجميع من واحدة فلم يؤثروا فيها شيئا.

ثم ظعنا آخر الليل و انفصلنا عن هذا البندر إذ فيه قصر عظيم و عمارة حوانيت و لما ذهبنا سويعة و إذا بولد خالى الفاضل الكامل الشريف نجل ابن عمنا سيدى عبد العزيز ابن سيدى محمد جدى من قبل أمى عم لأبى سيدى الحاج أحمد زروق هذا قد حج فى زمان الشيخ عبد الباقى و الخرشى و كان فقيها يحفظ العقائد الثلاث متنا و شرحا و كان يتعلم عليه ولد الشيخ عبد الباقى حين كان صغيرا و هو الشيخ محمد الرزقانى شارح الموطأ و شارح المواهب اللدنية و كان من أكبر المحدثين و قد سمعنا عنه حكاية عظيمة و هى انه كان يحضر مع والده مجلس الشيخ الخرشى و كان لا يقرأ الحديث إلا إذا حضر الشيخ محمد فتأخر عن الدرس ذات يوم فمسك الشيخ عن الحديث فقيل له ان لم يأت الشيخ محمد فلا تقرأ فقال نعم ثم قال أنى سمعت رسول

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۳۳

اللّه صلى اللّه عليه و سلم يقول لا تقرأ حديثى حتى يأتى الشيخ محمد و كان فى عصره يسمى مالكا الصغير.

نعم سمعت انه كان يتعلم على جدى أول أمره بأذن الشيخ عبد الباقى والده و انه ذات يوم فى مجلسه ألقى الولد على الجد مسألة من مسائل الأعراب و هى كل إنسان و ضيعته و كل صانع و ما صنع و الجد و إن كان يعرف النحو غير أن أهل وطننا لا يشتغلون بالأعراب أتم اشتغال و إنما دأبهم الفقه و أصول الكلام و أما مسائل الأعراب و المنطق و التصريف و البيان و الأصول فعلى طرف اللثام فلما لم يعرفه الجد أعرابا شافيا قام الولد أعنى الشيخ محمدا فتفوه للجد و أساء معه الأدب لما علمت أن أولاد الأمصار و المدن ألسنتهم طويلة فلما سمع الشيخ عبد الباقى قام لولده فأدبه و زجره و قال له أكفف أو كلاما هذا معناه فلما رأى ذلك قال له دعه فانه صغير فقال الشيخ عبد الباقى لا أسكت فأنا أمرنا بالأدب مع الأشياخ أو كلاما هذا معناه و هذه الحكاية قد تلقيناها عمن قبلنا و أظن أن الشيخ الفقيه الفاضل سيدى الصادق الشوثرى هو الذى كان يحكيها و اللّه أعلم انه سمعها من الجد المذكور أو سمعها ممن سمع منه و اللّه تعالى اعلم ثم أن السيد عبد العزيز هذا قد ترك فى محل النزول طاجينا و اللّه اعلم انه استعاره من بعض الناس فرجعت معه إلى

المحل الذى نزلنا فيه فبحثنا عنه غاية البحث.

نعم لما رجعنا إلى منزله فبحث عنه فقلت له فى أى مكان خبأته فقال قرب التنور غير أنى غطيته بالرمل حين فرغنا من طبخ الخبز فبقينا نبحث عنه إلى أن خفنا على أنفسنا من متلصصة العرب فسرنا سيرا شديدا لعلنا نلتحق بآخر الركب و هو لا يقدر

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۳۴

على المشى و الذى لحقناه أولا قافلة من غزة راجعة إلى بلدها أعنى الشام فتأنسنا بها فسرنا بعد ذلك مع الجد فى السير فلحقنا آخر الركب فتخلفت آخر الركب على عادتى و هو قد تقدم ليدرك مركوبه ثم سرنا كذلك إلى أن نزلنا وسط السبخة قرب المغرب فى زمان قر آخر النهار و إلا فهو حر لا قر و هذه السبخة أعظم أمكنة الدرب و أصعبها لقلة الماء فيها و حرارة أرضها و قوة هوائها قل أن يسلم الحجاج فيها من العطب إذ تغلب شدة العطش فيها فما أقبحها من مكان و قد تركت منزلة و هى منزلة التيه منزلة قبل هذه و ليس الخلاص من جميعها إلا بفضل اللّه تعالى و جوده و كرمه.

ثم منها آخر الليل و عند طلوع الفجر وقع الصياح و الويل و النهب فى الركب فتأخر الأولون و تقدم الآخرون و اختلطت الناس فلا تدرى المصاب من غيره فإن الركب جيش بلا رأس و ذهب بلا تقطير بل كل يسبق الآخر فإنهم فى غاية الإهمال و التفريط و الإفراط فى القبح بحيث لا يقبلون نصح أحد و لا يقبلون كلام فاضل أو عالم و لا زجر أمير فهم فمى تيه البطلان مترددون و قد اشتد حمقهم و سفههم فظنوا أن الدرب يقطعونه فى مدة قريبة فلو ملكوا أنفسهم لطاروا بها فكانت عاقبتهم الخسران و الأخذ و السلب فدخلنا بعض المحاربين نحو الخمسة عشر فارسا فاخذوا جمالا من وسط الركب و عليها من الحوائج و الذهب ما لا يعلمه إلا صاحبه و قد سمعنا من بعض الثقات ما يبلغ نحو ألفين و هذا الذى ضاع لبعض الناس من بسكرة و هو جندى أى تركى و غيره مما أخذ له و سلب عنه.

نعم بئس اليوم ذلك اليوم و ذلك عند طلوع الفجر فلما صلينا الصبح جماعة تأخرت أسأل عما وقع فى الركب فقالوا ضاع كيت و كيت فلما سرت خطوات و إذا بالأخ فى اللّه سيدى أحمد الطيب رجع مشرفا نحو المنزل الذى ارتحلنا منه يغيث بعض

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۳۵

أصحابه من زواوة إذ ترك غرارة مملوءة حوائج سقطت له حين أغارت الأعراب علينا فقلت له قد غررت بنفسك فلا بد أن أرجع معك فقال لى مكان قريب فقلت له و لا بد لأنى لم أملك نفسى أن يرجع وحده فأخذت المكحلة من الأخ فى اللّه سى محمد بن قسوم فذهبت معه فلما رآنى سيدى محمد البهلولى ذهب معنا و كذا الأخ عاشور من أهل ابن ضيف اللّه ذهب معنا و ظننا أن ذلك قريب فذهبنا مشرقين و الركب مغرب إلى أن خفى علينا الركب بأميال كثيرة و مسافة بعيدة يستحيل الغوث فيها من الركب عادة فوجدنا الغرارة بما فيها ثم رأينا رجلا بعيدا عنا يحسبه الرائى انه حجر فوصلنا إليه فوجدناه مريضا فاخبرنا بان رجلا آخر بقى فى منزل الركب مريضا فرجعنا إليه فرفعنا أحدهما على بغلتى و الآخر على بغلة الشيخ سيدى أحمد الطيب و هما من زواوة و لم نصل إلى ذلك الموضع إلا بعد الضحى الأعلى فرجعنا فإذا الفرسان الذين سلبوا من الركب فتحولوا إلينا علما منهم أننا لا غوث لنا و لا حصن و لا مهرب سوى اللّه تعالى فتحولوا إلينا و داروا بنا دور الخاتم يمينا و شمالا و نحن واقفون ننتظر منهم الفوت و التمكين فقلنا لبعضنا بعضا ليس إلا الموت و لا مهرب و لا حصن فهى سبخة عظيمة واسعة الأطراف خالية من الأحجار و الشجر و المدر ذات الأرمال و مع ذلك فيها حرارة الشمس و الحالة أنه لا ماء معنا و قد توقعنا مخائل الموت.

نعم الحاج عاشور عنده نحو السبعين وجها من البارود و كذا من الرصاص فقال لا تخلوا و اضربوا قلنا لهم لا فائدة لكم عندنا و لا طائل يصاحبنا فنبهنا عليهم ليكفوا عنا و ما زادهم ذلك إلا نفورا و تكبرا و استطالة فتوهموا أخذنا فى سرعة فقلت له لا تسرعوا بالضرب فإن أحجموا عنا و تأخروا فيها و نعمت و إن بدءونا بالضرب فلا تضربوا إلا إذا اختلطوا معنا و هم أربعة عشر فارسا و ما عندنا إلا ثلاث بنادق كبار

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۳۶

طوال و بندقة صغيرة و يطغانا فداروا بنا يمينا و شمالا و ليس عندنا ما يسلب إلا حوائجنا و بغلتان فلما توجهنا إليهم بالضرب تنحوا قريبا ثم تنادوا لبعضهم بعضا بالأغراء و الأشلاء و الزعم فقالوا يردنا ثلاث بنادق و نحن فى كذا و كذا فارسا فزعموا بأنفسهم فتقدموا إلى و الشيخ سيدى أحمد عند كتفى و المكحلة الصغيرة فى يده فتوجه إلى واحد منهم أراد أن يضربنى بقناته فتقربت إليه و توجهت إليه باليطغان فهرب منى ثم داروا بنا دورة أخرى غير أنهم لم يتمكنوا منا بفضل اللّه تعالى و قوته و نحن معهم كذلك ندور حيث داروا حتى أيسوا منا فاجتمعوا فانفصلوا منا مشرقين و الحالة إنا نسير نحو المغرب مع الالتفات إليهم سيرا رويدا إذ ربما رجعوا إلينا فارتفع عنا الخوف منهم و زال و نام خفنا زيادة الأعراب الذين لا طاقة لنا بهم فلما وصلوا إلى محل مرتفع بعيد منا اجتمعوا و نحن سائرون و إذا بطائفة أكثر منهم قد غشيت الطريق تحيرنا منهم و ذهلت عقولنا من أجلهم فلما شاهدنا جمعهم تيقنا الموت و قلت حينئذ لسيدى الآن متنا فكنت استغيث بالنبى صلى اللّه عليه و سلم طالبا النجاة أو الموت على حسن الخاتمة.

فلما دنوا منا أردنا قتال من سبق منهم إلينا غير أن سيدى أحمد عرف بعضهم انه من زواوة فنهانى عن ذلك فإذا بهم أنهم رجعوا عن الركب إلينا لما سمعوا أننا تخلفنا فلما وصلوا إلينا حمدوا لنا السلامة و نزل صاحبنا الذى اكرى لنا إبله على هجين فركبت عليه و قد انتفع لونه قبل فركبت عليه إلى أن وصلت إلى بندر عجرود [و كذا

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۳۷

سيدى أحمد الطيب قد ركب و الذى ركّبه لم أعلمه الآن فنزلنا عجرودا] ضحوة فوجدنا فيه خيرا عظيما من الرزق و أما ماؤه فأقبح المياه يشوى الوجوه بئس الشراب.

نعم لما تركنا النابغة استعجالا أضربنا العطش لو لا أن اللّه تفضل علينا بقر لا حر فى زمان الحر فظعنا ذلك اليوم منه بعد قضاء مآربنا منه و مع هذا أن المحاربين رجعوا إلينا طمعا فى آخر الركب الفزانى فلم يصيبوا منهم شيئا لشدة الحزم و سيدى محمد الشريف معهم فارتحلنا بعد الظهر و تركنا الفزانى هناك مبيتا و نحن كذلك إلى بعد العشاء الأخيرة بسويعات و الطائفة السابقة من المحاربين تبعنا فى آثارنا أهلكهم اللّه فبتنا هناك إلى قرب طلوع الفجر ثم ظعنا منه و نحن سائرون طول النهار إلى أن مررنا على الدار الحمراء قبل الزوال فتتعدى الناس فيه ثم ذهبنا كذلك و المحاربون فى آثارنا و نحن فى جماعة فيها الخيل و البغال و معنا البنادق و السلاح فلم نكترث بهم إلى أن صلينا العصر فبقيت فرس الحاج يونس بن يلس المسيلى من قياد قصر الطير فتخلفنا من أجلها إلى أن رأينا الركب نازلا بعد العصر بكثير فخلفناها و لحقنا بالركب لنبعث جماعة من حجاج المسيلة ليأتوا بها فذهبوا فوجدوها قد ذهب بها المحاربون الذين فى آثارنا فرجعوا خائبين فاعلموا الركب بتوقع الخوف منهم لأنهم لم يعارضونا و لم يزالوا معنا ليستعملوا الحزم.

نعم أكثر الركب أصابه عطش عظيم لما علمت ان ماء عجرود لا- يغنى عن العطش بل يزيد حرارة للقلب فيطلع ذلك على الجسد فينتقع لون الشخص و يتغير وصفه من شدة ما أصابه فيتكدر وقته و تضعف مهجته فلا يستطيع الهروب فترى المحاربين يتراكضون بين خلال الركب فإن رأوا محترزا قائما بنفسه خلوا سبيله و إلا

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۳۸

سلبوه. و لما اشتد بنا العطش ذهب أصحابنا ممن اكترينا منهم إلى قرب البركة فأتوا لنا بماء عذب و أظنه من ماء النيل فاحيونا به بعد قرب الموت جازاهم اللّه أحسن جزاء فنعم الناس هم فشربنا و شرب من معنا الأصحاب و فرقناه على المعارف ممن اضطر إليه فكانوا رحمة لنا و لأصحابنا أسعدهم اللّه دينا و دنيا فبتنا فى ذلك الموضع قريبا من البركة إلى أن طلع النهار و تجلى فظعنا منه متوقعين الخوف من هؤلاء المحاربين فنادى الناس بعضهم بعضا ليتهيئوا لهم فاجتمع أهل بلدنا من قسنطينة إلى الجزائر و جعلنا حومة واحدة و تأخرنا عن جملة الركب إلا أولاد عيسى و أولاد عبد النور و أولاد سعيد بن سلامة و أهل عامر و من حذا حذوهم من أهل البلد قد سبقوا و صارت فرجة بيننا و بينهم و أنزلنا كل من عنده سلاح عن مركوبه فجعلنا البعض ميمنة و البعض ميسرة و البعض قلبنا و البعض آخرا و البعض أولا غير ان المتأخر أكثر و الجميع دائرون بالإبل و القسمة هذه كقسمة النبى صلى اللّه عليه و سلم أصحابه على خمسة

قلبا و ميمنة و ميسرة و مقدما و مؤخرا و لذا قال البوصيرى:

يجر بحر خميس فوق سابحةيرمى بموج من الأبطال ملتطم

فعلمنا أنه لا يصيبونا نعم لما رأونا محيطين بجميع الإبل خلوا سبيلنا و ذهبوا إلى أول الركب فأخذوا منهم ما شاء اللّه و من جملتهم الفقيه النزيه سيدى عبد الرحمن بن الزيعم العمرى و مثله الشيخ المكرم سيدى أحمد بن خراز الغرزولى و غيرهما و كلاهما بنسائهما فلم يضربوا شيئا و تركوهم فقراء مفلسين معدومين و سبب ذلك كثرة الإهمال و عدم الاتتضال و فقدان القوة للقتال و كثرة النساء و الصبيان و الأوباش من الرجال فلم يهدتوا لأحد يرجعون لأمره فتراهم كالأمواج فى البطحاء و لو كثر المحارجون لأخذوا جميعهم [فصاروا يلعنون من قوة عددهم و كثرة أموالهم و عدم

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۳۹

الاستعداد] لدفع من أتاهم و أما نحن فقد حصلت لنا القوة و الحمد للّه.

نعم تأخر مرحول الشيخ عن الجميع فانتظرناه إلى أن دخل معنا و الحمد للّه على المنة و الفضل.

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۴۰

ذكر دخولنا مصر

اشارة

فذهبنا كذلك إلى أن وصلنا البركة و هو منزل الركب المصرى و تلقى الناس أهل مصر و المغاربة و أمراء الأجناد و الأتراك خرجوا لملاقاة الركب فنصبوا الأخبية و الخيام فى سائر الطرقات و ملئوا المحال بالأسواق من البركة إلى مصر و دخلنا القاهرة عند الضحى الأعلى مارين على قرب باب النصر ذاهبين و مارين إلى منزل الركب المغربى فى بولاق غير أن ركبنا نزل بين بولاق و النيل فى الطريق التى يسلكونها إلى إمبابة و استقررنا هناك أياما بخيامنا و البعض منا دخل المدينة المتجرد فى الوكالة و المتأهل الغنى فى الديار و الفقير المتأهل أيضا فى الوكالة و بعد اليومين أو الثلاثة دخل الركب المصرى القاهرة فتقصر العبارة عن أحوال النزهة من فرح و سرور لمن قدم سالما و حزن و كآبة و ندبة عمن أتى خبره ميتا و أم الأسواق و الأخبية و الأطعمة المختلفة الأوانى من الذهب و النحاس و الفضة و الملابس الفاخرة و الخيل المسومة و الرايات المفزعة و الأسلحة القوية و الرجال المزينة و النساء المخدرة و الأسواق العامرة مما لا يحصى كثرة يكاد العقل يحيل فناءها و ذهابها و انعدامها فلا تسأل عنها و من عجائب ذلك أن أرزاقها أكثر منها فإن أهل وطننا بل سائر المغاربة يعلمون أنهم ليسوا من أهل الدنيا بل أموات بالنسبة إلى ما رأوا من زخارف من خرج من مصر بحيث لا يحيط ديوان بأنواع ذلك.

نعم الأعراض عنه و الغيبة عن كله أولى ما يسلكه العاقل اللبيب إذ كل ذلك خيال محض فالوقوف عنده عطب و هلاك و قد قال تعالى ...

الآية و إنما هى غرور فى غرور و خديعة و مكر و ظلمة و إنما أنارها وجود الحق فيها و إلا لمات العارف بالحقيقة شوقا إلى محبوبه حتى يرى الكل جيفة و نتنا بل كل ذلك انتن فى الحقيقة علما منه أنه يصد عن الحق بل الداخل فى الحضرة الإلهية أقوى

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۴۱

نزاهة من هؤلاء المغرورين المخدوعين بالتخيلات الوهمية التى لا وجود لها أصلا و إنما هى عدم محض.

نعم دائرة المعارف تتسع بكثرة الاعتبار، فى اختلاف الكائنات و الصنائع بقدرة العزيز الجبار، و من أجل ذلك اختاروا المدن الكبار، فكثرت الأئمة فيها و عز وجودها فى القرى و انعدمت من البادية رأسا فعلمنا أن مجال الأنظار، كثرة الخلق فى الأمصار، و فى كل

شيء آية من الواحد القهار، فمهما رأيت غير اللّه دليلا كان نظرك رحمة و عزا و رفعة و أما ان نظرته اعتمادا و تعلقا كان نظرك هلاكا و عطبا و نقمة فالغير غير و هلاك أن نظرت إلى ذاته و إلا فخير و صلاح إن نظرته بنظر الحق إليه أو دليلا عليه قل انظروا ما ذا فى السموات و الأرض فلا اقل أن الخلق رحمة فى عين الحق و هلاكا فى عين الباطل فلا تعتمد على سواه و قل حسبنا اللّه و نعم الوكيل و قل اللّه ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون متعنا اللّه بالنظر إلى وجهه بمنه و فضله.

انعطاف إلى ما كنا بصدده فقد نزلنا مصر فى أحسن نزول غير انه وقع بين الركب و أهل البادية الذين اكروا لهم شنئان عظيم و فتنة قوية فأشلوا الأتراك و الأجناد على الحجاج فما خرج منهم إلى السوق واحد إلا حبسوه و سجنوه حتى أنهم حبسوا أفاضل الركب من العلماء و الصلحاء و الطلبة و الفقراء و أصحاب الشيخ كالعلام بل أرادوا حبس الشيخ فسلم و الحمد للّه و قد حبسوا ولد الشيخ سيدى أحمد الطيب و لكن لم يطل و كذا سيدى أحمد ابن بلقاسم و سيدى أحمد بن حمود.

نعم تفضل اللّه عنه فاخرجوه فى ساعة و كذا ابن عمنا سيدى عيسى الشريف و الفقيه سيدى بلقاسم بن الطيب و غيرهم ممن لا يحصى عددا غير أن والى بولاق يأخذ منهم شيئا قليلا و يسرحهم رحمة منه أهلكه اللّه ما أبعده من شقى و مع ذلك ما رد شفاعتى قط و ما ملك مصر إلا المماليك الذين أسلموا فكل من ملك مصر إلا كان

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۴۲

مملوكا و حاكم بولاق هذا رجل كبير السن حسن الصورة عريض الوجه مشرب بحمرة طويل اللحية كثيف الحاجبين و قد دخلت عليه مرارا للشفاعة فى المكروبين ممن كان فى السجن إلا و سرحه بسرعة من غير مهلة و لا تراخ و كان اعتقاده فينا حسنا.

و سبب ذلك ان جماعة منا اكترينا من بعض الأجناد من الترك جمالا و اقبضنا له الدراهم نحو نصف الكراء قائلا اشترى ما استعين به من الإبل و كنت السبب و الواسطة غير أن الذى غرنا إظهار الود و حسن الاعتقاد و غاية الأدب فيسلم على يدى فى اليوم كلما لقينى غير أنى أعرف أهل مصر و غشهم فترى الرجل يظهر لك حسن الصنيع و يبطن لك الخديعة و المكر و هذا منهم.

نعم من خادعنا فاللّه انخدعنا له لا سيما أن بعض الفقهاء يصاحبه و يكثر الترداد إلينا مع فصدقناه به غير انه لم نثق بما صدر منه علما منا بالتباس أحوالهم و اختلاط أمورهم و التباس صنيعهم فلما ساء ظننا فيه ذهبنا به إلى سلطان العارفين، و خاتمة الفضلاء المحققين، صاحب التآليف العظيمة، و التلامذة السنية، صاحب الأوراد، و سلطان العلماء ذوى المد و الأمداد، شيخنا، و عمدتنا إلى ربنا، الشيخ على الإطلاق، و الولى بالاتفاق، سيدى محمد الحفناوى فقلنا له هل تعرفه و معه ولده أى الذى سألنا عنه فقال الشيخ إنما نعرف ولده فعقدنا عقدة الكراء عنده و لما أتينا من عند الشيخ أرانا بعض الجمال فاستحسناها غير أنها لشريكه و بعد ذلك أقبضت له جملا من بعض الكراء فذهب به إلى بولاق و نحن نازلون حينئذ بين بولاق و مصر فلما وصل به إلى محله رجع الجمل إلينا حينئذ فضلا من اللّه و رحمة بنا.

نعم بعد اليوم أو اليومين ذهبنا إليه فسألنا عنه فى محله فلم يوجد له خبرا و لا أثر ثم مسكنا ولد الفقيه المذكور و عندنا ثم ذهبت إلى حاكم بولاق الذى الكلام فيه فدخلت إليه فى المحكمة و كلمته فى شأن ذلك و قد رحب بى و فرح فرحا عظيما حتى

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۴۳

تعجب الحاضرون و من معنا إذ لم أره قط و سألناه عن قصة الرجل فقال قد مسكنا له جمالا هى بينكم و بعض الناس من مصر له دين عليه فأعطانا بعضها و بقى البعض يده و أمرنا بالإتيان بذلك الولد الممسوك عندنا فأتيناه به فحبسه فقال إن كان الشرع أوجب عليه الغرم فيغرم فتركناه فى يده و رجعنا إلى الركب فقومنا تلك الجمال و قسمناها على حسب الديون و ارتحلنا فلما رجعنا سألناه عن قصة الرجل و صاحبه الفقيه قال هلك الكل ببركتكم فإنهم هربوا بامرأة فكان ذلك سبب هلاكهم و ما دخلت عليه بعد إلا قضى حاجتى و أحسن قضاءها و يطلب منى الدعاء الصالح و قد حكم بقتل بعض المغاربة من بلادنا لكونه أتى بسكة جديدة مجردة مغشوشة فسرحه و قد سرحت من يده كذا و كذا رجلا.

نعم لما حبس أصحاب سيدى أحمد الطيب ذهبت أنا و سيدى أحمد إليه ليسرحهم فوجدناه نائما فى بيته لم يظهر إلى محكمته صبيحة و إنما وجدنا حاكما تحته الكاخية فسرح لنا سيدى بلقاسم بن الطيب و رجالا من زواوة قبل لحوق الكبير و نحن كذلك و إذا بتركى دخل علينا فأشار إليه بعض البدويين من المنصورة و كان لى عليه دين فقال له هذا هو الحاكم فى الركب فلما قال له ذلك مسكنى من يدى و أراد بى السجن فقلت له و هل لأحد على دين حتى أسجن فيه فقال البدوى لا و إنما هو إذا مسكناه خرج ما كان فى الركب من الإبل التى مسكها أهل الركب فى ديونهم فامتنعت من الذهاب إلى السجن و هو يكرنى و أنا اتملص منه و صار ذلك الكاخية يقول له دعه فانه رجل صالح و عالم و شريف أو كلاما هذا معناه ثم قال أضمن ما كان فى الركب فأعرضت عنه و جلست حذاء الكاخية فحاولنى مرة ثانية للسجن أيضا فقال الكاخية ذره فانه رجل وحده و أما أصحابى فلا يقدر عليك أحد لأن الذى أرادك بسوء إنما أتى من مصر

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۴۴

ارتشاه البدوى و لا عمل عليه و لا يعرف حالك أيضا فلما أتى إلى ضربت به الحائط و خرجت فى حالى و لم يتبعنى أحد إلى أن وصلت إلى الركب و ذلك فضل اللّه تعالى و رحمته بنا اللهم لا تشمت بنا الأعداء و لا تسلط عليها جبارا عنيدا و لا شيطانا مريدا و لا أحدا من عباد اللّه تعالى.

حاصله أن الوقائع التى وقعت بيننا و بين البدويين كثيرة يطول بنا استقصاؤها هذا و إن فضل اله تعالى ظاهر على الركب بحيث لا يستطيعون الإمساك منه و لا تسريح المربوطين الذين هم فيه فلما خفنا تفاقهم الأمر بيننا و بين الحكام ذهب من ذهب فى البحر إلى الإسكندرية فلم يبق إلا العبد و سيدى أحمد بن حمود و سيدى عبد الكريم و سيدى محمد اليعلاوى و سيدى محمد الشريف الطرابلسى ذهبنا فى البر على برقة و إما ولدى و أهلى فقد ركبوا فى البحر مع من ركب فيه فافترقنا و على اللّه الاعتماد و التكلان لأنى لا استطيع البحر و انتقلنا إلى انبابة فلما كنا على شاطئ البحر فى توديع من ذهب فى البحر و لانتقالنا إلى الموضع المذكور أتانا ذلك التركى الأول الذى أراد سجنى فى قضية أخرى أرتشاه بدوى آخر فلما رأيته أرادنى اشليت عليه بعض أصحابى ليقتله فلما علم ذلك المتمرد خاف إذ هو منفرد و نحن فى جماعة فصار يسلك مسالك الطلب فأعطاه سيدى أحمد بن حمود نصف ريال أبى طاقة و عليه البعد من اللّه فلا أظن انه مسلم إذ أكثر العسكر فى مصر أنهم خوارج أو طغاة لا تعمى أبصارهم و لكن تعمى قلوبهم.

و قد حكى لنا أنهم يأتون إلى المستضعفين من الناس فيبيعونهم عبيدا أو يجعلونهم أسرى يخدمون فى مدينة السويس إلى أن يموتوا أهلكهم اللّه أن لم يعلم هدايتهم و هذا معلوم ضرورة فى زمان هذه الحجة و سبب هذه الإهمال من الحكام و المترفهين

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۴۵

لأنهم فى نعمة عظيمة لم يحبسوا أحدا فأباحوا الرقاب و النفوس و لم يعلموا بهذه الرذائل كالغش فى الأسواق و السرقة فى الطرق و الدكاكين فصارت فى النفوس أقبح الأوطان و أذلها للغريب مصر و مكة فلا تجد أحدا من مصر إلا يحتقر المغاربة حتى كادوا أن يخرجوهم من الإسلام و طبائعهم منافية لطبائع أهل المغرب فلا نظر لعلمهم و لا لفضلهم فترى المغربى إذ تكلم تعصبوا عليه بالباطل و لو بالزور فلم ينفع فيهم إلا عدم مخالطتهم و الانعزال عنهم فيتحاشى عن أسواقهم و ما فيها فإذا اضطره أمر اختلس مقصوده اختلاسا يحفظه من المخالطة أو يتزيا بزيهم ليصرف عنه السوء و الفحشاء الصادرة منهم و ما تخفى صدورهم لنا أكبر و أعظم و دأبهم و ديدانهم التحيل لأخذ أموالنا و سلب ما عندنا بمجرد الأباطيل و التظلم و إظهار المسكنة أن أفاده ذلك و إلا ارتشوا أصحاب الحكم ليأخذوا أموال المغاربة جهرة ظلما و عدوانا فما أقبحها من بقعة للحجاج و المغاربة غير أن سبب ذلك أن المغاربة تشيطنوا و تمردوا على الطريق و ضلوا و أضلوا و هلكوا و أهلكوا و المنتسب بالدعاوى الكاذبة و الزندقة البينة أقواها ادعاء الكيميا و ما حذا حذوها من كل مضل من غير تحقيق الدعوى كعلم الأوفاق و إخراج الخبايا و الكنوز من الأرض و أقهار الظلام و أصراع ذى الجن و أخدام الروحانيين و قهر الأعداء و حبس السراق و منعه من النفوذ و تفريق الأحباب و تقريب البعيد و إقصاء القريب و إقبال الملوك و

أدبارهم و غير ذلك من دعاويهم فلما انتشر عليهم ذلك و عم الناس كلهم و اتضح كذبهم و بطل تحيلهم و تصنعهم وقع بغضهم فى قلوب الخاصة فما رأوا أحدا من المغاربة إلا غمضوا العين فيه و ظنوا أنه من الفسقة المدعين المتلفين لأموال الناس بالباطل فالتبس عليهم الصديق بالزنديق فارتفع حسن الظن منهم فى جانب المغاربة بحيث لا يعتقدون فى أحد منا و لو بلغ

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۴۶

الغاية مع اللّه و قد قال تعالى: (أنى كنت دفنت مائتى نواة ثم قلت و أين السبعة التى دفنتها بعد ذل فلم أرم مكا) و هذا من الفتنة العامة التى عمت المغاربة الظالم و المظلوم و قد قال تعالى أيضا: وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً بل تصيب الظالم و غيره و إنما أصابت المظلوم لسكوته عما يظهر من ظلم الظالم فصار ظالما بسكوته كافى التفسير إذا كانت لا غير زائدة أى غير صلة و أما إذا كانت صلة فالمعنى واضح أى وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا الآية أو أن غضب اللّه إذا يقوى على أهل الأرض لكثرة الفساق عمهم بالبلاء فيكون لأهل الفسق كفارة لهم و لغيرهم زيادة فى مراتبهم و علو مقاماتهم فافهم هذا فإن مشاهدة الأعيان توجب العلم و الإيقان.

نعم أمر مصر غريب و عجيب فى كل الأصناف و الأنواع و الأجناس مهما رأيت جنسا فيها إلا قلت أن هذا الجنس هو الذى فى مصر فإذا رأيت العلماء قلت لا جاهل فى مصر و إذا رأيت الأغنياء قلت لا فقير و إذا رأيت الأشياخ و أصحاب الأوراد قلت هم أهلها و كذا أهل الصنائع و الحرف فما وردت قوما أو سوقا أو نزاهة إلا قلت أهل مصر موجودون فيه و هذا من عجائب مصر فإن كل من رآه العبد إلا قال هذا هو الموجود فيها لأن مصر تغنى عن الغير و لا يستغنى الغير عنها فهى رحمة لأهل التقوى و نقمة لغيرهم فهى مدينة الأنبياء و الصحابة و التابعين و العلم و أهله بل فيها أهل الدائرة و التصريف فلا تخلو عنهم أصلا فكل من كان فيه طبع إلا وجد أهل طبعه أو صنعة إلا وجد أهل صنعته خيرا أو شرا و فيها عبرة لأهل البصائر فمن لم يفلح فيها لا يربح أبدا و لا يفوز أصلا لأن مددها قوى و خيرها دوى و ليحذر الإنسان شرها و ليغتنم بركتها فإن أهلها ظاهرون فى الخير و الشر و الساعى فيها يجتنى منهما على

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۴۷

حسب استطاعته و قوته و اجتهاده فكل بلدة ربما انقطع فيها الدواء إلا مصر فإن دواءها دائم الاتصال و كذا عللها دائمة الوصال فليتعجب منها المتعجبون و كيف لا و أنها ذكرت فى القرآن كذا و كذا مرة فهى جنة لأهل الخير و نار فى المآل لأهل الشر يحسبها المتأمل أنها جنة فيها ما تشتهيه الأنفس و تلذ الأعين فإن أرزاقها أكثر من خلقها و مع كثرة أرزاقها أن من سد عليه الباب فى الرزق يدور الأسواق و الدكاكين و الوكالات و المساجد فلا يجد لقمة يطعم بها نفسه و غير هذا من عجائبها و سأكتب إن شاء اللّه جملة من حسن المحاضرة و أما الإسكندرية فلم أدخلها قد و قد رمت زيارتها مرارا فلم تساعدنى الأقدار و قال شيخنا ما نصه.

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۴۸

ذكر الإسكندرية و ما بها من العجائب

ذكر الإمام السيوطى فى حسن المحاضرة عن عقبة بن عامر الجهنى رضى اللّه تعالى عنه انه قال و جاء رجال من أهل الكتاب إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و معهم كتب فقال لهم رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم إن شئتم أخبرتكم عما أردتم أن تسألونى قبل أن تتكلموا و إن شئتم تكلمتم و أخبرتكم قالوا بل أخبرنا قبل أن نتكلم فقال جئتم تسألونى عن ذى القرنين و سأخبركم عما تجدونه مكتوبا عندكم أن أول أمره كان غلاما من الروم أعطى ملكا فسار حتى ساحل البحر من أرض مصر فأبتنى عنده مدينة يقال لها الإسكندرية فلما فرغ من بنائها أتاه ملك فعرج به حتى استثقله فرفعه فقال له انظر ما تحتك فقال أرى مدينتى و أرى مدائن معها ثم عرج به فقال له أنظر فقال قد اختلطت بالمدائن فلا أعرفها الحديث بطوله و قد أوردته فى التفسير بالمأثور فى سورة الكهف و أخرج ابن الحكم عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص قال كان أول شأن الإسكندرية أن فرعون اتخذ بها مصانع و مجالس و كان أول من

عمرها و بنى فيها فلم تزل على بنائه و مصانعه إلى أن تداولها الملوك ملوك مصر بعده فبنت دلوكة بنت زبا منارة الإسكندرية و منارة بوقير بعد فرعون فلما ظهر سليمان بن داود عليها الصلاة و السلام على الأرض اتخذ بها مجلسا و بنى فيها مسجدا ثم إن ذا القرنين ملكها فهدم ما كان فيها من بناء الملوك و الفراعنة و غيرهم إلا بناء سليمان بن داود لم يغيره و لم يهدمه ما كان فيها من بناء الملوك و الفراعنة و غيرهم إلا بناء سليمان بن داود لم يغيره و لم يهدمه و أصلح ما كان خرب منه و أقر المنارة على حالها ثم بنى الإسكندرية من أولها بناء يشبه بعضه بعضا ثم تداولتها الملوك من الروم و غيرهم ما من ملك إلا يكون له بناء يضعه بالإسكندرية يعرف به و ينسب إليه قال ابن عبد الحكم و يقال أن الذى بنى

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۴۹

منارة الإسكندرية قليوبطرة الملكة و هى التى ساقت خليجها حتى أدخلته الإسكندرية و لم يكن يبلغها الماء قال و يقال أن الذى بنى الإسكندرية شداد بن عاد .

و يقال أن بها مساجد خمسة مقدسة مسجد موسى عليه الصلاة و السلام عند المنارة و مسجد سليمان عليه الصلاة و السلام و مسجد ذى القرنين و مسجد الخضر أحدهما عند القيسارية و الآخر عند باب المدينة و مسجد عمرو بن العاص الكبير رضى اللّه عنه.

و كانت الإسكندرية ثلاث مدن بعضها إلى جنب بعض و هى موضع المنارة و ما والاها و الإسكندرية و هى موضع قصبة الإسكندرية اليوم و هيطة و كان على كل واحدة منهن سور و سور من خلف ذلك على الثلاث مدن يحيط بهن جميعا و اخرج ابن عبد الحكم عن عبد اللّه بن طريف الهمدانى قال كانت على الإسكندرية سبعة حصون و سبعة خنادق و أخرج أن ذا القرنين لما بنى الإسكندرية رخمها بالرخام الأبيض جدرها و أرضها فكان لباسهم فيها السواد و الحمرة فمن قبل ذلك لبس الرهبان السواد من نصوع بياض الرخام و لم يكونوا يسرجون فيها بالليل من بياض الرخام و إذا كان القمر أدخل الرجل الذى يخيط بالليل ضوء القمر فى بياض الرخام الخيط فى حجر الأبرة و كانت الإسكندرية بيضاء تضىء بالليل و النهار و كانوا إذا غربت الشمس لم يخرج أحد منهم من بيته و من خرج اختطف و كان منهم راع يرعى على شاطئ البحر و كان يخرج من البحر شىء فيأخذ من غنمه فكمن له الراعى فى موضع حتى خرج فإذا جارية فتشبث بها فذهب بها إلى منزله فانست به فرأتهم لا يخرجون

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۵۰

بعد غروب الشمس فسألتهم فقالوا من خرج منا اختطف فهيأت لهمه الطلسمات بمصر فى الإسكندرية و عن عطاء الخراسانى قال كان الرخام قد سخر لهم حتى يكون من بكرة إلى نصف النهار بمنزلة العجين فإذا انتصف النهار اشتد و كانت الإسكندرية تسمى قبل الأسكندر رفودة و بذلك يعرفها القبط فى كتبهم القديمة و عن الليث بن سعد قال كانت بحيرة الإسكندرية كرما كلها لامرأة المقوقس فكانت تأخذ خراجها منهم الخمر بفريضة عليهم و كثر الخمر عليها حتى ضاقت به ذرعا فقالت لا حاجة لى فى الخمر أعطونى دنانير فقالوا ليس عندنا دنانير فأرسلت عليهم الماء فأغرقتها فصارت بحيرة يصاد فيها الحيتان حتى استخرجها بنو العباس فسدوا جسورها و زرعوا فيها و من عجائب الإسكندرية عمود السوارى و ليس فى الدنيا مثله قال صاحب المرآة و قد شاهدته و يقال أن أخاه بأسوان قال ابن فضل اله بظاهر الإسكندرية عمود السوارى عمود مرتفع فى الهواء تحته قاعدة و فوقه قاعدة يقال انه لا نظير له فى العمد فى علوه و لا فى استدارته.

قلت و قد رأيت هذا العمود لما دخلت الإسكندرية فى رحلتى و دور قاعدته ثمانية و ثمانون شبرا و من المتواتر عن أهل الإسكندرية إن من حاذاه عن قرب و غمض عينيه ثم قصده لا يصيبه بل يميل عنه و ذكروا أنه لم تحصل إصابته لأحد قط مع كثرة تحريهم فى ذلك و قد جربت ذلك مرارا فلم أقدر أن أصيبه و ذكر لى بعض فضلاء الإسكندرية إنها كانت أربعة أعمدة على هذا النمط و كانت عليها قبة يجلس بها أرسطو صاحب الرصد و عن التنوخى قال كان بالإسكندرية صنم من نحاس يقال له شراحيل على خشفة من خشف البحر و كان مستقبلا بأصبعه القسطينية لا يدرى أكان مما عمله سليمان أو لإسكندر فكانت الحيتان تجتمع عنده و تدور حوله

فتصاد فكتب أسامة بن الوليد بن عبد الملك يخبره بخبر الصنم و يقول أن الفلوس عندنا قليلة فإن رأى أمير المؤمنين أن يقطع الصنم و يضربه فلوسا فأرسل إليه الوليد رجالا أمناء فانزلوا الصنم

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۵۱

فوجدوا عينيه ياقوتتين حمراوين ليس لهما قيمة فذهب الحيتان فلم تعد إلى ذلك الموضع.

و من عجائب مباني أرض مصر كما قال صاحب مباهج الفكر منارة الإسكندرية و هي مبنية بحجارة مهندمة مطلية بالرصاص على قناطر من زجاج و القناطر على ظهر اسطوانات من نحاس و فيها نحو ثلاثمائة بيت بعضها فوق بعض تصعد الدابة بحملها إلى سائر البيوت من داخلها و للبيوت طاقات ينظر منها إلى البحر.

و اختلف أهل التاريخ فيمن بناها فقيل أنها من بناء لإسكندر و قيل من بناء دلوكة ملكة مصر و يقال ان طولها كان ألف ذراع و كان في أعلاها تماثيل من نحاس منها تمثال قد أشار بسبابة يده اليمنى نحو الشمس أينما كانت من الفلك يدور معها حيث دارت و منها تمثال وجهه إلى البحر متى صار العدو منهم على نحو من ليلة سمع له صوت هائل يعلم به أهل المدينة طروق العدو و منها تمثال كلما مضت من الليل ساعة صوت صوتا مطربا و كان بأعلاها مرآة ترى القسطنطينية و بينهما عرض البحر فكلما جهز الروم جيشا رأى في تلك المرآة.

و حكى المسعودي أن هذه المنارة كانت في وسط الإسكندرية و أنها تعد من بنيان العالم العجيب بناها بعض ملوك اليونان يقال انه الأسكندر لما كان بينهم و بين الروم من الحروب فجعلوا هذه المنارة مرقبا و جعلوا فيها مرآة من الأحجار المشففة يشاهد فيها مراكب البحر إذا أقبلت من رومة على مسافة تعجز الأبصار عن إدراكها و لم تزل كذلك إلى أن ملكها المسلمون فاحتال ملك الروم لما انتفع بها المسلمون في مثل ذلك على الوليد بن عبد الملك بأن أنفذ أحد خواصه و معه جماعة إلى بعض ثغور الشام

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۵۲

على انه راغب في الإسلام فوصل إلى الوليد و أظهر الإسلام و أخرج كنوزا و دفائن بالشام مما حمل الوليد على أن صدقه على ان تحت المنارة أموالا و دفائن و أسلحة دفنها لإسكندر فجهزه مع جماعة من ثقاته إلى الإسكندرية فهدم ثلث المنارة و أزال المرآة ثم فطن الناس أنها مكيدة فاسشعر ذلك فهرب في مركب كانت معدة له ثم بنى ما تهدم بالجص و الاجر.

قال المسعودي و طول هذه المنارة في وقتنا هذا و هو سنة ثلاث و ثلاثين و ثلاثمائة مائتان و ثلاثون ذراعا و كان طولها قديما نحو أربعمائة ذراع و بناؤها في عصرنا ثلاثة أشكال فقريب من الثلث مربع مبنى بالحجارة ثم بعد ذلك بناء مثمن الشكل مبنى بالاجر و الجص نحو ستين ذراعا و أعلاها مدور الشكل.

قال صاحب مباهج الفكر و كان أحمد بن طولون بنى في أعلاها قبة من الخشب فرمتها الرياح فبنى مكانها مسجد في أيام الملك الكامل صاحب مصر ثم أن وجهها البحرى تداعى و كذلك الرصيف الذى بين يديها من جهة البحر و كادا ينهدمان و ذلك أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس فرمه و أصلحه و ذكر ابن فضل اللّه في المسالك أن هذه المنارة قد خربت و بقيت أثرا بلا عين فكان هذا وقع في أيام قلاوون أو ولده.

قال ابن المتوج في كتابه إيقاظ المتغفل من العجائب منارة الإسكندرية التي بناها ذو القرنين و كان طولها أكثر من ثلاثمائة ذراع مبنية بالحجر المنحوت مربعة الأسفل و فوق المنارة المربعة منارة مثمنة مبنية بالاجر و فوق المنارة المثمنة منارة مدورة و كانت كلها مبنية بالصخر المنحوت على أكثر من مائتي ذراع و كان عليها مرآة من الحديث

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۵۳

الحديد الصيني عرضها سبعة أذرع كانوا يرون فيها جميع من يخرج من البحر من جميع بلاد الروم فإن كانوا أعداء تركوهم فإذا قربوا منها و مالت الشمس للغروب أداروا المرآة مقابلة الشمس و استقبلوا بها السفن حتى يقع شعاع الشمس في ضوء المرآة فتحترق السفن

فى البحر عن آخرها و يهلك كل من فيها و كانوا يؤدون الخراج ليأمنوا بذلك من أحراق المرآة لسفنهم فلما فتح عمرو بن العاص الإسكندرية احتالت الروم بان بعثت جماعة من القسيسين المستعربين و أظهروا أنهم مسلمون و أخرجوا كتابا زعموا أن ذخائر ذى القرنين فى جوف المنارة فصدقتهم العرب لقلة معرفتهم بحيل الروم و عدم معرفتهم بمنفعة تلك المنارة و المرآة و تحيلوا أنهم إذا أخذوا الذخائر و الأموال أعادوا المنارة و المرآة على ما كانت فهدموا مقدار ثلثى المنارة فلم يجدوا فيها شيئا و هرب أولئك القسيسون فعلموا حينئذ أنها خديعة فبنوها بالاجر و لم يقدروا ان يرفعوا إليها تلك الحجارة فلما أتموها نصبوا عليها تلك المرآة كما كانت فصدئت فلم يروا فيها شيئا و بطل إحراقها و النصف الأسفل من عمل ذى القرنين يدخل الإنسان من الباب الذى بالمنارة و هو مرتفع عن الأرض مقدار عشرين ذراعا يصعد إليه من قناطر مبنية بالصخر المنحوت فإذا دخل من باب المنارة يجد على يمينه بابا فيدخل منه إلى مجلس كبير طوله عشرون ذراعا مربعا يدخل فيه الضوء من جانبى المنارة ثم يجد بيتا آخر مثله ثم مجلسا ثالثا و مجلسا رابعا كذلك قال و لقد عملت الجن لسليمان بن داود عليهما السلام فى الإسكندرية مجلسا من أعمدة الرخام الملون المجزع كالجزع اليمانى المقصول كالمرآة إذا نظر الإنسان إليها يرى من يمشى خلفها لصفائها و كان عدد الأعمدة ثلاثمائة عمود و كل عمود بثلاثمائة ذراع و فى وسط المجلس عمود واحد يتحرك شرقا و غربا يشاهد ذلك الناس و لا يدرون ما سبب حركته.

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۵۴

و من عجائب الإسكندرية السوارى و الملعب الذى كانوا يجتمعون فيه فى يوم من السنة و يرمون بالاكرة فلا تقع فى حجر واحد منهم إلا ملك مصر و كان يحضر هذا الملعب ما شاء اللّه من الناس ما يزيد على ألف ألف رجل فلا يكون منهم أحد و هو ينظر فى وجه صاحبه ثم أن قرئ كتاب سمعوه جميعا أو لعب لون من الألوان فى ذلك الملعب رأوه عن آخرهم.

و قد حضر سيدى عمرو بن العاص رضى اللّه عنه هذا الملعب معهم فى الجاهلية و ذلك انه قدم لبيت المقدس فى نفر من قريش لتجارة فإذا هم بشماس من شمامسة الروم من أهل الإسكندرية قدم للصلاة فى بيت المقدس فخرج فى بعض جبالها يسيح و كان عمرو يرعى إبله و إبل أصحابه و كانت رعاية الإبل بينهم نوبا فبينما عمرو يرعى إبله و إبل أصحابه إذ مر به ذلك الشماس و قد أصابه عطش شديد فى يوم شديد الحر فوقف على عمرو فاستسقاه فسقاه عمرو من قربة له فشرب حتى روى و نام الشماس مكانه و كان إلى جانب الشماس حيث نام حفرة فخرج منها حية عظيمة فبصرها عمرو فنزع لها بسهم فقتلها فلما استيقظ الشماس نظر إلى حية عظيمة قد أنجاه اللّه منها فقال لعمرو و ما هذه الحية فأخبره الخبر عمرو و انه رماها بسهم فقتلها فأقبل إلى عمرو فقبل رأسه و قال قد أحيانى اللّه بك مرتين مرة من شدة العطش و مرة من هذه الحية فما أقدمك هذه البلاد قال قدمت مع أصحاب لى نطلب الفضل من تجارتنا فقال له الشماس و كم ترجو أن تصيب من تجارتك فقال رجائى أن أصيب ما اشترى به بعيرا فأنى لا أملك إلا بعيرين فأملى أن أصيب بعيرا آخر فتكون لى ثلاثة أبعرة فقال له الشماس أرأيت دية أحدكم بينكم كم هى فقال مائة من الإبل فقال له الشماس لسنا أصحاب إبل بل إنما نحن أصحاب دنانير فقال تكون ألف دينار فقال له الشماس أنى رجل غريب فى هذه البلاد و إنما قدمت أصلّى فى كنيسة بيت المقدس و أسيح فى هذه البلاد شهرا جعلت ذلك نذرا على نفسى و قد قضيت ذلك و أنا أريد الرجوع إلى

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۵۵

بلادى فهل لك أن تتبعنى إلى بلادى و لك على عهد اللّه و ميثاقه أن أعطيك ديتين لأن اللّه أحيانى بك مرتين فقال له عمرو و أين بلادك قال مصر فى مدينة يقال لها الإسكندرية فقال له عمرو لا أعرفها و لم أكن دخلتها قط فقال له الشماس لو دخلتها لعلمت أنك لم تدخل قط مثلها فقال له عمرو أو تفى لى بما تقول و عليك بذلك العهد و الميثاق فقال له الشماس نعم على عهد اللّه و ميثاقه أن أفى لك و أن أردك إلى أصحابك فقال له عمرو كم يكون مكثى فى ذلك فقال له شهرا تنطلق معى ذاهبا عشرا و تمكث عندنا عشرا و ترجع فى عشر و لك على أن أحفظك ذاهبا و أن أبعث معك من يحفظك راجعا فقال له عمرو انظرنى حتى أشاور أصحابى فى ذلك فانطلق عمرو إلى أصحابه فأخبرهم بما عاهد عليه الشماس و قال لهم أقيموا حتى أرجع إليكم و لكم على العهد أن أعطيكم

شطر ذلك على أن يصحبنى رجل منكم آنس به فقالوا له نعم و بعثوا معه رجلا منهم فانطلق عمرو و صاحبه مع الشماس إلى مصر حتى انتهوا إلى الإسكندرية فرأى عمرو من عمارتها و جودة بنائها و كثرة أهلها فأزداد عجبا و وافق دخول عمرو الإسكندرية عيدا فيها عظيما يجتمع فيه ملوكهم و أشرافهم و لهم اكرة من ذهب يترامى بها ملوكهم و هم يتلقونها بأكمامهم و فيما اختبروا من تلك الاكرة على ما وضعها من مضى منهم أن من وقعت الاكرة فى كمه و استقرت فيه لم يمت حتى يملكهم فلما قدم عمرو الإسكندرية أكرمه الشماس الإكرام كله و كساه ثوب ديباج ألبسه إياه و جلس عمرو و الشماس مع الناس فى ذلك المجلس حيث يترامون بالاكرة و هم يتلقونها بأكمامهم فرمى بها رجل منهم فأقبلت تهوى حتى وقعت فى كم عمرو فتعجبوا من ذلك و قالوا ما كذبتنا هذه الاكرة قط إلا فى هذه المرة أترى هذا الأعرابى يملكنا هذا ما لا يكون أبدا.

قلت قد ملكهم قسرا و دوخهم قهرا فى فتح مصر و ان ذلك الشماس مشى فى أهل الإسكندرية و أعلمهم أن عمرا أحياه مرتين و انه قد ضمن له ألفى دينار و سألهم أن

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۵۶

يجمعوا له ذلك فيما بينهم ففعلوا و دفعوها إلى عمرو فانطلق عمرو و صاحبه و بعث معهما الشماس دليلا- و رسولا- و زودهما و أكرمهما حتى رجع هو و صاحبه إلى أصحابهما فبذلك عرف عمرو مدخل مصر و مخرجها و علم منها ما رأى و علم أنها أفضل البلاد و أكثرها مالا فلما رجع عمرو إلى أصحابه دفع إليهم فيما بينهم ألف دينار و أمسك لنفسه ألفا قال عمرو و كان ذلك أول مال تأثلته.

و من عجائبهما المسلتان و هما جبلان قائمان على سرطانات من نحاس فى أركانهما كل ركن على سرطان فلو أراد أحد أن يدخل تحتها شيئا يعبرها من جانبها الآخر فعل .

و من عجائبها عمود الأعياء و هما عمودان متلقيان وراء كل عمود منهما جبل حصى كحصى الجمار فمتى أقبل التعب النصب بسبع حصيات من ذلك الحصى فاستلقى على أحداهما ثم رمى وراءه بالسبع حصيات و يقوم و لا يلتفت و يمضى لطلبته قام كأنه لم يتعب و لم يحس بشىء.

و من عجائبها القبة الخضراء و هى أعجب قبة ملبسة نحاسا كأنه الذهب الإبريز يبليه القدم و لا يخلقه الدهر.

و من عجائبها منية عتبة و حصن فارس و كنيسة أسفل الأرض و هى مدينة على مدينة و ليس على وجه الأرض مثلها و يقال أنها أرم ذات العماد سميت بذلك لأن عمدها لا يرى مثلها طولا و عرضا انتهى مع بعض حذف و تغيير و تقديم و تأخير.

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۵۷

قلت و ما ذكر فى الإسكندرية من الغرائب و الأبنية و العجائب لم يبق بها الآن سوى عمود السوارى و غيره اجتاحه الدهر و أبلاه، و استأصله و أفناه، و لم يبق لها من الآثار إلا ما يذكر فى الأخبار، و الدوام و البقاء للّه الواحد القهار، إلى أن قال.

و من مزارتها غير ما تقدم مشهد سيدى على البدورى رضى اللّه عنه و منها قبر الخزرجى مشهور هناك بنسبته و لا أدرى هل هو صاحب المنظومة فى العروض أو غيره و بازائه قبر الإمام الفاكهانى و منها قبر الإمام الشيخ الصالح سيدى عبد الرزاق أجل تلامذة الشيخ سيدى أبى مدين رضى اللّه عنهما و أجل من نشر طريقه بعده و أخذها الناس عنه و قدره بين أهل الطريقة معروف و منها زاوية أبى الحسن الشاذلى كان يأوى إليها هو و أصحابه و هى قلعة كبيرة فى سور البلد الشرقى فيها بيوت متعددة و منها قبر سيدى أحمد المنارى و هو مشهور البركة و سبب تسميته بالمنارى على ما قالوا أنه قدم البلد و معه حمارة له و قال لهم أين أبيت فأشاروا كالمستهزئين به إلى المنارة فقال لهم بسم اللّه و صعد بحمارته إلى أعلاها فاجتمع الناس ينظرون متعجبين و هذا فى حق أولياء اللّه تعالى يسير و اللّه على كل شىء قدير و هو العالم بحقيقة الأمر.

لطيفة حكى أن السلطان سليم العثمانى لما دخل مصر و جاء إلى الإسكندرية طلع ذات يوم إلى كوم مشرف على البلد و جاءه أهل

الإسكندرية و قالوا يا سلطان إن بلدنا هذا قد استولى عليه الخراب كما ترى فنريد كمال جودك أن ترحمنا و تصرف نظرك إلى عمران هذا البلد فإن مكانته من مدائن العالم معروفة فعسى أن يرجع إلى بعض حاله الأول على يدك فسكت عنهم ساعة و هو مطرق ثم رفع رأسه إليهم و قال لهم إن هذه

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۵۸

البلدة قد نظر إليها الحق و قال لها كوني دكا و أنا لا أقدر أن أعمر ما أذن اللّه في خرابه فانصرفوا عنه.

قال أبو سالم لقد نظر هذا الملك نظرة عارف و غاص بفكره الفائق في دقائق حكمة اللّه تعالى الجارية في مملكته فكأنه نظر إلى ما اشتملت عليه هذه المدينة من المرافق الدنيوية و اكتنفها من أسباب العمران مع توسطها في الممالك الإسلامية و جمعها بين الأسباب البرية و البحرية و الأجناس البدوية و الحضرية فبابها الشرقي متصل بأرياف مصر التي هي مزرعة الدنيا التي لا نظير لها و بابها الغربي متصل ببادية برقة الفاصلة بين بلاد المشرق و المغرب فلا بادية في الدنيا تدانيها في اتساع الأقطار و طيب المرعى و صحة الهواء و بابها البحري مقابل لأرض الروم التي تجلب منها البضائع النفيسة فإذا كانت بهذه الحيثية فأسباب العمران متوفرة بها فلا موجب لخرابها إلا إرادة الحق و نظره إليها بعين الجلال لتكبرها و استعلائها على غيرها من البلدان و حق على اللّه أن لا يرفع شيئا من الدنيا إلا وضعه و إذا كان خرابها بكلمة كن من اللّه فلا مطمع للعبد في عمران ما أذن اللّه في خرابه.

و لعمري إن هذا نظر مصيب و فكر عجيب و لا عجب في ذلك فإن السلطان سليم رحمه اللّه كان معروفا بإصابة الرأي و ثقابة الذهن وجودة التدبير في المملكة و به فخمت دولة بني عثمان و هو المستولي على الممالك الشامية و المصرية و الحجازية و ما والاها من البلاد.

و بالجملة فهي من أمهات المدائن المذكورة في الدنيا و هي دار مملكة الديار المصرية قبل الإسلام و بها كان المقوقس الذي كان في زمانه عليه الصلاة و السلام و ناهيك

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۵۹

بفخامة ملك بانيها الإسكندر و شهرته و استلائه على الممالك.

و قد ذكر المؤرخون أخباره و أخبار بنائه لهذه المدينة و كيفية بنيانها و انه جعلها مدينتين إحداهما تحت الأرض و الأخرى فوقها ظاهرة و إن الماء يجري من النيل أيام فيضه حتى تمتلئ السفى و يستقى من في العليا من تحته و آثار ذلك باقية إلى الآن.

انعطاف إلى ما كنا بصدده و هي إقامتنا بمصر أكثر الشهر من صفر إلى أوائل ربيع الأول إلى العشرين منه و اللّه اعلم فإن مصر أمرها عظيم و حالها غريب كاد أن لا يوجد مثلها و قد ذكرت في القرآن في ثمانية و عشرين موضعا بين التصريح و التلويح لو لا الإطالة لذكرتها تفصيلا و من أراد ذلك فلينظر حسن المحاضرة و فيها من العجائب و الغرائب و حسن الأخبار و نزهة الأنظار و غاية الاعتبار و شوارق الأفكار ما يغني عن اعتبار غيرها.

و قد ذكر السيوطي في هذا الكتاب حدها و قال ما نصه و مما هو معدود في كور مصر كورة القلزم على ثلاثة أيام من مصر خربت و من أعمال مصر الجليلة الصعيد إلى أن قال

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۶۰

ذكر من نزل مصر من أولاد آدم عليه الصلاة و السلام

أن آدم أوصى لأبنه شيث فكان فيه و في بنيه النبوءة و الدين و أنزل اللّه عليه تسعا و عشرين صحيفة و انه جاء إلى أرض مصر و كانت تدعى بابلون فنزل بها هو و أولاد أخيه فسكن شيث فوق الجبل و سكن أولاد قابيل فوق الوادي إلى أن قال.

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۶۱

ذكر من ملك مصر قبل الطوفان

نقراوس و كان عالما بالكهانة و الطلسمات و يقال انه بنى مدينة أقسوس و عمل بها عجائب كثيرة منها أنه عمل صنمين من حجر أسود فى وسط المدينة إذا قدمها سارق لم يقدر أن يزول عنها حتى يسلك بينهما فإذا سلك بينهما أطبقا عليه فيؤخذ و كانت مدة ملكه مائة و ثمانين سنة إلى قال.

و ذكر بعض من آلف فى أخبار مصر أن سفينة نوح طافت بمصر و أرضها فبارك نوح فيها و أن أولاده سكنوا مصر و من ولد ولده مصر بن بيصر بن حام و قد دعا له جده فأجيبت فيه دعوته و أسكنه الأرض المباركة و فى بعض التواريخ لما مات مصر بن بيصر كتب على قبره مات مصر بن بيصر بن حام بن نوح بعد الألفين و ستمائة عام من الطوفان و لم يعبد الأصنام و هو الذى بنى أهرام دهشور إلى أن ملكها يوسف عليه السلام و هو ابن ثلاثين سنة ثم دخل يعقوب عليه الصلاة و السلام و ولده مصر و هم ثلاث و سبعون نفسا بين رجل و امرأة فأنزلهم يوسف بين عين شمس إلى الفرما و هى أرض ريقفية و خرجوا و همم ستمائة ألف و أن أولاد يوسف ثلاث و سبعون نفسا و خرجوا و هم ستمائة ألف أيضا و يعقوب عاش فى أرض مصر ست عشرة سنة و مات و دفن فى أرض كنعان فلملك مصر بعده فرعون و كان فى عصر يوسف و أدرك يعقوب و هو قبطى من قبط مصر اسمه ظلمى و كان يكنى بأبى مرة من العمالقة و اسمه الوليد بن مصهب و كان قصيرا و قد مكث أربعمائة سنة لم يصدع له رأس و كان يملك ما بين مصر إلى إفريقية و كان يقعد على كراسيه مائتان عليهم الديباج و أساور الذهب إلى أن غرق مع جنوده و أما يوسف فقد مات فى مصر و حمل إلى بيت المقدس

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۶۲

بعد أن دفن بها نحوا من مائتين و عشرين سنة إلى أن قال.

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۶۳

ذكر من دخل من الأنبياء عليهم الصلاة و السلام مصر

منهم إدريس و إبراهيم الخليل و إسماعيل و يعقوب و يوسف و اثنا عشر نبيا من ولد يعقوب و هم الأسباط و لوط و موسى و هارون و يوشع بن نون و دانيال و أرميا و لقمان على ما قاله بعضهم و اختلف فى نبوءته و أما من الصديقين فذو القرنين أى دخلها و الخضر و فى نبوءتهما خلاف و القول بنبوءة الخضر حكاه أبو أحيان عن الجمهور و جزم به الثعلبى و قال ابن عباس و محمد بن إسحاق انه نبى مرسل و نصر هذا القول أبو الحسن الرمانى ثم ابن الجوزى و إن ذا القرنين دفن فى الإسكندرية و مات بأرض بابل ثم حمل إليها و قد قيل أنه عاش ألف سنة و قيل ألفا و ستمائة سنة و قيل ثلاثة آلاف سنة و أما النساء فقد دخلن مصر مريم و سارة زوج الخليل و آسية امرأة فرعون و أم موسى و قد قيل بنبوءتهن حكى ذلك الشيخ تقى الدين السبكى فى فتاويه المعروفة بالحلبيات و قد قال ابن عبد الحكم يقال أن موسى عليه السلام قتل عوجا بمصر أعنى عوج بن بيصر و كان طول سرير عوج ثمانمائة ذراع و عرضه أربعمائة و كان طول عصا موسى عشرة أذرع و طوله كذلك فضربه فأصاب كعبه فخر على نيل مصر و قد عاش ثلاثة آلاف سنة و ستمائة سنة و لم يعش أحد هذا العمر و قد قيل انه ولد فى عهد آدم و انه لما مات وقع جسده على النيل جسرهم سنة.

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۶۴

ذكر عجائب مصر القديمة

و قد قيل أن عجائب الدنيا ثلاثون أعجوبة عشرة منها بسائر البلاد و هى مسجد دمشق و كنيسة الرها و قنطرة طنج و قصر عمان و كنيسة رومية و صنم الزيتون و إيوان كسرى بالمدائن و بيت الريح بتدمر و الخورنق بالحيرة و الثلاثة أحجار ببعلبك و العشرون الباقية

بمصر و هى الهرمان و هما أطول بناء و أعجبه ليس على الأرض بناء أطول منهما و إذا رأيتهما ظننت أنهما جبلان موضوعان و لذلك قال بعض من رآهما ليس شيء إلا و أن أرحمه من الدهر إلا الهرمان فأنا أرحم الدهر منهما و صنم الهرمين و هو بلهوية و يقال بلهنيت و تسميه العامة أبا الهول و الفيوم و هى مدينة دبرها يوسف عليه السلام بالوحى و كانت ثلاثمائة و ستين قرية على كل قرية منها مصر يوما و ليس فى الدنيا بلد بنى بالوحى غيرها و جبل الطير فيه أعجوبة لم ير مثلها و هى باقية إلى الآن و منها النيل و منها الإسكندرية مدينة على مدينة على ثلاث طبقات و ليس على وجه الأرض مدينة على مدينة على هذه الصفة سواها و أما الأهرام فهى فى زمان شداد بن عاد أى بنيت كما ذكره البعض و إلا فأهل المعرفة لم ينصوا عليها و الذى بنى الأهرام سوريد ابن سلهوق ملك مصر و كان قبل الطوفان بثلاثمائة سنة و بناها لسبب فانظره فى هذا الكتاب و عليها كتابة منقوشة تفسيرها بالعربية أنا سوريد الملك بنيت الأهرام فى وقت كذا و كذا و أتممت بناءها فى ست سنين فمن أتى بعدى و زعم انه مثلى فليهدمها فى ستمائة سنة و قد علم أن الهدم أيسر من البناء و أنى كسوتها عند فراغها الديباج فليكسها بالحصر و أتى بعض الملوك لنقب كوة فى الحائط فانفق عليه ألف دينار فوجد ما أنفقه فيه كذلك و لما فتحه المأمون أقام الناس يدخلونه فمنهم من يسلم و منهم من يموت و قال بعض الشعراء و هو عمارة اليمنى:

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۶۵ خليلى ما تحت السماء بنيةتماثل فى اتقانها هرمى مصر

بناء يخاف الدهر منه و كلماعلى ظاهر الدنيا يخاف من الدهر

تنزه طرفى فى بديع بنائهاو لم يتنزه فى المراد بها فكرى

و من عجائب مصر فى الإسلام فتحها فى زمان عمر مع كثرة القبط و الروم و قلة العرب و كذا المسجد الجامع الذى بناه عمرو بن العاص و كذا جبل يشكر الذى عليه جامع ابن طولون يقال انه قطعه من الجبل المقدس و يشكر رجل صالح و إن هذا الجبل يستجاب فيه الدعاء و كان يصلى عليه التابعون و قد أشار ابن الصلاح على ابن طولون أنه يبنى جامعه فيه.

و من عجائبها أيضا فى الإسلام فتح برقة إذ وجه عمرو بن العاص عقبة بن نافع حتى بلغ زويلة و صار ما بين برقة و زويلة للمسلمين و الذى سكن طرابلس و هى برقة لواتة و تفرقت فى هذا المغرب و انتشروا فيه و نزلت هوارة مدينة لبدة فسار عمرو بن العاص فى الخيل حتى قدم برقة فصالح أهلها على ثلاثة ألف ألف دينار يؤدونها إليه جزية على أن يبيعوا من أحبوا من أبنائهم فى جزيتهم و لم يكن يدخل برقة يومئذ جابى خراج و إنما كانوا يبعثون بالجزية إذا جاء وقتها انتهى من حسن المحاضرة بالمعنى و من عجائب ما وقع فى فتح مصر فى زمان عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه كما ذكره صاحب عقود الجمان فى مختصر أخبار الزمان للعلامة الشيخ محمد الشاطبى ما نصه.

و لما فتحت مصر فى خلافة عمر رضى اللّه عنه استولى عليها عمرو بن العاص فلما دخل شهر يونيه و هو عندهم خير زمان أتى أهلها عمرو بن العاص و قالوا له أن النيل عندنا له سنة لا يفيض إلا بها قال له و ما ذلك قالوا إذا انتصف هذا الشهر عمدنا إلى

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۶۶

جارية بكر حسنة فأرضينا أبويها بالأموال و ألبسناها الحلى و الحلل فألقيناها فى النيل فقال لهم إن الإسلام يهدم ما قبله فمكثوا ثلاثة أشهر و النيل لم يفض شيئا فأتى الناس إلى عمرو بن العاص و قالوا أن لم نفعل عادتنا أجدبنا فكتب عمرو بن العاص لعمر بن الخطاب رضى اللّه عنهما و أعلمه بذلك فأخذ عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه بطاقة و كتب فيها بسم اللّه الرحمن الرحيم من عبد اللّه أمير المؤمنين إلى نيل مصر أما بعد فإن كنت تفيض بما تفيض فلا تفض و إن كان اللّه الواحد القهار هو الذى يجريك فنسأل اللّه الواحد القهار أن يجريك فأرسل البطاقة لعمرو بن العاص و قال له ألقها فى النيل فألقاها يوم الجمعة فأصبحوا يوم السبت و قد فاض النيل فى ليلة ستة عشر ذراعا و قطع تلك العادة من ذلك الوقت و لم يشاهد النيل فاض قط مثل ذلك المقدار إلا مرتين هذه الواحدة و الأخرى فى زمان موسى عليه السلام لما أهلك اللّه فرعون و كان عمر يقول الحمد للّه الذى وافق مراده مرادنا فى أشياء كثيرة أنى

قلت يا رسول اللّه لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى فأنزل اللّه وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى و كسر الخاء هو المشهور من القراءات و قلت يا رسول اللّه لو صلينا لبيت اللّه الحرام فأنزل اللّه تعالى فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ و قلت يا رسول اللّه أحجب نساءك فانه يراهن البر و الفاجر فأنزل اللّه آية الحجاب.

قال كعب الأحبار وضع اللّه فى الدنيا أربعة أنهار من الجنة نهر من عسل و هو النيل و نهر من خمر و هو الفرات و نهر من ماء و هو سيحان و نهر من لبن و هو و اللّه اعلم جيحان ذكره فى كتاب الهداية و كان عمر رضى اللّه تعالى عنه مر بعبد يرعى غنما فقال له يا راعى بعنى شاة يريد اختباره فقال له العبد أنى أجير و ليس الغنم لى فقال له عمر قل لسيدها أهلكها الذئب فقال له العبد و أين اللّه فبكى عمر و اشتراه و أعتقه للّه و قال له أعتقتك لكلمة فى الدنيا و لعلها تعتقك فى الآخرة و لم يكن فى الخلفاء من يهابه الخلق مثل عمر رضى اللّه تعالى عنه لأنه كان للأرامل كالزوج المقيم و للأيتام كالأب الرحيم

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۶۷

فلما توفى قال الناس ذهب تسعة أعشار من العلم.

و من فضائل عمر رضى اللّه تعالى عنه أنه لم يستطل بلسانه قط على مسلم ما دام فى الخلافة بل يعطى الشريف منزلته و الوضيع منزلته و لا يخاف فى اللّه لومة لائم ينزل نفسه فى مال الدنيا منزلة رجل مسلم ما دام فى الخلافة فقيل له أن اللّه تعالى أولاك على أموال المسلمين فخذ ما تقوم به ضروریاتك فيقول أنى كولى اليتيم إن احتجت أكلت و أن استغنيت استعففت و الذى قتل عمر هو العلج و كانت خلافته رضى اللّه عنه عشر سنين و ستة أشهر و أربعة أيام مات و هو ابن ثلاث و ستين سنة.

و أما مدة خلافة أبى بكر فسنتان و ثلاثة أشهر و عشرة أيام و مات و هو ابن ثلاث و ستين سنة و غزواته اثنتان و ثمانون غزوة حضر مع رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم مشاهده كلها و هى تسعة و عشرون و ثلاث و خمسون غزوة فى خلافته و قال صلى اللّه عليه و سلم أخبرنى جبريل عن فضائل عمر فقال لو حدثتك عن فضائل عمر ما لبث نوح فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما ما نفدت فضائل عمر و أن عمر حسنة من حسنات أبى بكر و كان صلى اللّه عليه و سلم قال لقد استبشر بإسلام عمر أهل السموات و أهل الأرض و أن الحق لينطق على لسانه و إن من أمتى محدثين و أن عمر منهم و اللّه ما سلك عمر فجا إلا سلك الشيطان فجا غيره و انه اجتمع باويس القرنى و ذلك بأخبار النبى صلى اللّه عليه و سلم و انه يشفع فى مثل ربيعة و مضر.

و أما غزوات عمر على ما ذكره المؤرخون فثلاثمائة غزوة منها المشاهد النبوية كلها و هى تسعة و عشرون منها أربع للشام خرج فيها بنفسه و منها واحدة لفتح بيت المقدس و منها خمسون للروم و منها مائتان و أربع و خمسون ببلاد فارس و بلاد الأعاجم

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۶۸

كل ذلك مع أصوات و رجفات لا تكاد تنضبط و لا تفى بذكرها المجلدات.

و أما عثمان فغزواته أربع و خمسون غزوة فى البحر و كان له فى جميعها وقائع عظام و محاصرات و حروب لأهل الكفر لا تكاد تنضبط بالذكر و اللسان و الذى فى التاريخ غزواته مائة و عشرون غزوة حضر مع رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم جميع المشاهد النبوية إلا بدرا و بيعة الرضوان فانه لم يحضرها لعذر كان به إلخ ما ذكره فى هذا الكتاب و يجتمع مع النبى صلى اللّه عليه و سلم فى عبد مناف و كان يلقب بذى النورين لأنه تزوج رقية و أم كلثوم بنتى رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و صلى إلى القبلتين و هاجر الهجرتين هجرة الحبشة و هى الأولى ثم هاجر إلى المدينة و فضائله لا تعد و لا تحصى و لا تضبط و لا تستقصى و لما كانت الليلة التى قتل فيها رضى اللّه عنه فى يومها رأى رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم فى نومه و هو يقول يا عثمان فطرك غدا عندنا فقتل رضى اللّه عنه فى ذلك اليوم و هو يوم الجمعة بعد صلاة العصر و دفن يوم السبت قبل الظهر فى أيام التشريق من ذى الحجة سنة خمس و ثلاثين من الهجرة و كانت خلافته اثنتى عشرة سنة.

و أما على رضى اللّه تعالى عنه فتولى الخلافة يوم موت عثمان و هو أول من أسلم من الصبيان و أول من صلى مع رسول اللّه صلى اللّه

علیه و سلم و شهد معه المشاهد کلها إلا غزوة تبوک و أسلم رضی اللّه عنه و هو ابن تسع سنین شهد له رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم بالجنة و زوجه ابنته فاطمة الزهراء و بعث معها إلیه لما أتته خمیلة و وسادة من جلد محشوة لیفا و رحیین و سقاء و جرتین فلما قتل عثمان أتی الناس إلیه و قالوا لا

الرحلة الورثیلانیة، ج۲، ص: ۶۶۹

بدلنا من إمام و أنت أولی بها فأبی علیهم فلم یزالوا به حتی بایعوه بالمسجد و حضر طلحة و الزبیر و سعد بن أبی وقاص و الأعیان کلهم و لم یتخلف عن بیعته إلا معاویة و من کان معه من أهل الشام و إنما بایعه الناس لقربه من رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم و کثرة علمه و فهمه و شجاعته و زهده و حلمه و قد قال رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم أنت منی بمنزلة هارون من موسی و قال رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم علی منی و أنا منه و قال رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم أنا مدینة السخاء و أبو بکر بابها أنا مدینة الشجاعة و عمر بابها و أنا مدینة الحیاء و عثمان بابها و أنا مدینة العلم و علی بابها إلی غیر ذلک مما قاله صلی اللّه علیه و سلم فی شأنه و کان علی رضی اللّه عنه مشهورا بعلم قلبی أفاضه اللّه علیه بدعائه صلی اللّه علیه و سلم له فکان یستخرج من الحروف المقطعة التی فی أوائل السور وقائع الغزوات و دقائق المغیبات و لیس فی العلوم الغریبة علم إلا و ینتهی إلیه رضی اللّه عنه و علی استنبط النحو و أملی علی أبی الأسود الدؤلی.

و من وصایا رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم له أکظم غیظک یا علی فیملأ اللّه قلبک نورا و صدرک علما و حلما و رحمة و استر عیوب الناس فیستر اللّه عیوبک فی الدنیا و الآخرة و لا تعیر أحدا بما فیه فیبتلیک اللّه و یعافیه جالس الفقراء فإن رحمة اللّه لا تفارقهم مجالسة الأغنیاء تمیت القلب و تنسی الموت و مجالسة الفقراء تحی القلب و تذکر ما عند اللّه من الفضل للسعید ثلاث علامات قول الحق و لو علی نفسه و الرغبة فی طاعة اللّه و الفرار عن معصیة اللّه و للشقی کذلک جمود العین و قساوة القلب و حب الدنیا و قال أیضا لا فقر أشد من الجهل و لا مال أکثر من العقل و لا ورع أحسن من الکف عن محارم اللّه و لا معیشة اهنأ من العافیة و لا حسنة أعظم من البر و حسن الخلق و لا سیئة أشد من الحدة و سوء الخلق و لا عبادة کالتفکر فی عبادة اللّه و قال أیضا کن

الرحلة الورثیلانیة، ج۲، ص: ۶۷۰

عالما أو متعلما و لا تکن الرابع فتهلک و هو الذی لا یعلم و لا یتعلم و لا یسمع و وصایاه له کثیرة لا تحصی.

و قال أیضا کیف بک یا علی إذا زهد الناس فی الآخرة و رغبوا فی الدنیا و أکلوا التراث أکلا لما و أحبوا المال حبا جما الحدیث قال ترکهم و ما اختاروا و اختار الآخرة لنفسی و اصبر علی مصائب الدنیا و بلواها حتی ألحق بک یا رسول اللّه قال صدقت اللهم أفعل ذلک به و فضائله لا تعد و لا تحصی بدلیل أن اللّه باهی بعلی ملائکة السبع سموات إلی غیر ذلک و هو الذی قتله ابن ملجم الخارجی إذ بن ملجم قال أنا أکفیکم علینا و أما البرک قال أنا أکفیکم معاویة و قال عمرو بن بکر أنا أکفیکم عمرو بن العاص و هم رؤساء الإسلام و ذلک أن علیا قتلهم یوم النهروان حتی کاد أن یأتی علی آخرهم و هذه الطوائف کلها خوارج و افترقوا فی الاعتقاد فکل علی الضلال لا سیما من یعتقد ألوهیة علی و قد قاتلهم و أحرقهم علی ذلک فلم یرجعوا قیل دفن علی و هو أول إمام خفی قبره لأنه أوصی بذلک لعلمه أن الأمر یصیر إلی بنی أمیة فیمثلون بقبره و قبور ذریته.

و قد اختلف الناس فی موضع دفنه فقیل فی زاویة جامع الکوفة و قیل فی بقیع المدینة و قیل بالخیف من منی و قیل حمل إلی بلاد طیء فی تابوت علی ناقته و اللّه أعلم بذلک کله و کیف کان و أما غزواته فثلاث و ثلاثون غزوة حضر المشاهد النبویة کلها و قتل رضی اللّه عنه سنة ثمان و ثلاثین من الهجرة و کانت خلافته أربع سنین و أربعة أشهر و ثمانیة أیام و أما البرک المتقدم فانه وصل إلی الشام فی تلک اللیلة و ضرب معاویة فی المسجد فأصابه علی ورکه و کان عظیم الأوراک فقطع منه عرق النکاح فلم یولد له بعد ذلک فأخذه و أراد البطش به فقال له أخبرکم أن علیا قتل فی هذه اللیلة فلا برئ

الرحلة الورثیلانیة، ج۲، ص: ۶۷۱

معاوية قطع يده و رجله و أطلقه و كان على البصرة يزيد بن معاوية فلما دخل البصرة قتله و قال يولد للبرك و لا يولد لأمير المؤمنين و من ذلك الوقت أمر معاوية باتخاذ المقصورة و أما ابن بكر فأخذه الناس و جلبوه إلى عمرو بن العاص فقتله بقتل خارجة.

و أما الحسن فقد بويع بعد موت أبيه ثم كتب لمعاوية إلى الشام إن حملت شرطى سلمت لك الأمر لما رأيت فى ذلك من جمع كلمة المسلمين ثم اشترط عليه شروطا فقبلها معاوية و حملها له قيل انه أخذ منه مائة ألف درهم و قيل أربعمائة ألف دينار و قيل انه شرط عليه ان يمكنه بما فى بيت مال المسلمين فمكنه و قد قال صلى اللّه عليه و سلم فيه ان أبنى هذا السيد و يصلح اللّه به بين فئتين عظيمتين من المسلمين فلما أخذ المال خلع نفسه و رجع للمدينة فعوتب من أجل ذلك فقال اخترت الجماعة على الفرقة و حقن الدماء على سفكها و العار و لا- النار ثم بعد ذلك كان يمشى لبيت اللّه الحرام على رجليه و النجائب تقاد بين يديه من كل جانب عشرين مرة يقول استحيى أن ألقى اللّه و لم أمش إلى بيته و قد خلع عن ماله مرتين للّه و عن نصفه ثلاثا و كانت خلافته ستة أشهر و ستة أيام تتميما للخلافة التى أشار إليها صلى اللّه عليه و سلم فانه قال الخلافة بعدى فى أمتى ثلاثون سنة ثم ترجع ملكا بعد ذلك فكانت خلافة الحسن تمام الثلاثين سنة بعده صلى اللّه عليه و سلم و مات الحسن رضى اللّه عنه ابن سبع و أربعين سنة.

فائدة لما بلغ عمر بن عبد العزيز الغاية فى العدل و الأنصاف و الانتصاف حتى انه نزع ما فى يد أقاربه من أموال السلطان و عزل من لا يراه أهلا- لذلك أعطوا ألف دينار لخديمه الذى كان يأتيه بطعامه و شرابه وقت أفطاره على أن يلقى له السم فى أكله و شربه فلما استقر فى جوفه قال للخديم ما الذى حملك على هذا قال ألف دينار أعطيتها قال هاتها فاتاه بها فطرحها فى بيت المال و قال له أنج بنفسك قبل أن يراك

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۷۲

الناس فيقتلونك بقتلى و كانت زوجه فاطمة بنت عبد الملك بن مروان تقول و اللّه منذ ولى الخلافة ما اغتسل من جنابة و إنما نهاره فى شأن الخلق و ليله فى عبادة اللّه.

و لما بلغ به الداء قال أجلسونى فأجلسوه فرفع يديه إلى السماء و هو مستقبل و قال إلهى أنك أمرتنى فقصرت و نهيتنى فعصيت و لكنى أشهد أن لا- إله إلا- اللّه و أن محمدا رسول اللّه و لما كان قبل موته بأيام بعث و فدا إلى ملك الروم فلما أتوه تلقاهم بالجميل إلى أن قال و اللّه الرجل صالح و خير ملك فى العرب كان يخاف اللّه تعالى و اللّه تعالى لا يجمع بين خوفين على عبده و لقد بلغنى من بره و فضله و صدقه ما لو كان أحد بعد عيسى يحيى الموتى لكان هو و ليس عجبى من الرهبان الذين عبدوا اللّه فى الصوامع و رؤوس الجبال و بطون الأودية و إنما عجبى من ملككم الذى صارت له الدنيا تحت قدمه لكن أهل الخير لا يبقون مع أهل الشر فكانت خلافته سنتين و خمسة أشهر و مات و هو ابن أربعين سنة كانت سيرته كسيرة جده من أمه عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه و لقد وجدوا بطاقة مكتوبة بخط أبدع من خط العرب سقطت بردة فانكسرت تلك البردة فإذا فيها ورقة فيها بسم اللّه الرحمن الرحيم براءة من اللّه العزيز الجبار لعمر بن عبد العزيز من النار فوضعوها فى أكفانه.

و لما توفى رحمه اللّه قال الفرزدق يرثيه:

أقول لما نعى الناعون لى عمرالقد نعيتم قوام الحق و الدين

قد حان للرامسين اليوم من رمسوا بدير سمعان قسطاس الموازين

لم يلهه عمره عين يفجرهاو لا النخيل و لا ركض البراذين

و أما الدولة العباسية فأول من بويع فيهم السفاح و اسمه عبد اللّه بن محمد بن على

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۷۳

بن عبد اللّه بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم سنة ثلاث و ثلاثين و مائة فأخذ فى قتل بنى أمية و لم ينج منهم أحد إلا مستخفيا كعبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك فر من العباسيين و استخفى ببلاد المغرب ثم قطع إلى الأندلس فقام فى قرطبة سنة

ثمان و ثلاثين و مائة ملكا و ملك الأندلس كلها و ورث فيه الملك لبنيه و إخوانه فدامت خلافتهم أى بنى أمية بالأندلس إلى سنة سبع و أربعمائة نحو الثلاثمائة سنة فظهر الشرفاء بنو حمود بالأندلس فيها سبع سنين فقام عليهم الثوار إلخ ثم بويع أخو السفاح أبو جعفر المنصور و لما كان بطريق الحج جاز بموضع يقال له الصافية فقال صفا أمرنا إن شاء اللّه و كان عابدا ناسكا بخيلا بالأموال إلا فى النوائب و عند مستحقها و لما استقر الملك فى يده بنى الخضراء أى قصره الجعفرى.

ثم مات و ولى ابنه محمد المهدى ابن أبى جعفر المنصور سنة ثمان و خمسين و مائة فكانت خلافته عشر سنين و تمكنت له الخلافة تمكينا عظيما و قد قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم تبنى مدينة بين دجلة و الفرات إلخ.

قال أهل التاريخ أن محمدا المهدى ليس هو المهدى الذى ذكره رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم المهدى منى و أنا منه و قال صلى اللّه عليه و سلم يكون فى أمتى المهدى يعيش تسعا أو سبعا يواطىء اسمه أسمى و أسم أبيه أسم أبى يملأ الأرض قسطا و عدلا قد تسمى بالمهدى محمد بن الحنفية و إليه انتسب جميع خوارج المشرق و قد اختفى فى آخر عمره و المهديون كثيرون و الثامن منهم هو المذكور المنتظر أجمع عليه العلماء آلف فيه محمد بن العربى الطائى كتابا سماه عنقاء مغرب فى معرفة شمس الأولياء و قطب المغرب و هو رجل محقق عارف مشهور فى الولاية و هذا المهدى

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۷۴

المنتظر هو المذكور فى الأحاديث لقول رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم أن فى أمتى المهدى يحثى المال لطالبه حتى لا تدع السماء فى زمانه قطرة إلا- صبتها و لا تدع الأرض نباتا إلا أخرجته حتى يتمنى الأحياء أن ترجع أمواتهم للدنيا و قال صلى اللّه عليه و سلم يكون اختلاف عند موت خليفة فيبايع الناس رجلا بمكة و هو كائن بين الركن و المقام و غير ذلك من الأحاديث المشهورة فى ذكر الفاطمى المهدى و إنما ذكرنا هذا لئلا يظن أن المهدى واحد و قد قال صلى اللّه عليه و سلم لا مهدى و لا عيسى و معناه لا مهدى كعيسى كقول القائل لا سيف إلا ذو الفقار و لا فتى إلا على أى لا سيف كذى الفقار و لا فتى كعلى هذا معناه.

[ثم بويع لموسى الهادى يوم مات أبوه و كان سنه أربعا و عشرين سنة بعهد من والده] و توفى موسى الهادى و لم تكن ولايته إلا سنة و خمسة و أربعين يوما.

و بويع هارون الرشيد يوم موت أخيه موسى الهادى بولاية أبيهما لهما و ولد لهارون الرشيد فى تلك الليلة عبد اللّه المأمون فمات فى تلك الليلة خليفة و تولى خليفة و ولد خليفة فى وقت واحد و من حلمه و عفوه أن رجلا قام عليه فى أطراف مملكته و مالت عنه كافة الخلق إلى ذلك الرجل فجهز له الجيوش و أنفق عليه الأموال العظام و لم يزل حتى أخذه بعد حروب كثيرة مات فيها أبطال هارون فلما أتى به إليه قال له هارون ما تريد أن أصنع بك الآن قال اصنع ما تريد أن يصنع اللّه بك بين يديه غدا قال هارون إنما أريد أن يعفو اللّه عنى قال له و أنا أريد أن تعفو عنى قال له قد عفوت عنك أذهب حيث شئت فلما خرج قال وزراءه هذا الذى أجرى عليك الفساد و قطع أبطالك و خسرت عليه أموالك حتى مسكته ثم أطلقته فأمر به فرد إليه فقال له يا أمير المؤمنين إن الملوك إذا عفوا لم يندموا فإن كان هؤلاء قد أندموك فلا تطعهم فإن اللّه لو

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۷۵

أطاع الخلق فيك ما ولاك قال صدقت ثم أمر له بصلة من المال و صرفه على خير و كان شجاعا مجاهدا فى الكفار و له وقائع عظيمة و من يوم ولايته لا ينام حتى يوتر و لا يوتر حتى يصلى مائة ركعة و كل ليلة يتصدق بألف درهم.

و قد قال الغزالى لما هنأه العلماء فى الولاية تخلف سفيان الثورى و كان أخا له فى اللّه فكتب له هارون بسم اللّه الرحمن الرحيم من عبد اللّه هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى أخى سفيان الثورى أما بعد فقد علمت أن اللّه تعالى آخى بين المؤمين و كان فيما بينى و بينك مؤاخاة لم نصرم منك حبك، و لم نقطع منها ودك و أنى منتظر لك، و قد علمت بفضل المحبة و لو لا قلادة الإمارة لأتيتك و قد زارنى جميع الناس و إخوانى و أعطيتهم الجوائز السنية و أننى انتظرك و قد استبطأتك فلم تأتينى فكتبت شوقا منى إليك و لقد

علمت فضل زيارة المؤمن و مواصلته فإذا ورد عليك كتابى هذا فالعجل العجل فلما وصل الكتاب للكوفة لسفيان كتب له فى ظهر كتابه بسم اللّه الرحمن الرحيم من العبد الميت سفيان بن سعيد بن منذر الثورى إلى العبد المغرور هارون الرشيد الذى سلب حلاوة الإيمان أما بعد فأنى قد صرمت حبلك، و قطعت ودك، و خليت موضعك، و أنك قد جعلتنى شاهدا عليك بإقرارك على نفسك بأنفاقك بيت مال المسلمين على غير حقه و انفدته بغير حكمة ثم أشهدتنى و إخوانى الذين شهدوا قراءة كتابك على نفسك غدا بين يدى اللّه يا هارون هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم فهل رضى بذلك الفقراء و المساكين و المؤلفة قلوبهم و العاملون عليها و المجاهدون فى سبيل اللّه و ابن السبيل و الأرامل و الأيتام أم رضى بذلك خلق من رعيتك فاعمل للمسألة جوابا، و للبلاء جلبابا، عند وقوفك بين يدى الملك العدل و قد سلبت حلاوة العلم و لذيذ القرآن و مجالسة الأخيار و رضيت لنفسك أن تكون

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۷۶

ظالما و للظالمين إماما فجلست على السرير، و لبست الحرير ، و أسلبت الستور، و أقعدت الأجناد على بابك يظلمون و لا ينصفون و يشربون الخمر و يجلدون الناس عليها و يزنون و يحدون الزناة و يسرقون و يقطعون السارق و أنت شريكهم فى ذلك كله لأنك لم تحكم عليهم و لا بد من النداء غدا و امتازوا اليوم أيها المجرمون أى الظلمة و أعوان الظلمة فتتقدم بين يدى اللّه و يداك مغلولتان إلى عنقك لا يفكهما إلا عدلك و أنصافك و الظالمون حولك و أنت سائقهم إلى النار و قد جعلت حسناتك فى ميزان غيرك و سيئات غيرك فى ميزانك على سيئاتك بلاء على بلاء و ظلمة على ظلمة و احتفظ بوصيتى اتعظ بموعظتى فأنى قد نصحتك و اتق اللّه فى نفسك و فى رعيتك و أحفظ محمدا فى أمته و أحسن الخلافة عليهم و أعلمهم أن هذا الأمر لو تركته لغيرك لم يصل إليك و هو صائر إلى غيرك لا محالة لأن الدنيا تنتقل بأهلها واحدا بعد واحد فمنهم من تزود زادا نفعه و منهم من خسر الدنيا و الآخرة أنى أحسبك ممن خسر الدنيا و الآخرة و لا تكتب إلى كتابا بعد هذا فلا أجيبك عليه و السلام ثم دفعه للذى جاء به و هو عباد الطيالقى منشورا غير مطوى و لا مختوم فوقعت الموعظة فى قلب عباد و خرج للسوق و لبس مدرعة صوف خشنة و عباءة و نزع ثياب الأجناد و ألقاها على البرذوة و ساقه خلفه إلى هارون فلما رآه الناس هزؤوا به و هو لا يبالى بقولهم فلما دخل على هارون صاح صيحة عظيمة و بكى هارون و قال انتفع اللّه الرسول و خاب المرسل ما لى و للدنيا مالى و ملك يزول عنى ثم أخذ الكتاب و جعل يقرأه و يبكى و ينتحب فقيل له يا أمير المؤمنين قد اجترأ عليك سفيان فقال اتركونى يا عبيد الدنيا المغرور و اللّه من غررتموه و الشقى و اللّه من اشقيتموه اتركوا سفيان و شأنه ثم لا زال يفتح كتاب سفيان و يقرأه و هو يبكى و كانت خلافته ثلاثا و عشرين سنة و أياما ولد بالرى و مات بطوس

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۷۷

و هو ابن سبع و أربعين سنة و مات سنة ثلاث و تسعين و مائة من الهجرة.

و بويع محمد الأمين يوم موت أبيه هارون الرشيد فلما استقرت له الخلافة ألقى أخاه المأمون على كور خراسان و كانت ولايته أربع سنين و ثمانية أشهر فلما صارت له الخلافة و بلغ ماله الفضل بن الربيع أغرى أخاه المأمون فى بلاد خراسان فخالف عبد اللّه المأمون على أخيه محمد الأمين فحاصره فى بغداد و جرت بينهم وقائع عظام إلخ.

قال أهل التاريخ قتل الأمين و هو ابن ثمان و عشرين سنة فلم يشتغل بولاية إلا باللهو و الطرب، و اللذة و اللعب، و هى علامة الخراب قال الشاعر:

إذا ترى ملكا باللهو مشتغلافأحكم على ملكه بالزيل و الخرب

أو ما ترى الشمس فى الميزان ساقطةإذ كان ذلك بيت اللهو و الطرب

و بويع عبد اللّه المأمون و بايعه جميع العلماء و الأمراء فى كل بلد إلا الأندلس لبعده و لفضل البحر بينه و بينه و كان فقيها عالما لا سيما علم النجوم فانه لا نظير له فيه إلا أنه كان معتزليا يقول بخلق القرآن و يعاقب من لم يقل به و لم يكن فى العباسيين أعلم منه و قد

تبع شيخه أبا الهذيل البصرى المعروف بالعلاف رئيس المعتزلة و فى ولايته أمر بأحضار أحمد بن حنبل بعد أن اختفى فدعا عليه فمات فى ليلته.

و فى خلافة المأمون مات الإمام الشافعى و هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف رحمه اللّه سنة أربع و مائتين و هو ابن أربع و خمسين سنة.

و بويع إبراهيم المعتصم باللّه بن هارون الرشيد يوم موت أخيه عبد اللّه المأمون

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۷۸

بالموضع الذى مات فيه فى غزوة بلاد الروم و كانت ولايته ثمانى سنين و ثمانية أشهر و كان أشجع الناس أعطاه اللّه قوة زائدة على الخلق و كان أميا لا يقرأ و قد رفع الحمار الواقع فى الطين لقوته و شدة تواضعه و هذا الحمار لشيخ كبير السن فلما أخرجه غسل أطرافه و أمر له بأربعة آلاف درهم و هو يدعو له و مع ذلك أمر بعض خدامه به إلى أن أوصله إلى بيته و كان يجتمع عليه الأتراك و يلبسهم الديباج و غيرهم من العساكر مما لا يحصى عددا و فى سنة ست و عشرين و مائتين مات بشر الحافى رضى اللّه عنه ببغداد و محمد بن كثير المدنى و أبو دلف و عشرون من الأئمة و فيها مات المعتصم بقصده الخاقانى و كان قبض على الإمام أحمد رضى اللّه عنه و كان فى سجن أخيه المأمون منذ ثمانية و عشرين شهرا فأخرجه المعتصم و أقام له مجلسا للمناظرة و بقى ثلاثة أيام يراوده على القول بخلق القرآن فأبى فأمر بضربه فضرب ثمانية و ثلاثين سوطا و سقط كأنه مغشى عليه فنخسه السياف برأس السيف فلم يتحرك فأيسوا من حياته و رموه فحمل لمنزله فاستفاق و لم يبرأ الضرب من ظهره حتى مات رحمه اللّه بعد سنين متطاولة.

قال ابن الجوزى ولد الإمام أحمد سنة أربع و ستين و مائة و توفى سنة أحدى و أربعين و مائتين و لم يمت حتى جعل كل من ضربه أو تسبب فى ضربه فى حل و حضر جنازته ثمانمائة آلاف من الرجال و ستون ألفا من النساء و أسلم يوم موته نيف و عشرون ألفا من اليهود و النصارى و المجوس و كان أكثر دعائه اللهم يا رب كل شىء بقدرتك على كل شىء أغفر لنا كل شىء و لا تسألنا عن شىء.

و لما مات المعتصم و تولى بعده الواثق باللّه شدد على الإمام أحمد أكثر مما شدد عليه المعتصم إلى أن مات الواثق باللّه و ولى المتوكل على اللّه فأمر بإخراجه من السجن و أكرمه و قد شرب ثمانية و ثلاثين سوطا و غشى عليه فبلغ الضرب ثمانين سوطا و لم يحس به فظنوا أنه ميت و هذه عادة الأكابر من أولياء اللّه تعالى ليعظم ثوابهم فى

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۷۹

الآخرة.

و كذا ابن المسيب حلقت لحيته و ربط إلى خشبة فى ليلة باردة و الماء يقطر عليه و سكنته علة البرد حتى مات و كذا ربيعة ضرب و حلقت لحيته و ضرب ابن سيرين و محمد بن المنكدر و مالك بن أنس و يحيى بن أبى كثير و وهب بن منبه و عبد الرحمن بن الأسود و ابن أبى ليلى و ثابت البنانى و بهلول بن راشد و خلق كثير و ذلك كله من غير جريمة و لكن بلاء من اللّه و كرامة لقوله صلى اللّه عليه و سلم نحن معاشر الأنبياء اشد الناس بلاء ثم الأمثل فالأمثل.

و بويع الواثق باللّه و اسمه هارون بن محمد بن هارون الرشيد و كانت خلافته خمس سنين و ستة أشهر و هو الذى قطع القول بخلق القرآن و أظهر السنة و كان واسع المعروف متفقدا للرعية.

و من وصية شيخه لا تدع إحسان محسن عدوا كان أو صديقا و خذ الحق من الوضيع و الرفيع و خذ من كل شىء أحسنه حتى من الكلب و الخنزير و الغراب فمن الكلب الإقرار بالمعروف و من الخنزير البكور إلى المنافع و من الغراب شدة الحذر إلخ.

و بويع المتوكل على اللّه بن جعفر المنصور فلما بويع قطع القول بخلق القرآن و أظهر السنة و صار يقتل المعتزلة حتى فقدت المعتزلة و لا لهم ذكر غير انه كان يكره عليا فكان ذلك سببا فى قتله على يد ولده المنتصر و كانت خلافته أربع عشرة سنة و كان كثير الأكل

كسليمان بن عبد الملك و الحجاج و غيرهم حتى انه يأكل فى اليوم مائة رطل من الطعام بالعراقى و فى أيامهم رجفت دمشق و مات بالهدم فيها خلق كثير و فيها أيضا انكفأت قرية من دمشق على أهلها فلم ينج منهم أحد و كذا زلزلت انطاكية فمات منها ما يزيد على عشرين ألفا بالردم و فى ولايته أيضا وقع حجر من السماء فى ناحية

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۸۰

طبرستان وزنه ثمانمائة و أربعون مثقالا و قد غاص فى الأرض أربعة أذرع و سمعت هدته على مسيرة ستة عشرة فرسخا و فيها أيضا خسفت ثلاث عشرة قرية من قرى القيروان فلم ينج منهم إلا أربعة عشر شخصا فأسكنهم أمير القيروان خارج المدينة و قال لهم أنتم من المغضوب عليهم فلا تدخلوا عندنا و فيها أيضا رجمت قرية من نواحى مصر بخمسة أحجار فى كل واحدة خمسة أرطال و أحرقت كل ما مسته و كذا طائر أبيض دون الرخمة و فوق الغراب يصيح بلسان عربى مبين أيها الناس اتقوا اللّه إلخ و كذا سقط طائر أبيض على جنازة رجل يصيح بالفارسية إن اللّه يغفر لهذا الميت و لمن حضر جنازته و كذا زلزلت انطاكية فسقط فيها ألف و خمسمائة دار و وقع من سورها نيف و تسعون برجا و لما بنى قصر الجعفرية قال لأبى العيناء كيف ترى هذا القصر قال القصر فى الدنيا و أنت تبنى الدنيا فى القصر و فى ولايته مات أحمد بن حنبل رضى اللّه عنه و دفن بباب حرب بالجانب الغربى.

و بويع المنتصر باللّه بن جعفر المنصور سنة سبع و أربعين و مائتين و كانت ولايته ستة أشهر و لما رجع من حجه دخل الحمام ثم احتجم فحم فمات من فوره و قيل احتجم بحديدة مسمومة.

و بويع ابن عمه المستعين باللّه بن المعتصم يوم موت المنتصر و ذلك سنة ثمان و أربعين و مائتين.

و بويع محمد المعتز باللّه ابن المتوكل على اللّه سنة اثنتين و خمسين و مائتين و كانت خلافته أربع سنين و ستة أشهر أيامه أيام فساد و فتنة.

و بويع جعفر المهتدى باللّه سنة خمس و خمسين و مائتين و قد قطع الملاهى و قطع

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۸۱

شرب الخمر من جميع بلاده و طاعته و نفى المغنين و المغنيات حتى لم يدع فى أيامه منكرا و لا باطلا و كان يقول استحيى أن يكون فى بنى أمية عمر بن عبد العزيز و لا يكون فى بنى العباس مثله و كان يصوم الدهر و يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر فلم يرد ذلك الأتراك فهربوا منه لما قطع عليهم الخمر و خالفوا عليه فهرب أهل الفساد إلى الترك و أهل الصلاح إلى المهتدى و وقع بينهم الحرب العظيمة و اشتدت الفتنة و انقطعت الطرق و حاصروه فى قصر الخلافة بعد ان قتل من المغاربة الذين معه خلق كثير و قتل من أبطاله نحو الأربعة آلاف فخرج المهتدى بالمصحف فى يده يدعو إلى الحق و إلى نصرة الدين فغدره طبيع أخو بابك و أخوه حيا و حملوه إلى دار الخلافة و ربطوا انثبيبه حتى قتلوه و كانت خلافته أحد عشر شهرا و أياما.

و بويع المعتمد على اللّه أحمد بن المتوكل على اللّه يوم قتل عمه المهتدى باللّه فاستوزر ابن عمه الموفق باللّه و لم يدع لنفسه إلا اسم الخلافة فلما مات الموفق باللّه استوزر ابنه المتفضل باللّه إلخ و كان مولعا بالطرب و آلاته و الغناء و نغماته فانظر أنواعه فى هذا الكتاب و قد قيل:

من لا يهيجه الروض و أزهارهو لا يسليه العود و أوتاره

فذلك فاسد المزاجفما لداء علته علاج

فقال المعتمد أحسنت فكم هى إيقاعه و طرقه الثقيل الأول و خفيفه و الثقيل الثانى و خفيفه و الرمل الأول و خفيفه و الهزج و خفيفه إلخ و ما كان اشتغاله إلا بأمور اللهو.

و بويع المعتضد باللّه و اسمه أحمد سنة تسع و ثمانين و مائتين و كانت ولايته ست سنين و ستة أشهر و فى أيامه و أيام ابنه بعده صلحت الدنيا و اخذ الناس بالملاطفة

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۸۲

و الرفق فارتفعت الحروب و رخصت الأسعار إلا انه كان شحيحا بخيلا و كان كثير الجماع فاعتل من ذلك و مات و فى هذه السنة وقعت زلزلة بمدينة مات من أهلها فى ليلة واحدة بالردم مائة و خمسون ألفا.

و بويع ابنه المكتفى باللّه بمدينة السلام و اسمه على بن أحمد و كانت ولايته خمس سنين و نصفا قام عليه القرمطى ابن مهرويه فخرج على طريق الركب و أخذ الحجيج فخرج إليه المكتفى و أخذه و قتله شر قتلة و كان يحب على بن أبى طالب رضى اللّه عنه و يكرم ذريته و يحسن إليهم و لما قتل القرمطى مرض بالدرب و مات.

و بويع أخوه المقتدر باللّه و هو ابن ثلاث عشرة سنة و لم يبايع أحد قبله أصغر منه سنا فقام عليه المرتضى باللّه مع يونس الخادم ثم بقيت الخلافة له بعد هروب يونس الخادم أربعا و عشرين سنة و أحد عشر شهرا ثم قتله يونس الخادم بقتل المرتضى.

و بويع محمد القاهر باللّه فكانت ولايته سنة و ستة أشهر و لما ولى المقتدر و عذبها حتى ماتت ثم أخذ فى ارتكاب الفواحش و استباح المحرمات مما لا يحل ذكره فى الإسلام فقامت العامة مع الأجناد فخلعوه و سلبوا جميع الأموال و استباحوا دار الخلافة فكان بعد ذلك يطلب الصدقة على باب جامع بغداد بعد ست سنين و نصف نعوذ باللّه من سوء القضاء.

و بويع أحمد الراضى باللّه ابن المقتدر باللّه.

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۸۳

ثم بويع المتقى باللّه و كنت خلافة الراضى ثلاث سنين غير شهر و خلافة المتقى ثلاث سنين و أحد عشر شهرا.

و بويع عبد اللّه المستكفى باللّه فكانت خلافته سنة و نصفا.

و بويع أبو الفضل المطيع باللّه و دام فيها ثلاثين سنة.

و بويع عبد الكريم الطائع باللّه يوم خلع أبيه نفسه و ذلك سنة أربع و ستين و ثلاثمائة و هو فى سن الخمسين أكبر سنا من العباسيين ثم أصابه داء الفالج إلخ.

و بويع أبو العباس أحمد القادر باللّه و كان كثير الدين و الصدقة يحب الفقراء و يوثر التبرك بهم و دام فى الخلافة إحدى و أربعين سنة و ثمانية أشهر توفى ابن سبع و ثمانين سنة سنة اثنتين و عشرين و أربعمائة و له مصنفات فى إقامة السنة و ذم المعتزلة و الروافض و كان يختم القرآن فى كل جمعة.

و بويع ابنه القائم باللّه و كان يحب الصالحين و يعز العلماء و يحترمهم غاية الاحترام و ما تجرد من ثيابه لنوم منذ ولى الخلافة إلى أن توفى سنة سبع و ستين و أربعمائة و كانت خلافته أربعا و أربعين سنة و ثلاثة أشهر.

و بويع ابن ابنه المقتدى بأمر اللّه يوم موت جده و كانت أيامه طيبة و عمرت بغداد.

و بويع المستظهر باللّه ابنه بأمر أبيه كان محبا للصالحين و قطع الظلم فى زمانه جملة و أنصف المظلوم من الظالم لين الجانب مع الرعية يجرى فى الخير دائما فدامت خلافته خمسا و عشرين سنة و ثلاثة أشهر و توفى سنة اثنتى عشرة و خمسمائة.

و بويع ولده المسترشد باللّه و كان شجاعا مهابا إلى أن قتلوه مكرا.

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۸۴

و بويع ابنه الراشد باللّه جعفر بن المسترشد باللّه إلى أن قتله القدرية و لما مات ترك بضعا و عشرين ولدا من الذكور.

و بويع بعده عمه المقتفى باللّه و إنا سمى بذلك لأنه رأى النبى صلى اللّه عليه و سلم قبل خلافته بسبعة أشهر فقال له يصلك هذا الأمر فاقتف فكان لا يخالف السنة فى أمر الملك و فى دولته زلزلت الأرض فمات فيها بالردم مائتا ألف و ثلاثون ألفا و زلزلت مرة أخرى فى حلوان حتى تقطعت الجبال و هلك بها أكثر الخلق و زلزلت من الشام ثلاثة عشر بلدا منها ما هلك جميعه و منها ما بقى منه القليل.

و بويع بعده أبو المظفر يوسف المستنجد باللّه بعهد أبيه له بذلك.

و من عجائب ما رأى ليلة موت أبيه رأى ملكا فى صفة شخص نزل من السماء و كتب له فى يده أربع خاآت فى الألفاظ الأربعة (أى يلى الخلافة سنة خمس و خمسين و خمسمائة) و كان ذا عدل و إنصاف خلافته إحدى عشرة سنة.

و بويع ابنه على المستضىء بنور اللّه و لم يكن فى الملوك العباسيين من يعظم العلوم مثله توفى سنة خمس و سبعين و خمسمائة و كانت خلافته تسع سنين و نصفا و احتجب عن الناس فلا يدخل عليه إلا وزيره.

و بويع ابنه أحمد الناصر لدين اللّه فبسط العدل و غير المنكرات و كسر آلات الملاهى و الطرب و أزال المكوسات فى جميع البلاد فكثرت الأرزاق و رخصت الأسعار و عمرت بغداد و سعد الخلق فى أيامه و دامت خلافته سبعا و أربعين سنة إلى أن توفى سنة اثنتين و عشرين و ستمائة و هو ابن سبعين سنة و كان يدور بالليل فى

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۸۵

الأسواق و يحرس البلد بنفسه و فى جميع البلاد عيون تستخبر الخلق فى ظلم الرعية حتى ظن الناس أنه من أهل الكشف ثم أصابه داء الفالج فيه ستين سنة إلى أن مات .

و بويع ابنه الظاهر بأمر اللّه يوم موت أبيه و كان فى سيرة أبيه فدامت خلافته ثمان عشرة سنة وصلته كثيرة لا سيما العلماء و حبس الأحباس على المدارس و المساجد و كان جنده ألف فارس و خطب له بالأندلس و بالمغرب الأقصى ثم هجم عليه حاجبه فقتله سنة ست و خمسين و ستمائة.

و بويع بعده ابن عمه المستعصم باللّه و هو آخر الخلفاء العباسيين العراقيين و كانت دولتهم خمسمائة سنة و عشرين سنة.

و بويع المستكفى باللّه سليمان بن الحاكم بأمر اللّه و استمر فى الخلافة سبعا و ثلاثين سنة و توفى سنة إحدى و أربعين و سبعمائة.

و بويع المستعين باللّه و نزل بالإسكندرية فبقى بها إلى أن مات بالطاعون سنة ثلاث و ستين و سبعمائة.

و بويع المعتضد باللّه أبو الفتح و ألقى فى موضعه أخاه المستعين باللّه و استقرت الخلافة للمعتضد حتى مات سنة خمس و أربعين و ثمانمائة.

و بويع المستكفى باللّه العباسى بعد موت أخيه المعتضد سنة خمس و أربعين و ثمانمائة.

قال الصفدى فكانت عدة ملوك العباسيين سبعة و ثلاثين خليفة و كانت مدتهم

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۸۶

خمسمائة سنة و عشرين سنة كما سبق و أول من تسمى باسم الإضافة إلى اسم الجلالة المعتصم انتهى من عقود الجمان فى مختصر أخبار الزمان للعلامة الشيخ محمد الشاطبى باختصار من أبواب شتى و التقاط من نصوص فصوص الأسطار، مع التقديم و التأخير بحسب ما ظهر للأنظار، و ذلك كقطرة من أقطار البحار، و إنما نقلت ذلك و أسسته هنا أى فى رحلتى هذه تبركا بهم و اغتناما، و تكريما لهم و تعظيما و اتخذت ذلك بين بنى أمية و بينهم سبيلا قواما.

و أما ملوك مصر و هم العبيديون الذين تسموا الفاطميين فسأذكرهم بعد إن شاء اللّه عند التحدث عن أحوال تونس إن يسر اللّه ذلك و هم ليسوا من ذرية فاطمة و لكن من ذرية على و سبب تسميتهم بذلك فى هذا الكتاب.

و من عجائب ما قع فى الأرض جزيرة الأندلس دارت بها البحور من كل جهة و ليس لها إلا باب واحد من ناحية المشرق و وسعه مسيرة يومين.

و من عجائب النيل أن جميع أنهار الدنيا تجرى للمشرق أو المغرب و لا يجرى للشمال نهر إلا النيل فانه يشق خط الاستواء و يسير إلى بلاد الحبشة إلى بلد كوكو إلى أسوان إلى مصر إلى أن يقع فى بحر الروم من مدينة تنّيس و مدينة دمياط و إذا قل ماء جميع الأرض تقوى النيل و زاد و فاض فيخرج على الأرض عشرين ميلا و أكثر و أقل بحسب انخفاض الأرض و ارتفاعها و فيه سمك كبير يمسح

السمك بجناحيه ثم يلتقمه بفيه و النيل ينزل من جبال الذهب المجلوب منها التبر و تسمى جبال توتا ثم ينتهى إلى جبل الأركان إلى الزنج إلى الحبشة إلى مصر إلى البحر.

و أما صحارى هذه الجزيرة فعجائبها لا تسع هنا و قد شق هذه الجزيرة جبل درن و هو من أكبر جبال الدنيا الطرف الغربى منه متصل بالسوس و الطرف الشرقى ينتهى

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۸۷

إلى قرب مصر و فيه معادن مختلفة من جميع أحجار الأرض و أجناسها و قد عمرت البربر هذا الجبل من أوله إلى آخره و أكثرهم من ناحية المغرب الأقصى و أحوال البربر من ملوكهم و قوادهم و علمائهم و قضاتهم مما يبهر العقول.

و قد أدعى النبوءة من البربر ثلاثة صالح بن طريف، و عاصم بن جميل، و حميم بن من اللّه، و قد شرع لهم شرائع صلاتين غدوة و عشية و صوم الاثنين و الخميس و عشرة أيام من رمضان و أحل أكل الخنثى من الخنازير و أمر بتذكية الحوت و حرم رؤوس الحيوانات كلها فقتله الناصر الأموى و قتل كل من معه ممن خالف السنة ثم أهلك اللّه الجميع و البربر قد تدينوا قبل الإسلام بأديان شتى فمنهم من تنصر و منهم من تمجس و منهم من تهود و منهم من كان كالبهائم لا دين له و إنما أسلموا فى خلافة معاوية بن أبى سفيان إذ بعث عقبة بن نافع القرشى إلى إفريقية بعد أن فتحها المسلمون فى خلافة عثمان بن عفان.

فنزل أرض القيروان فاختارها للعمارة و كانت لا يأويها إلا الوحوش و الهوام فصار يقول لها أخرجى أيها الوحوش و الهوم بإذن اللّه تعالى فبقيت أرض القيروان أربعين سنة لم ير فيها شىء من الهوام المؤذية و لا السباع العادية ثم شرع فى بناء مدينة القيروان و قال لهم هذا أوسع لإبلكم و أمان عليكم من روم القسطنطينية و إفرنج الجزيرة الخضراء فتوجه عقبة إلى المغرب يستفتح مدينة بعد مدينة و هو يقاتل البربر فاقتتلوا قتالا عظيما فانهزم البربر فكان قتال المسلمين لهم ذريعا و انهزم البربر و المسلمون خلفهم بالقتل و السبى إلى أن وصلوا إلى البحر المحيط الغربى من بلد أسفى فأدخل عقبة قوائم فرسه فى البحر ثم انصرف راجعا لا يقدر أحد أن يعترضه فلما وصل جبل أوراس بإفريقية قتله كسيلة ابن كمر الأوراسى ابن المصوار بموضع يقال له تهودة و ذلك سنة ثلاث و ستين من الهجرة.

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۸۸

ثم أن النبى صلى اللّه عليه و سلم أخير بقوة دين البربر ما روت فاطمة عنه فى قصة جاريتها التى أعطتها صدقة و هى معلومة و قالت لها أمضى إلى السوق من يقبل منك صدقة فأنينى به فمضت و هى تقول من يقبل صدقة بنت رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم فقال رجل مغربى أنا موضع صدقة آل رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم فأعطته الصدقة و قالت له أجب بنت رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم قال السمع و الطاعة فلما بلغ إلى الباب نظرت إليه فاطمة رضى اللّه عنها و بكت و قالت هذا رجل بربرى و قد قال لى والدى رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم لكل نبى حواريون و حواريو ذريتى البربر يا فاطمة سيقتل الحسن و الحسين و يفر أولادهم فلا يأويهم أحد إلى البربر فيا شؤم من فعل بهم ذلك و طوبى لمن أكرم ذريتى و أعزهم إذ إنهم سيقومون بهذا الدين على المنهج الواضح و كأنى أنظر إلى البربر على الخيل الشهب على رؤوسهم العمائم و النصر أمام أربعين حتى يربطوا خيلهم بزيتون فلسطين و يقسمون الغربيات المنقيات و يبيعونهم بالدراهم و الفلوس إلى غير ذلك مما روى عنه صلى اللّه عليه و سلم فى جزيرة الأندلس و بحيرتها.

و منها يخرج النيل الذى لا أعجب منه و لا أكبر منه نهرا فى الدنيا و هو من عجائب صنع اللّه تعالى و يتفرع منه أنهار إلى بلاد النوبة و إلى بلاد جاوة و هى جزيرة وسط البحر قد دارت بها البحور من كل الجهات فمن المشرق بحر القلزم الأخذ من باب المندب على اليمين إلى مدينة الطور إلى عجرود و من جنوبها و غربها البحر المحيط الذى لا يعلم أين منتهاه إلا اللّه تعالى و من جهة الشمال بحر الخزر و هو بحر الإفرنج إلى بلد القدس من ناحية الشام و فى وسط هذه الجزيرة صحارى السودان الحاجزة بين السودان و البربر و قد قال صلى اللّه عليه و سلم إن بأقصى الأرض جزيرة يقال لها الأندلس سيكون فيها رجال يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر حيهم سعيد و ميتهم شهيد ثم يتوارثها قوم يأمرون بالمنكر و ينهون عن المعروف و الذى نفسى بيده

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۸۹

كأنى أنظر إلى نسائهم كاشفات الرؤوس لا يدرون أين يهربون و لا يجدون مهربا .

و من فضائلها ما رواه أنس بن مالك رضى اللّه عنه أنه قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم جزيرة المغرب منقطعة يقال لها الأندلس يسكنها أقوام غرباء فى آخر الزمان رباط يوم و ليلة فيها يعدل عند اللّه عبادة خمسين سنة النائم فيها مع عياله على فراشه كالضارب منكم بالسيف بين يدى أو كالصائم القائم فى غيرها فطوبى لمن أدركه أثر قدم فيها كأثر شهيد متشحط فى دمه و شهداؤها أفضل الشهداء هى الجزيرة الخضراء الزهراء و أن الريح لتحمل أرواحهم إلى بيت المقدس إلى يوم القيامة فيبعثون مع النبيين إلى غير ذلك من فضائلها.

و إنما ذكرت هذه [يعنى إفريقية] لوجود النيل منها و النيل أعجب ما فى مصر و قد ذكرت بعض عجائبها لأن كثيرا من عامة الطلبة بل الخاصة منهم لا يعلمون عجائبها أصلا لا سيما أهل بلادنا فإن علم التاريخ منعدم فيهم و ساقط عندهم فيحسبونه كالاستهزاء أو اشتغالا بما لا يعنى أو من المضحكة المنهى عنها فترى المتوجه منهم إلى اللّه يرى الكلام فيه مسقطا من عين اللّه تعالى.

نعم ليس من علم يذكر إذ لا طائل فيه أصلا بلا بنفس ذكره عندهم ينكر و كيف ذلك فإن علم السير إنما هو منه أى سير الأنبياء و شمائلهم و وقائعهم و بعوثهم و سراياهم و حجهم و خصائصهم و قصصهم و قد قال تعالى و كلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك و إن فى ذلك عبر و قد ورد أن تفكر ساعة أفضل من عبادة كذا و كذا نسة و قد قال صلى اللّه عليه و سلم حرفة العالم ستة أشياء إذا ذكر اللّه

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۹۰

افتخر، و إذا ذكر نفسه احتقر، و إذا تفكر فى آيات اللّه اعتبر، و إذا هم بمعصية أو شهوة أنزجر، و إذا ذكر عفو اللّه استبشر، و إذا ذكر ذنبه استغفر، و لا شك أن هذه الأخبار تكون موعظة للمعتبرين، و تذكرة للموقنين، و تبصرة للمتفكرين، فمرتبة العلماء تزيد و تنقص بعلم التاريخ و هذا العلم يوجب للإنسان قوة فى المحاسن و ضعفا فى القبائح و به تعلو الهمة باتصالها بالمعالى من الأمور و تدنو بسفاسفها و أكثر القرآن من هذا العلم فمن ذمه يخاف عليه الردة لأنه يسرى إلى ذم القرآن إذا أكثره أخبار الماضين و أحوال المتقدمين من الجبارين الهالكين و أولياء اللّه الصالحين فلا تهمل أمرك منه و صحح علمك به غير انك أعتمد على صة الأنقال من الكتب الموضوعة فى ذلك كهذا المختصر و كتب السيوطى و ابن إسحاق و السيرة الشامية و غير ذلك من التآليف.

نعم ذكرت فى هذا التأليف نبذة يستحليها المفتقر الذى لى له علم أصلا و يتقوى بها المستبصر و أنى أزيد فيه أخبارا عند وصولى إلى إفريقية إن شاء اللّه تعالى.

فلنرجع إلى ما كنا بصدده فإن عجائب مصر لا يسعها ديوان و هو أننا ارتحلنا من أحواز بولاق فنزلنا أنبابة و مكثنا فيها أياما بين متردد إلى مصر و راجع إليها فى قضاء الأوطار و وسعا للانتظار لمن يقصد البر من الحجاج و ودعنا كل من يذهب فى البحر و قد ذهب أكثر الحجاج فيه و لم تبق إلا حثالة قليلة فهمّ شيخ الركب أن يذهب فى البحر لما سمع أنى راكب فيه فاجمعوا على أن لا أذهب فيه ثم تحولت إلى المشى معهم فتركت ما قصدت من الركوب فى البحر و آخر من ودعته سيدى أحمد الطيب و جماعة من الفضلاء و أنى سأذكر من ذهب معنا من الفضلاء تبركا بهم.

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۹۱

و لما قضينا حوائجنا من ذلك المحل و الحالة أن النيل قد فاض و خفنا الانقطاع بسببه فظعنا لأنه يفيض على أرياف مصر كذا و كذا ميلا فلو تأخرنا لإصابتنا مشقة فى القطع إذ لا يكون ذلك إلا من الزوارق أعنى المراكب و السفن و أن الشيخ الفاضل الشيخ امنصير النجمى أتى إلينا فارتحلنا لقرب بلده الذى هو الرمل قرب كفر حمام و هو بين المنصورة و كرداسة و هى قرية من أرياف مصر و فيها مسجد جمعة و أما الشيخ امنصير شيخ العرب فسكناه فى الخيم قرب المدشر المذكور و له قوة و شوكة عظيمة على تلك الحال و هو

السبب و الواسطة فی استخلاص مال الحجاج فما أخذه منهم فهو مباح قطعا و قد جری مع الحجاج کثیرا جزاه اللّه خیرا و له عقل تام فإن تکلم أنصف و إن سکت أنصت و أعرف و إن تکلم فبحکمة فلیس بإمّعة فلا یطوی الکلام غیر أن ذلک سجیة فی بعض العرب فما أحلاه لو کان عالما عاملا غیر جاهل فما أحسن العلم إن قارنه الحلم و ما أقبح الجهل إن قارنه الظلم رضی اللّه عنه و أرضاه و جعل عاقبته خیرا و جعل البرکة فی ذریته فمکثنا هناک مدة قریبة تقرب من شهر و هو شهر ربیع الأول.

و قد حصل لی حال عظیم و هو حال المشاهدة إذ تقوی علی الشهود فغیب عنی کل ما سواه من أجل رؤیا رأیتها هناک فاضمحلت الأغراض، و ذهبت الأعواض، و زالت الأمراض، بجاهه صلی اللّه علیه و سلم و ما بقی فی نفسی أعتراض، و تقوی علی ذلک حتی عزمت علی الصحاری و القفار، و نبذ الرجوع إلی البلد و الدار، و ترک الأولاد و العیال فی ید العزیز الجبار، غیر أن اللّه ثبت فؤادی و مکننی من عنده فی علم الیقین حتی رسخ قدمی فی الوثوق باللّه إلی أن رجعت إلی وطنی لیتم الوعد الربانی فی نفع عباد اللّه العاجزین عن أنفسهم و عمن اتصل بهم ممن تعلق بهم فلم یخلقنی اللّه

الرحلة الورثیلانیة، ج۲، ص: ۶۹۲

لنفع نفسی فأن الأسباب تعذرت علی مباشرة بحیث یتولاها بعض أهل الرد من اللّه تعالی فی السفر و الحضر.

هذا و أنی وعدت أن أذکر من ذهب معنا من فضلاء بلادنا من عمالة الجزائر لیتنور هذا الموضع بذکرهم و لتقع لهم الشفاعة فینا و فیهم ببرکة من ذکر فی هذه الرحلة منهم الفاضل العالم الود الکریم الولی الصالح الذی أخذ من کل علم بنصیب سیدی أحمد الطیب و الفاضلان نجلاه سیدی محمد الکبیر و سیدی محمد السعید و الفاضل أخوه سیدی بلقاسم و ابن عمه الکامل فی أحواله الفقیه سیدی الصدیق و ابن خاله الفاضل سیدی محمد السعید ابن سیدی محمد الصدیق و الصالح المقبل علی اللّه سیدی الهادی نجل الولی الصالح کما قیل الشیخ سیدی علی المنجلاتی الذی هو شیخ سیدی عبد الرحمن الثعالبی و العالم العلامة فی کل الفنون علی الإطلاق سیدی أحمد عیاض و أخوه و ابن أخیه و ولده و الکل أدباء فضلاء و الولی الصالح من غیر شک سیدی الصالح الغربی المتوطن وطن فجطولة و المحب للخیر و أهله الفاضل الکامل محب الجمیع سیدی علی البجائی المتوطن فی الجزائر نجل العالم الفاضل المحدث النحوی الفقیه النزیه قاضی بجایة و مفتیها و خطیبها سیدی عبد المؤمن و العلامة بالتحقیق سیدی أحمد الصدیق الخطیب معلم ولد السلطان فی الجزائر مات فی مصر حین رجوعنا من الحج یوم دخول الرکب مصر أو بعده بیوم أو یومین و الفاضل سیدی الحاج إبراهیم مات بعد رجوعنا من عرفة فاضلا عالما خیرا و أما العامة من الجزائر و کذا فی زواوة فعدد کثیر نفعنا اللّه بهم و جعل البرکة فی ذریتنا بجاههم فقد زاد خیرهم علی الفضلاء المذکورین و منهم الفاضل الخیر الشریف سلطان زواوة سیدی محمد بن بوخثوش

الرحلة الورثیلانیة، ج۲، ص: ۶۹۳

و صهره من أولاد سحنون فانه فاضل من مدشر جمعة الصهریج من بنی فراوصن و هو له دار فی هذا المدشر و دار أخری فی قریة الصوامع من بنی بو شعایب و قد ذکرته فیما مضی.

و منهم بعض الفضلاء من أولاد الشیخ الولی سیدی مالک أظن أن أسمه سیدی السعدی و منهم الولی الصالح العالم الفاضل سیدی مهنأ الصنهاجی و قد مات فی مصر رحمه اللّه کبیر السن ظاهر الشأن.

و من بنی عباس الفاضل الفقیه سیدی محمد السعید بن الطالب و الفقیه الفاضل الشریف سیدی محمد بن رقیة مع أصحابهما.

و من أولاد القطب الولی الصالح الواضح سیدی یحیی العیدلی سیدی الشریف و سیدی أحمد بن علی و من أولاد الولی الصالح سیدی محمد صالح سیدی المسعود و سیدی ابن بو ستة و سیدی محمد بن الفقیه و من أولاد الولی الصالح سیدی یدیر بن صالح الفاضل الحاج سیدی حمود و من مدشرهم الفاضل سیدی محمد بن عثمان و ابن عمه الفقیه الفاضل سیدی أبو القاسم بن الطیب و من أولاد الولی الصالح العالم الفاضل و أظنه أنه شریف حسبما رأیته فی طبقات الشرفاء لابن فرحون سیدی مصباح المعلومة مدرسته فی مدینة فاس و الفاضلان الفقیهان سیدی محمد و سیدی عبد الکریم نجلا الفقیه الکامل سیدی ابن المبارک و هما من بنی یعدل و

كذا جماعة من الفضلاء من قرية تفرج الحاج سيدى حمودة بن معزة و طالبنا سيدى أبو القاسم بن مدور.

و من بنى يعلى الفقيه الأديب نخبة الفضلاء نجل الولى الصالح ابن الولى الصالح

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۹۴

الزاهد العابد المتجرد المقبل على اللّه سيدى عبد الرحمن بن قرّى ولد الشيخ سيدى بركات ابن الشيخ سيدى محمد بن قرى و الفاضل القارئ سيدى أبو القاسم بن دحمان و جماعة منهم.

و من زمورة جماعة من أحسن الناس و أفضلهم سيدى الحاج محمد القجوطى و الحاج محمود بن طالب حسين و سيدى محمد منه.

و جماعة أخرى من بنى فرفان و من وطننا من بنى ورثيلان الفاضل الورع العالم الفاضل سيدى أحمد بن حمود و ابن أخيه سيدى الحسين و الفقيه الخير الكامل الصدوق سيدى محمد اليعلاوى بن بطيح و الفاضل سيدى يحيى و الطالب بن الفقيه.

و من أولاد الولى الصالح سيدى يدير بن الحاج الفقيه الفاضل ابن المسن المتعبد ذى النسك سيدى أحمد نجل سيدى محمد السعيد و الفاضل سيدى محمد البهلولى منه أيضا و ولد الشيخ الفقيه سيدى عبد اللّه بن سيدى أحمد بن على تلميذ سيدى أحمد بن حمود.

و من أولاد سيدى الصالح الفاضل الناصح سيدى عيسى بن الحبيب سيدى محمد السعيد و ابن عمه تلميذنا سيدى يحيى و من أقفسار الفاضل الحاج عمر و الفاضل سيدى أبو القاسم نجل الولى سيدى عمر بن موسى المتوطن فى أرض و من قصر الطير الفاضل سيدى محمد بن قسوم و القائد الحاج يونس بن يلّس و الفاضل الكريم سيدى عبد القادر و بعض من الكتافة و بعض الفضلاء من تفاطمة و بعض الفضلاء من أولاد موسى بن يحيى و الفاضل المتعبد المقبل على اللّه سيدى

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۹۵

محمد المداسى و جماعة كثيرة من قصر الطير بلاد ريغة و من أولاد سيدى رحاب الفاضل الفقيه المتوجه إلى اللّه و قد تزوجت ابنته الفاضلة الحرة الجليلة الشريفة الطالبة عويشة و تزوج ابنى محمد أختها الفاضلة الجليلة العابدة الطالبة فاطمة ماتتا فى تونس رحمة اللّه عليهما و قد حج معنا سيدى عبد اللّه ابن رحاب و زوجه و ولده سيدى محمد بن عبد اللّه و الفضلاء أولاد صوشة و جماعة من أولاد دراج و جماعة من الزاب كلهم فضلاء من أولاد جلال و غيرهم.

و من بسكرة الفاضل الكامل سيدى بركات نجل الولى الصالح الغوث الواضح سيدى عبد المؤمن شيخ الركب فيما مضى و جماعة من الفضلاء منها و كذا من سيدى عقبة.

و جماعة أخرى من قرية مدوكال لا سيما أولاد الشيخ محمد الحاج منهم الفقيه الفاضل الكامل الشيخ سيدى محمد المسعود أمير ركبنا و ولده الصغير زوجته و ابن عمه الفاضل سيدى أحمد بن إدريس مات رحمه اللّه فى رجوعنا و دفن بعد ارتحالنا من مصر بمرحلتين فى قصور الرهبان فدفناه فى القصر الطرفانى الغربى الذى يواجه الحاج ذهابا و أنا الذى صليت عليه و مثله الفاضل الكامل المتواضع سيدى أحمد بن الجودى و جماعة مع الشيخ كلهم ممن يحب الخير و يسمع له.

و من المسيلة أولاد الشيخ القطب الغوث سيدى محمد بن عبد اللّه بن أبى جملين و الفاضل الكامل الأديب سيدى أحمد و ولده و ولد الشيخ سيدى أبى القاسم مشهور و جماعة كثيرة منها و كلهم فضلاء من الترك و غيرهم.

و أما أهل عامر فكثيرون و فيهم علماء فضلاء كملاء مقبلون على اللّه كالفاضل الفقيه سيدى عبد الرحمن بن الزيغم و سيدى محمد الصحراوى و سيدى عبد الرحمن

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۹۶

بن السخرى و قد مات فى الطريق و ولده رجع و أهل الفضلاء فيهم كثيرون فإنهم لا يحصون كثرة رجالا و نساء صفاهم اللّه من البدع الشنيعة و الخصال اللدنية بمنه و كرمه لتوافق دعائهم الواقع.

و جماعة من فضلاء أولاد إبراهيم و كذا من أولاد سعيد بن سلامة و كذا من أولاد عبد النور و ولد الشيخ سيدى داود سيدى أحمد و

من قسنطينة كذلك و كذا أهل الخير و الفضل و الكمال أولاد خديم اللّه من بابور.

و من بنى سليمان جماعة فيهم المحب العارف المجذوب بالتحقيق المقبل على اللّه بالصدق و التصديق من بنى بورمان سيدى سعيد فأنى سمعت بنات فكره فى الوعظ و طريق الحب بالبربريـة سلب العقل يكاد أن يكون كلام ابن عطاء اللّه و إنما فاته لما كان كلامه بغير العربيـة و قد علم أن المجذوبين فى عمالتنا هذه و إن كانوا عوامّ له كلام فى المعرفة و المحبة و الوعظ يحرك القلوب و يفتنها غير انه عليه كسوة البربر فالذى يفهمه يذوقه ذوقا معتبرا يسلب العقل.

و كذا جماعة من البليدة فضلاء كرماء و كذا من مازونة و من غريس و من معسكر و غيرهم.

و من إخواننا الشرفاء الزابر لهذه الرحلة العبد الضعيف الحسين بن محمد السعيد بن الحسين بن محمد بن عبد القادر احمد الشريف نجل الشيخ الولى سيدى على البكاء البجائى هكذا ثبت بخط جدى و هو ثقة واصله و اللّه أعلم من تفيلالت أى من شرفائها هكذا سمعنا من أسلافنا و هم عن أسلافهم و ولدنا الفاضل محمد و زوجته المذكورة و كذا زوجتى المذكورة و الأخرى الفاضلة الحرة عائشة بنت الفاضل الكامل سيدى السعيد نجل الشيخ المحقق لا سيما فى علم الكلام و قد سمعت ممن سمع منه

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۹۷

انه رأى الشيخ السنوسى فى نومه فقال و هو يضرب فى رأسى و هو يقول أنت أولى بكلامى يا مسعود و قد كان حجة فى علم الكلام فى عصره بحيث لا نظير له فيه و قد سمعت ممن سمع من تلميذ العلامة سيدى محمد العياضى انه يتعلم عليه فقال قرأنا شهرا قراءة بحث و تحقيق من أول النهار إلى آخره من قوله فعلى العاقل أن يكثر من ذكرها إلى آخره و هو قراءة ساعة زمانية فإن قراءة الفصول قراءة تحقيق غايته يومان و هذا كله من منة اللّه و فضله عليه فالشيخ الخطيب سيدى المسعود ابن عبد الرحمن نجل الشيخ سيدى محمد صالح نجل الشيخ المعلوم غربا و شرقا سيدى أبى محمد الدكالى تلميذ أبى مدين الغوث مع الشيخ عبد القادر الجيلانى أفاض اللّه علينا من بركاتهم آمين و ابن عمنا الفاضل سيدى الصديق و ولده العالم العلامة تلميذنا سيدى محمد صالح و ابن عمنا الفاضل سيدى على الشريف و الفاضل الكامل سيدى عبد العزيز نجل خالى سيدى محمد بن الحاج الشريف و مثله الفاضل الفقيه النحوى المتكلم المنطقى الحافظ لكل شىء لا سيما الشعر ابن عمنا سيدى أحمد الشريف و مثله الفاضل سيدى أبو القاسم الشريف و كذا ابن عمنا الكامل الفاضل سيدى عيسى الشريف.

و من إخواننا فى اللّه الفاضل العالم الصالح الصادق سيّدى محمد البهلولى و بالجملة فأهل وطننا الخاصة و العامة أهل الفضل فقد ذهبوا من أغبولة و من بنى عفيف و من بنى أشبانة و أولاد الخلف و بنى إبراهيم كالمقبل على اللّه الحاج يوسف و من بنى موسى جماعة و من بنى أحمد كذلك أعنى عرشنا أولاد الحاج و عراصة لا سيما الفاضل سيدى أحمد مداح و ابن عمه سيدى يحيى أحيا اللّه جميعنا على السنة النبوية و أماتنا و إياهم على الملة المحمدية بمنه و كرمه و كان لنا و لهم بالبركة فى ذرية الجميع.

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۹۸

و إنما ذكرت هؤلاء فى هذه المرحلة لعل اللّه أن يمن علينا و عليهم بعطف محمد صلى اللّه عليه و سلم عطفة من عطفاته تغنى الجميع و ليعلم الإنسان أن الزاد و إن كان ركانا فى الحج و شرطا فيه فالركن القوى الرفقة المأمونة خصوصا الإخوان فى اللّه فإنهم النافعون فلا بد منها و أحسن رفقتنا الأخ فى اللّه و المحب من أجله العارف باللّه المنفرد بالصدق فى الأخرة بفضل اللّه تعالى سيدى محمد الشريف الطرابلسى النوفلى البلغيثى من المنشية و معه جماعة من الفضلاء كالفقيه الفصيح سيدى محمد بن عزوز و ولده سيدى محمد و غيرهما وفق اللّه الكل إلى صالح القول و العمل.

انعطاف إلى ما كنا بصدده فقد ظعنا من كفر حمام بعد اقتضاء بعض ديون الحجاج و شرائهم ما يخصهم من العلف و الزاد و الخيل و أخذ الخبير و جميع ما يحتاجون إليه من جهازهم و مراكبهم و ملابسهم و كنا نحن ننتظر سيدى أحمد بن حمود أن يأتى من مصر و كذا سيدى محمد الشريف و أصحابه و أصهاره من مسراتة وطن الشيخ زروق فلما قدموا ارتحلنا و ذلك بعد ما حصل للحاج ضيق

عظيم من شدة ما يعوزهم من العلف حتى أرادوا الارتحال بى و ترك الشيخ أمير الركب فلم استطع ذلك لما بينى و بينه من المحبة فى اللّه و التقرب من أجله فارتحلنا بعد أن مات من مات من الحجاج الرجال و النساء و فى تلك المرحلة مات الحاج الطيب بن بونشادة إذ كان كثيرا ما يعارضنى فى الأمور لما رآه منى من النكير على أهل البدع فلم يرض بذلك.

نعم أصابته غيرة و حمية على أهل بلده عامر غير أنه أتصل به المرض فتشاءم بنا فكأنه رأى ذلك منا كرامة فأتى إلى مرارا يطلبنى فى الحل و قد جعلته فى حل غير أنه فات منى الدعاء على الأعداء فى الحطيم و الملتزم و عرفة و غيرها و كان هو من جملة من دعوت عليهم و لكن أسأل اللّه الهداية لمن علم أنه يهديه و إلا فيهلكه فكان من جملة

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۶۹۹

الهلكة و كذا غيره من عامر.

ثم أن الفقيه الشريف سيدى عبد اللّه بن رحاب ضاع له الجمال و دينه لم يقتضه فأراد التأخر إلى أن يقدم الفاسى فلم نتركه فتسلفنا من عند من فيه الخير من الركب فقدم و الحمد للّه على اتصال الرفقة فانفصلنا عن الشيخ امنصير فأعطانى فرسا فى دينى الذى هو فى المنصورة فلما رآه صاحبه يخلص أو رآنا على الطريق قدم فتحركت نيته فتركته فأتى أخوه جزاه اللّه خيرا فقال نحن تولينا مدينك و إن لم تركب عليها قتلتها فركبت عليها و تولى غريمنا ثم قدم معنا مودعا إلى أن دخلنا الرمل فبعث إلينا بعض الأجناد من المنصورة بعثه الباى خليل ليجبر أهلها على إعطاء دين الحجاج فأرادوا رجوع الركب فامتنعوا فقلت للشيخ أرجع أنت و بعض الناس و أنا أذهب مع الركب ساعة فنزل على الماء فلما انفصلوا عنا قالوا ما ليس لنا إلا المشى و عدم انتظارهم فمشيت معهم حتى سكن غضب أهل الركب فأمرت العلام بالنزول انتظارا للشيخ و أصحابه ممن ذهب إلى المنصورة فلما مر الثلث من الليل و إذا بمن ذهبوا إلى المنصورة رجعوا فأتوا ببعض ديونهم و أقتضى الشيخ امنصير شيئا من ديونى و لم يبق على غريمى إلى القليل.

فلما أصبح اللّه بخير الصباح ظعنا أيضا و الشيخ امنصير و أصحابه معنا يودعوننا و يقتضى ما بقى له من أجرة اقتضائه الديون التى للحجاج فلما أراد الانفصال خادعه الحاج ساعد من أولاد موصلى و الحاج ابن زكريا فصاح بنا يا فلان قد خدعنى الحاج فى عنايتكم فرجعت إليه أشليته عليه هو و أصحابه فلما رآنى تقوى بى و رجع الشيخ أيضا لما سمع العراك فأراد الشيخ أن يضرب الحاج ساعد بالبشطولة فمسكناه و كذا الحاج ساعد أراد أن يضرب الشيخ فحجزنا بينهم فطاب قلب الشيخ الحاج امنصير و رجع طيب النفس سالم الخاطر جعل اللّه البركة فى ذريته و كان لنا و له فى الدنيا

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۰۰

و الآخرة بمنه و كرمه فسرنا كذلك إلى الليل ثم ظعنا صبيحة إلى أن مررنا على القصر الذى فيه النصارى اعنى الرهبان فلما وصلنا إلى باب القصر أشرفوا لينا فكلمناهم فكلمونا و سألونا عن مصر و كيف هى و عن حالهم فأجبناهم عما وقع بينهم و بين صالح باى الذى كان فى الصعيد و قلنا لهم انتشب بينهم القتال و انهزمت طائفة مصر فأملوا زوارق أخرى فنزلنا القصر الطرفانى الخالى الذى دفنا به ابن سيدى محمد الحاج فبتنا فيه خير مبيت ثم ظعنا إلى الأجفار فوصلنا قرب الزوال بسويعات ثم ظعنا منه سائرين إلى الشمامة إلى أن وصلنا بعد مرحلتين و اللّه أعلم إذ نزلنا قربها فبلغناها صبيحة و ماؤها قبيح من أقبح مياه برقة يشوى الوجوه بئس الشراب إلا بعض الآبار فإن ماءها قرب م العذب و هى البئر التى تلى جهة المشرق و أنها تحت حجر فبتنا فيها خير مبيت إلى أن وصلنا معطن الجميمة فنزلنا فيه و جميمة على وزن كريمة و ماؤها مختلف فبعض لا بأس به عذب و بعضه زعاق إلا أن أكثر الحجاج عنده الغنى و إنما يصلح للإبل و كذا ماء الشمامة إنما يصلح للجمال فقط إلا من اضطر لشربه.

و قال شيخنا سيدى أحمد بن ناصر أن سانية قربها ماؤها عذب فأنا أعرفها و السؤال فى حجتنا هذه متعذر لفقدان أهل برقة فإن المجاعة أجلتهم من وطنهم و كذا تعدى بعضهم على بعض حتى انه لا يطيق أحد النزول فى برقة من غزو بعضهم لبعض فلا تجد أحدا تسأله عن المواضع فظعنا منه إلى أن بلغنا معطن المدار فاستقى الناس و سقوا إبلهم فإن ماءها طيب لا بأس به فرفعوا الماء ثلاث

مراحل إلى جرجوب و العقبة الصغرى قبل معطن المدار بسويعات قليلة و فى الطريق ماؤها ملح أجاج فلا يشربه إلا الإبل ثم سرنا ثلاث مراحل إلى أن نزلنا جرجوب فسرنا مراحل كل مرحلة باسمها عند أهلها من بدوها إلى أن بلغنا معطن أم أقرب و ماؤه أيضا عذب طيب لا

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۰۱

بأس به.

قال شيخنا سيدى أحمد بن ناصر ما نصه.

تنبيه و تمر هذا البلد أحسن تمر رأيناه فى البلاد المشرقية حلاوة و نقاوة و كبرا يشابه تمر بلادنا و ليس منه ما يحمل فى قفف صغار من سعف النخل تسع كل قفة منها أزيد من ربع القنطار و يبيعونها كذلك إلا بأوعيتها و أخبروا بأنها لا تباع إلا كذلك فمشتريها لا يحتاج إلى حبال للشد و لا غرائر للحمل بل يشترى حاجته منها فيعلقها على بعيره فمن الإبل من يحمل العشرين إلخ فظعنا منه إلى أن وصلنا العقبة الكبرى فصعدناها على الطريق الصعبة المعروفة المعتادة لسلوك الحاج منها غير أن السير على حسب قوة الإبل إلى أن خرجنا منها ثم كذلك إلى أن نزلنا الطرفاوى فوجدنا أرضه زهراء طيبة الأطراف منيقة النبات و أقام الركب فيه يوما و يوم الإقامة خرجت متنزها فى البحر و متفكرا فى أمره و متعجبا فى صنع اللّه تعالى لما علمت أن رؤيته تفرج الغم و تزيل الهم و كذا رؤية الأشجار و الأنوار و الأزهار تشرح الصدر و عند ذلك قلت .

يا سلائلا عن الطرفاوى تذكررائحة النرجس فيه تعطر

فانه محل خصب للدواب‌يعلم ذاك من رآه بالصواب

و عذب مائه أيضا قد اشتهرعند الحجيج و الظعين المستقر

و بحره يزهى جميع الناظرين‌و هو يفرج كروب الحازنين

فحسبه للمسلمين منزلاو ماؤه للواردين منهلا

و الضرع عنده يدر أكثرامن غيره أجل ليس يمترى

فزرعه غير بعيد الخصب‌عمره يا رب به بالقرب

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۰۲ بجاه من لبى و حج و اعتمرو زار طيبة و من بها استقر

فركبنا يا رب بالامان‌بلغه بالنعم و الإحسان

فهو ذا يعم من فى البحرمن أخوان و حفظ من فى البر

ثم الصلاة و السلام دائماعلى رسول اللّه خير من سما

و آله و صحبه و التابعين‌و حزبه برحمة للمحسنين

قلت و قد نظمت سائر المعاطن ببرقة و بينت أوصاف مياهها غير أن الكراس الذى نظمته ضاع لى قرب الزعفران فى يوم شديد البرد فرجعت أنا و سيدى أحمد بن حمود و سيدى محمد الشريف إليه فلم أجده فتحسرت عليه غاية لأنى أشفيت العليل و أبردت الغليل فى بيان أوصاف المياه و بيان المراحل و المنازل.

ثم ظعنا من الطرفاوى قاصدين معطن التميمى فسرنا أياما إلى أن مررنا على عين الغزالة بساحل البحر و أقول فيها كما قال شيخنا المذكور عين فيها ملوحة تسيح من سفح جبل و تصب فى بحيرة كبيرة تحتها من البحر المالح بحذائها القصب و العريش و أنواع النبات المائى يوجد حولها صيد كثير عند خلو البلاد من كثرة المارة إلخ.

قلت و قد سمت أن الحوت كله غربا و شرقا إنما أصله منها و إنما يتخلق منها و لا علمت أن له أصلا من الشريعة أم لا.

نعم فسرنا كذلك إلى أن وصلنا إلى معطن التميمى قبل أن يصل الركب إليه بعثنا إلى درنة ليأتوا لنا بالميرة منها و كذا الفواكه فأقمنا

فيه يوما بتمامه مع يوم النزول إذ نزلنا فيه بكرة منتظرين ملاقاة درنة فلم يأت لنا خبر منهم لأنهم فى هذا الزمن انقطعوا عن ملاقاة الركب لكثرة الفتنة بينهم و بين أهل مسراتة و البيخة فإن الحرب بينهم دائم إلا

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۰۳

أن هذا الزمن فيه العافية التامة و إنما فيها المجاعة العظيمة يموت الخلق فيها كثيرا لا سيما عرب برقة فقد حكوا لنا أن بعضهم لم يذق طعاما أربعة أشهر و بعضهم ستة أشهر و إنما يأكلون الحشيش و النبق و غير ذلك.

تنبيه و أعلام قال شيخنا المذكور ما نصه.

تنبيه و درنة هذه قاعدة الجبل الأخضر مدينة على شاطئ البحر بينها و بين خانية مسيرة يوم فى البحر و درنة مدينة كبيرة فيها كثرة المياه و الجنات و الفواكه و الأعناب و فيها السوانى ذات أنواع من الثمار و بها أسواق و فنادق و امر المعاش فيها سهل و العمارة فيها كثيرة أخبرنى من أثق به عام عشرة أن بها من أهل مسراتة خاصة ثمانمائة رام ببنادقهم سوى ما فيها من غيرهم و لم تكن قبل بها العمارة و إنما أحدثت فى حدود الأربعين و الألف بناها الأندلس لما خرجوا من جزيرتهم و نزلوا فى ذلك المكان و أعجبهم و آنقهم و فجروا أنهارا و غرسوا أشجارا و حفروا سواقى و بنوا و سكنوا و أسكنوا و استقلوا بأنفسهم و لم يكونوا تحت حكم أحد ثم إنهم طغوا و اشتغلوا بالفساد و مدوا أيديهم إلى عمالة طرابلس فى زمان عثمان باشا و غاظ ذلك أهل طرابلس و وجهوا لهم عسكرا و تقاتلوا معهم و أخذوهم و قتلوا من قتلوا و نفوا من نفوا و لم يبق منهم إلا أقل القليل و استولى أهل طرابلس على البلدة فهى تحت أيديهم.

قلت هذه درنة لم أرها و إن كانت قريبة غير أن الأركاب لا تدخل إليها لأنها ليست طريق الركب غير أن أسماعنا مملوءة من أخبارها فحصل لنا العلم بها و بأحوالها ضرورة فظعنا منه صبيحة فسرنا كذلك متوجهين إلى مفازة السروال و هى أشد مفازة فى طريق الحج إذ سبعة أيام لا ماء فيها فكادت تزهق النفس من شدة ما استقبلها من العطش فإن العطش إذا أصاب الإنسان أسرع موته بخلاف صاحب الجوع فانه يطول.

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۰۴

فالحاصل أن هذه المفازة القادم عليها كالقادم على القبر فقد تقرر فيها الموت الأبيض فالتدمية البيضاء محققة فتحقق أمر الركب انه يسلك على طريق الجبل الأخضر لما علمت أنه لا ماء فى السروال إلا إذا لطف اللّه بوجود الغدير فإنهم ينتظرونه كما ينتظرون ماء السماء فسرنا مراحال و نحن فى تجاه الجبل و السير بحذائه بحيث يقرب سيدنا سفح الجبل غير أن الطريق و عرة و صعبة على الإبل إنما ألجأ إليها الضرورة.

فلما أن وصلنا تلك الشعب القريبة لجردس و تجاوزناها وجد الناس غديرات فيها ماء فأكثر الركب قد استقى منها غير أن الإبل أصابها عطش عظيم و قد غبّت كثيرا فلما ظعنا من ذلك المحل وجد الناس غديرا قرب النزول فى التغليس فمنهم من مر عليه من غير علم به و منهم من سمع به فأعرض عنه غير أن الذى ظهر للناس تزاحموا عليه بالإبل حتى غيروه و خوضوه فاختلط به الطين فسرنا كذلك إلى أن وصلنا إلى جردس فنزلنا على الماء فتفرق الناس عليه و هو ماء قليل فتزاحمت عليه الناس ازدحاما عظيما فلم يستطع أحد شر ماء و قد تعذر علينا سقى الخيل و أما ملء القرب فمتعذر قطعا.

نعم بعض الناس قد استحيى منا فسقى الخيل و أعطى لنا ما نطبخ به و إلا فأكثر الناس قد بات بلا سقى و لا استقاء فلما تعذر الأمر قلنا لأصحابنا دعوا السقى إلى قراغ الناس منه فيتسع المجال بحيث تبقى الآثار منفردة خالية و كان الأمر كذلك فلما فرغوا من السقى وجدنا الوسع فسقينا و استقينا و شربنا و شربت الإبل و كذا الخيل و بقى الناس هناك بعضهم رفع و بعضهم تخلف لقضاء حاجته فلما سقينا و ملأنا القرب لحقناهم فماؤه طيب عذب لو لا أنه قليل يرشح رشحا و إنما يقضى الناس مآربهم بطول المدة.

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۰۵

و هذا الجبل واسع الأطراف كثير الشجر عام الخصب فخصبه لا نظير له فمرعاه قليل الوجود و كذا ماله أعنى البقر و الغنم فواللّه يخاف الإنسان أن ينظر فيه لطول إقامته و اتساع عرضه ضخم الجثة.

و قد قالوا هذا الجبل كثير السمن كثير العسل كثير اللحم كثير الزرع و الخصب لو أن فيه عافية غير أن عربه يتعدى بعضه على بعض و هم متغلبون فالجبل لمن غلب منهم لا- يرقبون فى بعضهم إلّا و لا ذمة و همم فى أجلاء بعضهم بعضا إلى الآن و حتى الآن غير أنهم وجدناهم فى مجاعة عظيمة ما وجد مثلها و قد أفناهم الجوع و إنما تحيرنا من أمر الشريعة هل وجب علينا إطعامهم و أحياؤهم أم لا فإن كثرتهم رفعت علينا الوجوب فإنهم كالجراد المنتشر فسقطت مخاطبة الشرع باستخلاصهم مما هم فيه سلمنا يجب فإنهم دام بهم ذلك فمن كلف نفسه وقع فيما وقعوا و هلك كما هلكوا.

رجوع إلى ما كنا بصدده و هو خروجنا من هذا الجبل إلى أن وقعنا فى البحيرة لاقانا نجع من العرب وارد على عرب آخرين يأكل بعضهم بعضا فلما واجهناهم و إذا بهم أرجفوا وقفوا على خيلهم و أرادوا الانتضال و المقاتلة ظنا منهم أننا غير الحجاج فلما ركضوا من الركب إلى جهتهم اجتمعوا و تحيروا من أمرنا فلما علموا بنا و تيقنوا أمرنا قالوا لا علينا فى الحجيج و إنما نريد من تعدى علينا من العرب قبل فاطمأن ما بيننا و سكن بعد ما حمى الوطيس و اضطرم أمر الفتنة بيننا و بينهم و الحالة أنهم مرتحلون بنسائهم و حريمهم.

نعم وجدنا عندهم الإبل ما أحسنها و قد اشتد سمنها و إبل الركب ضعيفة هزيلة فصاروا يبدلون.

نعم لما علموا اضطرار الحجاج امتنعوا من التبديل و صاروا إلى بيع فارتقى أمر

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۰۶

قيمتها فشفى الركب غليله منها فساروا معنا من الضحى إلى وقت العصر ثم انفصلنا عنهم و إن أخانا السيد محمد الشريف باع فرسه التى ركب عليها و أعطيت له فرسى يركب عليها لأنى أتيت بفرسين فلما ركب عليها نحو اليومين أو الثلاثة تركها و قال أنها رقيقة لم استطع الركوب عليها فبتنا بعد الانفصال عنهم.

ثم ظعنا فنزلنا مدينة ابن غازى على شاطئ البحر و هى مدينة طيبة فلا بأس بها لكونها مرسى فى قربها سبخة و فيها بساتين من ناحية أخرى و أرضها طيبة المزارع بلدة طيبة مباركة تصلح للمال غير أن العرب جاروا عليها و على أهلها و أنهم غير متفقين نعم حكم الباشا نافذ فيهم و أخوه هو الباى يحكم فيها و قد امتلأت بالعرب و هم أعداء فمنهم ملتجىء بها و منهم قاصد لأخذهم فلم يرتقب من أهلها غير أن بعض أهلها سلم فيهم و تركناهم مهتمين بأمر الأخذ باتفاق رأيهم و رأى أهل المدينة على أن من خرج من حريم العمارة أخذوه و قتلوه و سلبوه و من بقى فى حريم المدينة وقع الشك فيه فمن نظر إلى أهلها كف و من نظر إلى العداوة و خذلان بعض أهلها أراد افتراسهم و الانتقام منهم فخلفناهم على هذا السبيل و بعد ذلك سمعنا أنهم لم يصر لهم بأس منهم ما داموا عندهم غير أن طائف ارتحلت منهم و ظعنت معنا من الخائفين إلى أن وصلنا مسراتة و تورغة فتفرقوا فى الأوطان على المعيشة و الجوع يقتلهم و يميتهم فلم يفد فيهم إطعام الركب غير أن أهل الركب ضجوا منهم فكل خيمة يقف عند بابها الستون سائلا أن أكثر فتراهم يردونهم بالشتم و اللعنة و الخزى و بعضهم بالضرب فلا يكادون يسمعون لتضررهم من شدة جوعهم فنادينا فى الركب و لعل اللّه يسخرهم فنقسمهم على حسب الطاقة و الضعف لأن ذلك واجب علينا فلم يسمعوا لنا لقلة زادهم و مدينة ابن غازى قد غلا سعرها غلاء فاحشا بحيث لا- يستطيعون شراءه و أما الميرة فكثيرة الوجود لأنها تأتى من بر التبرك إليها و من أرض العرب لا سيما إفريقية و الغلاء و الرخص جندان من جنود اللّه يضعهما اللّه حيث شاء فلا فائدة الرحلة الورثيلانية ؛ ج۲ ؛ ص۷۰۷

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۰۷

فى كثرة الزرع و لا فى قتله.

و بالجملة فأهل برقة يموتون بالجوع موتا كثيرا عند أبواب الديار و إنما شأنهم معهم غلق الأبواب فترى السائل الكثير يصيح على الباب بالطعام إلى أن يموت على عتبة الدار فهلك من أجله كثير من الناس و قد خاصمتهم و قلت لهم من مات منهم فإثمه عليكم لوجوب

مواساتهم بما عندكم و إن بقيتم مثلهم فإن أمر النفس فى الشرع عظيم فيخاف على بلادكم الخراب و الهلاك بسبب الصد عن هؤلاء الجياع و أما فى الطريق فلم ينصف منهم إلا الكاملان سيدى أحمد بن حمود و سيدى محمد الشريف فيركبان الصغار و يطعمان الكثير مع قلة الزاد حتى أردنا الفرقة و القسمة من شدة مواساة سيدى أحمد بن حمود لهم فرضى بالقسمة من أجل تغير الرفقة إذ قالوا ما يأكله هؤلاء العرب فنحن أولى منهم إذ نحن فى الصحراء فلا مغيث لنا إلا اللّه فإن انقضى ما بين أيدينا صرنا مثلهم فنفس الإنسان أولى.

نعم سلمنا الأمر له فى الظاهر فلم يقع بنا إلا الخير و العافية و الحمد للّه و أقمنا فى مدينة ابن غازى يومين لشراء الزاد و علف الخيل و البغال غير انه غال كثيرا و أنا قد صليت الجمعة فيها مع بعض أصحابنا فى مسجدها العتيق و اللّه اعلم.

و قد دخلتها مرة أخرى فى حجتى الأولى فى الرجعة و كنت اجتمعت بقاضيها سابقا فوجدته منعزلا متغيرا حاله من شأن العزل فإن ذلك من الأمر القديم فمنهم من يحب الولاية و منهم من يكرهها و أما العزل فبالاتفاق على بغضه و وجود الاغتنام عنده و أما أمر الدنيا فيحمد اللّه تعالى فلما اجتمعت معه وعظته و قلت له أحبك اللّه حيث أخرجك من النار و ولى عدوك و فى الواقع حبيب لك من حيث ناب عنك

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۰۸

و أحل محلك فى دار العذاب و الهوان أو كلاما هذا معناه ففهمنا عنه أنه أراد أن نقول له ترجع إلى محلك فيفرح إذ أنى أشرت له أولا بالقضاء و اللّه اعلم حين اجتمعت معه فى مدينة طرابلس و أقبلت على جماعة ابن غازى كالقاضى الجديد و المحب فى اللّه نجل الود الصديق و الخل الفاروق سيدى عبد اللطيف و جماعة من رؤسائها من أولاد الترك و غيرهم فتفضلوا علينا بالضيافة الطيبة و الزرع و شىء من الزاد على قد وسعهم.

و قلت و لو لا الجدب و المجاعة لأغنوا جماعتنا بما نريد لأنهم فى قوة الاعتقاد فينا و شدة حسن الظن فى جانبنا و ذلك وصف عمالة طرابلس فلما تبركوا بنا و بإتياننا لمحالهم و اشترينا ما يخصنا من الزاد و العلف للخيل فطال بنا الأمر إلى أن عسعس الليل بتنا فيها.

و زرت الولى الصالح و الشيخ الواضح الوحيشى و أدخلنى ولده إلى داره و قبر الشيخ هناك فزرته و شاهدت عنده أمرا عظيما من الشهود و التجلى الذى لا يمكن التعبير عنه و اجتمعت مع الفاضل الكامل الصالح سيدى المغربى الذى استقر هناك بعد أن كان فى مدينة درنة و عليه حلاوة الإيمان و طلاوته و عليه كسوة العارفين باللّه فأحسن إليه سيدى عبد اللطيف المذكور و قد أشار علينا أنا و سيدى أحمد بن حمود بأن أمركم لا يكمل عند اللّه إلا بعد أن تزوروا المغرب فيكمل حالكم من هناك و قد كان ذلك من بعض العارفين قبله علينا أيضا فيقع الخاطر على الخاطر، كما يقع الحافر على الحافر، و هو من توارد الخواطر.

نعم قال ذلك لا بد أن يكون عن عجل تمم اللّه لنا الفائدة بمنه و كرمه و نحن على

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۰۹

ذلك من الناوين [لأنواع الخير من] حج و جهاد و زيارة و علم و تعلم و إفادة و استفادة و أنواع الخيرات على اختلاف أصنافها و تنوع أجناسها فإن عشنا فعلنا و إلا كفتنا تلك النية كما ذكر ذلك صاحب المدخل أبو عبد اللّه ابن الحاج عن بعض الفضلاء المجتهدين فى إتباع آثاره صلى اللّه عليه و سلم و اقتفاء أحواله و قد قال صلى اللّه عليه و سلم يبلغ المرء بنيته ما لا يبلغه بعمله و قد علمت أن حكمة الجزاء بالخلود للمؤمنين فى الجنة و بخلود الكافرين فى العذاب بالنار هو انه على حسب نية كل من المؤمن و الكافر فإن المؤمن لو بقى على الدوام فى الدنيا ما أحب أن يسلب إيمانه و كذا الكافر ما أحب أن يسلب كفره فكل منهما ينوى التأبيد فيما حصل عنده فلا يبغى الانتقال عنه أصلا فجزاهم بالخلود فى المحلين على حسب نيتهم و قصدهم و بالنية تنمو الأعمال و تزكو و قد ورد عنه صلى اللّه عليه و سلم أن نوم العالم خير من عبادة الجاهل لما علمت أن نوم العالم صيره طاعة بنيته مثل أن ينوى الاستراحة و النشاط لتحصيل الفرائض أو النوافل و قد يجب النوم كما إذا علم من نفسه انه إن لم ينم فرط فى صلاة الصبح كما قاله الشيخ زروق

بل يحرم قياما الليل على من هذا شأنه كما صرح به أيضا.

و قد حكى صاحب المدخل المذكور عن بعض الأشياخ أنه كان يتسبب فى بستانه هو و بعض تلامذته و إذا بشخص يدق على الباب فأراد التلميذ فتحه فقال له شيخه كيف نويت و ما نويت فقال نويت فتحه فقال له الشيخ أجلس ففتح له الباب ثم صار يعدد له النيات التى قام بها إلى أن بلغ نحو الثمانمائة و هو فتح إلهى و وهب صمدانى و من يرد اللّه به خيرا يفقهه فى الدين و أى فقه أعظم من هذا و أى فتح أولى منه. و قد قال صلى اللّه عليه و سلم كما رواه البخارى فى صحيحه إنما الأعمال بالنيات أى

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۱۰

صحتها و ثوابها بالنية كذا قدره الجمهور فإذا علمت هذا علمت أن مقام العارف عوامل رفعه حسن النية و حسن تنميتها.

و قد قال الشيخ السنوسى أن أدنى الأولياء أفعالهم دائرة بين الواجب و المندوب و إنما ذلك بالنية و أما الخاصة فأفعالهم كلها واجبة و ذلك ليس إلا بنذرها فمن حصل كيفية القصد و تنميته حصل له الخير الأعظم و المقصد الأسنى و ذلك بشيخ عارف أو أخ ناصح أو مفت محقق أو بإلهام ربانى و وهب رحمانى تفضل اللّه علينا و على ذريتنا و طلبتنا و من تعلق بنا من الأحباب به بمنه و كرمه.

انعطاف و رجوع إلى ما كنا بصدده فلما بتنا مع الأحباب فى ابن غازى بكرنا صبيحة يومنا فوجدنا الركب قد ارتحل فأدركنا آخره و ودعنا من يحبنا فيه إلى أن لحقناه فسرنا كذلك إلى أن وصلنا إلى أجدابية و تجنبا سلوكا و هو معطن عظيم ماؤه عذب و أباره متقنة لا- تكاد توجد فى غير هذا الموضع و أما أجدابية فكانت عمارة و آثارها باقية إلى الآن و فيها آبار متفرقة كثيرة المياه أرضها طيبة أحسن الأرضين فيها خصب و زرعها طيب لا- نظير له فيما علمت و أبارها سفح أحجار ماؤها عذب طيب سائغ شرابه فليس كماء الصحارى كأنه ماسء الجبل و العيون و تلك الأحجار التى فيها الآبار متصلبة ليست رخوة فظعنا منها إلى أو وصلنا معطن المنعل باللام و الميم ماؤه عذب جيد قل نظيره فلا تجد مثله إلا عزيزا فأقمنا فيه كما أقمنا فى غيره إذ كل معطن إلا كانت فيه الإقامة مصلحة للإبل.

نعم هذا المعطن المفازة التى بعده أصعب المفازات فالمراحل بعده خمس لا ماء فيها طيب و إن وجد فى سواق أو آبار قليلة فهو زعاق حرف مر يشوى الوجوه بئس الشراب لا يصلح إلا بالإبل.

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۱۱

و قد استقينا من اليهودية فلم يصلح و لو للدواب فلم تشربه و إنما تتجرعه فلا تكاد تسيغه و هذه اليهودية كانت مدينة ملكتها يهودية و كانت قرى كثيرة متقاربة فيها أثر بناء خال متراكم يدل على أنها كانت عمارة كثيرة و اشتهر على ألسنة الحجاج أنها مدينة كانت ملكتها يهودية فى عسكرها كذا كذا من الخيل و فى الرسالة القشيرية عن بعض الفقراء انه قال دخلت مدينة يهودية بالمغرب إلى آخر الحكاية.

ذكر أبو سالم أن تلك المدينة هى هذه إذ لا نعلم مدينة بأرض المغرب تسمى اليهودية إلا هذه و اللّه اعلم بحقيقة ذلك إلى أن مررنا على معطن سماه شيخنا سيدى ابن ناصر و هذه المفازة ما أصعبها من مفازة فيها الحر الكثير فإن وجد فيها النسيم فنعمة من اللّه إلى أن وصلنا إلى معطن الأحمر فلم ننزل به غير أن من عطش سقى منه قدر حاجته و ماؤه عذب طيب تتنعم فيه الأركاب ثم سرنا كذلك إلى أن وصلنا إلى النعيم فما أحسن ماءه و أشده عذوبة و هو بارد و قل نظيره فى المياه و زال العطش و الهم و الغم عن الناس و عن دوابهم لما مر أن المفازة التى قبله أعنى الصراط صعب سلوكه فى برقة فلا تجد أحدا إلا يشتكى منها فمن لم يستعد لها من معطن المنعل هلك و الآبار بينها و بين النعيم كثيرة الوجود قليلة النفع مضرة بالناس من ملوحة مائها و مرارته و ذلك يعلم بالذوق فماء النعيم عذب فرات زلال إلا- انه لم ينفعل للهواء مع برودته فظعنا منه إلى أن وصلنا معطن الزعفران بينه و بين النعيم مرحلتان و بينهما معاطن على شاطئ البحر عذبة و أرض الزعفران ربوة طيبة خصبة فقل نظيرها فى برقة منيقة زاهرة كثيرة الأنوار فى الربيع يستحسنها الناظر فمن دخلها تأنس بها تصلح للاستيطان كنت أتمناها للسكنى فلا تعلم نفس ما فى هذه الأرض من المنافع و هى رعى لمسراتة ينزلونها فى الربيع فإنها تصلح كثيرا لغنمهم و مواشيهم.

حاصله كثيرا الخصب فمن هذا المعطن تشم رائحة طرابلس بل رائحة الوطن

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۱۲

فماؤه غزير عذب كثير منه م طيب سائغ شرابه فظعنا منه فمررنا بمطراو و مطرا و ماؤه غزير مستجم فيه ملوحة ميل إلى مرارة سقى المحتاج دوابه منه ثم مررنا ببئر حسان و حسان الآن اسم علم على موضع فيه مورد ماء قلما يوجد فيه ما يكفى الركب إلا فى أزمنة الخصب و كان فى الأصل اسم لعامل بعض ملوك بنى مروان بعثوه لغزو إفريقية بعد موت عقبة بن نافع أمير إفريقية و مفتتحها و ارتداد غالب إفريقية فنزل فى هذا الموضع و بنى فيه قصورا تسمى قصور حسان و كان يغير من هناك على إفريقية و أقام بذلك المحل مدة و خبره مشهور مذكور فى تاريخ فتوح إفريقية ثم مررنا بالمسيد معطن برملة على يسار السبخة به ماء لا بأس به غير انه به ملوحة ثم بالعريعرة معطن بإزاء السبخة بساحل البحر به ماء عذب فرات طيب غزير من أعذب المياه يقرب من ماء وجدناه بالتميمى هذا و إنى تركت معطنا بعد بئر حسان و هو بئر الهويشا معلوم و هناك سبخة عظيمة مخيضة و فيها ماء ملح أجاج إلا بعض الآبار فلا بأس بمائها يعرفها الخبير و المتوطن و لا ينبئك بها مثل خبير.

ثم مررنا على قبر أبى شعيفة فزرناه و الركب مار على طريقه لبلد ولى اللّه باتفاق، فطب العارفين على الإطلاق، أبى العباس سيدى و مولاى أحمد زروق و انصرمت مراحل برقة التى قيل فيها على ألسنة العوام حرقة أو غرقة لا برقة فلاحت لنا أعلام العمارة، و ظهرت لنا من الدنيا الأمارة، و تنادى الحجيج البشارة، هذا أول العمران قد كشف لنا أستاره، فساروا مظهرين الفرح، و مسيرين الترح، و مخفين

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۱۳

ذعرا كأنهم لم يروا العمارة دهرا، بل المفاوز سهلا و وعرا، و الدنيا يبابا و قفرا، يخيل لهم أن المبانى و النخيل شىء ما عرفوه، و جالت الأفكار و الأبصار فى أرجائها كأنها أمر ما ألفوه، و كأنهم نشروا، و من المقابر حشروا، و ما أسرع انقضاء سفر تنقصته الليالى و الأيام، فكيف بعمر مرت به الشهور و الأعوام، فنسأل اللّه حسن الختام، بالموت على الإيمان و الإسلام، و العفو و العافية على الدوام، و لما زرنا أبا شعيفة قصدنا نحو الإمام زروق.

هذا و تعداد المعاطن تبعنا فيها شيخنا المذكور أقول لما خرجنا من السبخة و خضناها و خرجنا من العوينات و تركناها وراءنا و قد انقضى علينا الزاد من أجل أننا آثرنا عرب برقة بالإطعام إيثارا قويا لكن من يعرف اللّه منا اعتمد على اللّه و توكل عليه و قد علمت أن من توكل على اللّه فهو حسبه أن اله هو الرزاق ذو القوة المتين.

تتبع المشائخ وجدنا الفاضل الكامل العالم العلامة الفقيه الفهامة محبنا و غاية و دنا أخانا فى اللّه و قد لقناه شيئا من أوراد أشياخنا رضى اللّه عنهم و نفعنا بهم و أفاض علينا من بركاتهم بمنه و كرمه سيدى محمد بن عامر مع الأخر فى اللّه و المحب من أجله الحاج إبراهيم الشريف من شرفاء مسراتة ينتظروننا نحو اليومين لأنهم خرجوا بحسب عد المنازل من مدينة ابن غازى و مراحلنا فلم يعد ذلك العدد فينا لأن مشينا أقل من ذلك و ضعف الإبل و هزالها و بعض الإقامة على المعاطن استراحة و نشاطا للإبل و معهم جماعة من المحبين من مسراتة من الشرفاء و غيرهم بالطعام و اللحم أعنى و الخبز و نوعا آخر يسمى عندنا بالفطير و عند بعض الناس يسمى بالسمن و التمر الجديد بان حملوا و اللّه اعلم على الإبل فلما لقيناهم فرحنا بهم اشد الفرح من أجل المودة فى اللّه و الحب من أجله وجدونا على الجوع و غايته فأتوا إلينا بالخبز و اللحم عند وقت الغداء

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۱۴

فاجتمع أصحاب الجميع سيدى أحمد بن حمود و سيدى عبد الكريم و سيدى محمد اليعلاوى و سيدى أحمد بن أبى القاسم و المؤلف لهذه الرحلة و أصحاب الجميع و سيدى محمد الشريف الطرابلسى و أصحابه فلما أكلنا و أكل من الركب من مر علينا و عند الليل قسموا ما حملوه بيننا و بين سيدى محمد الشريف و هو كثير جدا ففرقناه على أهل الركب فكل أخذ نصيبه و أما نحن و سيدى عبد اللّه بن رحاب فقد عمنا خيرهم جعل اللّه البركة فيهم و فى ذريتهم إلى يوم القيامة آمين و كان لنا و لهم بالغنى الظاهر و الباطن و

زوال الحجاب من رب الأرباب اللهم لا تجعل فيهم فقير دين و دنيا بمنك و كرمك.

فذهبنا كذلك إلى أن نزلنا فى محل بعيد من الشيخ زروق غر انه قبالة قبره فبدأنا بزيارته قبل الزوال فلما استشفينا منه عليلنا و أبردنا منه غليلنا جعلنا اللّه فى زمرته و زمرة أولياء اللّه تعالى و كان لنا و لذريتنا و قرابتنا و إخواننا فى اللّه و طلبتنا مغيثا شفيعا وليا نصيرا وردع به أعداءنا بمنه و كرمه و قد استضافنا الأشراف بمحالهم و كذا عيرهم و أما من أتى بالطعام و التمر للخيمة فلا يعد و لا يحصى لأن أحباءنا فى مسراتة من الطلبة و العلماء و الفقراء و الحجاج و الشرفاء و آغة الصبايحية ممن له مشيخة فى مسراتة اللهم عمر مسراتة و كثر خيرها و رخص أسعارها و أمن أرضها و أحفظها من كل طارق يطرقها إلا طارق خير و أهد ولاتها و أرحم بهم الضعفاء بأن يكونوا رحمة لأنفسهم و للأمة المحمدية غيرهم و كن اللهم لهم على من ظلمهم و لا تكن عليهم يا أرحم الراحمين يا رب العالمين و أمنن علينا و عليهم بالنصر و العز و الرفعة و العفر و العافية و البركة و المنة فى الأزواج و الذرية و الأموال و الرأى و الاستقامة و دوام العمارة و أتباع السنة المحمدية و أحفظ وطنهم من المجاعة آمين.

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۱۵

و مررنا على أخينا فى اللّه سيدى الحاج أحمد و دخلنا بيته حين ظعنا من الشيخ زروق و استضافنا و أحسن إلينا و هو قد حج معنا و كذا محل سيدى محمد بن عامر و دخلنا مسجده الذى بناه جديدا و أحسن بناءه تقبله اللّه منه و أثابه على قدر نيته و حمدنا اللّه له و دعونا له بالعمارة بالعلم و العمل و الدين و إظهار الشعائر الإسلامية فيه و توفية الحقوق الإلهية و الآدمية من غير مشقة و لا كلفة و أن يغنيه و ذريته و معينه غنى لا يتبعه فقر أبدا بمحمد و آله و قطب الزمان و حزبه.

حاصله أقمنا فيه بيومين فلما لم يحصل لى المقصود من الشيخ زروق ذهبت إليه فى الليل ليكمل المرغوب و لعل اللّه أن يتم لنا المطلوب فأحسن إلينا وكيله أحسن اللّه إليه ثم ظعنا منه فودعنا من ودعنا من الأحباب فما أصعب منه أى من الفراق إذ لو نعطى الخيار لما افترقنا و لكن لا خيار مع الزمان فلم أعلم مصيبة أعظم من مفارقة الأحباب و الإخوان و الخلان و الأصحاب فبتنا قرب ساحل حامد مبيت خير و عافية ثم ظعنا منه صبيحة فأشرفنا على وطن الساحل فلما دخلنا البدل و إذا برجل من معارف سيدى محمد الشريف لقينا بخبز و لحم و تمر جديد كثير اللّه خيره و أحسن إليه بمنه فعرضناه فى الطريق فكل من مر من الحجاج إلا أكل و شبع و ربما تزود فعم الخير كل الناس و الناس فى زيارة الحجيج كثيرون أفواجا بعد أفواج.

و عمالة طرابلس أهل اعتقاد و محبة فأتانا الفاضل الكامل الفيه النبيه المحب سيدى سالم الفطيسى و إخوانه و جماعته يريدون الزيارة و التماس الخير منا فعزم علينا و على الفضلاء أصحابنا سيدى محمد الشريف إلى بيته رغبة و اغتناما للبركة و معنا جماعة من رؤساء الركب و فضلائه فأنزلنا فى غرفة مقدما شيئا من الرطب و الطعام

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۱۶

الخفيف كما هو ألسنة و اللبن فلما وفينا ذلك مع حصول المقصود و سألناه الذهاب فقال حتى يتغدى جمعكم فألح علينا فلما علمنا قصده و قوة رغبته وافقناه على غرضه فانتظرناه إلى حصول مقصوده و تمام مطلوبه و هو لا بأس به فى العلوم لا سيما مسائل الفقه و بعض مسائل النحو حاصله أنه عالم فاضل ففيه أخذ من كل فن بنصيب بل وجدنا فيه أكثر من الظن فلما حصل المقصود دعون اللّه لهم و لإخوانهم و لأحبابهم و لذريتهم أحسن اللّه إليهم و جزاهم عنا و عن المسلمين خيرا.

ثم زرنا القطب الصالح و الغوث الواضح الشيخ عبد السلام الأسمر فانه مجاب الدعوة و قبره روضة و حريمه لا يتعدى عليه أحد فمن وصل إليه سلم و نجا أفاض اللّه علينا من نفحاته و قد رغبنا عنده فدعونا اللّه لنا و لأقاربنا و المسلمين و المسلمات ثم انفصلنا عنه سويعة لقينا رجل أظنه من أهل الوقت و من أهل التصريف ثم لحقنا الركب نازلا على أطراف البلد فأتى إلينا جمع من طلبة العلم كالعلامة الفقيه ولد الشيخ سيدى سالم غير المذكور و قد اجتمعت معه فى الحجة الثانية و معه فضلاء و علماء فتكلموا معنا فى العلم بحسب ملكتهم و قوة بحثهم رضى اللّه عنهم و أرضاهم و كذلك من سبق ممن اجتمع معنا فعلماء طرابلس النحو فيهم القطر و شراحه

و حواشيه تقل فيهم الألفية و شراحها و كذا يقل معهم المختصر و أما التوحيد فقليل الوجود فلا تجد من يحققه من مصر إلى وطننا هذا و ما اشتغال مصر إلا بعلم المنطق أما طرابلس و عمالتها فقد ضاقت على أهلها المعيشة و ما هى إلا بالكد و الجد و السعى الكثير و مع ذلك فلا يستقرون على طائل فقد انعدم التدريس للعلم فى طرابلس و قل الاشتغال بالعلم رأسا فلا تجد مجلسا فيه و كيف يتصور العلم فيها مع أن علماءها أفضل علماء الأوطان غير أنه لما انعدم التدريس منهم صاروا قاصرين لعدم أنفاق العلم فإن العلم يزيد بالإنفاق و ينقص بعدمه فلما ضعف أمر البلاد قصر العلم بل كاد أن ينعدم العلم رأسا و من أراد العلم فليذهب إلى مصر و إلى تونس أو إلى جربة مدرسة

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۱۷

الشيخ البركة سيدى إبراهيم الجمنى فعلماؤها كثيرون غير أنك لا تجد مدرسا فى العلم حتى يموت غيره و ذلك أن ملوكها ليس لهم رغبة فيه أو أنهم لا وسع عندهم حالهم حال وطنهم و إلا فلم أجد وطنا مثلهم فى الفهم و الإقبال على اللّه و كذا فيهم الأسرار النبوية و الأنوار المحمدية.

ثم ظعنا منه و مررنا بساحل حامد بعد أن ظعنا من زليتن وطن الشيخ عبد السلام و زرنا قبر العالم الفاضل المؤلف الصالح المشهور سيدى الشيخ ابن عبد الصادق و قد رأيت تآليفه ما أحسنها و قد حررها أحسن تحرير و أتم تقرير و قد شرح ابن عاشر شرحا معتبرا يكاد أن يكون يغنى و قد وضع كتابا فى بيان البدع و الرد على أهلها من عصره يكاد أن يكون المدخل فقد أحسن فيه إذ بين السنة و أظهرها و بين البدعة و أخمدها و كذا جعل شرحا على العزية أى على النظم الذى احتوى عليها فقد نظمها بعض أصحابه و ما أحسنه من نظم فشرح هذا النظم و لما بلغنا محله بالغ فى إكرامنا أولاده و جيرانه و ما تركت زيارة هذا الشيخ و لا مقامه غير أن أولاده يتكلفون ضيافتنا و ربما زادوا العلف لدوابنا ثم انفصلنا عن محله و صار يودعنا أولاده جعل اللّه البركة القوية و الوسع و الغنى و العلم و العمل فى ذلك المحل إلى قيام الساعة بمنه و كرمه رضى اللّه عنهم و أرضاهم.

ثم سرنا كذلك إلى أن وصلنا إلى الجبل فبتنا فيه و كان يطعم بعض المرابطين فيه العصيدة و هو مشهور بها و قد لقبوا بها فلم أرهم فى هذه الحجة و إنما رأيتهم فى الحجة الأولى و هما شيخان عظيمان مسنان فى الإسلام فوجدنا عندهما عصيدة باللحم فأكل منها جميع الحجيج تبركا بهم فلما وصلت إليهما نظرا فى وجهى و نحن فى الطلعة فقال أحدهما للأخر هذا يقعد فى مصر و يتعلم و ذلك الذى فى قلبى و قال الآخر يرجع

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۱۸

و ينتفع به المسلمون فانه قد ورث سر سيدى عبد الرحمن أقطال أعنى المجدوب فوجدت سر اللّه فيهما و نحن لم يصلنا خبر موته غير انه مات تلك السنة فى مصر بعد رجوعه من الحج و دفن فيها و أما القبر الذى فى تونس فقبر ثان فسموه بذى القبرين و لا يبعد حاله ممن هذا وصفه إذ لو كان ما روى عنه ذلك حال حياته لكان ما فعلوه مساعدا أو أنه وجد فى القبر الذى فى تونس فيها و نعمت و هو له قبول تام عند الناس و بركة عظيمة مجاب الدعوة لا سيما فى دعاء الشر فانه مجرب يحصد الناس حصدا و قد اجتمعت به فى صغرى و بعد و كان يحبنى كثيرا و قد دعا لى بالخير.

و مما أعجبنى مما سمعته انه قدم إلى مسجدنا فى حياة أبى و بات فى المسجد و بت معه و لم يأكل طعام أحد إلا طعامنا و نمت معه إلى الصبح و هو مستلقى على ظهره فلم يرجع لسانه عن الذكر إلى أن طلع الفجر بات طربا من غير نوم إلى الصبح فلم يفتر عن ذكر اللّه تعالى و كان صاعقة الظلام و المحرومين و انه عزم عليه شخص و هو معلمنا فى القرآن سيدى يوسف بن بشر ان هو و الولى الصالح سيدى على الصافى فلما بلغنا إلى داره وجدنا مائدة من النوع الذى يسمى المحمصة فأكلت أنا معه و أما سيدى على الصافى فصائم و أن الشيخ المذكور جعل السمن الكثير فى القصعة فقال له الشيخ سيدى عبد الرحمن ما عندك من المعز أو الضأن فقال له اثنتان ليس إلا و كلام الشيخ عليه حلاوة و طلاوة فقال هذا الشيء فى حقك كثير بل واحدة تكفى فقلت له يا

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۱۹

سيدى عبد الرحمن ما اشد كثرة المال عندك لا سيما الذاهب و الفضة و آلة الحرب فقال و اللّه الذى كان عندى لم يكن عند سلطان الجزائر فقال و اللّه يا بنى أن الفتوحات و المنح لتأتى إلى من بلاد النصارى فان بعضهم لما أسرت شاهد منى أمرا عظيما و قد انعدم عنده الذكور فجعل لى فتحا كذا و كذا دينارا على انه إن ولد له ذكر ففتح اللّه له بالذكور فقلت له فلم تزكى مالك فقال بنفس وصوله إلى أعطيه لأخى و لأولاده فلا زكاة على فقلت له هذا لا ينجيك من حق اللّه الذى أوجبه اللّه عليكم فقال لا ملك لى حتى تجب على فقلت له أن رأيتهم منعوا الزكاة فلا تزد لهم شيئا فسكت عنى إذ كنت بحاثا.

نعم و كل ذلك من الوهب الربانى و المنح الفردانى ثم أنى تعجبت من مقالته الأولى التى قالها للمعلم فأن حملت كلامه على ظاهره من استعظامه ملكه اثنتين من المعز أو الضأن ثم بعد ذلك قلت فى نفسى أن كلام أهل اللّه لا يفهمه إلا ذووه على أنى فتح لى أن استعظام الشيخ ملك الاثنين ليس على ظاهره إنما هو الدنيا و الآخرة فالجمع بينهما أمر كثير لا يليق بالمعلم المذكور و لذا قال واحدة تكفى يعنى الآخرة و إن كان لا بد فالآخرة أولى جعلنا اللّه من أهلها.

أقول أيضا و قد اجتمعت معه فى بجاية و كان يلازمها فى رمضان و هى رباط و زيارة فمررت عليه و وجدته فى حانوت الجفاف و إذا فالحلاق يحلق شعر رأسه فلما فرغ قبل الحلاق رأسه و سأله الدعاء ثم سألته الدعاء أيضا فقال لى أنت الذى تقرئ الطلبة هنا فى رمضان فقال لى خذ هذه الرسالة أسردها على و كان أميا لا يقرأ و لا يكتب و إنما فيض إلهى فاض عليه فإن اللّه لا يتخذ وليا إلا و علمه فلما قرأتها وجدت فيها أن فلانا قد بعث لك خمسمائة رطل من قطران لسفينتك التى استعددتها للجهاد و الغنائم فقال فى الجواب اللهم اسق القطران له و شبعه منه فتعجبت من كلامه فقلت

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۲۰

له أنه أعطاك و سألت له القطران فقال لى هذا جزاؤه فأعرضت عنه و ذهبت و تعجبت من كلامه.

نعم فهمته على ظاهره ثم قلت فى نفسى هذا سر من أسرار اللّه تعالى فلا يليق حمل كلامه على مقتضى الظاهر ففتح لى بعد ذلك أن المراد بالقطران الدنيا فكأنه قال اللهم شبعه منها حتى تتسع اتساعا يليق بمثله و لذا قال جزاؤه على أنى رأيت عم أبى المقبل على اللّه بشراشرة و كان يحبنى فى صغرى و يتوسم فى الخير العظيم و لم يمت حتى رأى النبى صلى اللّه عليه و سلم مرارا فقال لى أن اللّه أورثك سر هذا السيد فقلت له و كذا ماله فقال لا ففهمت أن كل من كان من آله صلى اللّه عليه و سلم يرزق كفافا لا وسعا و مال هذا السيد يكاد أن يكون مال عبد الرحمن بن عوف لأنه من الفيض و ليس بكسبى أصلا فأسأل عن ذلك عالما بحقيقة أمره و لا بنبئك مثل خبير.

انعطاف و رجوع إلى ما كنا بصدده فأنه لما ظعنا من الجبل فارقنا الركب فى جماعة من الفضلاء و ثلاثة من العلماء و غيرهم من الشرفاء فتوجهنا نحو مسلاتة و هو وطن مشتمل على قرى كثيرة متفرقة و على زيتون عظيم لا تكاد تكون بلدة مثله فيه و زيتونه كثير الشجر عظيم الخلقة و عند كل شجرة حفرة عظيمة يجتمع فيها الماء فى الشتاء ليشرب منه و ما ذهب بنا إليه إلا أخونا فى اللّه سيدى محمد الشريف فإن ملكه هناك و دار نزوله هناك فى إبانه و له معصرة أيضا فيه و كذا إخوانه الشرفاء النوفليون لهم أملاك هناك و كذلك أولاد بلغيث الشريف و أما سكناهم ففى المنشية التى هى خارج باب مدينة طرابلس فوصلنا إلى هذه البلدة عند الزوال أو قربه بسويعات و بتنا فيها خير مبيت و إنهم أكرمونا غاية الإكرام فلما أصبحنا بخير الصباح انفصلنا عنهم مع شكرهم و حمد صنيعهم عمرهم اللّه إلى يوم القيامة فذهبوا معنا مدة ثم رجعوا عنا

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۲۱

فرحين مسرورين بمبيتنا عندهم.

فسرنا كذلك إلى أن وصلنا محل اجتماع الطرق أعنى طريق الركب و الطريق التى تأتى من مسلاتة فوجدنا الركب قد سبق إلى وادى

الرمل فلاقانا أخوان سيدى احمد الشريف أعنى عمه و ابنه و جميع إخوانه و أولاد أعمامه بتمر جديد و لحم و خبز و أظن معهم كعك و ذلك طعام كثير فلحقنا بالركب عند نزوله فنزلنا منفردين نحن و إخواننا جماعة الطرابلسية ففرقوا الطعام لجميع الأحباب، و ناولوه عامة الأصحاب، و أكرمونا غاية الإكرام، وسعوا إلينا بشوق و احترام، و بتنا فى ذلك المحل مع جماعة كثيرة فلما أصبح اللّه بخير الصباح، تسابقت الناس للفلاح و النجاح، ما أحسنها من غدوة زهرة اللقاح، فاستوينا على ظهور الخيل بسرور من الصدر و جذل و انشراح، ترى الأفواج من الأحباب، و المشتاقين من الأصحاب، المرة بعد المرة يتبركون بالحجيج راغبين الدعاء بالغفران، و الرضى من الرحيم الرحمان، فسكنت قلوبنا بعد اضطرابها، و فرج عليها بعد اكترابها.

و سرنا كذلك إلى أن أشرفنا على تاجوراء فخرجت الأفواج يتلقون الركب و يرغبون الدعاء كما سبق غير أن مطلوب الجميع السؤال عنا و الرغبة فيما عندنا إذ لنا عندهم حظ وافر و رجوعنا لهم بشارة و سرور فلقينا جميع طلبة العلم من مدرسة الشيخ الفاضل، المدرس المحقق الكامل، لأنه فى تاجوراء نبراس، سيدى محمد النعاس، و قد أدركته فى الحجة الأولى و زرته فى مقامه، و سمعت شيئا من كلامه، و كان فقيها مسنا فى الإسلام نرغب منه الدعاء، و نطلب منه الحوائج و اللقاء، بسط اللّه علينا و على إخوانه و ذريته رداء ستره، و رحمنا و أياه فى رمسنا و رمسه و قبره، و كان ابن أخيه هو المدرس و هو ممن يحبنا و يرغب فينا و كذا ولد الشيخ فسألت عنه فقيل لى انه مريض و هو راغب فى رؤيتنا و ما منعنى من الوصول إلى المدرسة إلا كثرة الخلق إذ لا يسعهم

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۲۲

إلا قدرة الكريم و رحمة الرحيم فلقينا الفاضل المحب و الكامل المقرب المفتى سيدى محمد بن المقيل و هو ممن يبالغ فى إكرامنا أكرمه اللّه و أحسن إليه، و أمنه من كل فزع و رعب لديه، و سيرته معنا كسيرة أسلافه مع شيخنا سيدى أحمد ابن ناصر فانه لا يعز شيئا فى جانبنا بل جانبنا أقوى من نفسه و أولى من روحه مع جماعة من طلبة العلم و الشرفاء و العامة و الخاصة لا سيما رؤساء حضرة طرابلس لا سيما العلامة المحقق و الفهامة المدقق سيدى محمد بن العالم على الإطلاق و الفاضل الورع بالاتفاق سيدى محمد العربى الفرجانى الشريف.

حاصله و هذه خلاصة طرابلس و خاصة حضرتها و كذا أولاد الشيخ الولى الصالح و البحر الطافح سيدى الصيد نفعنا اللّه به و أفاض علينا من بركاته قبل وصولنا إلى تاجوراء و أن شيخ الركب أيضا كان قريبا لهم قرب رحم لتقرر النسب بينهم و ثبوت الود لديه فكانوا معه ذهابا و إيابا و ذلك ديدان إسلافه و شأن أجداده مع أسلاف الشيخ أمير الركب و ان ركب مدوكال لا ينزل إلا فى هنشير الشيخ فرحب كرمهم و عرصة إطعامهم أوسع من فناء أرضهم (بكسر الفاء) و هذا مشهور لدى الخاصة و العامة غير أن الدنيا كادت أن تقل عندهم فلم يبق إلا رفع هممهم و علو منازلهم فجمحت أنفسهم أن ترى بغير كرم و عزت أن تعلم بغير سخاوة زادهم اللّه رفعة و قدرا و جاها و هداهم و وفقهم إلى أهدى سنن و أعز طريق بمنه و كرمه.

ثم لما توجهنا إلى آخر تاجوراء زرنا المحب فى اللّه و الأخ من أجله كريم النفس رحيم الغريب ذا الفضائل و الفواضل فان عوامل رفعه دائمة العمل، و بناء جوده راسخ فى الكمل، و كذا عوامل جزمه فى الحب و حسن الظن و الاعتقاد فى الفعل المضارع و المشابه فى التخلق و التعلق بالسكون و الطمأنينة للّه تعالى لا تتحول و لا تتبدل، سيدى عبد الحفيظ نجل الشيخ سيدى الصيد المذكور لأنه جده و قد سبق الود

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۲۳

بيننا فى الحجة الأولى و الثانية و هو زائد الإكرام لدينا حتى كاد أن يسلم أهله فى جانبنا غير انه الآن كبر سنه و وهن عظمه و قربت منيته فتارة يغشى عليه و تارة ينتبه و قد ثقل سمعه و ضعف بصره و انقطعت مادته و هو ملقى على الفراش، و ربما أصابه التحرك و الارتعاش.

نعم الآن قوى عند اللّه حظه و علت مرتبته، و عظمت رفعته، بلا قدح و لا انتقاش و ما أعلى رفعته و أعلى منزلته بموت ولده سيدى

على ظلما و عـدوانا فعز عليه الصبر، و أحنى عليه الكبر، فعظمت مصيبة ابنه، و ثمرة كبده و قرة عينه، فليس ينساه على الدوام، إذ يكثر فيه اللهج و هو سبب فى الاغتمام، فلم يكن يخدم عليه، و يجرى بين يديه، إلا حفيده ولد بنته و لا شك أنه قريب عند اللّه رحيم الأمة ما دام فيهم مجاب الـدعوة سـريع الإجابـة و قـد ثبت العهـد بيننا و بينه فلله الفضل و المنـة فسألنا الدعاء منه و أخبروه بان هذا فلان قد أقبل من الحج ففرح و سـر، و مسك على يدى و كر، فانهمرت عينه فعند ذلك كثر الدعاء منه و بها قد در، إلى أن أشفينا عليلنا منه و أبردنا غليلنا لديه فعلمنا أن نصـيبنا من اللّه وافر، و حظنا لديه من الخير حاضـر، و سعدنا نحوه سابق ظاهر، ثم انفصلنا من عنده، و قلوبنا ملتفتة لديه، ما أصعب الفراق، فإن ناره أشد من نار الاحتراق.

هـذا و أن الخلق قد فاض علينا، و كثر لدينا، فغاب علينا من نعرفه و التبس لدينا الفاضل من المفضول فجدير أن من قصد الركب راغبا هو منهم إذ مقصود الجميع سؤال المغفرة لهم و لجميع الأمة رضى اللّه عنهم فما استقر بنا الحال ذهبت أنا و جماعة

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۲۴

من الفضـلاء و نزلنا فى دار الأخ فى اللّه سيدى محمد المذكور فأقبل علينا الناس بالبشرى لقدومهم و لقدومنا و أما أصحابنا فقد نزلوا تلـك الليلـة مع الركب و بعـد ذلـك أتى بهم إلى داره بخيولهم و إبلهم و أقام بجميعنا أكلا و شـربا و علفا بل تكرم على الجميع غاية الإـكرام، و اهتم بأمرنـا غايـة الاهتمـام، فليس إلاـ الكسـكس و اللحم صـباحا و مسـاء و مع ذلك أن الطعام كاد أن لا يشترى من كثرة غلائه فترى الناس سكارى و ما هم بسكارى و لكن القحط غمهم و غشيهم ما غشيهم من الجوع.

نعم دخلنا فى وقت جـذاذ التمر فكثرت أنوع نعمه علينا فان النفس أخذت ما تشـتهيه من الرطب و البلح و التمر و الرمان الجيد و الخبز الطرى و اللحم و السـمن و أنواع الفواكه و الميـاه البـاردة فشـركنا اللّه على نعمه و سألنـاه أن يمن على أهلها بها على الـدوام بفضـله و كرمه و ذلك كله بفرح و سرور.

و مع ذلـك أن السـلطان الأفخم، و الأمير الأعظم، محب الصالحين، و العلماء العاملين، صـغير السن، كبير الشأن كثير المن، السـيد على باشـا قـدم فى الولايـة على أقرانه، بفضـل اللّه و امتنـانه، فهلكت أعـداؤه من غير حرب و لا قتال من أعوانه، و إنما كيـدهم رجع عليهم فأهـل اللّه عروته الوثقى، و أنهم جنـة له و بهم الاستسـقاء و بهم صـعد فى المعالى و ارتقى، أمـدنا بطعام و ما ينوب الجميع من أدام و علف فلم يرض أخونا سـيدى محمـد أن يكون طعاما لنا و إنما أطعمنا من عنـده و أمدنا بمده رعيا للحلال إذ هو رجل أورع الناس، و أثبتهم للباس، صادق فى المعاملات، خال من الشـبهات، محافظ للأوقات، راع للميقات، فى جميع أحواله، و سكونه و انتقاله، و كفه و اشتغاله، و لا حرث إلا منقى، و لا زكاة عليه تبقى، و لا مطمع له فى أحد غربا

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۲۵

و شـرقا، يـدق فى الإخلاـص، و يراعى مراتب أهـل الاختصاص، فيحق به الاقتـداء، و يعتبر فى الإرشاد و الاهتـداء، و يسـد باب الخلق إدبارا و إقبالا و مـدحا و ذما عليه سدا، يختار للصـحبة أهل الحق و من ينهض حاله، و يدل على اللّه مقاله، جدا و اجتهادا، فما أحسـنه خلـة و صداقـة و صـحبة و ودا، و رعايـة و اعتبارا و ودادا، غير أن من لا يعلمه، و ليس على الحقيقـة يفهمه، يظن ضـد ما ذكرناه فيه و يصـد عنه صـدا، و ربما طغى لسانه، و تدلى عنانه، و قال ما سولت له نفسه و هدما عليه من الصدق و التصديق بناؤه بسوء طويته و قبح ظنه و قوة حسـده هـدا، رضـى اللّه عنه و قـد اطعم كثيرا عنـد وصوله نحو السـبعين مائـدة من العيش كل مائدة تطعم كيت و كيت من الناس، و خيره ظاهر بلا التباس، يحصل منه بلا مشـقة و لا كلفة و لا بأس، و ربما من رأى ظاهره من انقباضه و عدم بسطه و إقباله قال بكون بخيلا، و ترى الجبال تحسـبها جامدة و هى تمر مر السـحاب و إنما هو كريم النفس تنزلا و تنقلا، غير انه يختار لإحسانه أصلا و فرعـا و حالاـ و مآلا، و علما و عملا و ورعا و هيبـة و إجلالا، فما أدقه فى الباطن، و أعرفه بالكمائن، و أعلمه بالوقائع و الضـغائن، فنعم الرجل من يعتمـد عليه، فيسـلك و ينتهى إليه، إذ هو حى دائما، متيقظا فاهما، لا يأمن النفس فى مرعاها، يحق له التحقيق، و لا يسـلك إلا أحسن طريق، فنمطه بين، و أخـذه سـهل لين، يكبر على المتكبرين، و يعلو على المتجبرين، و هو عبـد للمتواضـعين، و خديم لأهل

الصدق و الحق و التمكين، يرفع نعالهم، و يبلغ مأمولهم و يجبر عليلهم، و لأهل الحيرة و الريب دليلهم، ليته ظهر للخلق بحقيقة ما عليه، و ينجلي وصفه بين العامة من خلق اللّه في أرضه و سمائه، قد خفي بوصف اللّه، و ظهر بنور اللّه، عزيز في الوجود، و نظيره في الخلائق مفقود، أحمد اللّه على معرفته، و أشكره أن جعلنا من أهل مودته، فليس يملك معنا شيئا بل يقدم نفوس الأخوان، عند الحاجة و الاضطرار بلا امتنان، فلا يمن فعله، و لا يكثر لهجه و قوله، فقوله حق، و كلامه صدق، تقصر العبارة عن كماله بالنطق، حاله أحوال الصديقين،

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۲۶

و نعته نعوت المتقين، أدام اللّه أشراقه، و أدام إنفاقه، و أعز صعوده، و أرتقاءه، و جعل البركة في ذريته على الدوام، و أناله ما نال أبوهم بلا كد و اهتمام، و إنما هو فضل من اللّه و رحمة مع إكرام و احترام، بمنه و كرمه.

أقول لما نزلنا في دار سيدي محمد الشريف النوفلي البلغيثي و كانت ثيابي رثة، بالية الجثة، متوسخة الأطراف، أضناها السفر و عدم التبدل فيها و الاختلاف، أتى إلينا المحقق الفاضل، و الأخ الكامل، سخي النفس، صادق عند الضر و البأس، الموفي بالعهود، و نظيره في الناس غير موجود، الأديب على الإطلاق، المحب بالاتفاق، مفتي الأنام، المبدىء بالإحسان و السلام، فإذا أحسن أغنى، النخبة المختار الأسنى، فليس يرجع في وداده، فأن رأى محبا تقوى له في استعداده، فإن لم يصبه و أبله فطل من أمداده، و كذا أبوه و أجداده فهم رجب الكرام، و دار إحسان لأهل الإسلام، محلهم لأهل اللّه دار راحة و مقيل، السيد الشيخ محمد بن مقيل، كساني بثياب جديدة حائكا جديدا و قميصا كذلك و بشماقا و قلنسوة كساه اللّه و أولاده كسوة العارفين باللّه تعالى و أدام علينا و عليهم ستره و حلّانا و إياهم بحلية أهل الإنابة من المتقين، ثم اعتنى بنا بالإحسان، وجد في أمورنا بالفعل و اللسان، دائما لا يغيب عنا، و على الدوام يدور بنا، دوران الخديم بالسادات، مكنه اللّه و إيانا مع ذرية الجميع من أعلى الدرجات، فإن احتجنا شيئا و كان في دراه أعطاه، و إلا فمن السوق سأل عنه و اشتراه، فلا يبخل بالطعام، و لا يغتم بكثرة المجتمعين من الأنام، واسع الموائد، كثير الفوائد، كريم بما تشتهي النفوس، و تلذ به الأرواح من المعاني و المحسوس، مادة الكتاب عنده في كل علم لا تعد و لا تحصى و من أجل ذا و قوة هذا أهله رؤوس، فكل فن إلا- و فيه عدة من الكتب متكررة، تراها تمد لك المرة بعد المرة، جعل اللّه داره مرسى، و حياة لكل علم و سنة تنسى، إذ إنهم قرى للضيف، و نزل لابن السبيل و الضعيف، فيميزون بين الوضيع و الشريف، لا- قطع اللّه عنهم مادة الصيف و الخريف، دائما له و لذريته من غير

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۲۷

مشقة و لا تكليف، و كذا الربيع و الشتاء بلا تكييف، و هل جزاء الإحسان إلا الإحسان من اللّه عليهم بالفضل و الرحمة بلا سبب و لا جد و لا- كد و لا- سيف، و كذا كان أبوه معي في الحجة الأولى، أغنى اللّه أولاده في الآخرة و الأولى، فهم جنة للغرباء، رحمة للأقرباء، و جنة (بضم الجيم أي وقاية) لأهل الخوف و الرعب وقانا اللّه و إياهم من أوصاف أهل سبأ، فإذا بتنا في داره جمع الخاصة من العلماء و الفضلاء و الأدباء و الأساتيذ القراء، يكرم نزولهم، و يتفضل بالإحسان لديهم قاصدا حصول البركة منا لهم، و إزالة الوحشة عنا بهم، و حصول المدد لنا بسبب معرفتهم، و قوة انفعالنا بكيفية اجتماعهم، فإنهم كنوز تستعد لضرورية الأحوال، و تمتد عند الاضطرار بالنوال، فربما زال عنا النوم في تلك الليلة رأسا بإلقاء الفوائد بالحكم النبوية، و الفوائد النقلية، و الإفهام الوهبية، و العلوم اللدنية، و الأشعار الأدبية، و الحكايات السنية، و القصص الماضية، فيزهر المجلس بالأنوار، و كيف لا و هي روضة من المقربين الكمل و الأخيار، تدور به كؤس العاشقين، و نفائس أهل المحبة من المتقين، و حلل المعاني و الأذواق من ثياب العارفين، و لو تراها تقول هي جنة عدن يغشاها روح و ريحان، و قد قال صلى اللّه عليه و سلم لا سمر إلا بالعلم و المسامرة التحدث بعد العشاء بالعلم و الفهوم، و الاعتناء بالعبودية بالذكر و القيام و التهجد للّه الحي القيوم، فدام إحسانه معنا، و ارتقى به أحوالنا، كان اللّه لنا و له بالإسعاد، و من علينا و عليه بالإمداد، بفضل اللّه الوهاب الجواد.

و قد تزين مجلسنا بوجود الفاضل الكامل، و العبقرى الهمام الكامل، نبراس وطنه، و فريد عصره، وحيد فى وقته، و روع فى حاله، زاهد فى ماله، رقيب لأجله، فإذا تكلم أغرب، و بين و أعرب، لا نظير له فى زمانه، متمكنا فى المعالى فى أوانه، طريقة الصفاء، و عهوده بالوفاء، فلا ينعكس أبدا، و لا ينتكس سرمدا، علمه بالميزان، و مجلسه بالأمان، فلا يلمز و لا يغمز بالهوان، يشم من الحقيقة، و يرتوى بالشريعة، فلا

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۲۸

يتبحر فى إحداهما، و لا يتجاسر على أهلهما، حسن الاعتقاد، خال عن البحث و الانتقاد، ينطق بالحسن و الجمال، و يغض عن العيوب و السؤال، ريحانة العارفين، و يسلك مناهج المتقين، فابن أبى جمرة و صاحب المدخل ديانته، و القرآن و السنة هدايته، فلا يعلو عن أهل الهدى، و يتكبر عن أهل الاعتدا، و إن خالطهم فعلى طرف اللثام، و ليس بجد و اعتناء و اهتمام، و إنما هى جنة لعرضه، و وقاية عن شره، و ضره يصرفه لمن يشاء يكاد سنا برقه، فلا يزعم إذا تحدث، فيوفى بالعهد و لا ينكث، منور السريرة، قوى البصيرة، عقله وافر كامل، و هو حافظ و ناقل، لا يخلو عن حكمة و فائدة، و لا عن منة و عائدة، يراعى الإخوان، و لا يسرع بالهوان، و لذا لا ينكر الإحسان، و لا ينقطع عن السنة و الاستنان، دائم الفكرة، قوى العبرة، حسن العبارة، يقنع بما وجد، و لا يختل إذا فقد، فيشكر الأنعام، و يرضى بضده بما يصيبه من الآلام، منذ عرفته يزداد لدى وداده، و يصعب على ابتعاده، ما أحسنه و ألطفه، و أرحمه و أرأفه، تقصر العبارة عن أوصافه، إذ الكرم و الجود فى معدن أسلافه، شريف النسب، قوى الأدب، السيد النورانى، الشيخ محمد العربى الفرجانى، أعز اللّه رفعته، و أدام نعمته، و أنفذ فى الحق كلمته، و نفع به أمته، رضى اللّه عنه و أمد بالعلم ذريته، و أحسن فى الخق سيرته.

نعم اجتماعنا رحمة، و افتراقنا عذاب و نقمة، جمع اللّه بيننا فى الجنة مع النظر إلى وجهه الكريم.

و قد اجتمعنا أيضا بالفاضل، و العالم الكامل، و السيد الجليل، و الفقيه النبيل، ذى الإرادة و الأوراد، و العدة و الاستعداد، و ذلك موروث عن الآباء و الأجداد، الشيخ النورانى، و المحقق الصمدانى، و السيد الفردانى، الشيخ محمد السودانى، كان اللّه له دينا و دنيا بمنه و كرمه.

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۲۹

و كذا اجتماعنا بمن له حلاوة فى اللسان، الموصوف بالحفظ و الإتقان، المشتغل دائما بتفسير القرآن، فريدة الأوان، و عائدة الزمان، العالم النورانى، السيد محمد الصكلانى، كما اجتمعنا معه قبل و كذا من أصحابنا، و قرة أعيننا و ثمرة فؤادنا، و من على اللّه و عليه اعتمادنا، المحب على الدوام، خير زماننا من الأنام، الفاضل الربانى، الصدوق النورانى، الود و الخل و الفانى، عن نفسه و عن كلية أحواله فى حب المنانى، الذى هو جنتى و حرزى، سيدى محمد بن الشيخ البركة المعزى.

و كذا اجتمعنا مع العلامة النورانى، و الفهامة الفردانى، الفاضل فى تحقيق المبانى، الفصيح البليغ فى بيان المعانى، نظمه سلس عليه حلاوة، و جواهر ألفاظه لها طلاوة، و هو مقبول عند كل الناس، و خالص من الالتباس، كأنه خارج بلا كلفة، فيه التوحيد و أحكامه صرفة، الظاهر عليه فضل البارى، الشيخ المنور النورى، أمدنا اللّه و إياه بالعلم النافع حتى يصير الكل ضرورى.

و من أصحابنا أيضا الود الصادق، و الخل فى اللّه الرازق، و خيرة الناس و الخلائق، نور إيمانه شارق، خديم الإخوان، عبيد الرحمان، ذو الجود و الامتنان، و ذلك بفضل اللّه المنان، فليست أفعاله إلا لوجه الخالق، سيدى عبد الخالق، أذاق اللّه لنا و له حلاوة التقوى، و أدخلنا و إياه جنة المأوى.

و أما غير هؤلاء من الأشراف و المريدين و المحبين و طلبة العلم فلا أحصى عددهم و لا أؤدى حقهم و معدّهم كان اللّه لنا و لهم بالعطف و العناية آمين.

و ممن بالغ فى حبنا و أكرامنا، و تعظيم جانبنا، كاتب الحضرة السلطانية أيده اللّه و حفظه من شر الزمان، السيد محمد بن عثمان، لا خيب اللّه قصده، و من كل خير أمده، آمين.

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۳۰

و ممن بالغ فى حبنا أيضا المعظم الأجل الأنفع محب الصالحين، و العلماء العاملين، وزير السلطان يوسف الكاخية فانه يعظم جانبنا، و يقضى حوائجنا، فلا يعز عليه شىء من أمورنا، جعل اللّه البركة فى ذريته مع حفظه من كل طارق يطرقه إلا طارق خير.

و أما الأمير الفاضل، و المعظم الكامل، أيده اللّه و نصره، و أمده و أعانه، المجاهد فى سبيل اللّه، المنصور بعون اللّه، الغالب و المحفوظ باللّه، محبنا، و غاية و دنا، رفع اللّه قدره، و آمن بجاه النبى صلى اللّه عليه و سلم شره، خلد اللّه الملك فى ذريته، و كان لنا و له بالتوفيق و الحفظ فى ولايته، أسعد اللّه أيامه، السيد على باشا، أيقظه اللّه للسنة النبوية، و طهره من كل إثم و جريمة، و ألهمه العدل و الإنصاف، و طهارة النفس بالاستعفاف، فإنه قد أجاد فى حبنا، و بالغ فى تعظيمنا و إكرامنا و خدمتنا، و قد تركنا عنده فرسنا المراء و قد أحسن بها غاية الإحسان و قد تعجب الناس حين أخرجناها من داره، و ذلك كله من حسن اعتقاده، و غاية وداده، بجده و اجتهاده، و قد علمت منه أنه لا يحب مفارقتى و أنا كثير الحياء و إنما منعنى من الاجتماع معه كثرة الحجابين و أهل الحضرة من الدولة أعنى المماليك و القواد و العمال و غيرهم من رؤساء العسكر و أهل الوجوه من أهل البلد فمهما مررت عليهم إلا ظننت أنى مكشوف العورة و إلا فهو صغير الرأس لين الجانب لا يتعاظم على جليسه مبسوط الوجه غير منقبض مرتب الكلام و لا يطيش بعقله ليس بلعان و لا سباب رحيم بالمؤمنين مقيل العثرات، و مقبل الشفاعات، غير انه لا تصل إليه الشكوى لقوة خفائه و عدم ظهوره فلا يصل المكروب إلى محله و لا المظلوم إلى موضعه و قد قلت له عند اجتماعى به فلا بد أن تجعل محله يصل إليك جميع الناس يبثون إليك شكواهم و لأن تنظر الظالم من المظلوم فتنصره و الظالم تقهره و السائل تجود عليه و العالم تعزه و توقره فترى الناس و ما هم عليه من الظلم و الهرج و المكر و الخديعة و الصدق و الكذب و الديانة و غيرها فتباشرهم و تتولاهم على ما هم عليه و أما الآن فلا يراك إلا أهل دولتك فربما أظهروا لك غير ما كان شرا أو خيرا

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۳۱

فتساعدهم فيهلك الناس أو تترك الأحكام بحيث تترك الناس على أغراضهم فتظن أن ذلك حلم بهم و شفقة عليهم و أنت راع و كل راع مسئول عن رعيته فلا تشتغل بشهوات النفس مع أزواجك و خدامك و مماليكك و تترك الناس على الإهمال فاتق اللّه فى نفسك و فيهم و قم بحقهم و أزجر الظالم عن المظلوم و كن حليما عليهم بلسان الشرع إذ كل حق يضيع فأنت ضامن شرعا فلا يمسك تقصير و تفريط فسمع حينئذ ما قلت له.

و قلت له أيضا أنك أهملت العلم و أهله و قصرت فى حقهم ما استطعت و قد فقد تدريس العلم من مدينة طرابلس بحيث لا ترى مجلسا من العلم إلا من ألهمه اللّه من الطلبة أن يدرس من غير أمر منك و لا معونة تكون لهم من بيت المال بسببك فرضيت أن يكون بيت المال تنتفع به وحدك و يأكله اليهود و النصارى و من لا معنى فيه فإن أعطيت شيئا منه لمن يستحقه جعلته مزية عليه و أظهرته لديه و كل ذلك يصغى له لأنه ذو عقل و لب يحفظ ما ألقى إليه و أوصيته أيضا بأنك لا بد أن تبنى مدرسة العلم و تحبس عليها أحباسا معلومة للمعلم و المتعلم كل بحسبه فرضى بذلك غير انه أراد أن يجعلها خارج المدينة لينزل فيه الغريب و الفقير يعين الكل على ذلك و لا أدرى أيدوم ذلك به أو ينساه غير أن جلساءه و قواعده غير مشتغلين بذلك و السلطان مذهبه على مذهب جليسه.

حاصله لا بأس به و هو يستمد الخير من أهله و يرغبه بأسبابه و أن العلماء أيضا يجتمعون معه كل يوم الاثنين أو يومين فى الأسبوع إطلاعا على بعض الخصومات بين يديه و هم جماعة خيرهم الفاضل المذكور سيدى محمد السودانى و سيدى محمد العربى الفرجانى يبحثون عن الواقعة على الحق ما ظهر لهم مع حضور القاضى و المفتى و قد حضرت لهم مرة واحدة من غير قصد منى و لا منهم فانه أمر اتفاقى إذ بعث لى

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۳۲

السلطان رغبة فينا و محبة فى اجتماعنا فقدر اللّه بالاجتماع بعد الظهر إلى صلاة العصر فافترقنا و مرة أخرى بعث لى و سيدى محمد الشريف حين رجوعنا من الحج فجلس معنا و أوصيناه بتقوى اللّه تعالى و العلم و الإعانة و الاجتهاد فى أمور المسلمين فقال لسيدى محمد أنت صعب و قد أهلكت اللّه بك فلانا و فلانا و سيدى محمد ساكت.

و بالجملة فإنه صاحب خير و إن له حسن اعتقاد فى أهل الخير إذ قال لما تركت فرسى عنده و هى فى داره فأتى النصارى إلى بلد طرابلس يأخذونه أو يهدمونه نعم لا طاقة لهم بذلك فاهتم الناس بالخروج إلى المنشية خوفا من ضربة المدفع و البونبة قال فقلت لهم و اللّه لا- خرجت إذ فرس الشيخ الفلانى عندى و أنا أخرج أو يمسنى منهم الهلاك فمكثوا مدة على شاطئ البحر حتى أنزل اللّه الصلح بينهم و الأمان التام و هذا كله و نحن فى المشرق فرآها كرامة و إنما الشفاعة من أهل التصريف و أهل وطنه.

و قد قال بعض العارفين إذا أراد اللّه أن يتفضل عليك خلق الفعل و نسبه إليك كان اللّه لنا و له بالعافية التامة الدائمة الشاملة بمنه و كرمه مع التوفيق و الرحمة و البركة فى الذرية و الموت على حسن الخاتمة على فراش العافية آمين.

و مدة إقامتنا فى طرابلس مشتغلين بزيارة الأحياء و الأموات فزيارة الأحياء أكثرهم زرناهم فى دار سيدى محمد فى زيارتهم لنا و أما زيارة الأموات فقد زرناهم فى قبورهم بالوصول إليهم كالولى الصالح سيدى محمد بن سعيد و قد رأيت كلامه ككلام الشيخ محيى الدين سيدى عبد القادر و غيره من العارفين و الشيخ الصيد و تكرم علينا أولاده بأكثر من طاقتهم و الشيخ ابن جابر و الشيخ المرغنى و الشيخ المعزى و قد أدركته و هو حى و انتفعت به أتم انتفاع و قد أوفيت الكلام عليه فيما سبق.

و كذا زرت الأشياخ الذين فى المدينة و قد أخبرنا العلماء بهم ممن يعرف تاريخهم

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۳۳

و طبقاتهم و كذا من كان خارج المدينة بعضهم بالتفصيل و بعضهم على سبيل الجملة أفاض اللّه علينا من بركاتهم و جعلنا فى زمرتهم و ممن كان هناك الشيخ الحطاب أعنى أبا الحطاب الذى حشى خليلا إذ له دار بمكة و الأخرى بطرابلس و لذا نشأ ولده المحشى الحافظ مكيا.

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۳۴

ذكر خروجنا من طرابلس

حاصله أقمنا بها نحو السوقين فى إكرام من أهلها و تعظيم لنا و للحجاج فظعنا على خير و خرج معنا أكثر أهلها من العلماء و الطلبة الفقراء و أهل السنة و بعض رؤوس الدولة و الأكثر من العامة و أعيان البلد من باب المدينة و خرج الركب صبيحة و نحن ننتظر بعض الحوائج و الأشياخ الذين يصلون للتوديع من أهل المحبة و الاعتقاد ليتم سعينا و نغتنم بركاتهم على اللّه أن يزيل الحجاب عن قلوبنا بجاههم عند اللّه و كذا أهل المنشية من المحبين جميع الأشراف و الطلبة و الفقراء و أهل الاعتقاد فخرجنا من طرابلس عند الضحى الأعلى فمنهم من رجع و أما أكثر العلماء من المحبين و الفضلاء ركبوا معنا فمررنا بفرفاش بلدة فيها زيتون كثير فزرنا من فيها على الجمال و الناس فى أثارنا أتوا إلينا للتوديع من نعرفه و من لا نعرفه جزاهم اللّه خيرا و وفق اللّه الكل إلى صالح القول و العمل.

ثم مررنا كذلك إلى وقت الظهر فصلينا عند بعض الصالحين عند شاطئ البحر و كان مجاب الدعوة تقضى الحوائج عنده ثم مررنا بزنزور بلدة واسعة فيها زوايا و أرض و مزارع و فيها مدرسة من أحسن المدارس التى فى تلك السواحل و على بابها قبر رجل من الصالحين قريب العهد قيل انه يسمى بالعريفى.

قال شيخنا المذكور ما نصه قال أبو سالم و أخبرنى من أثق به أن هذا الصالح كان يجلس عند زيتونة عند قبره حين كان حيا فجاء رجل بعد موته فجلس فى ذلك المحل و شرب فيه الدخان فلما نام ذلك الرجل فى الليل جاءه و وقف عليه و ضربه على

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۳۵

رأسه و قال له مكان كنت أجلس فيه فجئت إليه فنجسته فأصبح الرجل أعمى و هذا يدل على خبثه أى الدخان و حرمته و الأكثر على التحريم كالشيخ إبراهيم اللقانى و شيخه الشيخ سالم السنهورى و غيرهما من محققى المتأخرين من المغاربة.

و من ألف فى إباحته الشيخ أبو الحسن الأجهورى ورد كلامه الشيخ الففون ردا بليغا نقضه عروة عروة و كذا أباحه سيدى أحمد بابا التنبكتى السودانى و قد أخبره السكتانى أنه راجعه فى كثير من أدلته عل الإباحة فلم يجد عنده تحقيقا أيضا قال و غاية أمره أنه ليس من أخلاق الصالحين و قال أيضا رأيت فى شأنه نحوا من ثلاثين تأليفا بين محلل و محرم و لا أرتضى شيئا منها و إنما مذهبه التوقف و عدم الجزم فيه قال و من أظلم ممن قال إن اللّه حرم هذا أو أحله من غير نص شرعى أو قياس مقبول مسموع إلا انه جهلت الأحكام فيها إلى الآن و قد علم انه لا يجوز للمرء أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم اللّه فيه إذ لم يتضح فيه شىء بثلج له الصدر و يطمئن به القلب إلا أن بعض الصالحين يقول إنى رأيت فى درعة بلد الشيخ فى النوم و تناولت شيئا منها ليلة الخميس عند اجتماع الطلبة فيها كما هى عادتهم زمان تعطيل القراءة إذ جاءنى فى عالم النوم رجلان بيد أحدهما حربة فأخذا يضربانى و يعذبانى و أنا أعتذر لهما و أقول لهما لا علم لى بشأنه و لا يقبلان عذرى و عذبانى عذابا شديدا حتى استيقظت و وجدت أثر الضرب شديدا و بقيت من أجل ذل نحوا من سبعة أشهر مريضا و لا شك فى صدق الرؤيا.

نعم أن غالب المتورعين من الفقهاء لا يستعملونه و إذا اختلف الفقهاء فى حكم و كانت الصوفية فى جانب واحد فالحق معهم لأن اللّه صفى قلوبهم من الأكدار فلا ينطقون إلا عن حق و صواب.

و أما علماء المشرق فيتساهلون فيه فضلا عن عوامهم فكثيرا ما يستعملونه فى المساجد و هو شنيع كبير إذ يجب تعظيم المساجد و تقديسها من هذه الرائحة الكريهة

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۳۶

فانه يحرم كل ما يخل بتعظيمها و يقتضى اهانتها حتى الثوم و البصل مع الاتفاق على إباحتهما و لو اضطر إليهما الآكل للدواء إلا أن أهل المشرق فى الغالب يخلون بتعظيم المساجد يأكلون فيها و يشربون و يحلقون رؤوسهم و ينامون اه كلام الشيخ أبى سالم باختصار و تغيير.

ثم قال شيخنا قلت و أما شيخنا قطب الزمان و علامة الأوان، الجامع بين الشريعة و الحقيقة، إلى أن قال سيدى محمد بن ناصر نفعنا اللّه به و أعاد علينا من بركاته فطريقه فيه طريق المتورعين مع عدم التفوه فيه بشىء على أنه شديد النكير على متعاطيه و يأمر بالضرب بالنعال و اليد لشاربه و أتى بعض الباعة يوما به فأمر به فأحرقت و غرم له قيمته و لا يترك أحدا يشربه فى أماكنه و محاله رضى اللّه عنه و يقول لا حظ لشاربه فى طريقنا و لا يشم له رائحة أعاذنا اللّه من ذلك و هكذا رأى متحققى علماء الأمة و السنة اه كلامه باختصار.

فنعود إلى ما كنا بصدده فلما بلغنا زنزورا و إذا بمحب الصالحين و خادمهم الفاضل الكامل محبنا و غاية و دنا قائد عمورات قائد زنزور مشهور بالفضل و رغبة فى الخير و هى خير و قد بنى مدرسة عظيمة مربعة و فيها بيوت كثيرة و مسجد جيد و عرصة طيبة يستحسن ذلك جميع الناظرين فلا يكاد من يريد القراءة و التحنث بالعبادة أن يخرج منها و فيها طلبة القرآن و العلم و قد رتب لها مدرسها و يجرى بعض المعيشة عليهم و قد حبس عليها أملاكا و أوقافا أكثرها المحاذى لها تقبل اللّه منه جميع ذلك بمنه و كرمه فعزم علينا فبتنا عنده مع جميع من ودعنا كسيدى محمد الشريف و سيدى محمد بن مقيل و جميع المحبين و قد تكرم و أحسن ضيافتنا و هو ليس له خدمة إلا على الزاوية المذكورة فانه يطعم من كان فيها إذ ليس له ذرية أصلا فبتنا عنده خير

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۳۷

مبيت إلى أن صلينا الصبح و انفصلنا عنه على خير و كرامة و حب و تعظيم فسألنا اللّه حسن الخاتمة و بلوغ المأمول .

فإن قلت كيف يفلح من بنى مدرسة من مال المسلمين ليته تركها عندهم و قد قال صلى اللّه عليه و سلم فى الزانية تتصدق ليتها لم

تزن و لم تتصدق فكذلك هو ليته لم يأخذ مال الناس و لم يبن و قد سمعنا من المنكر عليه انه لم يقصد بذلك إلا التفاخر و المدح و الرفعة عند أهل الدولة و إقبال الخلق عليه لا سيما من لا يعرف الأحكام ممن يظهر الصلاح و يدعيه فتجده يمد لسانه فى مدحه و ينسب له ما لا- يليق بمقامه إذ يجب على أهل العلم زجره و الرد عليه بأن يقولوا له لا- تأخذ أموال الناس ظلما و إن أخذتها يجب عليك ردها لأربابها فإنها فى ميزانك و فى ميزان من ولاك فإن هو قبل فهو ذاك و إلا فليس هناك.

قلت الأمر كما ذكرت إلا أن العلماء ينبغى أن لا يثبطهم و يقعده عزائمهم عن هذه الفضائل فإن الظالم و المتسلط إذا حسنت نيته و أراد أن يبنى قنطرة أو مسجدا أو غير ذلك مما فيه النفع الدائم و الثواب المستمر غير انه يبنيه من مال المسلمين الذى لا يحل أخذه و علم أنه لو لم يصرفه فى أبواب الخير صرفه فى المحرمات و أما رده لأربابه فلا كيف يحل لعالم أو صالح أن يقول لمن هذا وصفه فلا تفعل فإن المال ليس لك و أما ما تبنيه فوبال عليك لأن من شرط الثواب أن يكون من مال الإنسان فترى من عزم على ذلك تقاصرت نيته و ضعفت همته و بطل عزمه فكأنه أشلاه على إتلاف تلك الأموال فى المحرمات و عامة الشهوات فيصير كمن بنى قصرا و عدم مصرا بل الحق أن علم أنه أى الظالم لا يرد الأموال لأهلها و لا يستحلها من أربابها أن يجعلها فى سبيل

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۳۸

الخيرات و مصارف البركات و مغانم المثوبات فإن الحاصل من ذلك حصول بركة الدعاء من عامة المسلمين و خاصتهم و قد قال صاحب المدخل أن المدرسة إذا بنيت من مال حرام و جهلت أربابه فيجوز للعالم أن يأخذ منها بوجه العلم انتهى فترى أنه لو لم يكن ذلك الفعل لما توصل إليها ذلك العالم و لا كانت سبيل الخير.

و قد قال الشيخ عبد الكريم الزواوى فى شرح الوغليسية ما هو حاصله أن المتبرع من الولاة بمال المسلمين الذى جمعه ظلما و عدوانا من غير وجه شرعى ثم صرفه فى مصارف الخير لا- سيما الدائم نفعه كالقناطر و الأوقاف الجارية له أجر الدعاء و بركة النفع من المسلمين و ثواب إدخال السرور عليهم و إن لم يكن ماله فترى الظالم يثاب من وجه و يعاقب من آخر فهو أولى من العقاب المحض و المحرم الصرف فليس لأحد ممن لا يعرف أحكام الشريعة و لا أصول الحقيقة أن يقول للظالم أياك أن تصرف تلك الأموال فى باب الخير فانه مسدود عليك، و مغلق لديك، فيويسه من رحمة اللّه و يقنطه من كرمه فربما أنسد الباب على هذا القائل و كان من القانطين أراد أن يتورع، فشرب كأس الأياس و تجرع، هذا و أن صاحب النور يعرف ما يأتى و ما يذر إذ رب معصية أورثتك ذلا و احتقارا، خير من طاعة أورثتك عزا و استكبارا، فلا كبيرة إذا واجهك فضله، و لا صغيرة إذا قابلك عدله.

نعم المال إذا جهلت أربابه سبيله سبيل الفىء إن كان منتظما بحيث يصرف فى أبواب الخير و إلا فهو للفقراء و المساكين فإن فضلت منه فضلة تصرف فى منافع المسلمين كما ذكرناه آنفا و إياك أن تسمع لمتفقهة الزمان، و صلحاء الأوان، الذين هم المعجزة عند الاختبار و الامتحان، فإنك تراهم يتأسفون على صدور الخير باللسان، و قد تبت أيديهم عن صنيع المعروف و موارد الإحسان، يذمون الكريم على كرمه،

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۳۹

و يمدحون اللئيم على تكبره و أعظامه، فقضايا الحق على عكس أهل العصر، و مواطنهم ليست مواطن النصر، و قال صلى اللّه عليه و سلم لو لا الحمقى ما عمرت الدنيا فناهيك بأهل الحقائق فشد يدك عليهم لا سيما المتمكنين فى الشريعة رضى اللّه عنهم و أرضاهم و جعل الجنة مثواهم.

انعطاف إلى ما كنا بصدده تعلم أن قائد عمورات المتحدث عليها لما انفصلنا عن محله و شكر صنيعه و اغتنام البركة من أهل الفضل من المسافرين و من أهل بلده ركب مركوبه بعد أن ودعنا من فى المدرسة من الطلبة و أهل الفضل منها و من أهل المحل يودعنا مع رؤساء من ارباب دولته و هو رجل كبير السن زاد لحمه و شحمه عن وضع الاعتدال ذهب معنا أميالا بالتشييع و متأسفا على المفارقة بالتوديع غير أنه تحرك ليلعب على فرسه متمثلا لما عسى أن يكون مرويا عنه صلى اللّه عليه و سلم من ركب فرسا و لم يلاعبها أو لم

يعرفها ففيه نزعة يهودية أو كما قال.

نعم لما مدها بالجرى مع كاتبه سقط عنها و كان ملقى على الأرض ففزعنا منه و ظننا انه مات أو كاد فلما وصلنا إليه وجدناه متيقظا نشيطا فقام من حينه فاختبرناه عن عزمه و دينه فكان منه ما كان غير انه لم يتغير بالجنان فقلنا من حينه أمرك و صح مقصودك إذ من صنع معروفا فأصيب عنده كان مقبولا فى معروفه ففرح و سر حسبما ورد فى الحج أنه إذا كان مقرونا بالمصائب و المشاق عظم أجره عند اللّه و قبل و إلا فلا.

و قد ورد عن بعض الفضلاء و أظنه أبال الفضل النحوى أنه حج و رجع و لم ينكد و لم يصب فى ماله و لا بدنه فعظم ذلك عنده و قال أن حجى لم يقبل فخطر ذلك فى باله عند قربه من وطنه و هو فى نواحى نفزاوة فلم يلبث إلا و خرج جمع من المحاربين و ثلة

من المعتدين فأخذوا ماله و سلبوا ما عنده فقال الآن تم الأمر و عظم الأجر و قبل الحج و قضى الوطر ففرح عند ذلك إلا أن كاتبه خاف منه و تروع قلبه إذ ربما عاقبه على ذلك فسأل الشفاعة منا أن يجعله فى حل فكان الأمر كذلك و بعد ذلك بسويعات عند قربنا من بلدة السيد الفاضل سيدى عبد الخالق فى المايهٔ محل سكناه رجع عنا من كان يودعنا من أصحابنا و بقى البعض ثم قائد عمورات بعد الإلحاح فى الدعاء له و لمن كان معه بالمغفرة و الرحمة و دوام النعمة.

ثم مررنا بأهل الفاضل الكامل الأخ فى اللّه سيدى عبد الخالق فنزلنا عندهم صبيحة فأطعمونا بالكسكس و اللحم كثر اللّه خيرهم فدعونا لهم بقريحة قلب و قوة اهتمام و عزم و معنا الذى يقول فى طرابلس أنا قطب بمجرد لسانه و علامة القطب ليست عليه و غايته أن يكون من جملة المؤمنين بل إذا سمعت قوله تقول انه صاحب التصريف الكامل غير أنه تعكر عليه بعض الحوائج ظاهرا و باطنا فلا يساعده إلا قيل أصله أو أنه خفى علينا حاله فيتكلم قهرا و يطغى عليه أمر الوارد جهرا إلا أنه من لم تكن عنده شريعة فليس عنده دقيقة فضلا عن الحقيقة و الحقيقة لا شريعة معها زندقة و الشريعة لا حقيقة معها تعطيل و فسق و قد قال إمام دار الهجرة مالك من تصوف و لم يتفقه فقد تزندق و من تفقه و لم يتصوف فقد تفسق و من جمع بينهما فقد تحقق.

و قال الإمام عز الدين ابن عبد السلام كل حقيقة لا شريعة معها فهى باطلة و كل شريعة لا حقيقة معها فهى عاطلة انتهى فإذا يجب عليك أن تنظر من تتخذه لدينك و لا تغتر بكل ناهق و ناعق فتسلم فى دينك و تكون من خاصة اللّه فى عباده بعد حسن الظن فى اللّه و جميع المسلمين فتعلى همتك و ترفع منزلك و قد نزهنا هذا الإنسان عن

القطابة لعدم تمكنه و إنما سلط عليه اللبس و الالتباس، فلم يفرق بين الحق و الوسواس، و إذا زجرته زاد فى العكس و الانتكاس، و مع ذلك أنه يظن فى نفسه ما لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر فتجد العلماء يضحكون عليه و يستهزئون به و يجعلونه مسخرة فبعضهم يرد عليه و ينكر خصوصيته و بعضهم يوافقه و يساعده ليسلم من شره إذ يعتقد أن كل ما صار فى العالم فهو على يديه و نحن اعتقادنا فيه أقل مما يدعى و أسلم مما يعتقدون فيه من الزندقة و ما به إلا غلبة الحال و الوارد مخلطا و مقترنا بطغيان النفس و وساوس الشيطان اللعين فمن يفرق بين الخواظر زل قدمه و اللسان تابع لما هنالك و اختل عقله ببعض الأطعمة و الأشربة فصار فى محل الإهمال فيتصرف بتلك البضاعة الضعيفة أو غلب عليه طبع السوداء فيتكلم جبرا، و يتحرك قهرا، و يصيح اضطرارا، فتتخيل له صور المغيبات، و يزعم انه يطلع على سر المنكونات، و ما ذلك إلا الحكم الوهمى و انقلاب الطبيعة و تغيير حال الاعتدال و هذا معلوم عند أهل الطريقة.

نعم لا تزال طائفة ظاهرة على الحق ترد الباطل و تحقق الحق و ما دام ذلك لا ينقطع الخير عن هذه الأمة ما زلتم بخير ما دام يرد بعضكم على بعض بشرط أن يكون الراد سالما من العلة النفسية و هتك حرمة المسلم بإظهار المعائب و إخفاء المحاسن و إنما يقصد القيام بالسنة و إظهارها و إخماد البدعة و إبطالها و ليس حسدا و بغضا و عنادا و إسقاطا له من البرية و يسقط حظه عند الخليفة و

لذلك ترى الكثير ردوا عن باب اللّه باعتراضهم على الخلق و إن كانوا محققين فى أعتراضهم انظر الشيخ زروق فى القواعد.

هذا و أنى انفصلت عنه على خير و سلامة قلب و قد أشار لنا بإشارات بعضها يدق على الإفهام، و يعز عن الالتئام، فما وافق السنة قبلناه و ما كان متشابها طرحناه عن الاعتبار، و وكلنا أمره إلى العزيز الجبار، إذ عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۴۲

سبحان من أوقف العباد، فيما أراد، فمن نظر إلى الشريعة أعترض، و من نظر إلى الحقيقة سلم و فوض، فمن أراد الجمع بينهما فليقم بالسنة و الشريعة ظاهرا بلسانه إن كان عالما أو بيده إن كان سلطانا و يسلم بقلبه لعلم اللّه بالواقع و الحقيقة فالاعتقاد بالقلب ولاية، و الانتقاد به جناية، إذ لو كشف عن نور المؤمن العاصى لملا ما بين الخافقين و أحرق ما بين السماء و الأرض فكيف بالمؤمن المطيع حاصله قد عز الطبيب الربانى، و ذو الترياق الفرادنى، بل قد أنعدم رأسا و إلا فالمؤمن لأخيه كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا و هذا الباب واسع المجال، رحب المقال، كثير التفعل و الانفعال، فلا يسلم منه إلا أقل القليل، بفضل الوهاب الرحيم الرب الجليل.

ثم مررنا بالزاوية الغربية و هى بلدة عظيمة قد جمعت و وعت أجناس الخلق و أصنافه من العرب و أولاد الترك و قبائل شتى فلما فسد رأيهم و تقوى فيهم الإهمال و ضعف فيهم حكم السلطان اضطرمت فيهم الفتنة و عظم فيهم الهرج و صاروا إلى القتال انقسمت عليهم الأعراب أو أن السلطان رأى لهم ذلك لأن فيهم العمال و القواد و أرباب الدولة و هذه البلدة كثيرة النخل واسعة الأطراف قوية الأكناف و قد كثر فيها أهل الخير من الصالحين أهل الإنصاف الأحياء و الأموات ينبت فيها الصالحون كالشجر فلا تجد ناحية إلا و فيها فقراء و المزارات بحيث إن كل ناحية تجد فيها مزارا حيا أو ميتا فإن عليهم سيمة و علامة تعرفهم بسيماهم و ذلك معلوم بالضرورة و قد ودعنا جماعة من أصحابنا من طرابلس و بقيت معنا جماعة منهم كالأخ فى اللّه سيدى محمد الشريف و أصحابه ثم تلاقينا عند صلاة الظهر بجماعة من المحبين و جم غفير من الصالحين و من العلماء العاملين و جماعة من عامة المؤمنين كلهم راغبون فى الخير و مشتاقون إلينا فإنهم وقفوا معنا وقوفا عظيما و قياما لائقا جزاهم اللّه عنا

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۴۳

أحسن جزاء فمنهم من تكرم علينا بالشعير و الطعام و اللحم و منهم من أتى برؤوس من الضأن.

حاصله أنهم أهل كرم و ود و محبة و اعتقاد زائد و أحوال صادقة و واردات ظاهرة و مواجد عظيمة بينة يظن الإنسان أن الخير مقصور على هذه الزاوية و هى بلدة ذات فواكه و أشجار و مزارع و عمارة كبيرة لا تحيط به العبارة و تقصر عليه الإشارة أفاض اللّه علينا بركة أهلها بمنه و كرمه ثم تلاحقنا بالركب فلم ندركه إلا عند العشاء و ذلك مع أصحابنا من طرابلس و إخواننا من الزاوية حتى امتلأت الخيمة فلم تتسع لهم بل باتوا خارجها فأطعمنا الجميع بفضل اللّه تعالى و بتنا هناك معهم خير مبيت إلى الصباح فظعنا و الأصحاب معنا إلى الضحى الأعلى فاستودعناهم اللّه و استودعونا كذلك فلما حان الانفصال و تقارب الرجوع و الانتقال [تكدر القلب و تغير و حزن فأصابه قلق و اللّه كادت الروح أن تزهق و هى تطير] و إنما مسكهما قفص البدن فلو نعطى الخيار لما افترقنا و لكن لا خيار مع الزمان فعند ذلك تألمت الأجباح، و بدا منا البكاء و الصياح، فلم يبق شىء لدى الفراق من أنواع الأرباح، فعزت النفوس أن تذهب مغربة و كذا أنفسهم جمحت أن تذهب مشرقة فامتنع الجميع من المطاوعة أن تكون مفارقة فغربت شمس الاجتماع، و كسف نور المشاهدة و الانتفاع، و إنما أقبل ليل البين و ظلمة الأقصاء و الانقطاع، تتجافى جنوبنا عن مضاجع الأنس و ضاقت بنا الوحشة فى جميع البقاع، فربما أصيب البعض منا بالمرض، و برهة من الزمن متصل بالقبض، هذا و إن الركب قد ذهب علينا و غاب عنا و نحن فى التوديع فنرجع إلى ما كنا بصدده ثم بعد الفراق ذهبنا نلحق الركب فلم نلحقه إلا قرب الزوال فمررنا

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۴۴

بالزوارة الشرقية فسقينا منها و استقينا و ماؤها عذب بارد و تسمى الزوارة الكبرى.

قال شيخنا المذكور ما نصه و تسمى كوطى بضم الكاف و كسر الطاء المهملة و هى قرية أضخم من الزوارة الغربية و أكثر غابة و فى

أهلها شجاعة وحدة نفس و كانت طاعتهم للعرب مشوبة بعصيان و منتهاها قرية و لول و بينهما عشرون ميلا و هما قريتان متشابهتان عذوبة ماء و خربا باء و ولول هذا منتهى أرض الزوارات من ناحية المشرق و سميت بذلك لأن أقواما من الأعراب يعرفون ببنى ولول نزلوا بها و كذلك تعرف فى القديم بأرض بنى ولول هى أكثر بقاع الأرض ظباء و لأهلها دربة فى صيدها بإشراك ينصبونها لها تميزوا بذلك عن غيره و أما الزوارة الغربية فتسمى الصغرى و تعرف أيضا بوطن بلد المرابطين و هى قرية ذات نخل كثير باسق الارتفاع و ماؤها فى غاية العذوبة و قد استولى الآن الخراب على هذه القرية فليس العامر منها إلا بعض العامر و أمام هذه القرية بمقربة منها قصر يسمى وزدر بكسر الواو و سكون الزاى و كسر الدال المهملة قد امتحى رسمه و بقى اسمه و تخرب أكثر البناء الذى يحف به و لم يبق من أهله إلا أناس قليلون و هذا الموضع المشهور أهله ببيع من يختار به من الحجاج و غيرهم النصارى و لم تزل الأركاب تحترس إذا مرت به خوفا من أهله و خوفهم على سرقة الرجال أكثر من خوفهم على سرقة الأموال فإذا جازوا و لم يفقدوا أحدا هنأ بعضهم بعضا بذلك و كان هذا الفعل كثيرا فيهم شائعا ذائعا فيما تقدم و أما الآن فقد قل ذلك لقلة العامرين به.

و من هذه القرى كان الابتداء بسلوك منازل البربر المتمسكين بمذاهب الخوارج المستحلين لدماء المسلمين و أموالهم [و هذا المذهب هو الغالب على جميع البقاع التى

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۴۵

بين طرابلس و قابس خصوصا أهل الساحل منهم فهم] بهذا المذهب المذموم يتقربون ببيع من يجتاز بهم من المسلمين إلى الروم فتجد الناس لأجل ذلك يتحامون الانفراد فى قراهم و يجتنبون أيواءهم و قراهم من بقايا الشرذمة الضالة التى قام بها أبو يزيد مخلد بن كيداد فى إفريقية فانه لما أظفر اللّه به و أراح البلاد و العباد منه تفرقت أتباعه فى الأقطار فسكنت هذه الشرذمة بهذه المواضع و سكنت طائفة أخرى بجبل بجاية و قسنطينة و ما والاها إلى بونة و مالت طائفة أخرى إلى بلاد الجريد فاستوطنت نفطة و نفزاوة و ما والاهما من البلاد و كلهم خوارج غلاة فى مذهبهم مكفرون للعصاة على ما هو معروف من مذهب الخوارج كمذهب المعتزلة فى إشاعتهم من إطلاقهم أسم الكفر على من واقع كبيرة و لم يتب منها فإن المعتزلة لا تسميه كافرا و لا مؤمنا و تسميه متوسطا بان توسطوا فى هذا بين مذهب أهل السنة و مذهب الخوارج و المتصلحون منهم يتماسحون بثيابهم ثياب أحد ممن ليس على مذهبهم و لا يؤاكلونه فى آنية و إن استقى عابر سبيل ماء من بعض آبارهم استخرجوا ماء البئر كله فماحوه و ثياب الجنب عندهم لا يقربها طاهر و ثياب الطاهر لا يقربها جنب.

قال التجانى و قد شاهدت منهم من كان على طهر إذا أحب غسل ثوبه الذى اجتنب فيه يرفعه بعصا أو محجن ثم يلقيه فى البحر فيخضخضه بعصاه ساعة ثم بعد ذلك يتناوله بيده و يوجبون على أنفسهم الغسل صباح كل يوم أجنبوا أو لم يجنبوا رجالا و نساء يتوضئون ثم يتيمون و قد شاهدت هذا منهم كثيرا و يشترطون فى

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۴۶

وضوئهم غسل الأيدى من الأكتاف إلى غير ذلك من أرائهم الواهية.

قال و الأفعال التى حكينا عنهم منها ما شاهدناه و هو ما نصصنا عليه و منها ما حكاه الشريف فى كتاب المؤلف للجان و رأيت منهم أقواما قد نحلت من العبادة أبدانهم و اصفرت ألوانهم باقين فى ذلك على أصلهم الفاسد من تكفير العصاة و أظهروا شيخا يعرف بعبد الرحيم الزواوى و جميعهم يعظمه و يقدمه رياسة و سنا و صلاحا بزعمهم اجتمعت به فرأيته شيخا مجتهدا فى العبادة حسن السمت إلا انه باعتقاده الفاسد قد ضيع أعماله و خسر حاله و مآله و توسمت فى أحد ممن وصل معه الطلب فتكلمت معه فوجدته قد شارك فى طرف من العلم و أنجر الكلام معه من التحدث فى أهل المعتقد إلى التحدث فى مسألة المسح على الخفين فى الطهارة فشنع بها على مثبتيها كثيرا وفاقا لمذهب الخوارج فذكرت له بعض الأحاديث الواردة فى ذلك عن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم فردها بالجملة و قال هذه أخبار آحاد لا يجب العمل بشىء منها قال و قد نص لنا سيدى أبو يزيد مخلد بن كيداد على بطلان ما كان من الأحاديث

يناقض أصلا من أصولنا فلعنت النص و من نصه.

و قد وافقت الخوارج على إنكار المسح على الخفين أضدادهم من الشيعة مستندين فى إنكاره إلى ما رووه عن على رضوان اللّه عليه أنه كان لا يرى المسح و ذلك غير صحيح عنه فإن حديث التوقيت فى المسح و هو حديث صحيح يروى و قد تغالى الشيعة فى هذا و اتخذوه شعارا حتى أن الواحد من غلاتهم ربما تألّى فقال برئت من ولاية أمير المؤمنين و مسحت على خفى إن كان كذا و إلى هذا أشار الشاعر بقوله لما حبسه الحسن بن يزيد بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى اللّه عنه و كان واليا على المدينة من قبل أبى جعفر المنصور فكتب له من السجن:

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۴۷ أشكو إلى اللّه ما لقيتأجبت قوما بهم شقيت

لا أشتم الصالحين جهراو لا تشيعت ما بقيت

أمسح خفى ببطن كفىو لو على جيفة وطيت

قال فأطلقه و أكرمه و أما الخوارج فوقفوا فى إنكار المسح مع نص الكتاب و لم يروا نسخه بالسنة و رويت عن مالك رحمه اللّه فى ذلك رواية شاذة لا ينبغى أن تحمل على ظاهرها و قد تأولها عليه من صححها عنه.

و بالجملة فالعلماء مجمعون على خلاف هذا القول و قد نصوا على تفسيق من قال به و قول هذا الزوارى إن هذا من أخبار الآحاد ليس كذلك فقد نص العلماء على أن الحكم مما ارتفع عن رتبة خبر الآحاد و ارتفع إلى رتبة التواتر اه كلامه.

و فى هذا المنزل أيابنا عام عشرة ودعنا من شيعنا من أهل المحبة من طرابلس و تذاكروا مذهب هؤلاء الخوارج فانشد الفقيه سيدى عبد السلام بن عثمان لنفسه كان اللّه له:

لقد قبح اللّه الزوارة كلهاو ألبسها من درن أربابها شينا

و حق لمن قد جاور القبح أن يرىقبيحا خبيثا ليس تلفى له زينا

فيا رب دمرها دمارا مؤبداو لا تبقين من كل أثارها عينا

و قال عبيد اللّه تعالى حسين بن محمد بن على بين شرحبيل البوسعيدى أخذ اللّه

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۴۸

بيده:

و تبرّهم تتبير عاد و ألبسواسرابيل خزى كلما انتحلوا مينا

و نظمهم فى سلك عنقا فلا يرىلهم عقب إلا و جرعه حينا

عدا السالكين منهج الحق و اقتفواسبيل رشاد و اقتنوا بينهم لينا

و قال أبو الحسن سيدى على النجار الطرابلسى لطف اللّه به:

و أخرجهم من أرضنا و بلادناو أهلكهم حتى يقال لهم اينا

و أخزاهم خزيا يكون بجمعهممحيطا و لا وفّى الإله لهم دينا

و قال شيخنا سيدى أحمد المستوتى وفقه اللّه:

و زاد لأهليه الخسارة و الردىو أظلم احشاء و زاد لهم رينا

سوى منهم من كان ذا سنة النبىفلا زال من تباعه مقرا عينا

اه كلامه هذا و إن الزوارة إلى قرب جربة و أكثر جربة و جبال طرابلس إلى قابس إلى نواحى نفزاوة كلها على هذه المذاهب الفاسدة كاد أن يظهر أمرها فى مدينة طرابلس إذ كلمتهم فيها نافذة و ما ذلك إلا لكثرة مالهم و قد علت به منزلتهم أخلى اللّه منهم الأرض و أسقط حظهم عند المولى.

فلما خرجنا من الزوارات و حكمها تلاقينا مع أصحاب سلطان طرابلس فی

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۴۹

هيئة عظيمة و نشأة كبيرة توجهوا من سلطان توسن القادمين بالهدية منها و هی هدية عظيمة قد سروا بها و إن ذهبوا بهدية إليه فهذه الهدية أكبر و أعظم و أجسم و أحلی و أكرم فلما عرفونا نزلوا إلينا و عظمونا و تبركوا بنا و بشرونا بوصول سيدی أحمد الطيب و أصحابه و ولدی و عيالنا إلی تونس حرسها اللّه من أيدی الأعداء و شهوب التبديد و العداء فسألناهم عن كيفية أحوالهم فقالوا خرجوا علی خير و سلامة بعد أن عذبوا بانكسار المركب إلا أنه انفصل و تبدد بعد نزولهم منه فی المرسی و إنهم سكنوا دارا فی تونس ينتظرون قدومكم و أما سيدی أحمد الطيب فقد أنفصل إلی بلده استعجله الحجاج و أرادوا تعجيل الأوبة.

ثم مررنا كذلك إلی أن وصلنا إلی قصر الملح و هی سبخة قريبة منه تحمل منه السفن و ملحها مفضل علی سائر السباخ و منها يمتار أهل البلاد النصرانية و كأنه طرف من السبخة التی بتوزر و أهل ذلك الموضع يزعمون أنهم إذا رفعوا ما علی وجهها من الملح و وصلوا إلی تراب الأرض احتفروا فيه قليلا- فوجدوا طبقة أخری و كذلك إلی سبع طباق و هم يحفرون إلی الطبقة السابعة لأن النصاری يتغالون فی شرائه منهم و يذكرون أن له عندهم منافع عديدة إلی غير ذلك انظر رحلة شيخنا المذكور.

ثم ظعنا من ذلك المحل فسرنا فی بلاد النوائل و هی طائفة صعبة كادت أن تكون كالقبر فلا يمر عليه أحد إلا متروع إذا سلم منهم و نحن قد وجدنا البعض منهم ظاعنين فلما رأونا فرحوا بنا و صاروا يلعبون علی خيولهم طلبا للدعاء و اغتناما للبركة إذ سمعوا بنا فی غير هذه الجهة و علموا بعض أحوالنا بأخبار مرابطيهم و أعلام

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۵۰

صلحائهم أولاد مريم فإنهم أفضل الناس و أجودهم و أكرمهم و أعملهم و أهداهم و لهم همة عالية و رتبة زاكية فكأنهم لم يسكنوا البادية و لا يأكلون المتشابه و لا يأخذونه فضلا عن الحرام علی غاية السنة و القيام بها فما رأيت أحدا أحفظ بها منهم و لا لصون دين اللّه أرفع منهم فإبلهم و مالهم يرعی وحده فی الصحاری من غير راع تلد الناقة وحدها نحو الشهر و الشهرين و هو فی ربوة الصحاری لا يتعدی عليه أحد و مع ذلك أهل هذا الوطن ليس يوجد أظلم منهم و لا أعدی و هم سالمون و قد تكرموا علينا فی الحجة الثانية و كذا فی الطلعة فی هذه الحجة و قد ذهبوا معنا فی الرجعة الثانية من بيوتهم قرب الزوارات إلی أن بلغونا إلی قابس مسيرة ستة أيام أو خمسة و نحن فی طعامهم و شرابهم و علفهم إلی أن وصلنا إلی قابس بل زادوا رحلة معنا بعد قابس إلی روضة الشيخ سيدی مهمل و أما فی هذه فوجدناهم بعداء عن بيوتهم متحيرين اشغلهم أمر الظلمة إذ تعدی عليهم بعض من أولع بالتغلب و التفرعن عن هؤلاء المتمردين المذكورين و سبب ذلك إنشاء العداوة و الفتنة بين النوائل و ورغمة فإن ورغمة من منتهی عمل تونس الشرقية و النوائل من منتهی عمل طرابلس الغربية فلما التقی الجمعان نشأ بينهم الحرب و الفتنة و الأخذ و الموت فأنجلی النوائل من بلادهم أجلوهم من جهة المغرب و ورغة و من نحا سبيلهم من حليفهم و من جهة المشرق العجيلات و الزوارات و غير ذلك ممن يحالفهم فكان المرابطون أعنی أولاد مريم و الحمارنة مع و رغمة فوقع لهم بعض التعدی بسبب مجاورتهم و محبتهم إياهم.

و أما الحمارنة فمن أجود العرب و أكرمهم نسبا لديهم و شرفا عندهم قد جملهم اللّه

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۵۱

برشاقة القد و حسن الخد و هيئة الركوب و زينة الملابس و سعة البيوت و لهم جاه عظيم عند سلاطين تونس فإن محلة الأعراض أعنی محلة زواوة التی تأتی إلی نواحی قابس علی أيديهم و الحكم فيها حكمهم.

حاصله قد دخلنا أرضهم متبركين بنا و مغتنمين ما كان لدينا فأنهم محل بركة أيضا قد نوينا زيارتهم أيضا فإن لهم أصلا فی كل المعالی و كذا الحمارنة قد انعقد لهم لواء العز و اشتهروا بأمر الفضل و قد علمت أن كل وطن إلا و جعل اللّه فيه نورا يستضاء به و سيفا يقهر به عباده فلا يزال العصر دائم الأمداد بهؤلاء القاهرين للعباد و إنما الفرق قلتهم و كثرتهم بحسب الزمان و أهله و إن انعدموا

رأسا فى وطن من الأوطان خرب و هلك و قد قال تعالى: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ فإن العلماء و الفضلاء خيار هذه الأمة و هذه الأمة خيار الأمم و لذلك ارتفع المسخ أى مسخ الظاهر و أما مسخ القلب فقد بقى لم يرتفع فتجد طبائع الإنسان على طبائع الحيوانات فمنهم من يكون كالثعبان و منهم كالخنزير و منهم كالقرد و منهم كالذئب فكل معصية تستدعى كسوتها لقلب فاعلها هذا إن لم يدم عليها و إلا- مات على سوء الخاتمة و العياذ باللّه لأن كثرتها تورث ذلك غالبا أنظر المدخل هذا و أنا مررنا ببلد الحمارنة إلى أن وصلنا إلى عرام فانه محل أجدادهم و موضع خزائنهم يسكنها من لا يقدر على البادية منهم.

و هى قرية طيبة ذات مياه عذبة و مزارع و بساتين و من مات منهم دفن فيها و فيها مزارات كثيرة و روضات مبنية تراها كالنجوم فى السماء و مررنا عليها صبيحة عند الضحى الأعلى فمات عندنا الفاضل الكامل الفقيه النبيه محبنا و معتقدنا قاضى محروسة

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۵۲

بسكرة فدفناه هناك و قد اجتمع عليه جمع كثير و جم غفير و ذلك من علامات سعادة الميت و لذا قال أحمد بن حنبل بيننا و بينكم الجنائز و قد أسلم عند موته بين اليهود و النصارى ثمانية آلاف و قد انغلقت الدكاكين و الأسواق شهرا لعزائه و قد صلى عليه من الناس نحو الثمانين ألفا و غير ذلك من فضائله جعل اللّه هذا القاضى من أهل الجنة و غفر لنا و له بمنه و كرمه ثم أن أهل عرام أتوا إلينا بالتمر الجديد اليابس و الرطب باركك اللّه فيهم و جعل الصلاح فى ذراريهم آمين يا رب العالمين.

ثم ذهبنا من عرام إلى أن وصلنا قرب قابس فبتنا هناك خير مبيت فظعنا صبيحة فنزلنا خارج قابس عند الباب الشرقى فى فسحة عظيمة تجاه (بضم التاء) أبى لبابة بعيدا منه من جهة البحر فلما قربنا النزول ذهبنا قبله على خيولنا لزيارة أبى لبابة الصحابى المعلوم و قد ذكرته فى الطلعة و ما قيل فيه عن ابن ناحى انه الصحابى المعلوم دفن هناك و عليه مدرسة عظيمة و مسجد كذلك فيه طلبة علم يتعلمون فيها و فيها أمام فاضل عالم عامل ممن يخشى اللّه و يتقيه و هو من خصوصية أصاحبنا قديما إذ عرفنى فى الحجة الأولى مع جماعة من الفضلاء منها و هو سيدى عمر إذ هو المدرس فيه و هو ممن يفهم عن اللّه و متعلق بمن يراه من أهل اللّه زاده اللّه رفعة و قدرا و جاها و منزلة اجتمعت معه فى الطلعة و فى هذه مع صلحاء قابس و فضلائها و علمائها و قد اجتمعوا معنا و طلبوا منا البحث فى بعض النوازل من مشكلات الفنون و قوانين العلوم فاسفعتهم على ذلك بحس ما فتح لى من الوهب الربانى و المنح الفردانى فزادهم ذلك حسن ظن و اعتقاد و عجبا من اللّه حيث لم ينقطع مادة الفتح و الوهب اللدنى لا سيما لما رأوا بعض المؤلفات لنا فزادهم تحركا لهممهم و تعاظما لمقاصدهم غير أنهم استقلوا مدة الإقامة عندهم ليشفوا عليلهم و يبردوا غليلهم فلم ترتفع وحشة الاتصال من قلوبهم خوفا من الفرقة فقالوا نعم الملاقاة لو طالت و هذا وصف كل من اجتمعت معه فى كل بلد مكة و المدينة و مصر و طرابلس إذ الكل يتأسفون على عدم

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۵۳

طول المدة و يتحسرون على عدم قضاء الوطر و الحاجة.

و قد اجتمعت أيضا هناك مع جماعة من الفضلاء و جم من النجباء أولاد الجمنى الذين هم فى نفزاوة فاستفادوا منا و استفدنا منهم.

و كذا بعض الفضلاء منهم من جربة القريبين لسيدى إبراهيم الجمنى الكبير الذى أخذ عن الشيخ الخرشى و هو شيخ شيوخنا و كذا سيدى إبراهيم الصغير و لهم مدرسة فى جربة عظيمة معلومة تكاد أن تكون من المواسم المعلومة غير أنى ما دخلتها و لكن ناو دخولها إن شاء اللّه و فضائل سيدى إبراهيم الجمنى من زهده و ورعه و تواضعه و تهجده و نصحه للطلبة و تحمله الأذى من خوارج جربة و صبره و تصبره على إظهار السنة و إخماد البدعة و غير ذلك من أخلاقه السنية كثير لا تعد و لا تحصى لا تضبط و لا تستقصى و قد انفعلت سريرته و أثرت همته فى أصحابه الآخذين عنه كما هو مشهور عن أشياخنا كالعلاة الفاضل المحقق الكامل سيدى عبد اللّه السوسى و مثله سيدى يحيى بن حمزة و بعض الفضلاء من تونس ممن كان حيا الآن يحكى لى عنه أشياء عند أخذه على بعض

الفنون من العلم كالمعالم للإمام الفخر الرازى و الفتوحات لابن عربى و عقيدة ابن الحاجب و قد ختمها على و غير ذلك من العلوم أيده اللّه بنصره و هو كبير السن ظاهر الفضل و الشأن.

و أما الصالح على الإطلاق، و العالم العارف بالاتفاق، سيدى موسى الجمنى الذى تؤخذ الآن عنه العلوم و الفنون شتى تأتيه الطلبة من كل البلاد، و تشد إليه الرحال من جميع العباد، فقد ظهر فضله و انتشر علمه و ثبت حلمه عند كل الناس فى تل الأقطار، و تبين فضله فى جميع القرى و الأمصار، فحقيق به لأنه أهل لذلك،

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۵۴

و موصوف بما هنالك، و قد قال صلى اللّه عليه و سلم ألسنة الخلق أقلام الحق و قد قال الشيخ زروق لكن إن كان ذلك فيك فاشكر اللّه على ذلك و إن لم يكن ذلك فيك فانهض لذلك و إلا سلب عنك ذلك فافهم أو كلاما هذا معناه.

نعم أنى لم أره و لم اجتمع معه مع رغبة الجميع منا و منه فى الاجتماع و الزيارة و اغتنام البركة لأن زيارة الحى متفق على فضلها لما فيها من الفائدة و الاستفادة و التربية بالهمة و غير ذلك من فوائدها بخلاف الميت فقد اختلفوا فى زيارته فمنهم من أنكرها و منهم من جعلها كالحى [غير انه للاعتبار و نزول الرحمة عند قبره فالراجح مطلوبيتها كالحى] و قد قال صاحب المدخل فإنهم قوم لا يشقى بهم جليسهم لأنهم أحياء فى قبورهم يغيثون و يشفعون فيمن أتاهم و ذلك معلوم عند أرباب القلوب فلا يمكن إنكاره و لا استتاره.

نعم مكثنا فى قابس نحو اليومين و اليوم الثالث ظعنا منه غير أن طريقنا و بعض الركب يريد تونس و هو من كان من نواحى قسنطينة كأولاد عيسى و أهل ابن ضيف اللّه و أولاد إبراهيم و غيرهم جعلنا ركبا مستقلا و سيدى محمد المسعود و أهل الصحارى إلى قصر الطير ذهبوا ركبا مستقلا عن أن طريقهم توزر و نفطة إلى سيدى عقبة إلى بسكرة فقد اجتمعنا عند الارتحال و تودعنا فعز علينا الافتراق، لوجود الاتفاق، و رحمة الارتفاق، فكلنا بالبكاء و التباكى و الزعق و الحزن، و الكآبة على مصيبة البين، غين أن اللّه قدره و جعل كل واحد منا أخاه فى حل غفر اللّه للجميع و تولاهم برضاه فذهبوا و ذهبنا كل على طريقه هذا كله بعد الإقامة بقابس و زيارة من تحق له على الجملة و التفصيل من الأحياء و الأموات لا سيما أبى لبابة و قد زبرت شيئا

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۵۵

من هذه الرحلة فى مقامه اغتناما لبركته فكنت أملى على بعض فضلاء جربة و علمائها و هو يكتب و ما قطعنا عن ذلك إلا زيارة أهل بلدنا أعنى زواوة الذين قدموا عسكرا فى محلة الأعراض و قد نزلت هناك أمدهم اللّه بالتوفيق و أعانهم على سلوك الهداية بالتحقيق.

ثم إن بعض الناس ممن استوطن قابس من بنى عباس و كان فاضلا كريما معتقدا محبا لنا تكرم علينا بأنواع من النعم فأتى بها إلى الخيمة مع أولاده يطلب لهم العلم و القرآن أيدهم اللّه به و من علينا و عليه و عليهم بالفضل و الامتنان آمين و كذا تكرم علينا غيره جزاهم اللّه خيرا و قرية قابس فيها مياه كثيرة و بساتين من نخل و رمان و عنب و تين و فواكه جمة فأنها بلدة عظيمة و عمارة متسعة و فيها أسواق كثيرة و دكاكين عظيمة كثيرة المساجد و المزارع كثيرة الحناء بحيث لا تساويها فى ذلك بلدة و هى مشهورة بها حاصله أنها جمعت فأوعت أفاض اللّه علينا من بركات أهلها و جعلنا من أهل السنة بمنه و كرمه فانفصلنا عن قابس و معنا الشيخ المسن فى الإسلام الفاضل من الأنام الشيخ الحمرونى و ابن عمه يريدان توديعنا و تشييعنا إلى أن خرجنا و تباعدنا إلى قرب إشرافنا على روضة الشيخ سيدى مهمل فرجعا و أن لقلبهما ألتفاتات إلينا و حزنهما علينا كان اللّه لنا و لهما فى الدين و الدنيا آمين.

ثم مررنا كذلك إلى أن نزلنا بالمبيت قرب الشيخ المذكور فظعنا منه و مررنا عليه عند الضى فصلى من صلاها و تغدى من تغدى فزار الجميع منا الشيخ المذكور و انفصلنا عنه ثم ذهبنا كذلك إلى أن قربنا القرية التى على شاطئ البحر فبتنا و مررنا عليها عند الضحى و هى قرية صغيرة و ليس بها ماء إلا ماء المطر فلا يشربون و لا يسقون و لا يستسقون إلا منه فتعجبنا منها و فيها ماجن عظيم يجتمع فيه ماء المطر قل نظيره فاللّه يرحمهم بمطره و لا يقطع مدده عنهم آمين فمررنا عليها ذاهبين إلى مدينة

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۵۶

صفاقس فنزلناها بعد الزوال و اللّه اعلم.

و فيها قبر اللخمى المعلوم الذى ذكره الشيخ خليل فى الخطبة و هو الذى تنسب إليه مادة الاختيار و شهرته تغنى عن ذكر طبقته و هى مدينة قديمة طيبة عليها سور جيد و فيها مسجد عظيم تجتمع فيه القراء و العلماء للتدريس و قد باحثت البعض فى علم الكلام لأنى وجدته مدرسا فيه فلم يستطع فهم الإشكال فضلا عن الجواب و على تقدير فهم الإشكال فلا يقدر على الجواب لضعف ملكته ثم انتقلت إلى مجلس آخر فى الفقه غير أن صاحبه منصف فاقر بالعجز و التقصير و قد علمت أن لا أدرى علم و هو جنة (بضم الجيم) العالم أى حصن و وقاية له إذا وقع له ريب فلا ينافى العلم.

ثم انتقلت إلى مجلس آخر فى النحو غير أنه تأدب معى و هو يقرأ و يسأل و يسمع منى و ينقل إلى أن شاع أمرى ذلك اليوم فى مدينة صفاقس فصار الطلبة يخرجون إلى الخيمة يقصدون الاستفادة فى العلم و الاختبار على حسب قصد كل و لكل امرئ ما نوى ثم اشترينا بعض الكتب منها فاشتريت حاشية على البيضاوى من بعض أهلها غير أنها ليست للشهاب و إنما هى للقاضى زكرياء و قد أورد على سؤالا المشترى منه فى النحو أعنى إعراب مالك يوم الدين على انه اسم فاعل أو صفة مشبهة و غير ذلك من وجوه أعرابه و هى مسألة عميضة غير انه لم يبسط نفسه معنا و إنما قصد التعجيز و العناد و إزالة بعض ما وقع لنا من البحث مع طلبة صفاقس فقلت له ريض نفسك لتسمع العلم فإن كنا عالمين فتستفيد منا و إلا استفدنا منك فبينت له بعض وجوه إعرابه فرآه حقا و إنما مراده استقصاء جميع أنواعه مع كونه غير متمكن من جميعها و إنما رآه فى حواشى البيضاوى و قد رأيته بعد ذلك بجميع أنواعه مع تمام البيان فكنت على ذروة من علمه و شرافة بيانه.

هذا و إن فى تلك المدينة مزارات كثيرة و زرناها على سبيل الجملة و التفصيل و زرنا

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۵۷

اللخمى من بعد و كذا الشيخ النورى و قد أدركت بعض تلامذة النورى و هو ضرير فى الحجة الثانية كبير السن سبعى ضرير و مدينة صفاقس على شاطئ البحر و فيها بساتين عظيمة و جنات كثيرة يستحيلها الناظرون و يستحسنها المسافرون جمعت بين البر و البحر تجتمع فيها الخيرات و تعمها البركات أفاض اللّه علينا من بركات أهلها و صنعة الكتان فيها كثيرة و هو معلوم عند الناس و مشهور لديهم.

نعم ظلم القواد و العمال أضر بهم و بأهل الساحل جميعا و أما أهل الخير فيه أى الساحل و أهل الصلاح و العلم الأحياء و الأموات لا يضبط عدهم و لا يستقصى حدهم جعلنا اللّه فى زمرتهم و من علينا ببركاتهم آمين.

ثم ظعنا منها بعد ذلك اليوم و أهلها طالبون الإقامة منا و الحجاج متعجلون فذهبنا عند صلاة الضحى و أما أول الركب فقد سار عند بيان الوجوه فسرنا كذلك إلى أن قربنا إلى قرية مشهورة فيها قصر عظيم و بناء جسيم حكيم البنيان متقن الصنعة عريض المتن له أبواب كثيرة طبقة على طبقة واسع المتن طويل البناء و لا اعلم من بناه و أظنه من بناء المتقدمين من الجهال و حوله قرية مستديرة به كثيرة الزيتون خارج عن العادة عدا و وسعا و كبر جثة طويل الفروع فلا تكاد أن ترى الشمس من خلاله و أظنها أنها سميت بجمال فبتنا دونها و مررنا عليها عند الضحى الأعلى فسبقنا الركب لننظر ذلك القصر فنزهنا فيه العيون و ريضنا فيه الأفكار و فيه غاية الاعتبار قل نظيره فلا تحصى ما فيه من العجائب و الغرائب ثم انفصلنا عنها متعجبين غير أن أهلها من الضعفاء يظهر ذلك من سوقهم و سيمتهم تشهد بذلك ثم سرنا كذلك إلى الليل فبتنا دون سوسة و تجنبنا طريق جمال و قد دخلتها فى الرجعة من الحجة الثانية و جمال قرية عظيمة متسعة العمارة فيها سوق و حوانيت و لا سور محيط بها كجميع القرى الخالية

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۵۸

عنه و فيها زيتون كثير و بساتين عظيمة نفعنا اللّه ببركة أهلها آمين.

ثم نزلنا سوسة و هى بلدة طيبة قريبة من حاضرة تونس لها سور عظيم و بنيانه جسيم و هى محكمة منضبطة على شاطئ البحر فيها

مرسى مثل صفاقس و فيها العلماء مثل الفاضل المحقق و العلامة المدقق الشيخ الهادى و قد سمعت قبل ذلك جواهر لفظه و فوائد بنات فكره مرتب القراءة فى تعليمه من غير تلجلج و لا كثرة اختلاط مع تمام البيان و وضوح التبيان يده تجول فى كل العلوم و له قوة و تصرف فى سائر الفنون فقد سألت عنه فقيل لى أنه لا يخرج و لا أدرى ما منعه منه و لو علم بى لخرج و لو بالتكليف و بعد ذلك سمع بى فتأسف على عدم الملاقاة و كان يسأل عنا كثيرا و يطلب الدعاء منا و هو مظهر لحبنا و معتقد فى جانبنا و قد اجتمعت معه فى تونس لأن على باشا أميرها اغتاظ عليه و من عادته انه إذا ضاق على أحد من العلماء حبسه فى المسجد للتدريس ثم انه يجرى عليه النفقة و ما يستحقه و إن كان صالحا أو عابدا حبسه فى دار أو خلوة للعبادة و قد حبسه فى جامع الزيتونة فى الواقع و أما فى الظاهر فلم يكن عليه آثار السجن و قد علمت ذلك ممن يقبل منه فى تونس.

هذا و أن سوسة محل الصالحين و العلماء العاملين أحياء و أمواتا ظاهرة البركة بلدة طيبة [واسعة البساتين كثيرة الفواكه طعامها جيد و خبزها طيب] واسعة الأرزاق، حلوة المذاق، يستحسنها الناظر، و يتمناها المقيم و المسافر، تصلح أن تكون قاعدة من قواعد الملك فهى ظريفة شريفة، طيبة منيفة، تعدل جميع ما رأيناه، و هى أولى مما علمناه و أبصرناه، إلا أنها قد وقع الظلم على أهلها و سبب ذلك تبدل الدول فمنهم من يحبها و يتخذها حصنا و منهم من يبغضها و يذلها فأزال منها جميع المعنى فقد أشرأبّ فيها أعناق الحجاج لشراء بزها لا سيما الكتان فقد اشتروا منه كثيرا هذا و أنى لم أدخل مدينة

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۵۹

عظيمة قوية البركة عظيمة فى الزيارة لاحتوائها على طبقة العلماء المؤلفين و اشتمالها على أهل الترجيح من المجتهدين كالإمام المازرى و ابن يونس و غيرهما فإن الوفود تأتى إليها من كل جانب و هى مدينة علم و بركة عظيمة.

و قد نقلنا من بعض المؤلفات ما نصه و يقال أن بإفريقية بلدة يقال لها المنستير مشهورة البركة غير أنى لم أدخلها قط و رجوت اللّه أن لا يحرمنى من بركة أهلها و أن يدخلنى إليها مع النية الصالحة و الهمة الرافعة و قد زرناها من بعد فظعنا من سوسة و بتنا قرب الحمام من غير دخول إليه ثم ظعنا منه و نزلنا فى عمارة دون حمام الأنف و ظعنا منه ثم مررنا بحمام الأنف عند الضحى فتحممنا فيه بنية التبرك و الشفاء من كل سقم و وصم دينا و دنيا و حرارة مائه و سخنة من غير سبب حسى و إنما هو من اللّه تعالى ليس إلا.

و قد سمعت أن بعض الناس يحكى عن بعضهم أن الجنون التى أمرها سليمان عليه السلام بتسخين الماء فلم يستطيعوا خلافه غير أنهم لا يسمعون و لا يرون فظنوا بقاءه إلى الآن و الذى رأيته فى التفسير أن الجنون استمروا على العمل بعد موت سليمان سنة فعلموا به و تركوه أى العمل و هذا الحمام فى غاية الإتقان فيه موضع معد للنساء و موضع آخر معد للرجال و هما مستوران.

نعم هو معلوم البركة و الشفاء فتجد أهل العلل فيه دائما لا يخلو عنهم و قد سكن فيه بعض الناس غير أنه كثير الفتنة من كثرة النساء و هن يرعن من فتن نعم تونس من لم يكن على حذر فيها من النساء زل فى مهواة الضلال و سقط فى مفازة الهلاك فلما غسلنا و اغتسلنا و قضينا و طرنا منه ذهبنا إلى تونس فنزلنا خارج السور قرب مقر العسكر و استقراره و نزوله أعنى برجهم المعلوم و هى القصبة تحت المدفع قرب الشيخ الغوث الولى الصالح سيدى عبد اللّه الشريف أفاض اللّه علينا من بركاته و كان لنا

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۶۰

و لذريته بجاه محمد و آله آمين يا رب العالمين.

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۶۱

ذكر وصولنا إلى تونس

حاصله خيمتنا نزلت مع الركب و فيها أصحابنا و أنا قد ذهبت إلى الدار التى نزل بها ولدى مع زوجته حين خرجوا من البحر ينتظرون وصولى فقام الناس فى تونس أعنى الراغبين فى الخير لضيافتنا بالكسكس و اللحم كثر اللّه خيرهم بحيث تكرموا علينا غاية الإكرام و

زادوا على المعتاد بشيء كثير حتى عم ركبنا و فضل داخل المدينة و خارجها.

نعم الشيخ البركة و المنور القدوة الشيخ الوحداني، و الفيض الصمداني، سيدى محمد الغرياني، زاد فى الإكرام، بحيث خالف العادة فى الإكرام، و قد أخرج كذا و كذا مائدة أغناه اللّه غناء الدارين و جعل البركة فى ذريته.

حاصله أقبل الناس من كل ناحية بالإطعام و الإكرام ما دمنا نازلين بتونس ثم إن أكثر العلماء و الصلحاء و من فيه رائحة خير يأتون بالطعام إلى دارنا ثم يذهبون بنا إلى بيوتهم قصد نزول البركة فى محالهم من جميع من فيها حرسها اللّه آمين.

و من اجتمعنا معه فى بيته الفاضل الكامل، المفتى الحافظ الناقل، الفقيه السيد ابن محجوبة و العلامة الفاضل ولده محبنا سيدى محمد و هو ممن له زائد اعتقاد فينا، و على الدوام معتينا بجانبنا، و ممن اجتمعنا معه أيضا الكامل على الإطلاق، الأديب بالاتفاق، و نظيره قليل عزيز، سيدى حمودة بن عبد العزيز، و قد أكرمنا أيضا و كان أبوه أيضا شيخنا سيدى محمد بن عبد العزيز و كان من المحققين و ممن اجتمعنا معه من الحنفية الذى علت همته، و رفعت منزلته، و تحققت خصوصيته، العالم الفاضل الأديب

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۶۲

النحوى اللغوى المحدث سيدى حسن الترجمان.

و ممن اجتمعنا معه أيضا و كان من الفضلاء و النجباء و الأخيار العلماء محدثا فقيها نحويا أصوليا بيانيا منطقيا سيدى الكبير الشريف و منهم أيضا الفاضل الفقيه النبيه الكامل المحدث الأصولى الكلاميين النحوى الناسك المجتهد سيدى أحمد بن عبد الصادق.

و منهم من له التصرف الكامل و البسط الجليل المحقق و العلامة المدقق ذو الأبحاث الشريفة و النكت المنيفة و الفوائد الظريفة و الأدبيات المستظرفة المعقولى على الإطلاق سيدى صالح الكواشى و منهم الفقيه العدل و المحقق الفضل ذو الفضائل و الفواضل المقبل على اللّه سيدى ناصر القابسى و نجلاه الفاضلان الأديبان الكاملان سيدى محمد و أخوه سيدى و منهم الفاضلان الجليلان العالمان المتمسكان بسنة رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم سيدى محمد الوسط و سيدى أحمد نجلا شيخنا و ثمرة فؤادنا سيدى عبد اللّه السوسى [و منهم النحوى اللغوى الفاضل النصوح سيدى أحمد السوسى] و منهم الحافظ الفقيه النزيه النبيه الخلاصة المرتضى و العالم الخالص الأحظى محبنا سيدى أحمد التجانى و منهم الكريم على الإطلاق و الفقيه بالاتفاق سيدى محمد المغربى.

و منهم أيضا صاحب الأوراد، ذو الفضل و المدد و الأمداد، المجد و المجتهد المعتنى للاستعداد، المنور الزاهى، سيدى أحمد الباهين و كذا الفاضل ولده، و الكامل

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۶۳

الذى تهو فؤاده، الشيخ إسماعيل و منهم الفقيه النبيه الجليل المحب سليل الأخيار و نخبة المتقين المقربين ذوى الأنوار سيدى نصر و أما غير هؤلاء من العلماء فكثير و الصلحاء و الطلبة و الفقراء و أهل النسبة و الدين مما لا يحصى ضبطا فكثير و كذا العلماء و أهل الدولة فأوصافهم تجل عن العد و الإحصاء و كذا المجتمعون فى جامع الزيتونة للإقراء و التدريس فتقصر العبارة عنهم و عن عدهم .

نعم الذى يأخذ العلم الظاهر من غير سلوك للطريق الجادة بأن يأخذ ما يتعلق بالحرف الدنية و الصنائع الخسيسة من غير تمكين فى الباطن كثير جدا فهى أما زندقة، أو دعوى غير محققة، فإن الجامع المذكور قد انتشرت عليه الأنوار، و انبسطت عليه الأضواء و المعارف و العلوم و الأذكار، كاد أن يكون جامعا للفنون و محتويا للعلوم فما أحسنه من جامع أكرم به الطلبة الباحثين فشمس أنوار الفهوم فيه مشرقة، و فوائده و عوائده محققة و مدققة، فهو جنة العارفين، و خلوة للمتعبدين الناسكين، و مزارة للراغبين المشتاقين، فالذائق لطعم الإيمان فيه لا يشتهى طعاما و لا شرابا و لا نكاحا لا تقر عينه إلا بتلك الأزهار، و تتفكه بأحسن الفواكه و ألذ المشتهى من تلك الثمار، إذ فيه ما تشتهى الأنفس و تلذ الأعين من محاسن العزيز الجبار، لا فيه غول من أسباب الدنيا، و لا نصب من العوارض و القواطع من المراتب العليا.

نعم أن سلاطين تونس و أمراءها و أصحاب الدولة فيها صرفوا هممهم إلى العلم و أقاموا منائر عزه فبنوا المدارس و أوقفوا الأحباس، و

أعزوا العلماء و أغنوا للدرس الجلاس ، فأسهموا كلا على قدر همته و اشتغاله فإذا كان كل شيء على أصله و فصله

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۶۴

و منواله فمن لم يصبه منهم كثير وصل إليه نزر قليل لمثل العلم فليعمل العاملون فمن تمكن من تونس و وجد معينا على العلم تعليما و تعلما بأن ساعده الزمان و الإقبال فرجع من غير قضاء و طره انتهاب و الانتحال لا سيما إن وجد من يخشى اللّه و يتقيه و كان محققا للعلوم و مدققا للفهوم ناصحا للضعفاء من الطلبة فليشد يده عليه من غير عجلة بل يتوانى حتى تحصل له الملكة القوية فى كل العلوم.

حاصله تونس نعمة لمن أقبل على اللّه و اشتغل بما يعنيه علما و عملا و حالا فلا يطمئن الصادق فيها من الوصول إلى اللّه تعالى و بلوغ المأمول لأن الإعانة فى المعالى على حسب مخالفة النفس و شهواتها لا سيما موضع كثرت فيه اللذات و تواترت فيه الطيبات على قدر نبذها و طرحها من القلب تسرع إليه الإجابة بالوصول إلى مرضات المولى فيزول الحجبا عنه مقدار طرفة عين إذ الصديق من كثرت أعداؤه و شهواته فلم يبال بها.

نعم و لذلك كثرت فيها البله الذين لا يهتمون بأنفسهم و لا يميزون الجيد من غيره لغيبتهم عن حسهم فسلب اللّه لهم ما يجنون به على أنفسهم من عقل التكليف فلم يبق لهم إلا عقل التعريف فترى أهل العلم يتزاحمون و يتراكمون لديهم فيستمعون الإشارة منهم فضلا عن العبارة لديهم و قد شاهدت منهم أمرا عظيما.

و بالجملة فالعالم العامل أو صادق التوجه من الطلبة منور دائما مقبول عند الخاصة و العامة و أما من له حرفة بعلمه و غرض دنيوى لا سيما أن لا حظ الزنا و اللواط فهو مكسوف الأنوار منعكس الحقائق فى هذه الدار و فى تلك الدار فعلمه

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۶۵

وبال عليه و نقمة من اللّه لديه و هذا اشتغاله بالعلم ليقال فقد قيل و إنما يسحب على وجهه للنار إن لم تفضل اللّه عليه بالمغفرة لأن العاصى من المسلمين فى مشيئة اللّه تعالى فلا ينفذ فيه الوعيد حتما لأن القدر الذى ينفذ فيه الوعيد حتما من الموحدين قدر مبهم فيجب على كل مكلف اعتقاده.

تنبيه تونس قريبة الاستبا طاعة و معصية لكثرة أهلها و تيسير أسبابها فلا ينبغى لضعيف العقل و إن كان شائبا أو صغير السن استئطانها و لا التغول فى استقصاء أسواقها و حمامتها و دكاكينها بل و لا مقابرها فإن الفتنة قد عمت جميع محالها و تشعبت مواضع الخير بها فبدلت و العياذ باللّه بالشر حتى استنكف أهل الجرائم عن مخالطة من سلم منها فتجده مشتت الذهن طائش العقل غائب القلب متحير الفكر ليلا و نهارا فعنوان قراءته فى الظاهر فقط و لو وصلت إلى الباطن لأثرت فيه الخشوع و الخشية للّه تعالى إذ العلم إن قارنته الخشية فهو لك و إلا فعليك لكن ليس من شرط العلم العمل إذا العلم شريف و الجهل مذموم و قد قال تعالى: هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ فمن وفق إلى العلم وفق إلى العمل لا تترك العلم لأجل عدم النهوض إل مقتضاه فلينهض إلى لأن التوفيق إلى العلم و الهداية إليه نعمة و أى نعمة أشرف منه فكل عمل بر بالنسبة إلى الجهاد كبزقة فى بحر و عمل البر و الجهاد بالنسبة إلى العلم كبزقة فى بحر و قال صلى اللّه عليه و سلم الناس عالم و متعلم و غيرهما همج و قال صلى اللّه عليه و سلم الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر اللّه و ما والاه و عالما و متعلما و غير ذلك من فضائل العلم و لو لا العلم و أهله لصب البلاء على تونس صبا لظهور المعاصى فيها من غير نكير غاية من مر على أصحابها يقول اللهم ألطف بصاحبها

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۶۶

و أرزقه الهداية أو كلاما هذا حاصل معناه.

و قد علمت أن العالم إذ رأى منكرا و لم يغيره فعليه لعنة اللّه .

نعم لتغيير المنكر مراتب أقلها تغيير القلب و لا بد من وجوده من هؤلاء الفضلاء حاصله نور العلم و الطاعة على أنواعها أخمدت ما فيها من نار المعاصى رحم اللّه الجميع بمنه و كرمه و على قدر كثرة الناس يكثير فيهم المطيع و العاصى و قد رفع اللّه المسخ لوجود

الذاكرين و المستغفرين منهم و قد قال تعالى: وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ وَ ما كانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ الآية فإذا تمهد هذا فاعلم أن الذى تأنست به هو الفاض العالم الموفق المنور حسن الخلق و الخلق لا يسأم الإنسان من مخالطته و لا يمجه بطبيعته تعلوه البشرى إذا توجه إليك إذا ما خامر قلبه فعلى وجهه يلوح آثاره أسرّته تدل على سريرته ينطق بالحق إذا تكلم فهو من أهل النصيحة و الوفاء سيرته سيرة المصطفى صلى اللّه عليه و سلم رحمة لأهل زمانه و غيث فى أوانه كريم النفس سخى الطبيعة لا يدوم إذا غضب فيرجع إذا استرجع آئس مما فى أيدى الناس لا رغبة له فى الدنيا إلا ما يعمر وقته بحيث لا يشغله عما هو فيه من بث العلم لمستحقه رحمة لابن السبيل و محل للضعيف و الغريب اعتقاده كامل فى جميع المسلمين لا سيما من تحققت له الخصوصية و ثبتت له الفضيلة و المزية فقد انسلخ عن جميع البشريات بانعكاسها روحانيات فهو بشر فى ظاهره روحانى فى باطنه إذ غاب عن الأكوان بمشاهدة المكون فكل ما يخرج منه دواء بلا لبس و إخلاص بلا عوض ليته ظهر بسرّ الأسماء و الصفات.

و بالجملة ففضل الشيخ الغريانى علما و عملا و حالا و قبضا و بسطا و هيبة و أنسا

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۶۷

و خوفا و رجاء و إجلالا و تعظيما ما عظمته الشريعة كثير لا يكاد يخفى على أعدائه «و الحسن ما شهدت به الأعداء» و هو فقيه محدث نحوى تصريفى منطقى أصولى متكلم عروضى مفسر ليس فظا غليظ القلب و هو أيضا رحيم للأمة المحمدية لا سيما غرباء الطلبة يأخذ بيد الضعيف فإذا استغنى اندره و جحده غايته يقر بصلاحه و أما علمه فيجحده و هو كما قال الشاعر:

أعلمه الرماية كل يومفلما اشتد ساعده رمانى

و هذا شأن خبثاء الطلبة و لذا لم يظهر عليهم سر العلم و لا نور الولاية فتجد أكثرهم مكسوف الأنوار يخبط خبط عشواء، و يركب متن عمياء، فلم يقع للعلم أثر و لا للحكمة نور، و لا لفهمه طائل و لا نشور، و إنما يتجاذبون الألفاظ و الأوضاع، و هم عن حضرة اللّه بالانقطاع، و ما تخفى صدورهم أكبر و هذا معلم فى جميع البقاع، و لو تراهم لقلت أنهم شياطين، فى صورة العلماء العاملين، و إنما هم شياطين الإنس يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا و انه علم ينتفع به فليس ثم إلا تلبيس و فتن، و تخليط و محن، فاللسان لسان العلماء، و الفعل فعل المردة العظماء، إياك و صحبة من هذا وصفه فإن ضره أكثر من نفعه، و جره للفساد أكثر من رفعه، فلا تكن معمولا لهذه العوامل التى تقطع عن اللّه و سنة رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و إنما العلم وسيلة إلى الوصول إلى اللّه و عامل فى رفع النفس و الهمة إلى حضرته و إلا خرج فى سلك أهل دائرته و الوصول إلى التخلق بأخلاق المقربين من أخيار أمته فأكرم

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۶۸

نفسك بتحقيق ما عليهم ثم اكسها بكسوة أسرارهم فإنهم بشر لا كالبشر من حيث الصفاء، و الأخذ بالوفاء، و التخلق بالرحمة و عدم الجفاء، فإن الشيخ حقيق به هذه الأوصاف بلا خفاء.

فإذا علمت هذا علمت أن الشيخ تضلع من علم الشريعة و تمكن من علم الحقيقة كما يليق اللّه جعلنا اللّه من أهل وده و هو صدوق لنا و الحمد للّه على صحبة مثله و معرفة نظيره فإن مثله يكون شفيعا مثلنا.

و لو نعطى الخيار لما افترقناو لكن لا خيار مع الزمان

كان اللّه لذريتنا و لذريته و للآخذين عنا و الآخذين عنه بهذه الأوصاف الطيبة و أمدنا و إياهم بإمداده الوهبية الربانية اللدنية الفردانية آمين آمين آمين يا رب العالمين.

على أن شيخنا المحقق و العلامة المدقق الفقيه الأصولى النحوى المنطقى المتكلم الفرضى المحدث المفسر العروضى العبقرى الهمام ذا الفضائل و الفواضل المتصوف الزاهد المتخلى عن الدنيا الشاكر لفقدانها المشتغل باللّه المقبل عليه المدبر عمن سواه القامئ بسنة نبيه الراغب فيمن تخلق بأوصاف المتقين الناصح لعباد اللّه العاجزين و هو ممن يصح الاقتداء به نظيره سيدى عبد اللّه السوسى

فكلاهما من فحول الرجال و قطبى الكمال انفعلت سريرة أشياخهما فيهما و ظهر فضلهم عليهما و أنبسط سرهم على أنفسهما فلا يبغضهما إلا شقى و لا يحبهما إلا سعيد تقى وق تفضل اللّه علينا بمعرفتهما و صحبتهما.

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۶۹

و كذا معرفة الفاضل الكامل العدل المقبل على اللّه بجميع شراشره المتبتل إليه بكليته المنيب إلى اللّه بجميع شئونه المتعبد على الإطلاق فلا يهمل أوقاته فإنه يعمرها بما ورد عنه صلى اللّه عليه و سلم تعميرها من ذكر و صلاة و تلاوة قرآن و تهجد و صيام فلا تراه إلا مقبلا على اللّه مطمئنا بذكره لا يفتر عن طاعة اللّه السخى بنفسه القوى بأنسه لا يبخل بالطعام و هو كريم لجميع الأنام صدوق فى المحبة موف بشروط الأخوة يزيد فى النسك و العبادة و التزود بزاد الأخرة و هو فى غاية الخوف و المراقبة كرمت نفسه أن تسأم عن طاعة اللّه و طاعة رسوله صلى اللّه عليه و سلم و محبة أهل الكمال من خيار الأمة المحمدية لا يعامل الكل إلا بصدق المحبة يغيث المضطر عند اضطراره و يؤثره على نفسه و عياله و أولاده و من تجب نفقته عليه و قد تداين كثيرا أنفقه فى محبة اللّه و مرضاته و استعان به على إطعام الطعام فى مقامه و زاويته و هو مشهور فى أهل قربه و ولايته لا يستطيع أن يصد عن مكروب و ملهوف فى محنته سيدى محمد بن الحاج نجل البركة القدوة و الرحمة للأمة و النعمة العظيمة سيدى أحمد المجذوب نجل الشيخ البركة سيدى عمر العجيسى ثم الزمورى من مدشر بو عزيز قرية من قرى بنى فرفان من وطننا نعم أن رأيت فى فائق الأشراف أن عجيبة شرفاء و اللّه اعلم.

و لا شك أن أوصاف الشيخ سيدى أحمد المجذوب و أولاده لا تكون إلا فى الأشراف فإنهم فى غاية الكرم أورث اللّه مقامهم لأولادهم بمنه و كرمه و الفاضل سيدى عبد الرحمن قام مقام أبيه بلا شك فى اللّه أنه يجعل البركة فى جميعهم أكثر من أسلافهم و قبر سيدى أحمد المجذوب معلوم مشهور يزار له حرمة عظيمة عند ملوك إفريقية و أمرائها فى جبل ماطر.

و بالجملة فيها من الأحياء و الأموات ما لا يحصى و لا يعد، و لا يضبط و لا يحد، لا

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۷۰

سيما البله من أهل الإشارات فإنهم غابوا عن إحساسهم فلم يجدوا لأنفسهم أثرا، و لا لعقولهم خبرا، فلا تكليف عليهم، و لا حكم لديهم، إذ لا يحكم لهم و لا عليهم فإن عقولهم قد زالت بحقيقة ألاهية، لا أمور و همية، و لا ماهية شيطانية، فإنهم غابوا فى ذات المكون فلما تجلى لهم تلاشى كل شىء سواه عندهم فلم تبق لهم حركة تمييز، و لا أمر عزيز، فنفوسهم انتن عندهم من الجيفة بل طبائعهم طبائع البهائم تراهم فى المزابل و الأسواق و الأزقة ممتهنين محفورين لا ينظرون، و فى المهمات لا يشاورون، طبائعهم مناقضة لطبائع العقلاء فلا تجد أحدهم إلا منبوذا مطروحا ساقطا من أوباش الناس تكره نفوس أهل المروءة أن تنزل بساحتهم و تتعلق بأذيالهم و تتحاشى أن يكونوا فى مجالسهم و هم أمناء لهذه الأمة لولاهم لوقع المسخ و العذاب غير أن اللّه تفضل علينا بهم و إن كان لا نفع فيه بحسب الظاهر إذ لم يبثوا علما و لا نشروا فهما و لا أصلحوا فسادا و لا درؤوا ضرا و لا جلبوا نفعا فإنهم عالة على الخلق معيشتهم تأتى بلا كلفة أفاض اللّه علينا من بركاتهم و سقانا من بحر فضلهم و جودهم فكملت لنا السعادة برؤيتهم و الاجتماع بهم.

هذا و أن أولياء اللّه فى تونس كالنجوم الأموات و الأحياء و قد زرنا من يعتد بزيارته من الأموات كالأشياخ محرز بن خلف و سيدى على بن زياد و الشيخ المرجانى و ما كان فى الزلاج كابن عبد السلام و ابن عرفة و البرزلى و ابن هارون و ابن راشد القفصى و مغارة الشاذلى و محل الأربعين من أصحابه و غيرهم من العلماء و الصلحاء ممن لا يمكن أحصاؤه من المؤلفين و أرباب الأحوال العارفين.

و كذا زرنا الشيخ سيدى أبا سعيد الباجى و الشيخ الغبرينى ثم سيدى على الحطاب و سيدى سالم الدباس و أصحاب الشاذلى الظاهرين، و غيرهم من الأشياخ

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۷۱

و المريدين، و هؤلاء سلاطين البلاد، و عليهم فى جميع الأمور يعتمد.

و كذا زرنا الفاضلة الصالحة المنورة التى يستجاب الدعاء عندها السيدة المنوبية و كان شيخنا سيدى عبد اللّه السوسى يزورها كثيرا و

يغتنم بركاتها ليلا و نهارا أعاد اللّه من بركاتها و بركاتهم علينا و على ذريتنا و على جميع من تعلق بنا من الطلبة و الجيران و كذا جميع الأصحاب و الإخوان.

حاصله لا يمكن استقصاء ما فيها من النجباء و الفضلاء و الصلحاء ممن اجتمعنا معه و أجزنا بالأذكار و العلوم أيد اللّه الجميع بمنه و كرمه.

و قد مكثت فيها نحو خمسة أشهر و نيف و أنا في تعمير الأوقات بتدريس الفنون و ضبط القواعد من العلوم فإن تونس قاعدة من قواعد العلم، و مدينة من مدن الفهم، غير أن أهلها ينكرون البرانى، بلغ ما بلغ فى القرب و التدانى، فإن ما وقع بالإمام ابن مرزوق منهم أعنى الأبى و غيره دائم فيهم إلى الآن أزال اللّه منهم ذلك، و طهرهم مما هنالك، من التنافس و الحسد و البغض و حب الرياسة و علو الصيت و الأغراب على الأقران و الأدعاء و التطفيف فى الاعتقاد بأن يعتقدوا فى أنفسهم الكمال و فى غيرهم النقص و التزخرف بالزخرف الغار و التلهى بالملاهى و الخوض فى المهلكات من الموبقات التى هى الكبائر و المسامرة فى المبطلات و الاشتغال بما لا ينبغى من الفضولات آمين يا رب العالمين.

و بالجملة فإن تونس خيرها عظيم، و حالها كريم، و وصفها نعيم، و طبعها نسيم، حلوة المذاق، عزيزة الفراق، كثيرة الاشتياق، قوية الأسواق، ممدودة الأرفاق، واسعة الإنفاق، جالبة الأرزاق، كثيرة الفواكه فى جميع الأوقات بلا كلفة و لا مشاق، جامعة لأجناس الخلائق، فيها جميع الأصناف من أهل الحقائق، روضة للمطيع و العاصى،

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۷۲

و الرحيم و القاسى، و المتيقظ و الناسى، لكل أحد جليسه، و لكل محب أنيسه، فما تشتهى بين يديك، فزت فيها أن انتهيت عن حديك، و إلا طرحت فى مزابل نفسك، و هوان جسدك و عهدك، فلا توافق فيها أمر نفسك و ضدك، و إلا هلكت بقرينك و ندك، كريمة للكرماء، طيبة لذوى الخشية من العلماء، مهلكة للفسقة و الظلمة من الأرض و السماء، فلا تعجب من نمر ودها، و لا تفرح بسعودها، و لا تعتمد على جدودها، و لا تفتتن بحسن خدودها، و لا تغتر برشاقة قدودها، و لا تستحسن ما كان من قواعدها، فإن ذلك كله غرة، و بلية و ضرّة، و مع ذلك لا تخلو عن بعض العدل إلى قيام الساعة كما أخبرته غير واحد من العلماء.

و قد قال صاحب الأدلة السنية النورانية على مفاخر الدولة الحفصية ما نصه:

الباب الثانى فى التعريف بمدينة تونس و ما يتصل بذلك: و هى مدينة إسلامية أحدثت عام ثمانين من الهجرة و كان أبو جعفر المنصور العباسى إذا قدم عليه رسول أمير إفريقية يقول ما فعلت إحدى القيروانين يعنى تونس تعظيما لها و هى اليوم قاعدة البلاد الإفريقية و أم بلادها و حضرة السلاطين من الخلفاء الحفصيين و مهاجر أهل الأقطار من الأندلس و المغرب و غيرهما فكثر خلقها و اتسع بشرها و رغب الناس فى سكناها و أحدثوا بها المبانى و الكروم و البساتين حتى بلغ ذلك النهاية حتى لا يوجد فى غيرها و بينها و بين القيروان مسيرة ثلاثة أيام و بينها و بين البحر نحو أربعة أميال و بينها و بين قرطاجنة نحو عشرة أميال و بين تونس و مرساها بحيرة يقال أنها كانت كثيرة الجنات و المياه و الزروع طيبة الفواكه فغلب عليها ماء البحر.

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۷۳

و لمدينة تونس سور يدور بها و يقال أن دورها أربعة و عشرون ألف ذراع و جامعها مليح الصناعة حسن الوضع مطل على البحر بناه عبيد اللّه بن الحجاج هو و دار الصناعة سنة أربع عشرة و مائة و أنفذ إليها البحر و تونس فى سفح جبل.

قالوا و هى دار علم وفقه و على نحو عشرة أميال منها نهر مجردة و هو على الطريق إلى المغرب و يقال أن من شرب منه قسا قلبه فأكثر الناس يجتنبون الشرب منه و سميت تونس لأن المسلمين كانوا لما افتتحوا إفريقية ينزلون بإزاء صومعة ترشيش و يأنسون براهب هناك فيقولون هذه تونس فلزمها هذا الاسم.

و نزل عليها عبد المؤمن بن على سنة أربع و خمسين و خمسمائة فحاصرها ثم دخلها عليهم و اختلفت عليها ولاة الموحدين إلى أن

نزل عليها على بن إسحاق الميورقى فحاصرها ثم ملكها و غرم أهلها مائة ألف دينار و عنف نوابه الناس فى تقاضيها ثم أخرج عنها لما بلغه تحريک صاح المغرب إليها أبى عبد اللّه محمد بن يعقوب المنصور و ولى عليه الهزائم كبير أصحابه المولى أبو محمد عبد الواحد المرة بعد المرة.

و من تونس الشيخ على بن زياد الفقيه صاحب مالك بن أنس رضى اللّه عنه و قبره بداره بباب المنارة و منها الإمام العابد محرز بن خلف ذو المناقب الشهيرة و قبره بداره بداخل باب السويقة و يقال أن من تونس تقصم الجبابرة و ينشد على ذلک شعر:

و كل جبار إذا ما طغىو كان فى طغيانه يسرف

أرسله اللّه إلى تونسفكل جبار بها يقصف

و دور بحيرتها أكثر من أربع و عشرين ميلا و فى وسطها جزيرة تسمى شكلى فى مقدار ميلين تنبت الكلخ و فيها أثر قصر خرب و تونس فى سفح جبل يسمى أم عمرو بقبلى مدينة تونس جبل يعرف بجبل التوبة ما ينبت شيئا و هو المسمى اليوم بجبل

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۷۴

الزلاج و يقال أن القرية التى استطعم أهلها مدينة برقة و عن بعضهم أنها الجزيرة الخضراء و عن بعضهم الأيلة و بالقرب من رادس وادى ميلان و عليه القنطرة الشهيرة ضخامة و اتساعا و التونسيون يزعمون أنها بنيت من مال رجل من المغرب كان يتكفف الناس و يتصدقون عليه و لا يعلمون حاله و سعة ماله إلى أن توفى فوجدوا له مالا ممدودا فأمر المولى أبو زكرياء رحمه اللّه أن يصرف فى بنائها فابتنيت منه اه.

و قد قال أيضا ما نصه:

الباب الأول فى حد المغرب و إفريقية و ما ورد فى فضلها: و ذكر أهل التاريخ فى كتبهم أن حد المغرب من ضفة النيل التى تلى بلاد المغرب إلى مغرب الشمس وحده مدينة سلا ينقسم أقساما فقسم منه من الإسكندرية إلى مدينة طرابلس إلى حد بلدة قسطيلية و هى التى يقال لها إفريقية و يلى هذه البلاد المذكورة من الزاب الأسفل المذكور و حد هذه البلاد مدينة تيهرت و يليها بلاد الغرب يقال أيضا أنها مدينة طنجة بل بلادها وحدها إلى آخر المغرب مدينة سلا و بلاد الأندلس من المغرب و داخلة فيه لاتصالها به الأعظم الذى يسمى بحر الزقاق و حد إفريقية من مدينة طرابلس إلى مدينة طنجة.

و مدينة طرابلس مدينة كبيرة أزلية على ساحل البحر يضرب فى سورها ماء البحر و هو من حجر جليل من بناء أول و من طرابلس إلى جبل نفوسة ثلاثة و من جبل نفوسة إلى القيروان ستة أيام.

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۷۵

و مدينة طنجة مدينة بالمغرب قديمة على ساحل البحر فيها آثار كثيرة كبيرة و بينها و بين سبتة فى البر ثلاثون ميلا و فى البحر و أول من افتتحها عقبة بن نافع و قتل رجالها و سبى من فيها و هى على شاطئ بحر الزقاق على القنطرة المعروضة إلى ساحل الأندلس التى لم يكن فى العالم مثلها و كانت تمر عليها القوافل و العساكر من ساحل طنجة إلى ساحل الأندلس فلما كان قبل فتح الإسلام طغى ماء البحر و زاد و خرخ من بحر المحيط إلى بحر الزقاق و أغرق هذه القنطرة و كان طولها اثنى عشر ميلا واسعة المجاز اليوم فى موضعها ثلاثون ميلا و تبدو هذه القنطرة لأهل المراكب يتحفظون منها و يقال أنها ستنكشف أخر الزمان و انه يجوز عليها الناس و اللّه أعلم.

و مسافة ما بين طنجة و القيروان ألف ميل و هى طنجة البيضاء المذكورة فى التواريخ و قيل إن عمل طنجة مسيرة شهر فى مثله و إن ملوک المغرب من الروم و غيرهم من كانت دار مملكتهم و الدليل عليه أن خراب طنجة إذا حفرت وجد فيها أصناف الجواهر.

و أما بلاد قسطيلية فإن مدنها مدينة توزر و الحامة و قفصة و مدينة توزر هى أم مدائن قسطيلية و هى مدينة كبيرة عليها سور مبنى بالحجر و الطوب و فيها جامع محكم البناء و أسواق كثيرة حولها رياض واسعة فهى مدينة حصينة لها أربعة أبواب كثيرة النخل و البساتين و الثمار إلا أن قصب السكر لا يصلح فيها و كذلک اللوز و حولها سواد عظيم من النخل و هى أكثر بلاد إفريقية تمرا و شربها

من ثلاثة أنهار و تخرق من

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۷۶

الرمال كالدرمك رقة و بياضا و يأخذ من مدينة توزر فى بعض الأيام ألف جمل تمرا موقورة و أكثر فلا يعلم فى بلد من البلاد مثل أثر حبها جلالة و حلاوة و بها الزنجبيل و المخبط و لا يعلم فى قسطيلية إلا الرمال و سعر طعامها غال فى أكثر الأوقات لأنه يجلب إليها و بينها و بين الحمراء مرحلة و وراءها صحراء فى قبلتها لا يقدر أحد أن يدخلها.

و يقال أن بتلك الصحراء واديا يجرى مجرى الماء من الرمل و هذا مستفيض و أهلها من بقايا الروم الذين كانوا بإفريقية قبل الفتح و كذا أكثر أهل قسطيلية و منهم من العرب الذين سكنوها عند افتتاحها و منهم من البربر الذين دخلوها فى قديم الزمان عند خروجهم من بلادهم من فلسطين بالشام.

و أما ما ورد فى فضل المغرب ما نقل عن سفيان بن عيينة عن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم قال الشر عشرة أجزاء فتسعة بالمشرق و واحد بالمغرب و الخير عشرة أجزاء فتسعة أجزاء بالمغرب و واحد بالمشرق و عن سفيان بن عيينة أيضا يروى أن بابا مفتوحا للتوبة مسيرة أربعين خريفا لا يغلقه اللّه تعالى حتى تطلع الشمس من المغرب و أن بالمغرب بابا مفتوحا للتوبة كما قيل رواية عامة و فى فضله قال الشاعر:

الغرب شىء عظيمولى دليل عليه

البدر يطلع منهو الشمس تغرب فيه

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۷۷

و أما ما ورد فى فضل إفريقية مما نقله الراوى قال روى عن عبد اللّه بن وهب مرفوعا أن النبى صلى اللّه عليه و سلم بعث سرية فى سبيل اللّه فلما رجعوا ذكروا شدة برد أصابهم فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم لكن إفريقية أشد بردا و أعظم أجرا و يقال إن بإفريقية ساحلا- يقال له المنستير المذكور شهر بالبركة و بإفريقية جبل يقال له باب من أبواب جهنم و هذا الجبل هو المعروف بوسلات و فى الحديث يمر على ساحل إفريقية رجال حتى تسير الجبال بهم فيسمع دوى و يقال ما هذا فيرسلون من يختبر لهم الأمر فيرجع إليهم فيقال لهم هذه الجبال قد سيرت فيخرون للّه سجدا فلا ينزع أطمارهم عنهم إلا أزواجهم من الحور العين و فى الحديث يحشر من إفريقية سبعون ألف شهيد وجوههم على صورة القمر ليلة البدر و عنه صلى اللّه عليه و سلم أن البرد الشديد و الأجر العظيم لأهل إفريقية .

و ذكر القاضى زياد بن عبد المنعم قاضى القيروان فى حديث رواه قال ينقطع الجهاد فى آخر الزمان من البلاد و يعود إلى إفريقية و ليضربن القبائل أكباد الإبل من جميع الآفاق إلى الجهاد بإفريقية لعدل إمامهم و رخص أسعارهم و ذكر فى حديث و ليباعن بمصر قفيز بعشرة دنانير ثم ليباعن بخمسين دينارا من حرص الناس على الجهاد بإفريقية و كأنى أسمع صرير المحامل على عتبة التيه إلى أرض إفريقية لطلب الجهاد و العدل فيها و ليملكن أرض إفريقية رجل اسمه يوسف يعدل فيها اثنتين

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۷۸

و عشرين سنة.

ثم قال أيضا ما نصه:

الباب الأول فى التعريف بأول من غزا إفريقية من الصحابة رضى اللّه عنهم و ما يتصل بذلك: و أول من غزا إفريقية عمرو بن العاص ذكر الليث بن سعد قال غزا عمرو بن العاص مدينة طرابلس و هى حد إفريقية على ما سبق سنة ثلاث و عشرين و نقل فى سنة اثنتين و عشرين فنزل القبة التى على المشرف فى شرقها فحاصرها شهرا لا يقدر منهم على شىء فخرج رجال من بنى مدلج ذات يوم من عسكر عمرو يتصيدون فى سبعة نفر فمضوا غربى المدينة حتى بعدوا عن العسكر ثم رجعوا فأصابهم الحر فأخذوا راجعين على ضفة

البحر و كان لاصقا بسور المدينة و لم يكن فيما بين المدينة و البحر سور و كانت سفن الروم شارعة فى مرساها إلى سور المدينة فنظر المدلجى و أصحابه فإذا البحر قد غاض و حصروا من ناحية المدينة و وجدوا مسلكا إليها من الموضع الذى غاض منه فدخلوا منه حتى أتوا من ناحية الكنيسة فكبروا فلم يكن للقوم مفزع إلا إلى سفنهم ثم أقبل عمرو من جوف المدينة بجيشه حتى دخل عليهم فلم يفلت الروم إلا بما خف لهم فى مراكبهم و غنم عمرو ما كان فى المدينة ثم استشار عمرو بن العاص عمر بن الخطاب فى غزو ملوك إفريقية فأبى عليه و قال له رد على جيشى ثم غزاها بعده عبد اللّه بن أبى سرح كاتب الوحى لرسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم فى خلافة عثمان بن عفان رضى اللّه عنه.

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۷۹

قال الواحدى عن عبد اللّه بن الزبير قال أغزانا ابن عفان إفريقية و بها بطريق يدعى بجرجير سلطانه من طرابلس إلى طنجة و أميرنا عبد اللّه [ابن سعد] ابن أبى سرح و كان جملة من معه من المسلمين عشرين ألفا و كان جرجير فى مائة و عشرين ألفا فالتقى المسلمون و الكفار و اضطرمت بينهما الحرب و مضاق بالمسلمين الأمر و اختلفوا فى الرأى عن ابن سعد فدخل عبد اللّه بن الزبير فسطاطه يفكر قال فرأيت جرجير على برذون أشهب خلف أصحابه منقطعا عنهم و معهم جاريتان تظللانه بريش الطواويس من الشمس فأتيت فسطاط عبد اللّه بن سعد فقلت لحاجبه استأذن لى عليه فأبى و قال أمرنى أن أحبس الناس عنه حتى يدعونى قال فدرت من وراء الفسطاط فرفعته فرأى وجهى فأومأ إلى بالدخول برأسه فدخلت و هو مستلق على فراشه يفكر ففزع من مدخلى فقال ما جاء بك يا ابن الزبير فقلت كلّ أزبّ نفور

أى الأزب يظن كل شىء عدوا فهو شارد أبدا قال ما الخبر قال قلت رأيت غرة من عدونا فظننت أن تكون فرصة هيأها اللّه و خشيت الفوت فأخرج فأندب الناس فخرج فرأى ما رأيت فقال يا أيها الناس انتدبوا مع ابن الزبير فتسارعت جماعة فاخترت منهم ثلاثين رجلا من الفرسان و قلت لهم أنى حامل فأحموا ظهرى سأفكيكم ما أمامى إن شاء اللّه فحملت فى الوجه الذى هو فيه و دبوا عنى و اتبعونى حتى خرقت الصفوف إلى أرض خالية بيننا و بينه فو اللّه ما حسب إلا أنى رسول إليه حتى رأى ما فى من أثر السلاح فثنى برذونه راجعا و أدركته فطعنته فسقط و رميت نفسى عليه و ألقت جاريتاه عليه أنفسهما فقطعت يد أحداهما و أجهزت عليه و رفعت

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۸۰

رأسه على رمح و جال أصحابه و حمل المسلمون فى ناحيتى و كبروا فقتلوهم كيف شاءوا و ثارت الكمائن من كل ناحية و سابت خيول المسلمين و رجالهم إلى حصن ارنيطلة و منعوهم من دخوله و ركبهم المسلمون يمينا و شمالا فى السهل و الوعر فقتلوا انجادهم و فرسانهم و أكثروا منهم الأسارى حتى لقد كنت أرى فى الموضع الواحد ألف أسير قيل له لما نزل المسلمون لقتال جرجير ابرز جرجير بنته و قد كانت من أجمل النساء فقال من يقتل عبد اللّه بن سعد فله نصف ملكى و أزوجه ابنتى فبلغ ذلك عبد اللّه بن سعد فقال أنا أصدق من العلج و أوفى منه بالعهد من يقتل جرجير فله بنته فقتله عبد اللّه بن الزبير فدفع إليه عبد اللّه بن سعد ابنته و يقال انه اتخذها أم ولد ابن الزبير.

و قيل لما نزل عبد اللّه بن سعد على المدينة فحاصرها حصارا شديدا حتى فتحها فكانت توضع بين أيدينا أكوام الذهب و الفضة [فقال للأمارق من أنزلكم هاهنا فجعل رجل منهم يلتمس من الأرض حتى جاء بنواة زيتون فقال من أين هذا لأن أهل هذا البر ليس لهم زيت فكانوا يشترون منا و كان يسلم الفارس آلاف دينار و يسلم الرجل ألف دينار] ثم قال لابن الزبير ما أحد أحق بالبشارة منك فامض فبشر أمير المؤمنين و الناس فقال حبا و كرامة فقيل وصل من قسطيلية إلى المدينة فى ثمانية عشر يوما و قيل فى أربعة و عشرين يوما و انصرف العسكر بعد إقامته به ستة أشهر إلى مصر بعد أن صالحوا المسلمين على ثلاثمائة قنطار ذهبا يأخذونها منهم

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۸۱

و يخرجون من بلادهم انتهى.

أقول أخبار إفريقية لا تضبط و فيها تواريخ لا سيما الأدلة البينة النورانية على مفاخر الدولة الحفصية و كذا النبذة المحتاجة فى ملوك صنهاجة ترى العجائب.

هذا و أنى زرت فيما مضى مدينة ماطر و هى مدينة صغيرة ذات مزارع و يسكن فى نواحيها العرب و البرابر من ناحية بجاية و جبالها و الذى حذوها و دورانها هو المسمى بإفريقية و إلا فقد علمت حد إفريقية فيما سبق على أن عمالة قسنطينة من إفريقية إلى الجزائر إلى تلمسان ثم ما يحاذيها كلها إفريقية و كذا دخلت مدينة بنزرت فيما مضى و هى مدينة ظريفة طيبة شريف مليحة المرسى فيها بساتين لا سيما العنب و أنواع الفواكه و خير البر و البحر مجتمع فيها و أنى زرت أيضا ولى اللّه على الإطلاق و صاحب البركة بالاتفاق، سيدى عبد الواحد مشهور بالزيارة، و معلوم الصلاح و الإنارة، أفاض اللّه علينا من بركاته، و جعلنا من أهل محبته و شفاعته.

و أنى زرت أيضا تلك الجبال فان الناس يعتقدون فيها البركة كثيرا و لما مكثت فى تونس مدة ثم جئت منها على أحسن الخيرات و أتم البركات نعم تركت أهلى هناك أخذا بخاطر من فيها من العلماء و الصالحين ممن بالغوا فى محبتى و اشتياقا فى أقامتى ناويا الرجوع إليها و التوطن فيها رغبة فى نشر العلم و بثه لكثرة الآخذين فيها مع عدم الكلفة للطلبة الآخذين بخلاف وطننا فانه لا بد من كلفة الطلبة و الإقامة بمؤنتهم و إلا انقطع مادة العلم غير أنى أقول كما قال المأمون حين بنى قصره بقرطبة المعلوم و صنع فيه جابية لم يسبق بمثلها و لما أكمله نام فأتاه آت فى نومه و أنشد قائلا بيتين:

أتبنى بناء الخالدين و إنمابقاؤك فيها لو عقلت قليل

أما كان فى ظل النبات كفايةلمن كل يوم يقتضيه رحيل

فلما انتبه مرعوبا بكى بكاء عظيما و كان بارعا بليغا فأنشد يقول متمثلا لنفسه:

تروح الليالى بغير الذى غدتو تحدث من بعد الأمور أمور

و تجرى الليالى باجتماع و فرقةو تطلع فيها انجم و تغور

فمن ظن أن الدهر يعطى سرورهفذاك محال لا يدوم سرور

عفا اللّه عمن صير الهم واحداو أيقن أن الدائرات تدور

و لم يعش بعد ذلك إلا أياما يسيرة.

و لما خرجت من توسن ودعنى أكثر علمائها، و جم فضلائها، و عامة طلبتها، كالفاضل المحقق، و الكامل المدقق، سيدى محمد الغريانى و من لا يحصى عددا إلى سيدى عبد اللّه الشريف فاجتمعوا هناك فما أصعبه من فراق، و أضره من احتراق، فقد فقدت السلوى، لم أبث الشكوى، و لم أجد طبيبا بالدواء، إلا الصبر لذى القدرة

و القوى، و ما أحسن ما قيل:

وددت أن السبع البحار لى مدادو أن جسمى دموعا كلها همل

لا تهدمنها وسيط ذلك الجبلالهجر و البين و الواشون و الإبل

طلائع يتراءىبينها الأجل

و قال الآخر:

ما راعنى قط شىء مثل فقدهمحتى اسقلت و سارت بالدمى الإبل

أنى على عهد لم أنقض مودتهمليت شعرى و بعد البين ما فعلوا

أقول لم استطع فراقهم غير انه لا بد من فراق، و إن كان فى الفؤاد نار و احتراق، أيد اللّه الجميع بمنه و كرمه آمين و قد أنشد بعضهم فقال:

إن فتشونى فناحل الجسدأو فتشونى فأبيض الكبد

ضعف وجدى و زاد فى سقمىإن لست اشكو الهوى إلى أحد

وضعت كفى فؤادى منداء الأسى و انطويت فوق يدى

آه من الحب آه من كمدى إن لم أمت فى غد فبعد غد

كان على قلبى إذا ذكرتكمفريسة بين يدى أسد

و قال الآخر:

ما اقتل البين للنفوس و ماأوجع فقد الحبيب للكبد

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۸۴ عرضت نفسى من البلاء لهااضرم فى مهجتى و فى جلدى

يا حسرتى أن أموت معتقلابين أعتلاج الهموم و الكمد

فى كل يوم تفيض معولة عينى لعضو مات من جسدى

و قال الآخر:

و أرى المحنة ليسى ينفعهاصبر و لا يفى بها الجلد

و يوم الموت أعظم منه و أعظم من الجميع يوم النشور و قد أنشد بعض فقال:

لو أنا إذا متنا تركنالكان الموت راحة كل حى

و لكنا إذا متنا بعثناو نسأل بعده عن كل شىء

ثم سرنا بعد التوديع فمن واقف هنا و من راجع بعد و من مشيع لنا إلى سيدى على الحطاب فبتنا عنده مع جمع كثير من تونس و من تبربة فكثر أنواع الأطعمة و أنواع الطبائخ بأن ذبح سبعة أكباش و ثورا أهل تبربة و من كان من أصحابنا من أهل تونس كثر اللّه خيرهم و وسع أرزاقهم بمنه و كرمه و أقول فى نفسى و هؤلاء ما قال القائل (هو على بن الجهم):

هى النفس ما حملتها تتحملو للدهر أيام تجور و تعدل

و عاقبة الصبر الجميل جميلةو أكرم أخلاق الرجال التفضل

و لا عار إن زالت على المرء نعمةو لكن عارا أن يزول التجمل

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۸۵ و ما المال إلا حسرة أن تركتهو غنم إذا قدمته متعجل

و قال الآخر:

تحمل عظيم الذنب ممن تحبهو لو كنت مظلوما فقل أنا ظالم

فطوبى لمن أغفى من الليل ساعةسليم الفؤاد إن ذاك لناعم

فلما أصبح اللّه بخير الصباح ظعنا منه و ودعنا من بات معنا و ودعناهم و الشوق يتزايد، و الغرام يتعاهد، و الصبر يتفاقد، فرجع الجميع إلى أن بقى الود الصدوق، و الخل الفاروق، الحاج إبراهيم فودعنا و وصيناه على أهل دارنا و أكدنا عليه الوصية و أنى تركت الصهر الفاضل و الفقيه الكامل سيدى عبد اللّه بن رحاب و عمنا سيدى عبد العزيز و لذلك سكنت النفس، و اطمأنت من كل فتنة الأنس، فاندفع حينئذ الضرر و البؤس، فانفصلنا عليهم أحسن الانفصال، و القلوب على أتم الاتصال، فلم يبق معنا إلا المحب الشيخ إسماعيل رحمه اللّه و غفر له و الشيخ الفاضل و الصالح الكامل سيدى الونيس ساروا معنا سويعات ثم بعد ذلك افترقنا و للقلوب ألتفاتات إلى الأحباب، و تقلب مع ضرب من الشوق إلى جميع الأصحاب، لكن الافتراق لا بد منه و قد قال القائل:

اللّه يعلم و الدنيا مفرقةو العيش منتقل و الدهر ذو دول

لأنت عندى و إن ساءت ظنونك فىأحلى من الأمن عند الخائف الوجل

و كيف يفرح بالدنيا و زينتهاو الناس تحكم للأعداء بالإبل

ثم سرنا كذلك إلى أن بتنا فى تستور و هى قرية عظيمة تقرب من المدن الصغار، أهلها أهل سر و اعتبار، و كرم و عز و اقتدار، و فرح و سرور و ابتشار، فأحسنوا إلينا،

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۸۶

و تأدبوا لدنيا، و أجملوا ضيافتنا، و أحسنوها جزاهم اللّه عنا خيرا، و وقاهم بؤسا و ضرا، و ضاعت لبعض الأصحاب مكحلة صغيرة فى الوادى فبعث شيخ البلد فى استقصائها فردها من بعض الناس و أرسلها إلينا فى مرحلة أخرى كان اللّه معهم و أقام الخير لديهم و جعل البركة فى وطنهم كان كثير أهلها أهل الأندلس و أهل الأندلس مأمونون من الضر و القبح و البوس.

و هذه القرية لا- سور فيها ذات بساتين و مزارع كثيرة و فواكهها قليلة الوجود فلا- نظير لها أبدا فمن رآها استعظمها و تعجب منها يستحليها الناظر، و يتمناها المقيم و المسافر، فلا يرضى بعد الخبرة بها أحد فراقا، بل يزداد المرء إليها اشتياقا، نعم الموت هاذم اللذات فالمقيم يسير به الموت، و يطلبه الأجل و الفوت، و قد قال بعضهم:

و من أعجب الأشياء أنك قاعدعلى الأرض فى الدنيا و أنت تسير

و سيرك يا هذا كسير سفينةبقوم قعود و القلاع تطير

كذلك أيام الحياة بأهلهاتمر و أمال الرجال كثير

فلم يبق آثار لمن كان قبلنايموت و يبقى مبعد و أثير

أتتهم مناياهم و صاروا إلى البلىو نحن بلا شك كذاك نصير

و قال الآخر :

عش ما تشاء أ ليس الموت آخر ماترجو و لا بد أن يأتى لك الأجل

هذا شبابك قد مرت بشاشتهو فى انتهاز المنايا للفتى شغل

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۸۷ كم قد مضى سلف فى اثره خلفو كم مضت دول من بعدها دول

قضوا لباناتهم حتى إذا أنقرضوالم يبق إلا حديث كان أو مثل

فاندب حياتك يا رهن الممات فقدبدا بوفديك آيات لمن عقلوا

ثم سرنا كذلك على أن وصلنا قرية تبرسق قرية ذات بساتين و مياه و مزارع كثيرة.

حاصله فيها زرع و ضرع كثير و سوق فى الأسبوع يأتى إليه الناس من بعد عامر ممتلىء فيه ما يباع كثيرا و قد لقينا ولد المحب فى اللّه و الأخ من أجله محب الصالحين و العلماء العاملين قائد بنور قائد تلك القرية و أحوازها و ما ينسب إليها و ما عدّ منا غير انه هو فى تونس و قدم ابنه على هذا المحل و نبّيه عليه فبعث إليه لما أردنا السفر من تونس نعم أكرم نزولنا و أحسن إلينا فى الضيافة إحسانا تاما و أعد لنا أجود الأطعمة و أطيب الطبائخ.

حاصله قام بضيافتنا قياما تاما و أحسن إلينا إحسانا كاملا من طعام و علف إلا أنى أصابتنى الحمى و بت فى مسجدها المعلوم الذى فيه الطلبة و أما أصحابى كلهم قد نزلوا فى دار القائد و قد تأدب معنا غاية أحسن اللّه إليهم و حوى الخير لديهم آمين فظعنا منها صباحا بعد أن طلبنا اللّه له و لأبيه بدوام الخير و البركة و الحفظ و الغنيمة و السر فى الذرية و الأزواج و القرابة كان اللّه لنا و لهم بالعافية و عموم المغفرة و الرحمة و العناية.

ثم سرنا كذلك إلى أن وصلنا إلى مدينة الكاف و هى مدينة متوسطة ليست كبيرة

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۸۸

جدا و لا صغيرة فهى ملحية ذات مزارع كثيرة فهى حد مدائن تونس و لا مدينة بعدها و إنما هى الفصل بين تونس و عمالة الجزائر فى

زماننا هذا لأن قاعدة الملك مدينة الجزائر و قاعدة الملك تونس و غيرها من المدن إنما فيها القواد و العمال ليس إلا غير أن تونس تكاد أن تكون تحت ولاية الجزائر لما وقع فيها من الحرب العظيم و القتال الكبير الذى مات فيه أكثر الناس و قد مات فيه سلطان تونس أعنى العلامة الفاضل و الفهامة الكامل على باشا و أولاده محمد باى و أولاده ثم صار الملك لأولاد الكامل محب الصالحين و العلماء العاملين حسين بن على رزق اللّه لهم العدل و أدام لهم الملك و المملكة مع التوفيق و الهداية و الرحمة و التوبة و اللطف فى السياسة و السيرة و الرحمة لأنفسهم و للأمة المحمدية تمم اللّه لنا و لهم العافية بمنه و كرمه.

و هذه المدينة قد كان لها سور عظيم محكم البنيان متقن غاية و فيها قصبة عظيمة يكون فيها عسكر و فيها آغا يحكم فى أهل الوطن غير أن سورها الآن أنهدم و لم يبق فيه إلا القليل و مع ذلك كثير الثلمات من وقعة سلطان الجزائر مع أهل تونس فأمر بهدم بنائه لحكمة و هو امتناع كونه حصنا لأحد ففيها طلبة القرآن و العلم و علماؤها لا بأس بهم.

و قد تكلمنا معهم فى بعض مسائل العلم فوجدنا بعضهم على شرفة من الفهم غير أن الوطن خال من الاعتناء بالعلم لما فيه من شياطين الإنس يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا و مكرا و خديعة و غيرة و حسدا و ظلما و عدوانا فإن أرادوا إهلاك أحد من العلماء وشوا به إلى أمير تونس و سعوا به إليه بقولهم إن فلانا أراد التهجريس إلى تونس و ابنه فى قسنطينة و الجزائر و قد علمت أن كل شىء يكذبه

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۸۹

السلطان إلا من يخلط عليه مهما سمع شيئا من أحد قبله كان حقا أو باطلا و تيقن به و توثق به فهم كالضرائر و التيوس و ما أهلك الناس فى تونس إلا هذا الأمر العظيم فهى لا نظير لها فى هذه الصفة المذمومة التى حيرت الناس و شتت أمرهم و أن أهل تونس أيضا معلومون بالخوز و الغدر و الخديعة و المكر للسلطان فما أخذت تونس فى الغالب إلا بهذا الوصف لأن أهلها مشهورون بالعكس و الانتكاس و النقص و الرفض و التخليط و الألتباس من دولة الحفصيين إلى الآن و لو لا الإطالة لذكرنا من أوصافهم نبذة و من أخبارهم و وقائعهم و حروبهم و غدرهم و مكرهم و مخالفتهم للسلطان و تأخرهم عنه بعد مبايعتهم إياه و إظهار مودتهم له ثم ينقضون العهد و يجاوزون الحد و يمدون للعدو مدا جملة فيهلك اللّه جميعهم و كذا الأمير إذا طغا فيها كما تقدم.

حاصله أن الفجور و المعاصى و الظلم و العناد إذا ظهر فى تونس ابتلاهم اللّه بعذاب يعم جميعهم إلا من نجاه اللّه بفضله حسبما وقع ذلك بالباشا أعنى على باى حتى صار النهب و السلب و القتل و الفتك فى ديار تونس و هو بلاء عظيم و أمر مليم يكاد أن لا يقع إلا بالأمم المتقدمة و الأعصر السالفة و سبب ذلك أن السلطان و أهل حضرته إذا اشتغلوا باللهو و اللعب و صرفوا أموال المسلمين فى شهواتهم المحرمة نادى اللّه عليهم بالويل و العذاب و الهلاك فلم يراع فيهم الطائعين و لا أهل الفلاح من المتقين و قد قال تعالى و اتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة بل تصيب الظالم و المظلوم على من جعل لا من المفسرين غير صلة أى ليست زائدة لأن المنكر إذا اشتهر فى الأمة و لم يغيره الناس وقع العذاب بالجميع لأن من شهد المنكر و لم يغيره فهو و فاعله سيان فى الآثم و وقوع العذاب و قد قال الشاعر:

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۹۰ إذا ترى ملكا باللهو مشتغلافاحكم على ملكه بالزيل و الحرب

أو ما ترى الشمس فى الميزان ساقطةإذ كان ذلك بيت اللهو و الطرب

انعطاف إلى ما كنا بصدده و قد ضربنا خيمتنا خارج المدينة قرب الطريق التى تسلك إلى المغرب و لما سمع بنا أهل الفضل و العلم من المدينة خرجوا إلينا قاصدين التبرك و الاستفادة و قالوا لنا لم لا تنزلون بالمدينة قلنا لهم قد نزل أصحابنا بدار الضيافة قال لهم النائبون عليها و القائمون بوظائفها من أصحاب المخزن هل أتيتم بأمر من السلطان إذ لا ينزل بها إلا من أمرنا بنزوله فيها و أنتم لما لم تكونوا مأمورين بالنزول فلا تنزلوا فقالوا لهم اللّه أولى و أحق أن تكونوا بأضيافه قائمين راغبين فلما ثقل عليهم الأمر خرجوا و مع لك أنى لم أحضر و لم يسمعوا بى فشكرنا اللّه على ذلك و حمدناه على ما هنالك من عدم المبيت فيها و قد علمت ما فى ذل العلماء

للملوك على دنياهم و كذا تواضعهم للأغنياء على غناهم و من الفضل و العصمة أن لا تجد موجبا للهلاك و سببا لغضب الرب فلما سمع المتول للضيافة ندم غير أن اللّه سخر العلماء و الفضلاء من المدينة أتوا إلينا بطعام كثير حتى فضل عن الرفقة كثر اللّه أرزاقهم و قوى فى العلوم مددهم و جعل البركة و العلم فى ذريتهم آمين و رزق العز و الهداية و التوفيق لأهلها فإن بعض المدرسين فى المدرسة المعلومة فيها قد و شى به إلى السلطان تونس إذ قيل له إن هذا العالم و جماعة أرادوا أن يأخذوا بيد ابن يونس و أظنه كذب فرفعه إلى تونس حين كنا فيها فشفعنا فيه عنده ليرده إلى أهله فامتنع قال و إنما جعل له راتبا فى تونس يدرس فيها و كان الأمر كذلك أصلح اللّه الكل.

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۹۱

ذكر دخولنا قسنطينة

ثم ظعنا منه صباحا فسرنا أياما فى عافية إلى أن وصلنا إلى مدينة قسنطينة و هى مدينة فى وطننا و قاعدة من قواعد بلادنا و إن لم يكن فيها السلطان ففيها نائبه السيد الباى و هى مدينة قوية ليست كبيرة جدا و لا صغيرة أيضا و عليها سور كبير و فيها أبواب ثلاثة باب الوادى و باب الجابية و باب القنطرة و فيها بويب صغير يخرج منه الآدمى و فيها أسواق كثيرة و دكاكين طيبة و مساجد للجمعة نحو الخمسة و بعضها فى غاية الإتقان كمسجد الباشا فى طرابلس و أظن أن صانعهما واحد و هذه المدينة مبنية على كهف و جرف عظيم يكاد من سقط منه أن يهلك بل يموت قطعا و فيها قصبة عظيمة و عسكر من الترك بقدر حالها و باى سطوته عظيمة و حاله كبير و عساكره كثيرة تنفذ منها للجزائر أموال عظيمة من المغرم و مددها قوى و ظلمها كثير و سعرها رخيص واسعة الأرزاق كثيرة الارتفاق ممدودة الإنفاق كثير فيها اللحم و السمن و القمح و التين ما أحسنها من زرع و درع و ضرع تأتيها القوافل من كل النواحى قليلة الفواكه كثيرة المزارع محصنة تحتها واد كبير و ماؤه عذب منه يشربون إذ ينقلون ماءه إلى الديار و فيه يسقون و يستسقون و يغسلون و يغتسلون و عليه بنيت المدينة من قديم الزمان.

و قد سمعنا أنها من عهد إبراهيم الخليل عليه السلام لم يطفأ لها سراج و لا استقر فيها أمير دائما هى لنائب السلطان و هى من إفريقية و أحسن عمالتها إذ لا توجد أرضا طيبة و لا ربوة عظيمة للمال و الحرث أحسن منها فأنها لا يقل رزقها أصلا و لا يدوم فيها الغلاء لا تخلو عن العلم غير أن تدريسه فيها أنما يكون فى بعض الأوقات كالشتاء و أول الربيع و أما سائر الأوقات فليس فيها العلم الغزير و لا انعدامه رأسا فليس يفقد جملة و لا يستمر كلية فولاتها لم يشتغلوا ببناء المدارس و لا بكثرة الأوقاف و الأحباس

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۹۲

لما علمت أنها ضيقة و ملكها ليس كملك تونس.

و قد سمعت من الفاضل الكامل السيد على الخزناجى صاحب الرحمة و الدولة الشاملة ذى اللطف و اللين و عدم الظلم المبين دولة محمد باشا الذى قتله غرناؤوط ليتولوا أمره فلم يرجعوا أصلا قتلوا فتولاها على أبو الأصبع بعد موت السلطان و الخزناجى يقول أن ما يدخل تونس فى يوم يعدل ما يدخل الجزائر فى العام بل ما يدخل تونس أكثر بل قالوا إنما يدخل الجزائر فى عام يدخل تونس فى عصر يوم واحد إلى الغروب و اللّه اعلم فلم تكفهم الأموال و لأن مادة البحر فى الجزائر أوسع من مادة البر و على تقدير وجود الأموال فقد صرفها أهلها فى شهوات أنفسهم كالملابس و المآكل و المشارب بل بنوا الحصون بها و الأبراج و الأسوار و الثغور و أقاموا العساكر و النوبات فى كل محل مخوف كثغر بجاية و جيجل و القل و بونة و غير ذلك مما يحتاج إليه الحفظ من العدو كذلك المحال التى طغت فيها العرب و زاغت فيها أهل البدو كتبسة و زمورة و بسكرة و حمزة و بوغنى و سبا و كذا ثغور المغرب أمدهم اللّه بمدده و أيدهم بجنوده و نصرهم على العدو برا و بحرا و جوفا و قبلة مع التوفيق و العدل و الاستقامة و الفضل و حفظهم من الظلم البين و أزال منهم المناكر البينة و المعاصى الظاهرة و الكبائر ليكونوا على ذروة الدوام و قصبة التمام و إلا فالظلم مهلك لصاحبه قل

أن يسم صاحب الفجور و مظهر اللواط و الزنا و الخمور و قد قال صلى اللّه عليه و سلم لم يكن شيء أسرع بصاحبه كالظلم فكل واقعة من وقائع الهلاك إلا كان سببها الظلم و التعدى ما أحسن العلم إن قارنه الحلم و ما أقبح الجهل إن قارنه الظلم.

و هذه المدينة غير خالية من العلماء و لا- من الفضلاء و الصلحاء غير أنها سريعة بأهل الصلاح فمن ظهر فيها بالقبول و الفضل إلا أسرعت بهلاكه فيقبض ساعتئذ

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۹۳

و هذا معلوم عند أهلها إما لإساءة ظن أهلها فلا ينتفعون بمن ظهر فيهم أو لأنها كثيرة الملذوذات فقل فيها أهل الفضل من أصحاب الخيرات و إنما يظهر أهل الخير و استمرارهم للنفع فى محل ضيق المعيشة كثير المحن قليل الإحسان و الامتنان و مواهب الإله و إرادته إنما تكون لمن يستحقها و من هو أهل لا و ليس ذلك إلا للفقراء و قد قال تعالى: إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ وَ الْمَساكِينِ وَ الْعامِلِينَ عَلَيْها فما ضاق محل بالمعيشة إلا ظهر فيها الفضل و العناية و قد جرت عادة اللّه بهذا و ما كثر رزق و اتسع بمحل إلا كثر فيه الافتخار و التجبر و العناد و قل الصلاح و الزهد و العبادة لأن مخالفة النفس فى ملذوذاتها أصل من أصول الطريق لا سيما من لم يجد الوسع أصلا كأرض تهامة أعنى مكة و ما حاذاها و كذا طيبة أى مدينة الرسول صلى اللّه عليه و سلم و ما قاربها فقد انعدمت فيها المزارع و الأجنة و إن كثرت الأرزاق فيها فقد غلا سعرها فلا يصل الإنسان إلى شهوته إلا بعد موته و مشقته إذ ربما لا يصل إليها إلا بعد حتف أنفه و هلكته فكان طريق الآخرة فيها أسهل و سبيل الخيرات أيسر ما توجه الإنسان فيه إلى اللّه و إلى المقصود الأسنى إلا قلت خطواته و وصل بقرب فيزول الحجاب عن حضرة رب الأرباب فى لحظة من الزمان فيكون مجذوبا فى ذلك الأوان و قد قيل أن المجذوب يصل فى ساعة ما لا يصله العابد و السالك فى سبعين سنة.

حاصله أن كثرة المذاق، توجد للقلب النفاق، و قلة الأرزاق، تيسر الطريق إلى اللّه بالاتفاق، و ذلك معلوم عند أهل الحقائق فقسنطينة لما كثر رزقها و اتسع إنفاقها عسر الوصول فيها إلى اللّه لقلة المساعد، و كثرة المتكبر المعاند، و إن وجد فيها الصلاح فمن البله و قلة المعتنى بنفسه فيها حتى لا يظهر فيها صالح أصلا و على تقدير ظهوره فتسرع فيه المنية لأنه عذاب و هلاك لمن خالف طبعه و أساء ظنه و قد قال صلى اللّه عليه

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۹۴

و سلم عن اللّه من عادى لى وليا فقد آذيته بالمحاربة فيكون هلاكه و سرعته رحمة بأهل وطنه فلا يتأتى إظهار ولى فيها لأن ظهوره يكون سببا لرجوع أهل وطنه إلى اللّه فيكثر فيهم أهل الصلاح و ذلك مناقض للحكمة الإلهية فى أن الفراعنة المتمردة لا تكثر إلا فى وطن كثر رزقه و ضاقت حقوقه و انكسف نوره و إشراقه فتنتقل منه الأولياء و يدوم فيه أهل السمعة و الكبر و الرياء.

و قد علمت أن مثل هذا الوطن يقل فيه الحلال و يكثر فيه الحرام و المتشابه و قد قال صلى اللّه عليه و سلم من أكل الحلال أطاع اللّه شاء أم أبى و من أكل الحرام عصى اللّه شاء أم أبى مع أن أهل الشهوات من أهل الملابس و المفاخر و الأسرة و الحلل قد صاروا إلى ما صاروا فقد أنشدوا شعرا (و هو منسوب للإمام على كرم اللّه وجهه كما فى ديوانه):

باتوا على قلل الأجبال تحرسهمغلب الرجال فلم ينفعهم القلل

و استنزلوا بعد عز عن معاقلهمو استودعوا حفرا يا بئس ما بدلوا

ناداهم صارخ من بعد ما دفنواأين الأسرة و التيجان و الحلل

أين الوجوه التى كانت منعمة من دونها تضرب الاستار و الكلل

فأفصح القبر عنهم حين سألهم تلك الوجوه عليها الدود ينتقل

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۹۵ قد طال ما أكلوا يوما و ما شربوافأصبحوا بعد ذاك الأكل قد أكلوا

نعم هى بلدة طيبة يستحليها الناظر، و يستحسنها المقيم و المسافر، فليست كثيرة الصفاء، و لا بعيدة الجفاء، و لا قوية الوفاء، عامتها بين

اعتقاد و انتقاد، و خاصتها بين رغبة و غبطة و حسد و عناد، لا يتم الفضل فيها، و لا ينقص الحال و لا الكمال عند أهل الفضل منها، فالسب فيها كثير و القبح و اللعنة جار فى أسواقها لا يسكن اضطرامها أزال اللّه منهم ذلك و محى فيهم ما هنالك، و لذا كثر الظلم فيها فهو مكفر لذنوبهم لأن المؤمن لا يخرج من الدنيا حتى لا تبقى عليه سيئة لأن كل تعب و ظلم يقع له فهو كفارة له و أما الكافر فلا يخرج من الدنيا حتى لا تبقى له حسنة غير أن الولاة من الأمراء تجب طاعتهم إذا كانوا يصلون ما لم يأمروا بمعصية فإن أمروا بها فلا يسمع منهم.

و قد قال فى الأدلة البينة المذكورة ما نصه

الباب الخامس فى وجوب طاعة ولاة الأمر فى غير معصية و ما فى معنى ذلك:

روى مسلم و البخارى من طريق عبد اللّه بن عمر رضى اللّه عنهما عن النبى صلى اللّه عليه و سلم قال على المرء المسلم السمع و الطاعة. و عن ابن عمر رضى اللّه عنه قال سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم يقول من خلع يدا من طاعة لقى اللّه يوم القيامة و لا حجة له و من مات و ليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية رواه مسلم.

و روى البخارى من طريق أنس رضى اللّه عنه قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم أسمعوا و أطيعوا و أن استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة. و عن أبى هريرة

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۹۶

رضى اللّه عنه قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم عليك بالسمع و الطاعة فى يسرك و عسرك و منشطك و مكرهك و أثرة عليك رواه مسلم بن الحجاج. و عن عبد اللّه رضى اللّه عنه قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم فى حديث طويل قال فى آخره و من بايع إماما فأعطاه صفقة يمينه و ثمرة فؤاده فليطعه إن استطاع فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر رواه مسلم. و روى البخارى و مسلم من طريق عبد اللّه بن مسعود رضى اللّه عنه قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم أنها ستكون بعدى أثرة و أمور تنكرونها فقالوا يا رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم كيف تأمر من أدرك منا ذلك قال أن تؤدوا الحق الذى عليكم و تسألوا اللّه الذى لكم. و روى البخارى و مسلم عن أبى هريرة رضى اللّه عنه قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم من أطاعنى فقد أطاع اللّه و من عصانى فقد عصى اللّه و من يطع الأمير فقد أطاعنى و من عصى الأمير فقد عصانى. و عن ابن عباس رضى اللّه عنهما أن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم قال من كره من أميره شيئا فليصبر عليه فأنه ليس أحد من الناس يخرج من السلطان شبرا فمات عليه إلا مات ميتة جاهلية رواه البخارى و مسلم. و عن أبى بكر رضى اللّه عنه قال قال سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم يقول من أهان السلطان فقد أهان اللّه رواه الترمذى و قال فيه حديث حسن (غريب). و عن أبى هريرة رضى اللّه عنه قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۹۷

نبى من الأنبياء بعث إليهم آخر و أنه لا نبى بعدى و سيكون خلفاء فيكثرون قالوا فما تأمرنا قال فوا بيعة الأول ثم أعطوهم حقهم و أسالوا اللّه الذى لكم فإن اللّه سائلهم عما استرعاهم رواه البخارى و مسلم رحمهما اللّه و قد رويناه فى صحيح البخارى عن جابر و جرير.

و من الباب الخامس فيما يجب تعظيم ولاة الأمر و حقهم على رعيتهم و وجوب طاعتهم فى غير معصية ما رويناه فى صحيح البخارى عن جابر بن عبد اللّه قال بايعت رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم على شهادة أن لا إله إلا اللّه و أن محمدا رسول اللّه و إقام الصلاة و إيتاء الزكاة و السمع و الطاعة لكل مسلم.

و من تأليف الشيخ الإمام صدر الدين الشافعى المآرى تكميلا للأربعين للشيخ زكى الدين أبى محمد عبد العظيم المنذرى قال سئل كعب الأحبار عن السلطان قال ظل اللّه فى أرضه من ناصحه اهتدى و من غشه ضل و قال الفضيل بن عياض لو أن لى دعوة تستجاب

ما صيرتها إلا فى الإمام العادل لأنى لو جعلتها لنفسى لم تجاوزنى و لو جعلتها للإمام كان صلاح الإمام صلاح البلاد و العباد.

و قد قالت العلماء رضى اللّه عنهم أن طاعة الإمام هدى لمن استضاء بنورها و الخارج من الطاعة منقطع العصمة برىء من الذمة و إن طاعة السلطان حبل اللّه المتين و دينه القويم و جنته الواقية و إياكم و الخروج من أنس طاعة إلى وحشة المعصية و من اسر غش السلطان ذل و زل و من أخلص المحبة و النصح حل من الدين أرفع محل.

ثم اعلم أن أشرف الولاية و أعظمها ولاية أمور المسلمين لأنها موضوعة

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۹۸

للخلافة النبوية فى حراسة الدين و حفظ منهاج المسلمين و تمكنهم فى العلم و العمل و جعل اللّه بهداه الأرزاق و دفع المظالم إلى غير ذلك من الأمور التى يعظم نفعها و يعم قدرها مما لا يقوم به غير الإمام و شرح ذلك إن شاء اللّه حلوله دارين دار الدنيا و دار الآخرة التى هى دار الحق و بالسلطان العادل قيام الدين و على قدر النعمة يكون و ليس فوق السلطان العادل منزلة إلا نبى أو رسول أو ملك مقرب رواه أبو نعيم. و عن أبى هريرة رضى اللّه عنه عن النبى صلى اللّه عليه و سلم قال لعمل الإمام العادل فى رعيته يوما واحدا أفضل من عمل العابد فى أهله مائة عام و خمسين عاما. و من حديث أبن سيرين عن أبى هريرة رضى اللّه عنه رفعه إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم قال عدل ساعة خير من عبادة ستين سنة اه.

أقول و باللّه التوفيق أن قسنطينة هذه قد اجتمعنا فيها مع الفضلاء و النجباء و الصلحاء و أعيان الوقت السالمين إن شاء اللّه بسببهم من المقت منهم العالم الفاضل و الصالح الكامل و الورع العدل شيخنا و عمدتنا الولى الصالح و البدر الواضح سيدى يحيى اليعلاوى و مثله فى الفضل و العلم و الأدب النحوى اللغوى الفقيه سيدى أحمد الزين أما سيدى يحيى فتلميذ جدنا سيدى الحسين الشريف و أما سيدى أحمد الزين فتلميذ أبى و مثلهما صلاحا و علما و حالا و ورعا و فقها و فهما سيدى فرج و سيدى على الزمورى و سيدى خليفة الشارف و سيدى أحمد العلمى و سيدى عبد اللّه التومى و سيدى على بن سعيد و سيدى السعدى الصدراتى و سيدى الطاهر بن بعداش و سيدى مبارك بن بوقرانة و سيدى محمد الشليحى و سيدى محمد بن نزار و سيدى على الشريف بن منصور و العلامة الفاضل الكامل سيدى على الشريف الذى هو المفتى الآن و قاضى الجماعة النحوى المتكلم الأصولى المنطقى البيانى المحدث

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۷۹۹

المفسر صاحب الأبحاث الشريفة و الفوائد المنيفة سيدى عبد القادر الراشدى و نظيره فيما ذكر أخوه سيدى على أو أعظم منه حفظا و اتقانا و مثله فى العلم و الفضل القاضى الآن سيدى إبراهيم الضرباين قاضى المالكية و كذا العالم على الإطلاق و الأديب بالاتفاق سيدى شعبان بن جلول قاضى الحنفية و الأخذ من كل علم نصيب العلامة الكامل و الفهامة الفاضل سيدى عبد العزيز الزادى و نظير من ذكر تحقيقا فى العلم و يقينا فى الفهم المدرس سيدى أحمد الزرارى و هى الآن فيها أفاضل فى العلم و الصلاح و الورع و الزهد و قد اجتمعنا بهم فى محل نزولنا عند الولى الصالح و القطب الواضح سيدى سعيد السفرى نفعنا اللّه به آمين فكل من كان فى قسنطينة ممن فيه رائحة علم و فضل و خير و صلاح إلا اجتمع بنا و رغب فيما عندنا و نحن أكثر رغبة منهم فيهم.

و كذلك أعيان الحضرة السلطانية و المملكة الشرقية من الكتاب و أرباب الدولة من أهل العلم و كذا أئمة المساجد إلا ولد المحب الشيخ الفاضل الكامل سيدى بدر الدين ابن سيدى عبد الكريم الففون أمير الركب الحجازى فأنى ذهبت إلى داره و اجتمعت معه هناك فقال لى و إنما لم أخرج إليك لأنى ظننت أن تنزل بدارى فقلت لو قدمت بأهلى لنزلت عندك.

نعم أشفقت عليك لكثرة الخلق معى و كان ذلك بعد صلاة الجمعة و ذلك مع جماعة من العلماء و ثلة من الفضلاء و عزة من الأدباء رضى اللّه عنهم و أرضاهم و كان لنا و لهم فى الدارين. الرحلة الورثيلانية ؛ ج۲ ؛ ص۷۹۹

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۸۰۰

و كذلك اجتمعت مع الفقيهين الفاضلين سيدى أحمد بن الأحمر و العلامة على الإطلاق و الفهامة بالاتفاق سيدى أحمد بن وادفل و

كذا مع الولى الصالح و الفقيه الواضح المحلى بالفضل و القبول حسن الاعتقاد كامل الاجتهاد فى العبادة و التصبر و الصبر عن مصادمة الأوقات الغنى عن التكلف و الكلف و المشقات سيدى على بن الكيرد و كذا صاحب الفضل و الميل إلى الصلاح و الفوز بالنجاح الراعى للأوقات سيدى محمد العنترى و غير هؤلاء ممن لا يعد كثرة من العامة و الخاصة كالفاضل الأخ فى اللّه سيدى الطيب الزرارى و سيدى أحمد بن زبوش لأنهما ظاهرا الصلاح و الفوز و النجاح فقد علمت أنى لم أهمل التفصيل و إن أهملت البعض فقط فى التجميل.

هذا و أنى زرت الجميع على سبيل الجملة و التفصيل ممن أظهره اللّه و أخفاه من العامة و الخاصة و أهل الحرف و الاكتساب و أهل الصفة من التجريد و الأسباب من أهل التمييز و البله ممن ظهر بالإشارات أو بأنواع النطق و العبارات فى كل وطن و دخلته أو حاذيته أو رأيته أو ذكر لى إلا كنت زائرا لجميع ذلك و ناويا لمن هنالك.

ثم أنى لم أهمل الأموات و أنى قصدت جميعهم فى كل وطن مشيته و كل بلد أتيته إلا أن قسنطينة كل مسجد فيها من مساجد الصلاة إلا- و فيه شيخ ولى صالح دفن فى المسجد و ينسب إليه و يقال مسجد فلان كسيدى أحمد بن عين الناس و سيدى أبى عبد اللّه الشريف و سيدى عبد المؤمن و سيدى الرماح و سيدى مفرج و سيدى عمر الوزان و سيدى عبد الكريم الففون و سيدى عبد اللطيف و غيرهم ممن لا- يحصى عددا أفاض اللّه علينا من بركات جميعهم و من علينا و على من انتمى إلينا من الذرية و القرابة و الجيران بالأنوار و الشفاعة و العطف منهم.

و أما سلطان العارفين سيدى سعيد السفرى فقد نظمته و من دفن من الصالحين فى كدية عاتى من ظهر أمره و اشتهر خبره و علم قبره أو خفى إلا زرناه و سألنا اللّه

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۸۰۱

عندهم حسن الخاتمة و العافية و دوام العافية و الشكر على العافية و الغنى عن الناس و حسن العاقبة و زوال الحجاب عن حضرة رب الأرباب و الدخول فى الزمرة النبوية و أتباع السنة و الموت على الملة و دخول الدائرة الربانية و كمال المعرفة و تمام النعمة و شمول العفو و المغفرة و غير ذلك ما يصلح للخليقة لأن الدعاء مخ العبادة و لو لم يكن فيه إلا إظهار الفاقة و اللجا و الاضطرار و إبداء العبودية و إحضار الرب و المسئول فى الدنيا و الآخرة لكان أمرا عظيما يجب الحمد عليه و الشكر لديه أيقظ اللّه الجميع للسنة النبوية مع الاستقامة ظاهرا و باطنا آمين يا رب العالمين.

ثم ظعنا منه ناويا زيارة الود الصدوق و الخل الفاروق سيدى أبى القاسم الزواوى الجالس فى الباب فانه من الصالحين و حكايته مشهورة معلومة مع أهل الخير من رجال الغيب كما سمعت ذلك من الولى الصالح سيدى محمد العيدلى و كان هو الواسطة و الرسول من رجال الغيب إليه و كان هذا الجالس فى الباب خارجا فى الرحبة منبوذا مطروحا يجتمع عليه الذباب من كثرة الأوساخ فمن رآه ربما تغير قلبه مما فيه من الأوساخ و نتن الرائحة و هو لا يتحرك من موضعه ينتظر ما يجرى عليه من النفقة و الصدقة من المحسنين من أهل الخير فلبث فى ذلك مدة عظيمة ثم أمروه بالانتقال إلى قرب الباب خارجا فكان هناك كالحجر الصامت لا يتحرك أيضا منبوذا مطروحا يجتمع عليه الذباب و محقرات الحيوانات من الهوام و الخنافس و غير ذلك فلبث فيه مدة أيضا و أظنه انه أيوبى الطريقة و لذلك صار محلا للبلاء و مستعدا للاذاية فلا يفهمه إلا ذووه فلما لبث مدة طويلة أمروه بالدخول إلى الباب و الجلوس على الدكان الذى هو فيه و هو على ذلك الوصف من عدم التحرك و الذباب و الأوساخ عليه إلى آخر ما سبق فلما لبث أيضا مدة طويلة قالوا له تزوج و هو لم يكسب درهما و لا- دينارا و لا- ثوبا و لا خمارا غايته أن يكون مستور العورة يلقمه الناس باللقمات فيجعب من ذلك الأمر إذ لم يجد ما يقتات به فضلا عن التزوج لكن أمرهم من قوله تعالى إذا

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۸۰۲

أراد شيئا أن يقول له فيكون بين الكاف و النون و هو من عالم الأمر إلا له الخلق و الأمر تبارك اللّه رب العالمين و الأولياء إذا أرادوا

أغنوا و عزمهم أمضى من السيف فلما ثبت الأمر و تحقق الأذن أتت امرأة تسأله الدعاء و تشتكى بعض الأذاية ممن هو قريب لها فقال لها الجالس مع الشيخ هل ترضين بالنكاح فقالت و كيف لا أرضى به فأنى مقطوعة الأحباب لا مسند لى إلا اللّه تعالى فقال لها ذلك الشخص المرسل تزوجى الشيخ فقالت رضيت و عينوا لها بعض الصداق و كان بعض الحاضرين هناك اشترى لها من عنده ما تحتاج إليه مما يصلح للزفاف ثم أن الشيخ أتت له ثياب حسنة ساعتئذ فأزال الثياب المتقدمة المتوسخة و لبس الفاخرة من الثياب فعقدوا على المرأة فذهبت و قالت إن لى دارا و ما فيها من أحوالها فلا تتكلف بشىء و قد ذهبت تستعد أمورا تصلح للزفاف و الدخول فلما قرب الليل حملوه على مركوب لبيتها فزال عنه كل هم و غم و قد علمت أن مع العسر يسرا و مع الضيق وسعا و قد قال صلى اللّه عليه و سلم لن يغلب العسر يسرين فاليسر نكرة و هو غير الأول و العسر معرفة و هو عين الأول فالنكرة إذا أعيدت فهى غير الأولى و المعرفة إذا أعيدت فهى عين الأول فلم أجده فى الباب نعم سبق الود بينى و بينه الود القديم و العهد الصميم الذى لا ينقطع.

و قد سمعت هذه الحكاية من الرسول المذكور و منه أيضا و هذا الرسول ممن أعرفه فى صغرى حياة أبى و قد أتى إلى محلنا زائرا و قد اجتمعت معه فى دار الفقير الصادق المتقى الفائق ظاهر الصلاح معلوم النجاح الصبور لا يكاد يشتكى من قلة

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۸۰۳

ذات يده المرابط محمد بن غرسة و زوجته فاطمة بنت خيشان و كلاهما من أهل الصلاح و قد شاهدت من هذا الفقير أمورا عظيمة و خوارق بينة و هو ممن يطلع على الغيب.

و قد سمعت منه أنه قال لى رأيت النبى صلى اللّه عليه و سلم يقظة فى مسجدنا فى صلاة المغرب قال و قد صلى خلف والدك فقال نوره صلى اللّه عليه و سلم انعكس فيه نور السراج بل خفى فلما سلم الوالد من الصلاة خرجنا من الصلاة أردت أن آمر جميع من فى المسجد بالقيام إليه صلى اللّه عليه و سلم فلم استطع النطق ثم كذلك إلى أن صلى الوالد الرواتب بعد المغرب فخرج من المسجد و خرج معه صلى اللّه عليه و سلم.

و أما زوجته المذكورة فقد شاهدت منها أمورا عظيمة و قد سمعت منها أنها قالت كنت أولا قد ملكنى الحال و غلبنى فالآن ملكته و غلبته و كانت تجتمع مع رجال الغيب و قالت أيضا فمهما صدر منى ما لا يحل من كلام أو إشارة أو رؤية إلا و بعث اللّه لى أحدا من خلقه فلا أعلم انه من الملائكة أو صالح الجن يضربها ضربا على قدر ما خالفت به فيكفر لها ذنبها و غير ذلك من أوصافها الممدوحة و خصالها الكريمة و كانت جماعة من أهل وطننا على هذا الوصف.

نعم هذا الرسول رأيته أيضا فى أحواز قسنطينة كان يسأل عنى من غير أخبار أحد بى فعزم على الذهاب لداره لاجتمع مع أصحاب الوقت فمنعنى مقدم القافلة فقال و اللّه لا يذهب إلى مكان لأن والده قد أوصانى على حفظه و الموضع الذى أتانى إليه هو ذراع الطبال فتأسفت عما فاتنى منه و قد اشتدت رغبتى إلى المشى معه غير أن الرجل وصفه وصف البدوى و شعر رأسه قد غشى وجهه و كان أغم فلم يظهر عليه اثر

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۸۰۴

الصلاح لتقشفه و أهانته نفسه كاد أن يكون من الإسقاط فخاف على من فى القافلة فمنعونى منعا موزرا و أنا كنت أعرفه و أتيقن حقيقته فلم يتيسر لى غير أن ما فى الغيب مفاتحه عند الفتاح قل بفضل اللّه و برحمته و لعل عنايتهم كانت معنا و قوة بركاتهم حاضرة لدينا و سعدهم عامل فى أحوالنا و نعوتنا سدد اللّه الجميع و وفق الكل إلى صالح القول و العمل.

انعطاف إلى ما كنا بصدده قد خرجنا و ظعنا من سيدى سعيد السفرى فودعنا جميع من كان فى المدينة من أهل الخير و الرغبة و الفضل و المنة فرجع من رجع و ذهب من ذهب إلى أن وصلنا عين ابن الحاج بابا فصلينا العصر بالعلامة المحقق و الفهامة المدقق سيدى عبد القادر الراشدى.

و قد وقعت بينه و بين طلبة قسنطينة مخاصمة عظيمة و منازعة كبيرة حتى رموه بالتجسيم بل بعضهم كفره و من الإسلام أخرجه و

ذلك أمر عظيم فى الدين و قد قال الشيخ زروق إدخال ألف كافر فى الإسلام بشبهة إسلامية أهون عند اللّه من إخراج مسلم واحد إلى الكفر بشبهة كفرية و كيف لا و هو أمر عظيم و ذلك من تلامذته و محبيه و هذه المسألة قوله تعالى لما خلقت بيدى فقال و هو فى اليد أنها يد حقيقة و مع ذلك أنها ليست جارحة و لا جسما بل يستحيل ذلك لأنه يؤدى إلى الحدوث و الإمكان و قدح فى التأويل بالقدرة أو صفة زائدة يخلق اللّه بها الأشراف من الخلق لأن التأويل محوج إلى الدليل و الخروج من الحقيقة إلى نوع من المجاز فلم يكترث بالتأويل إذ البقاء مع الحقيقة هو الأصل و لأن التأويل و إن كان صحيحا ففيه ابتغاء الفتنة و إنما تنتفى على التسليم لصحة التأويل و أن كان فى علم اللّه كذلك لأن المصيب فى العقائد واحد

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۸۰۵

فقد اتفق أهل السنة قاطبة على نفى الجارحة و ما يؤدى إلى الإمكان و الحدوث و التجسيم فمنهم من قال أن له يدا حقيقة فالعلم بها موكل إلى اللّه تعالى فلا يستلزم هذا التجسيم لأن الأصل فى الإطلاق الحقيقة فكيف يلزم به مع انه نفى التجسيم الذى يستلزم ما لا يليق به جل جلاله فأنى أو كيف أو متى يلزمه و إنما هو تحامل عليه سببه الحسد و البغض و التنافس أو إنما رموه بذلك لما علموا منه من كونه طويل اللسان عليهم بالعلم بل و قد نسبوا له كثرة الرشوة و غير ذلك مما لا يناسبه بل سمعت من بعضهم انه قال صرح بالتجسيم غير ما مرة فقلت له حين اجتماعى بهم مجرد هذا الإطلاق لا يلزم عليه شىء إذ عليه أكثر الأمة و منهم من أولها بالقدرة و منهم من توقف فلما أرانى الرسالة الموضوعة لهذا الكلام رأيتها منقحة سالمة من سوء الاعتقاد خصوصا التجسيم غايته يبطل أدلة المؤول و يصحح من يقول باليد حقيقة غير انه لا يعلمها إلا اللّه لكن هذا كله بعد نفى التجسيم و ما يشعر بالإمكان و الحدوث فقد بالغوا فى تضليله إلى أن أرادوا الفتك به عند السلطان فسلم و الحمد للّه و نجا من شرهم غير أنهم أخرجوه عن الموضع المعد له من القضاء و صيروه لأنفسهم بالتعلق بمن تمكن من السلطان.

نعم قلبى سالم من جميعهم و محب فى جانبهم و راغب فيما عندهم و معظم مما هو لديهم و قد قال خليل و لا عالم مثله فإنهم كالتيوس فبينهم قدح و على غيرهم لا قدح و لا جرح فإن كانت الشريعة لم تقدح فيهم فكيف بمثلى أن يجعلهم غرضا لسهام الناس يرمونهم بالأغراض الخسيسة و الخصال الذميمة طهرهم اللّه من تلك الأوصاف و نزههم من هذه الأخلاق الخسيسة.

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۸۰۶

ثم انفصلنا عن الجميع بالتوديع مع التأسف على قلة الاجتماع و قصر المدة إذ ورد علينا عيد الأضحى فجعلنا الأوبة للأهل فبتنا فى بئر البقرات ثم ظعنا صبيحة فمررنا على أولاد المحب الحاج بن أبى زيد بن أبى التقى فرغبوا فى الرجوع إلى وطنهم و حضوا السؤال فى ذلك جمع اللّه بينهم و بين وطنهم مع التوفيق و الهداية.

ثم سرنا كذلك أياما إلى أن وصلنا زمورة فلما سمعوا بنا لقيان من بها من العامة و الخاصة فرحين مسرورين ببنادقهم و غير ذلك من أنواع الفرح فكل يعزم علينا و يرغب فى المبيت عنده إلى أن وصلوا إلى الفتنة و الهرج بسبب ذلك غير أن أولاد عبد الواحد حملونى قهرا لأنى قريب من مدشرهم فكانوا أمكن منا فبتنا عندهم خير مبيت كثر اللّه خيرهم و بعد غد بتنا فى الحفرة فى الذراع تحت القصبة فى دارنا المعلومة فكثروا الطعام كالمدشر الأول أو أعظم و كذا أولاد أبى الهوشات فاجتمعنا مع فضلاء زمورة و خاصتها و علمائها و أهل الفضل منها و كذا مع صلحائها كالفرومى و العلامة سيدى محمد السعيد بن قرى و إمام الجمعة سيدى محمد الصغير و الفاضل على الإطلاق و العالم بالاتفاق سويداء القلب و غاية الحب سيدى محمد بن عبد اللّه نجل الشيخ سيدى محمد المبارك و الفضلاء أولاد البواب فإنهم صلحاء محبوبون راغبون فى الخير:

و رغبة فى الخير خير و عمل بريزين (و ليقس ما لم يقل)

و كذا أولاد الشيخ سيدى محمد المبارك و كذا أولاد سيدى خروف و كذا الفقيهان الفاضلان سيدى أحمد الشوثرى و سيدى المبروك و جميع الفضلاء من الخاصة و العامة من جملة عرش بنى فرفان قدموا إلينا و رغبوا فى المبيت عندهم وسع اللّه أرزاقهم و

وفقهم إلى ما تحبه و يرضاه و جعل مأوى الجميع جنة الفردوس العالية.

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۸۰۷

و هذه البلدة كثيرة الأرزاق قوية الإنفاق طويلة البنيان كثيرة المياه فيها مزارع كثيرة أهلها أهل شوكة و تعد و ظلم لبعضهم بعضا و هى قرية مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم اللّه فأذاقها اللّه لباس الجوع و الخوف بما كانوا يصنعون فغالب أوقاتهم الفتنة بينهم و القتل لديهم التى قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم فيها القاتل و المقتول فى النار إذ قتالهم بلا تأويل و إنما هو مجرد تعصب و حمية جاهلية و أنفة شيطانية فلا يحكم عليها حاكمها أعنى قائدها و كذا آغا برجها إلا بالمكر و الخديعة فى السوق أو فى الطريق لقسنطينة أو الخروج للحرث فإنهم ربما أخذهم و ربطهم فى هذه المواضع حتى ينتقم منهم بالمال.

و قد علمت أن التخطئة بالمال فى الحدود البدنية ممنوعة شرعا و أن أجازها البعض كالبرزلى فقد رد عليه جماعة حتى كادوا أن يكفروه غير أن ذلك فى حق من يقدر على الحدود النفسية و أما من لا يستطيعها فيجوز من غير خلاف لأن المراد الزجر و المنع من الوقوع فيما لا يرضى اللّه باى أمر كان و النفس عندها المال أعظم من كل شىء و أى زاجر و مانع و مردع أخوف من المال.

و قد قال بعضهم يجوز للإمام أن يقتل الثلث من الخلق ليصلح الثلثان كما ذكره الشيخ عبد الباقى فالذى تميل إليه النفس و تستأنسه من غير خلاف التخطئة بالمال لمن لا يستطيع على الحدود البدنية و اللّه اعلم.

فهذه البلدة كثيرة السمن و اللحم و القمح و المياه الباردة و الديار الواسعة و الثياب الحسنة الرفيهة من الصوف و الكتان و كل ذلك مناقض للخشية و أوصاف العبودية و إنما هو مثير للشهوات و المخالفات من إظهار المعاصى و قد كان ذلك فيها فتجد النساء الطيبات المتبرجات كأنهن فى ليلة الزفاف بهن فى الأزفة و العيون مكشوفات العورات باديات المستحسن منهن كالصدر الثدى و تحت الإبط و الساق

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۸۰۸

و الفخذ و مع ذلك أنهن أجمل خلق اللّه من رآهن من العباد فضلا عن أهل اللهو و اللعب افتتن بهن إذ يفزع و يرعب عند رؤيتهن و مشاهدة محاسنهن غير محجوبات بل كلهم أو جلهم يفتخرون بذلك فقد ضلوا و أضلوا فلا يسمعون أن و عظتهم و لا يرجعون إن ذكرتهم و قد اشتدت القسوة على قلوبهم و هى أشد قسوة من الحجارة و قد ألفوا ذلك من آبائهم و أجدادهم قبح اللّه رأيهم فإن أنكرت عليهم أو تغيرت بسببهم ربما عادوك و رموك بما لا يليق بك و هذا ظاهر منهم بيّن إلى الآن وفقهم اللّه إلى زوال ذلك و التنزع عما هنالك و إلا أخلى اللّه منهم الأرض.

حاصله أهل هذه البلدة متصفون بالبدع الشنيعة و الأحوال الخسيسة من الرذائل المنهى عنها شرعا و زادوا مع ذلك أنهم لا تأخذهم الأحكام إذ يأكلون التراث أكلا لما و يحبون المال حبا جما فلا تجد أحدهم إلا متمسكا بالعوائد المحدثة و أحكام الطاغوت و اللّه يقول و الذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات.

نعم اتخذوا رؤساء جهالا فأفتوهم بغير علم فضلوا و أضلوا فأنكحتهم و معاملاتهم جلها مبنية على على أحكام الطاغوت فلم يتصفوا بالحق و إنما الغالب عليهم الباطل و قد اعتنيت بهم اعتناء عظيما ليرجعوا إلى السنة و ترك البدعة فلم يرجع منهم إلا القليل و على تقدير رجوعهم فلم يزالوا متمسكين ببعض العوائد فصاروا يؤمنون ببعض القرآن و يكفرون ببعضه يريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا مكننا اللّه منهم و من غيرهم لقوله تعالى الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكاةَ وَ أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَ نَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَ لِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ فيتمحضون للسنة المحمدية بمنه و كرمه حاصله أوصافهم و طبائعهم خارجة عن طرق أهل الصلاح فلا تحسن معاشرتهم و لا السكنى معهم لأن الطباع تسرق الطباع و المرء على دين خليله

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۸۰۹

فلا يبكون من خشية اللّه و لا يتباكون من خوف اللّه فلا ترى فيهم صاحب حال ربانى و لا ذا وارد إلهى فلا يخرج معهم إلا صديق لا

يبالى بهم أو زنديق يكون على هواهم و قد رأيت وطنهم لأنهم لا يأتيهم الولى الصحيح صاحب المبحة بالصدق و الدين و الملة بالحق و إن جاءهم فلا ينتفعون به و على تقدير النفع فمقصور على الدنيا و إنما الكثير ورود الزنادقة و أهل الدعاوى الكاذبة الذين يريدون التوصل إلى الأغراض الفاسدة فكثيرهم جليسهم الفسقة من الرجال و من يخدع من النسوان حتى ينفضح و ينكشف إذ المرء إن سكت فمن يومه و أن تكلم فمن حينه ما كان فيك ظهر على فيك كل إناء بما فيه يرشح.

و بالجملة فاسأل اللّه تعالى أن يمن علينا و عليهم بالتوفيق و الهداية و المغفرة و التوبة الصادقة العامة لكلهم.

نعم لا نزال نطلب اللّه تعالى الرجوع لجميعهم إلى اللّه و الإنابة إليه و اللّه يقول إن تنصروا اللّه ينصركم و لينصرن اللّه من ينصره.

و قد انفصلنا عن وطنهم مع الدعاء لهم و قد وددت و اللّه أن يكونوا على أحسن طريق و أكمله مع زال الخصال المناقضة للشريعة المحمدية و سلكنا طريق أبى خميس فوجدنا أكثر الأحباب منتظرين من وطننا و وطن بنى يعلى إذ فرحوا بقدومنا و سروا برجوعنا العامة و الخاصة أحياهم اللّه على السنة و أماتهم على الملة المحمدية فاستفرغت الوسع فى الدعاء لهم و السؤال عن كمية أحوالهم لا سيما أصلاح ذات بينهم كان اللّه لنا و لهم فى المقام و الرحيل وفقنا و إياهم إلى صالح الأعمال و حسن النية بالتمام و الكمال

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۸۱۰

فامتلأ الوعر و السهل و الغيضة و غيرها بالناس الذين رغبوا فى رؤيتنا و اغتنام البركة منا من كل فج عميق لتشهد أحوالنا و تقتبس أنوار أصحابنا إذ الحاج مجاب الدعوة أربعين يوما بعد وصوله إلى داره فضلا عن ملاقاته فى الطريق بروح و ريحان لمن جاء بالصدق و التصديق بالوعد الحق رحم اللّه الجميع بمنه و كرمه و عصمنا و إياهم من عذاب النار و هول القبر و الحشر و النشر و الميزان و الصراط إلى الجنة يا ارحم الراحمين يا رب العالمين.

هذا و أنى مررت على موضع الأولياء و الصلحاء و معدن الخير و البركات مستقر القطب الواضح سيدى الجودى العلمى و أولاده و كذا محل أولاد سيدى مالك و أولاد الشيخ البركة سيدى محمد بن قرى أفاض اللّه علينا من بركاتهم و جعلنا فى زمرتهم و زمرة أوليائه بمنه و كرمه.

فلما بلغت ضريح الولى الصالح و الكوكب الواضح سيدى محمد بن يحيى عزم على أهل مدشر قترات برمتهم عزما بتلا قطعا فاجتمع من وطن بنى يعلى و بنى ورثيلان ما يكاد أن يكون سوقا كبيرا فذهب الكل إلى المدشر المذكور فبتنا فيه و قد ذبحوا ما يكاد أن يخالف العادة عمرهم اللّه إلى يوم القيامة و عمر سوقهم على لسان الشريعة المحمدية رضى اللّه عنهم و أرضاهم و هى ضيافة عظيمة إذ فيها المئون من الخلق.

و قد لقينا المحب فى اللّه و الأخ من أجله العلامة الفاضل و المحقق الكامل المدرس الفقيه الصالح سيدى الحسن نجل الشيخ سيدى أحمد زروق بن مصباح إذا أراد أن يضيف الكل فأهل المدشر المذكور قاموا بالكل كثر اللّه خيرهم و جعل البركة حاضرة

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۸۱۱

لديهم آمين. فلما أصبح اللّه بخير الصباح صنع أهل مدشر أهل أغلاذا نصلاح طعاما فزاد الخلق بحيث لا يكفيهم إلا الخالق غير أنهم لما أخرجوا الطعام جعل اللّه فيه البركة العظيمة أظنه و لو اجتمع عليه الناس كلهم لفضل عنهم.

و أن الولى الفاضل و الصالح الكامل الفقيه الأجل سيدى عبد الرحمن بن قريب لما رأى الخلق و الطعام خجل من كثرة الخلق و قلة الطعام فقلت له لا تخف فإن الطعام صنع للّه تعالى و فرحا بوفود زواره و اغتنام بركة المجتمعين فحضرت بركة من اجتمع حتى بقى الطعام و تعجب من حضر و هو ليس من بركتنا و إنما ذلك من بركة المجتمعين الحاضرين و بركة صانعيه فلا تعلم نفس ما كان من الخير فى هؤلاء الجموع الآتين بنية صالحة و همة عالية و قلب سليم من كل إثم و كذا بركة من رجع من عند النبى صلى اللّه عليه و سلم و من بيته الشريف.

فمررنا على دار الولى الصالح المحقق الورع المدقق سيدى بركات و زرت الصالحة الطيبة الحرة الفاضلة صهرتى زوج سيدى بركات

نفعنا اللّه به آمين و أفاض علينا من بركاته.

و كذا مررت بدار الأخ المذكور سيدى الحسن و دخلت بيته اغتناما بغبرة الراجع من بيت اللّه و حضرة رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم جعل اللّه البركة فيه و فى ذريته إلى قيام الساعة بمنه و كرمه.

ثم انفصلنا من جبل بنى يعلى على خير و حسن اعتقاد و رغبة فى الحب فى اللّه و الشوق من أجله فكيف لا يفلح الجميع جعلنا اللّه فى أوليائه الذين لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ كانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ فِي الْآخِرَةِ الآية.

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۸۱۲

و سرنا إلى أن وصلنا الوادى فلقينا أهل إيلماين قاطبة مكنهم اللّه من الخيرات و هداهم إلى سبيل النجاة و وفق كلمتهم إلى طريق السنة المحمدية ففرحوا و سروا و أظهروا ذلك بضرب البارود حسبما فعلى أهل زمورة و بنو يعلى فسألنا اللّه لهم و لنا العافية التامة و المغفرة العامة الشاملة ثم انفصلنا عنهم فلقينا جميع من كان بعرشنا من بنى أحمد أجمع و أما بنو عشاش فقد لقينا جمع منهم إلى بنى يعلى و الكل فرحون مسرورون.

و بالجملة فالجموع من وطننا رجالا و نساء هذا يتصل بنا و هذا ينفصل عنا إلى أن وصلنا إلى مقامنا و دارنا ليلة الجمعة و ليلة العيد و يوم عرفة عام ۱۱۸۱ أحد و ثمانين و مائة و ألف فلما أصبح اللّه بخير الصباح اجتمعنا كالعادة لصلاة عيد الأضحى قرآنا من لم يرنا عند الوصول فتمت النعمة و عظمت المنة علينا و على جميع الناس لا سيما الضعفاء من الناس الذى لا يقدرون على الوصول إلى حقوقهم كالمستضعفين من الرجال و النساء فسألنا اللّه لنا و لهم المغفرة و التوبة الصادقة و الرحمة الكاملة و المنة العظيمة و اتفاق الكلمة على الطريق المحمدى و العصمة من الفتنة فإن أشر الشرور فى وطننا الفتنة و القتال بينهم فليس أمر أشر من هذا.

نعم الشيطان استولى عليهم و لم يترك لهم حقا إلا بدلوه و غيروه بأن جعل لهم رسوما و حدودا لا يتعدونها فلما جئت إليهم ففسخت لهم أحكامه و نقضت رسومه و أبطلت عهوده بان رددتهم إلى الشريعة المحمدية و الأحكام النبوية فلم يملك نفسه الملعون أن يصبر و تغير و نادى بالويل و الثبور على أصحابه و الحسرة فى ناديه المنكر و الرجوع عن تلك الخصال التى أسسها لكم هذا العبد المبطل لأحكامى و أحكامكم

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۸۱۳

فما لنا إلا العداوة معه و مع عرشه غير أنهم لا يستطيعون التفوه بهذا لأنه شريعة و دس لهم اللعين دسائس آخر بان قال لهم عندكم طلبة و علماء تمسكوا بهم و كونوا على رأيهم و عظموا علماءكم كما عظمه أهل وطنه لينشىء العداوة و ما علموا بهذه الدسيسة فقاموا من غير أذن من أهل و لا نور نبوى عندهم فوافقوهم على هواهم فعظموهم فى الظاهر و ليس مرادهم إلى نبذ الأحكام الشرعية و إسقاطها رأسا أو أنها تكون على وفق رؤوس الجهال ليضلوا أنفسهم و يضلوا غيرهم فعند ذلك انشئوا الفتنة و أضرموا نارها و العياذ باللّه أحمد اللّه كيد اللعين و أبطله بمنه و كرمه.

ثم انه بعد ذلك تأتى إلينا الوفود من كل وطن تارة ألفا و تارة أكثر من ذلك نحو الألف و أربعمائة ثم كذلك على حسب القلة و الكثرة إلى أن انقطعوا فى مدة طويلة نحو الشهرين جعله اللّه حجا مبرورا، و سعيا مشكورا، و تجارة لن تبور، و صير جمعنا جمعا مرحوما، و تفرقنا تفرقا معصوما، و كان لنا و لهم بالاستقامة ظاهرا و باطنا من غير فتنة مضلة و لا محنة دينا و دنيا آمين يا رب العالمين.

خاتمة ينبغى لنا أن نذكر شيئا من شروط قيام الساعة ليكون الناظر فيها على حذر و ليستعد لها أيضا ما يصلح أن يكون زادا فقلت و على اللّه اعتمدت.

قال صاحب كتاب الجمان فى مختصر أخبار الزمان ما نصه و لنختم إن شاء اللّه هذا التأليف المختصر بالعلامات التى تكون بين يدى الساعة إلى انقراض الدنيا و اعلم انه لا خلاف بين أهل العلم أن مبعثه صلى اللّه عليه و سلم من علاماتها الكبرى لقوله تعالى و خاتم النبيين ثم انشقاق القمر من علاماتها الكبرى و أما الصغرى فكثير ذكرها صلى اللّه عليه و سلم فى أحاديث كثيرة مختلفة.

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۸۱۴

و أما العلامات الكبرى فثمانية قال اللّه تعالى فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها فبعث النبى صلى اللّه عليه و سلم و انشقاق القمر و نحن ننتظر الستة و هى الدجال و نزول عيسى و خروج يأجوج و مأجوج و طلوع الشمس من مغربها و خروج الدابة و الزلزلة و الدخان.

و أما الصغرى فقد قال صلى اللّه عليه و سلم إذا غاب الحق و ظهر الباطل و صار المعروف منكرا و المنكر معروفا و ظهرت البدع و استبيحت الفواحش و أكل الربا و خرج النساء متبرجات و حبست الزكاة و قلت الصدقات و أهين العلماء و أكرم الشعراء فحينئذ تحبس السماء مطرها و تحبس الأرض عطرها و ترفع البركات و تقل الأرزاق و لا تنال المعيشة إلا بالشبه فيأتى زمان يكون فيه قوم يصلون و يقرؤون القرآن و يتمردون على الرحمان لا- تجاوز قراءتهم حناجرهم أقوالهم أحلى من العسل و أفعالهم انتن من رائحة البصل قلوبهم مسودة و سرائرهم خبيثة يكون فيهم عمال ظلمة و شهد يشهدون الزور و حكام يشربون الخمر و يجلدون عليها و يأتون الفواحش و يحدون عليها يأمرون الناس بالبر و ينسون أنفسهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية الغش فاكهتهم و الغيبة مجالستهم يرفعون فى المساجد بحديث الدنيا أصواتهم قوم لا يرحم غنيهم فقيرهم و لا يوقر صغيرهم كبيرهم يشيدون البناء يكون فيه الأمير كالأسد و القاضى كالذئب و التاجر كالثعلب و الفاسق كالكلب و المؤمن كالشاة ثم بكى صلى اللّه عليه و سلم و قال يا لها من شاة بين أسد و ذئب و ثعلب و كلب عندها يتوقى الناس بهم الأرض و يوقع اللّه الفتنة بين الخلق فيقتل بعضهم بعضا و يسبى بعضهم بعضا فينتقم اللّه من الكل و هو دليل انقراض الدنيا.

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۸۱۵

ثم قال صلى اللّه عليه و سلم زمان لا- تتم فيه تجارة الرجل و لا تنجح حوائجه إلا بالإيمان الكاذبة و أولئك هم الخاسرون الذين خسروا أنفسهم و أهليهم يوم القيامة ثم قال صلى اللّه عليه و سلم يا أبا هريرة إذا رأيت الناس يوم عيدهم فى زيهم فحدث نفسك بأن ذلك كله خرقة تبلى و لحم يأكله الدود يا أبا هريرة لو لا أن اللّه خلق الموت و كتبه على العباد لادّعت الناس كلهم الربوبية و لو لا جهنم ما سجد للّه ساجد و قال صلى اللّه عليه و سلم يذهب الصالحون الأول فالأول و تبقى حثالة كحثالة التمر و الشعير لا يبالى اللّه بهم فى أى واد من العذاب أهلكهم.

و عن ابن عباس رضى اللّه عنه قال لما حج رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم حجة الوداع مسك بيده حلقة الكعبة و هزها و بكى بكاء شديدا فقال له أبو بكر الصديق رضى اللّه عنه مم بكاؤك يا رسول اللّه فقال و كيف لا أبكى و هذه آخر حجة لى و قد أبكانى فراق الكعبة و توديع المسلمين يا أبا بكر ليبلغ الحاضر منكم الغائب عنى إن مثلكم كمثل ورق بلا شوك إلى سبعمائة سنة ثم تكون أمتى ورقا و شوكا إلى تمام مائة سنة ثم تكون أمتى شوكا بلا ورق أن تركتهم لم يتركوك و إن فررت منهم جذبوك لا ترى فيهم إلا سلطانا جائرا و غنيا بخيلا أو عالما راغبا فى الدنيا أو عابدا مرائيا أو فقيرا كذابا أو تاجرا فاجرا أو صانعا خائنا أو شيخا غافلا أو شابا فصيحا أو امرأة لا حياء لها.

قال عكاشة صف لنا ذلك الزمان يا رسول اللّه فقال زمان يكون فيه المؤمن ذليلا و الفاجر عزيزا تركب فيه الفروج السروج و تأكل الأمم من فرج ابنتها فإذا شاعت المنكرات و قلت الطاعات أرسل اللّه القحط على الأرض ثلاث سنين يزرع الناس و لا يحصلون شيئا فيخرج الدجال و له شراب و طعام يفتن به الناس يغرس بيمينه و يجنى بيساره و تضرب البقرة و تلد فى يومها فيفتن الناس فينهض إليه أهل التوحيد

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۸۱۶

و يحاربونه و يسألون النصر من اللّه تعالى فينزل عليهم عيسى ابن مريم عليه السلام و أهل التوحيد قد اجتمعوا على الإمام المهدى فيقتل عيسى عليه السلام الدجال و تنهزم جنوده و المؤمنون خلفهم فلا يختفى كافر خلف حجر و لا خلف شجر إلا ناداه ذلك يا ولى

اللّه تعلم فإن خلفى عدو اللّه إلا شجر الغرقد فإنه يكتم عليهم و هى شجرة العوسج و عيسى عليه السلام فى ذلك اليوم على فرس كميت أصهب طويل و الدجال على حمارة كأنها الكلب إذا لهث لهثت اجراؤها فى بطنها تضع رجلها مد بصرها و الإمام المهدى رجل شريف عالم ناسك صالح إذا ظهرتا العلامات يبايعه الناس رغما على أنفه و هو كاره و علامته كسوف القمر ثلاث ليال فى شهر واحد و لم يشاهد ذلك قط يكسف ليلة ثلاثة عشر و ليلة أربعة عشر و ليلة خمسة عشر فيبايعه الناس و يخرجون لقتال الدجال و ينزل عيسى فيقتله على باب بيت المقدس بالشام و مع المهدى يومئذ ألف مقاتل من المؤمنين فإذا انهزم الكفار أخذ الفاطمى أموالهم و يخرج إلى رومة فيفتحها فى أيام ابن مريم عليه السلام و هى أربعون سنة اليوم فيها كالساعة و الشهر يوم و السنة شهر لا يعدو فى أيامه شىء على شىء.

و قال وهب بن منبه و علامة خروج الدجال تهب ريح كأنها ريح عاد و صفته رجل طويل عريض الوجه مطموس اليمنى مكتوب بين عينيه كافر باللّه يخرج من قرية بالمشرق يقال لها سرادين يطوف الأرض شرقا و غربا كلمح البصر يخرج إليه الخضر عليه السلام من مدينة يثرب يقول له إلى أين يا ملعون يا كذاب يا ساحر فيقتل الخضر و يقسمه على نصفين ثم يحييه ثم يقتله و لم يستطع أن يحييه ثم يأتى المدينة فترميه الملائكة بالنيران فيفر إلى بيت المقدس فترميه الملائكة بالنيران فيخرج لناحية الشام فيلقاه عيسى عليه السلام فيقتله و يرفع اللّه البلاء عن أهل الأرض.

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۸۱۷

قيل يا رسول اللّه المسلمون فى زمانه يعبدون اللّه قال يصومون و يصلون و هم فى غاية الهم و الغم فإذا قتل الدجال أرسل اله على المشركين ريحا عقيمة تقتلهم و لا تضر أهل الإيمان و ينزل اللّه مع عيسى تسعين ألفا من الملائكة و على رأس عيسى يومئذ عمامة خضراء و فى يده حربة و قد تقلد سيفين و هو يقول جاء الحق و زهق الباطل يأمن زمانه جميع الخلق و ترعى الغنم و الذئاب و تلعب الغلمان بالحيات و تحج المرأة وحدها من أقصى الأرض و يظهر اللّه تعالى للخلق كنوز الأرض فلا يبقى فقير على وجهها و الإمام المهدى مع عيسى يومئذ يقيمان دين اللّه و يتبعان سنة رسوله صلى اللّه عليه و سلم فبينما الناس فى تلك النعمة الشاملة إذا يأجوج و مأجوج قد خرجوا على الأرض حتى لا يجد الطائر موضعا خاليا يلقى فيه أفراخه فيأتون بيت المقدس و يرمونه بالسهام فيقاتلهم عيسى عليه السلام و الإمام المهدى فى بيت المقدس و هم يرمون المؤمنين حتى تعمل سهامهم الظل على الخلائق فيدعو عليهم عيسى عليه السلام و يؤمن المهدى و من معهما من المسلمين فيرسل اللّه عليهم ريحا عاصفة تهلكهم فإذا ماتوا انتشر الناس و تكمل الأربعون التى لعيسى عليه السلام فى الأرض فإذا أراد اللّه قبض روح عيسى عليه السلام أرسل اللّه ملك الموت فى صفة شاب حسن الوجه طيب الرائحة فيقول له عيسى عليه السلام من أنت أيها الشاب فيقول عبد اللّه تعالى أردت أن أسيح معك فى الأرض فيخرج عيسى عليه السلام و ملك الموت إلى المدينة من بيت المقدس و معهما الإمام المهدى فيأتون المدينة و يصلون فى مسجد رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم ثم يقول ملك الموت يا روح اللّه أحى لنا بعض الموتى فأنى رأيتك فى بنى إسرائيل تحيى الموتى بأذن اللّه تعالى لنسألهم فيقول عيسى أو كنت أنت فى بنى إسرائيل فيقول نعم و رأيت آباك آدم و إدريس و نوحا و هودا و إبراهيم و موسى و سليمان و جميع بنى آدم فيقول له من أنت يا هذا الذى رأيت جميع بنى آدم فيقول له أن أحييت لنا بعض الأموات أعلمتك من أنا فيناديهم يا أهل القبور قوموا بأذن اللّه

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۸۱۸

فتنشق الأرض و يخرج ثلاثة أناس وجه أحدهم كالقمر ليلة كماله و الثانى كلون الزعفران و الثالث كالنار فيسألهم عيسى من أنتم و ما حالكم فيقول الأول يا روح اللّه كنت فى الدنيا فقيرا صابرا و لربى فى كل حال شاكرا، فلما مت وجدت عند اللّه الغنى الاكفى و نسيت الدنيا و كربها فطوبى للمتقين، و ويل للمتكبرين، و يقول الثالث يا روح اللّه كنت فى الدنيا من أهل الكفر و العصيان ملكتنى الغفلة عن الموت و انستنى شقوتى ذكر اللّه تعالى فها أنا اليوم لا الاقالة أجدها و لا العقوبة أفارقها فيقول عيسى عليه السلام عودوا إلى

قبروكم اللّه أعلم فيسقطون موتى كما كانوا أول مرة و تبتلعهم قبورهم ثم يأتى عيسى عليه السلام و ملك الموت إلى الروضة الخضراء عند قبر رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم فيسلمان على رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و يسألان اللّه من فضله ثم يقول ملك الموت لعيسى عليه السلام يا روح اللّه إنما أطلعتك على هؤلاء الموتى لتعلم أن الموت لا ينجو منه مخلوق حى أبدا و لو نجا منه أحدا لنجا منه صاحب هذا القبر يعنى رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم ثم يغيب ملك الموت فيأتى بمشمة من الجنة فى أسرع من طرفة العين رائحتها تسل الأرواح و تطير نحو باريها فإذا رآها عيسى فى يده أعجبته بحيث لا يملك نفسه عنها فيقول له ملك الموت يا روح اللّه أنا ملك الموت و هذه المشمة أمرنى اللّه أن اقبض روحك بها فيأخذها عيسى و يشمها و هو يعلم أن الموت فيها لكنه لا يقدر أن يمنع نفسه فإذا شمها سقط ميتا للأرض فيغسل عيسى عليه السلام و يدفن فى الموضع الذى خلف أبى بكر الصديق و عمر رضى اللّه عنهما مع رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم فى القبة الخضراء فإذا فرغوا من دفن عيسى عليه السلام و خرجوا من عنده و جدوا رائحة تلك المشمة قد انتشرت فى الأرض و سارت بها الرياح فى جميع الأرض رائحتها كأطيب ما يكون من المسك الاذفر فلا يشمها مؤمن على وجه الأرض إلا اقتلعت عروق قلبه فمنهم

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۸۱۹

من يموت من ساعته و منهم من يومه و منهم من بعد أيام قليلة و لا يجد تلك الرائحة كافر و لا منافق و لا عاص فإذا مات الأخيار و بقى الأشرار ارتفع القرآن و صارت الخلائق يموج بعضها فى بعض كالبهائم لا يعرفون معروفا و لا ينكرون منكرا فيأمر اللّه الشمس أن تطلع من مغربها و يأمر اسرافيل ليلة الجمعة بالنفخ فى الصور و هو تمام الدنيا و الملك و الدوام و البقاء للّه الواحد القهار.

و فى حديث رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم لا تقوم الساعة حتى يغزو سبعون ألفا من بنى إسحاق مدينة جانب منها فى البر و جانب منها فى البحر قال ابن جزى فى كتاب تنافس الحكمة له هى القسطنطينة و بنو إسحاق هم بنو العيص بن إسحاق ولد لإسحاق ولدان يعقوب و اليعص فالعيص هو الأصفر ذريته هم الروم و سموا بنى الأصفر لصفرة كانت فى وجه العيص و من ظن الروم هم النصارى فقد غلط و إنما الروم الترك الذين أخبر رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم بإسلامهم فكان يقول اتركوا الترك ما تركوكم فإن الساعة لا تقوم إلا و أن أكثر الناس الروم.

ثم قال الإمام بن جزى فى قوله تعالى الم غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ أى فى بيت المقدس و الشام و كان ذلك فى خلافة عمر رضى اللّه عنه و قوله تعالى فِي بِضْعِ سِنِينَ أى بضع العشرات و هو سبعون أسبوعا و هى ثلاثمائة و خمسون سنة فلما انقضت غلب الروم المسلمين و انتزعوا من أيدى المسلمين أكثر ثغور الشام و قواعدها ثم اتتهم الأغزاز من بلاد المشرق من بلاد فارس فأخرجوهم من جميع الثغور و افتتحوا جل بلاد أرمينية و تمت مدة الروم من بلاد الشام سنة تسع و أربعمائة و هو قوله تعالى: وَ يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ.

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۸۲۰

و قال صلى اللّه عليه و سلم لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود إذا اتبعوا الدجال فيقتلهم المسلمون مع عيسى عليه السلام يقتلهم على آخرهم و ذلك أن اليهود ليس لهم رجعة عن دينهم لأن اللّه تعالى قد غضب عليهم فلا ترجى لهم رحمة أبدا بدليل قوله تعالى: لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَداوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا إلى قوله نَصارى و قال تعالى: غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَ لَا الضَّالِّينَ فالمغضوب عليهم اليهود و الضالون النصارى فالضال ترجى هدايته و المغضوب عليه ميئوس منه.

و قال صلى اللّه عليه و سلم يخرج الدجال فى أمتى يمكث فيهم أربعين يوما فيتبعه من يهود أصبهان سبعون ألفا عليهم الطيالسة و الدجال أجلى الجبهة ممسوح العين عريض المنخر يقول للناس أنا ربكم الأعلى و الرب سبحانه ليس بأعور ثم يرسل اللّه ريحا من قبل الشام تقبض كل من فى قلبه مثقال ذرة من الإيمان و يبقى أشرار الخلق لا يعرفون معروفا و لا ينكرون منكرا فيأمرهم الشيطان بعبادة الأوثان حتى لا يبقى على الأرض مؤمن فيأمر اللّه اسرافيل فينفخ فى الصور [نفخة الصعق فيموت كل مخلوق قال تعالى وَ نُفِخَ فِي

الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ ثم ينفخ نفخة] البعث فإذا هم قياما ينظرون فيأمر اللّه مناديا ينادى أيها الناس هلموا إلى ربكم فيجمع الخلق كلهم فى صعيد واحد ثم يقول أخرجوا ابعث النار فيخرج من كل ألف تسعمائة و تسعة و تسعون و ذلك قوله تعالى يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ وَ يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ (۴۲) خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَ قَدْ كانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَ هُمْ سالِمُونَ.

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۸۲۱

صلاة التسبيح مروية عن النبى صلى اللّه عليه و سلم عن ابن عباس رضى اللّه عنه أن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم قال لعمه العباس يا عباس يا عماه إلا أعطيك إلا أمنحك ألا أحبوك ألا أفعل بك عشر خصال إذا أنت فعلت ذلك غفر اللّه لك ذنبك أوله و آخره قديمه و حديثه خطأه و عمده صغيره و كبيره سره و علانيته عشر خصال أن تصلى أربع ركعات تقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب و سورة فإذا فرغت من القراءة فى أول كل ركعة و أنت قائم قلت سبحان اللّه و الحمد للّه و لا إله إلا اللّه و اللّه أكبر خمس عشرة مرة ثم تركع و تقول سبحان اللّه و الحمد للّه و لا إله إلا اللّه و اللّه أكبر عشر مرات ثم تقوم و تقولها عشر مرات ثم تسجد و تقولها عشر مرات ثم تجلس و تقولها عشر مرات ثم تسجد و تقولها عشر مرات فمجموع ذلك خمس و سبعون مرة فى كل ركعة تفعل ذلك إلى تمام الأربع ركعات فإن استطعت أن تفعل ذلك فى كل يوم فافعل و إلا ففى كل جمعة و إلا ففى كل شهر و إلا ففى كل سنة مرة و إلا فمرة واحدة فى العمر فإن اللّه يغفر لك ذنوبك كلها.

شعر فى فضل صيام التطوع:

أيا راغبا فضل الصيام تطوعاعليك بأيام روتها الأوائل

فعدتها سبع من العام كلهففى صومها للصائمين فضائل

ففى النصف من شعبان جاءت مناقبمن الخير و الإحسان هى شوامل

فمن قام فى ليل و أصبح صائماتلقى أمانا لم تصبه القوافل

و من قعدة خمس و عشرين فاحتفظبه انه يوم جليل و فاضل

و من حجة يوم أتى و هو ثامنو تاسعه أيضا كذلك حاصل

و ثالث أيام المحرم انهجليل و عاشوراء فيها أقاول

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۸۲۲

وجد فى أصل نسختين من النسخ المعتمد عليها فى التصحيح ما نصه انتهت الرحلة المباركة تأليف الشيخ الصالح، و القطب الواضح، شيخ الطريقة، و إمام أهل الحقيقة، شمس العقول، الجامع بين المعقول و المنقول، ذى النور الربانى، و الوبه الصمدانى، الشيخ سيدى الحسين بن محمد السعيد الشريف الورثيلانى، بلغنا اللّه و أياه جميع الأمانى، و كان الفراغ من نسخها ضحى يوم الاثنين الفاتح لشهر شعبان عام ۱۱۸۲ اثنين و ثمانين و مائة و ألف رزقنا اللّه خيره و خير ما بعده و وقانا شره و شر ما بعده آمين نسختها للشيخ المذكور من مسودته مريدا التقرب و التزلف لديه و الاغتراف من بحر علمه و سره و أنواره و الفيض من بركاته عطفه اللّه علينا عساه أن يذوقنا من ذواقه سقانا اللّه من بحر سره و أنواره و أفاض ذلك علينا و على ذريتنا إلى غابر الدهر و مال ذلك على اللّه بعزيز على يد كاتبها العبد الفقير الذليل الحقير المقر بالعجز و التقصير سعيد بن أحمد بن يدير العباسى القلعى دارا و منشأ غفر اللّه له و لوالديه و لأشياخه و لأحبابه و لجميع قرابته و لجيرانه و لجميع المسلمين و المسلمات الأحياء منهم و الأموات و لا حول و لا قوة إلا باللّه العلى العظيم و هو حسبنا و نعم الوكيل.

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۸۲۳

فهرس

كلمة للمصحح ۳

ترجمة المصنف ۵

ذكر خروجنا من بسكرة ۱۲۴

ذكر وصولنا إلى طرابلس ۱۶۷

ذكر خروجنا من مصر ۳۷۷

دخولنا مكة المشرفة ۴۵۲

ذكر المشاهد التى ينبغى للحاج أن يزورها بمكة شرفها اللّه تعالى ۴۷۳

ذكر من لقيتهم فى الحرم المكى من الأئمة ۴۹۶

ذكر خروجنا من مكة المشرفة ۵۱۸

ذكر جبل أحد و ما به أو بطريقه من المساجد النبوية ۵۵۳

و ذكر مشهد سيد الشهداء حمزة و من معه من الشهداء ۵۵۳

ذكر الآبار التى ورد أن النبى صلى اللّه عليه و سلم تفل فيها أو شرب من مائها أو توضأ فيها فاكتسبت بذلك فضلا على غيرها فصارت مقصودة بالزيارة و الاستشفاء بمائها ۵۶۸

ذكر بعض أودية المدينة التى تسيل إذا كثرت الأمطار فيخرج أهل المدينة للتنزه بها ۶۰۴

ذكر دخولنا مصر ۶۴۰

ذكر الإسكندرية و ما بها من العجائب ۶۴۸

ذكر من نزل مصر من أولاد آدم عليه الصلاة و السلام ۶۶۰

الرحلة الورثيلانية، ج۲، ص: ۸۲۴

ذكر من ملك مصر قبل الطوفان ۶۶۱

ذكر من دخل من الأنبياء عليهم الصلاة و السلام مصر ۶۶۳

ذكر عجائب مصر القديمة ۶۶۴

ذكر خروجنا من طرابلس ۷۳۴

ذكر وصولنا إلى تونس ۷۶۱

ذكر دخولنا قسنطينة ۷۹۱

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علىّ بْنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلاّمة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافيّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذى" – "رَحِمَهُ اللهُ" – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَيت النبىّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و

بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة "للتحرِّى الحاسوبىّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامىّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجى الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثَّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و عموم الناس إلى التّحَرِّى الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فى المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِج العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ– فى آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم – مِن جهةٍ أُخرَى.

– من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثُلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتى "القائميّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِع أُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فى القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمىّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائىّ و اليدوىّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخرىّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فى الجلسة

ى) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرّئيسىّ: إيران/أصبهان/ شارع "مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع "پنج رَمَضان "ومُفترَق "وفائى/ "بناية "القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵–۲۳۵۷۰۲۳– (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التِّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِي الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفِّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم - فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ وليّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹